تحليل العلاقات الدّولية

تأليف : كارل و . دويتش

ترجمة : محمود نافع

تحليل العلاقات الدولية

تحليل العلاقات الدولية

تأليف

كارل و. دويتش

ترجمة

محمود نافع

مراجعة

نور الدين الزازي

١٩٨٢

الناشر

مكتبة الأنجلو المصرية

١٦٥ شارع محمد فريد (عماد الدين سابقاً)

ANALYSIS OF INTERNATIONAL RELATIONS

2 nd. edition

by

Karl W. Deutsch

مقـــدمة

ان مقدمة لدراسة العلاقات الدولية فى عصرنا هى مقدمة لفن وعـلم بقـاء النوع البشرى على قيـد الحياة ، فاذا قتلت الحضارة خـلال السنوات الثلاثين التاليـة ، فلن تقتلها المجاعـة او الوباء ، وانمـا تقتلها السـياسة الخارجية والعلاقات الدوليـة . نستطيع مكافحة الجوع والوباء ، ولكـن لم نستطع بعـد ، ان نعمـل شيئا بالنسبة الى قـوة اسلحتنا والى سلوكنـا باعتبار اننـا دول قوميـة .

ان الدول القومية اذ تملك ادوات للعمل الوطنى لم يسبق لها مثيـل فى صورة ايديولوجيات واسلحة ، فانها أصبحت وسـائل للصراع الدولى اشد خطرا ، تحمل امكانيـة تصاعده بما يؤدى الى الدمار المتبـادل والفنـاء فى نهاية الامـر ، الدولة القومية تملك القـدرة على السـيطرة على معظـم الاحداث فى داخل حدودها ، ولكن لا تملك القدرة على السيطرة على القليـل من الاحداث ـــ أو حتى افعالها هى ـــ فيمـا وراء هذه الحدود .

العلاقات الدولية هى ذلك المجـــال من أعمال البشر ، حيث يتلاقى ترابط لا مهرب منه على سيطرة قاصرة ، لا نستطيع أن نهرب مـن الشـئون العالميـة ولا أن نشكلها تماما حسب ارادتنا . ليس فى امكاننا الا أن نحـاول تصحيح العالم بينمـا نعمل على التكيف معه ، وفى داخل هذا النطاق المحـدود يجب أن نحتفظ بأشـد ما نؤمن به من القيم ، وأن نزيدها حيث يكون ذلك فى الامكـان .

واذ أصبحت ممارسـة العلاقات الدوليـة اكثـر صعوبة وحسـما سـارت دراستها قدما كى تتمشى معها ، فنواحى التقدم المثير فى الميدان خلال العقود الثلاثة الاخيرة ، تتضمن تغييرات فى المفاهيم والنظريات الاساسية ، ينشطها لقـاء العلوم السلوكية الجديدة وهى علم النفس وعلم الاجتمـاع وعلم السلالات البشرية ، مع مذاهب العلم السياسى والتاريخ والاقتصـاد التى استقرت منذ أمـد طويل ، هذه التغييرات فى النظرية صحبها ابتـداع مناهج جديدة للبحث ، واستخدام الاساليب الاحصائية للتحليل وازدياد امكانية الحصول على بيانات مستقاة من التجارب ويمكن اختبارها ، ولقـد حاولت فى هذا الكتاب من أوله الى آخره ، أن اطلع القارىء على احـدث انواع البحث والتحليل هذه . وهذه التغييرات جميعـا جعلت دراسـة العلاقات الدوليـة عملا يقـوم به المحترفون باكثـر مما كـان الحال حتى الآن ، وبذلك جعلت بعض الكتابات القديمة ـــ وان لم يكن كلها بالتاكيـد ـــ غير ذات موضـوع .

ولكن العلاقات الدوليـــة والسياسية الخارجية أهم من أن تترك للمختصين . لقـــد حسب الكثير من الشباب ان ليس من الضرورى أن تعنيهم الشـــئون العالميـــة ، وذلك الى ان حدثتهم لوحات الرسوم بشىء خـــلاف هذا ، فـــان كانت الشئون الدوليـــة تؤثر تأثيرا عميقـــا فى حياتنا ، واذا كانت استجاباتنا اساسية بالنسبة الى العلاقات الدوليـــة ، وجب عندئذ أن تزيـــد من قدرتنا على الفهم واتخـــاذ القرار والتصرف .

تختلف المعرفة عن القيم . فالقيم تدفع على البحث عن المعرفة ، وتجعل بعض نتائج الاخيرة أهم بالنسبة الينـــا من غيرها ، وتحدثنا المعرفـــة عن أى من قيمنا قد تتعارض ، وأين ومتى تبـــدأ وسائلنا تسىء الى غاياتنا وتدمرها بـــدلا من أن تخدمها .

ولقد أوضحت فى الكتاب القيم التى أؤمن بها وقـــــد تشاركنى فيها أو ترفضها أو تختار من بينها ، وحاولت أن أدعم كافـــة الاحكام والآراء ، ولـــم اسمح لما افضله أن يخدعنى ، ويمكن أن تقرر لنفســـك الى أى حـــد أخفقت او نجحت فى هذا البحث عن الواقعيـــة والحقيقة ، وفى استطاعتك ان تتحقق من صحـــة الحقائق المعروضة هنـــا وأن تضيف غيرها تراها مهمة ولهـــــا اتصال بالموضوع . من المهم أن تحاول أن تفعل هذا اذ اننا جميعا مشـــتركون فى نفس المشروع ـــ فى البحث عن طريق يمكن احتماله ، يؤدى الى الســـــلام والحرية فى كل مكان ، سوف يكون بحثا صعبا ولكن لا نستطيع أن نهرب منه.

كارل و . دويتش

جامعـــة هارفارد

تمهيـــد

معظم العالم كمـا يراه الامريكيون ، يسكنه « اجانب » ، اى أن مـن سكان العالم البالغ عددهم اربعة مليارات نسمة ، فان ما يقل عن ٢٢٠ مليون اى واحـد على ١٨ ، أمريكيون . اننا أقليـة من البشر ، لا من حيث العـدد فحسب ولكن أيضـا من حيث مساحة اليابسة والممتلكات والمعرفة و (ربما) قاراتخمس. وعلىأساس الاقتصاد ، وحتى باستخدام انسب اسلوب للعـد والحساب ، نملك ما يقل عن ثلث الانتاج القومى الاجمالى فى العالم بل ونصيبنا من انتاج الصلب والطاقة اقـل . ويصدق الشىء نفســه على انتاج المعـرفة فلم يفز بجائزة نوبل من الامريكيين الا حفنة من الافراد ، ويشكل الامريكيون أقليـة من كبار المخترعين والمكتشفين فى العالم ، هذه الحقائق كلها توحـى بأن شعبنا يسيطر بطريق مباشر على ما يقل كثيرا عن امكانيات العالم للقـوة السياسية والعسـكرية .

ولكن المشكلة ذاتها تواجهها جميع الشعوب الاخرى ، فكل منها هـو أيضـا أقليـة بين البشر ، مثال ذلك أنـه برغم كثـرة عـدد الصينيين فهم أقل من ربع البشرية ، وجميع الهنود الشرقيين (ويحسبون كشعب واحد) أقل من السدس ، وبرغم ازدياد قوة الاتحاد السوفيتى الصناعية فى السنوات الحديثة ، فعدد سكانه أقل من ١/١٥ من البشر ، ولا يزال دخله حوالى نصف دخل الولايات المتحدة او اقل من سدس الدخل الكلى بالعالم ، وكل شعب آخر فى العام أصغر منهذا ، ومن ثم لا يزيـد على كونه أقليـة على سطح الارض.

لكن مهما كان الشعب كبيرا او صغيرا ، فعلى كل شعب فى العالم بمـا فى ذلك شعبنا ، أن يأخذ فى حسبانه كثيرا جدا ما يفعله « الاجانب » ، واذا أراد أن ينجز أكثـر مما يقـدر عليه بموارده المحـدودة ، فعليـه أن يظفـر بتعاونهم ، ولكن القول اسهل من الفعل ، ذلك ان الاجانب يمكن أن يكـونوا مختلفين تماما ــ ويبدأون بالخصائص الواضحة من قبيل المظهر . فاكثـر من ثلثى البشر مثلا هم من غير البيض (١) ، ومن المحتمل أن ترتفع تلك النسـبة الى الثلاثة أرباع فى نهـاية القرن الحالى . وفضلا عن هذا فاكثـر من ثلثى البشر غير مسيحيين ، ولكن لاذا كان المسيحيون أقليـة فى العالم فكذلك شأن المسلمين واليهود والبوذيين والهندوكيين والشيوعيين والارسطيين وأصحاب المنطق الوضعى وأنصار اية ديانة أو فلسفة او أيديولوجية منظمة اخـرى ، هؤلاء جميعا أقليـات بين البشر والواقع كانوا على حد علمنا ، كذلك دائما .

---

(١) يتضمن غير البيض الشعوب السوداء والسـمراء والحمـراء وذات الجلد الاصفر ــ وكلها مجموعـات أقليـة فى داخـل المجموع الكلـى مـن النـوع البشرى .

يشترك الناس كثيرا جدا فى الطبيعة البشرية والحاجات البشرية والآمال البشرية ، ولكنهم كانوا حتى الآن متفاوتين تفاوتا لا يمكن التغلب عليـــه ، فى لغاتهم وثقافاتهم ودياناتهم وفلسفاتهم وأيديولوجياتهم (ومعظم) حكوماتهم . ولم يحدث أبدا حتى الان أن كانوا تحت السيطرة أو الادارة الفعالة من جناب حاكم واحد أو تنظيم واحـــد أو عقيـــدة واحدة ، وان حدث على مر التـــاريخ وفى عصرنا أيضـــا ، أن حاول ذلك كثير من الحكـــام والمنظمات والعقائـــد ، أو زعموا انهم مارسوا هذه السيطرة والادارة .

وبرغم تفاوت الناس بصورة لا علاج لها ، الا انهم متكافلون بشـــكل لا مهرب منه ، ومن بعض النواحى زاد هذا التكافل فى هذا اليـــوم الـــذى ينكمش فيـــه العالم ، بل يستطيع أكثـــر الناس تباعـــدا عن بعضهم بعضـــا فى العالم ، أن يعيشوا لا يفصل بينهم ســـوى نصف العالم ، أى ١٢٫٥٠٠ ميل تقريبا أو حوالى المسافـــة التى تفصل مدينـــة نيويورك عن سايجون فى فيتنام الجنوبية . ومعظم الاماكن الاخرى على سطح الارض تفصل بينها مسافات اقصر من هذا بكثير : بيرل هاربور فى هاواى ، طوكيو وهيروشيما فى اليابان ، أوماها وشاطىء يوتا فى شبه جزيرة نورماندىا بفرنســـا ، برلين المقســـمة بين الشرق والغرب فى المانيا ، تاباى فى جزيرة تايواة ، سيول فى كوريا الجنوبية ، بورسعيد على قناة السويس فى مصر ، بودابســـت فى هنغـــاريا ، بيروت فى لبنان ، هافانا فى جزيرة كوبا . ان الاحداث المثيرة التى وقعت فى كل من هـــذه الاماكن فى وقت ما خـــلال حياة الجيل الحالى من البالغين ، هذه الاحـــداث أحدثت اختلافا مهما فى حيا ة الشعب الأمريكى ، وأثرت تلك الاحداث فى فرص الاعمال وفرصهم الشخصية وكذلك فى ضرائبهم ، وزادت من اعداد المجندين الذين قتلوا فى الحروب السافرة أو غير المعلنـــة فى الارض الاجنبية .

هذا التكافل كان يزداد باسرع ما يمكن بحساب المسائل العسكرية . فكل مكان على الارض اليـــوم تفصله عن أبعد مكان آخـــر مسافة تقطعهـــا الطائرة النفاثة فى أقل من يومين ، ولكن المسافة ٤٠ دقيقة تقريبا بالصـــاروخ الموجه . والاتصـــال الفورى تقريبا والمنتشر فى كل مكان بالعالم ، والذى ظـــل زمنا طويلا مقصورا على الجهاز اللاسلكى الخالى من الصورة ، يأتى الآن على هيئة صوت بالاضافة الى صور بالالوان عن طريق التليفزيون وتنقلها أقمـــار صناعية تدور حول الكرة الارضية (الاقمار الصناعية ذات الكاميرات القـــوية أتاحت للتجسس أن يصل الى ذرى عاليـــة جديدة من الارتفاع والدقة) .

وهناك علامات أخـــرى وربما أدق وادهى ، عن تزايـــد الترابط ، فقيل ان سعر ضريبة الدخل فى الولايات المتحدة يتقـــرر فى موسكو نظرا لأن حكومتنا والناخبين عندنا أحسوا أن علينا أن نبارى على الاقل وتوازن القوة العسكرية لروسيا وانفاقها ، وبنفس المنطق حددت فى باكين وهانوى عناصر اضافية من

سعر ضريبة الدخل عندنا ، لكن زعمت الحكومات فى موسكو وبكين أن عليهم أن يباروا على الاقل ويوازنوا ذلك الجزء من قوتنا الذى يمكن توجيهه ضدهم، وهكذا يمكن القول بأن القول جـــزءا من اتفاقاتهم العسكرية — ومن ثم من التضحيات التى تقدمها ربات البيوت الروسيات والصينيات — حددتها قرارات سياسية اتخذت فى مدينة واشنطن ، وما يصدق على اكبـر واقـوى الشعوب فى العالم ، يصدق بالمثل على الشعوب الصغيرة ، فجميع الشعوب مترابطـة من حيث السياسة والاستراتيجية ، ما من شعب مهما كان صغيرا ، يستطيع فى العـــزلة أن يكون سيد مصيره ، سيد دم ابنـــائه وثروته ، ولكن مـنا من شعب مهما كان كبيرا ، يستطيع أن يرغم جميع الشعوب الاخرى على أن تنصاع لما يأمر به ولا أن يحولها بسرعـة الى معتقداته .

الا اننا متكافلون مع بقية العالم بطرق اكثر بكثير من مجـرد التكـافل بالنسبة الى السياسة والقـــوة ، فالكل يعرف بطريقة غامضـــة أن العلم والتكنولوجيا والطب « دوليـــة » ، ولكن القلائل منا توقفوا ليفكروا فيمـــا يعنيه هذا وحسب ، معناه من حيث الحقيقة الرزينة الهـادئة ، انه ماكان فى امكان اى شعب واى بلد فى العالم الوصول الى مستواه الحالى من التكنولوجيا والرخاء والصحة ، ولا أن يحافظ على معدله الحـــالى للتقدم بدون المساعدة الحاسمة من جانب الكشوف الاجنبية والمساهمات الاجنبية ، لقـــد ذكـــر الزعيم العظيم للعلم الأمريكى وهو عالم الطبيعة كارل ت . كومتن ، مواطنيه ذات مـــرة أن ثلاثة فقط من الكشـــوف الاساسية الاثنى عشر التى سـمحت باطلاق الطاقـــة الذرية ، اجراها امريكيون ، أما أن ربع هذا الكشف الـــذى غير العالم أسهم بـــه جزء على ســـتة عشر من البشر (وهو كمـــا تتذكر ، نصيب الشعب الامريكى) قد يكون مدعاة للكبرياء الوطنى ، وأما اننا اعتمـــدنا فى ثلاثة أرباع هذه المعـــرفة الخطيرة على أجانب ، فقـــد يســـاعدنا على ان نرى أنفسنا فى منظور افضل .

ما من بلد يستطيع ان يبقى الكثير من اهله على قيد الحياة بدون المساعدة من الاجانب . ففى مستشفياتنا ومكاتب أطبائنا يجـــرى إنقـــاذ حياة الالوف باستخدام كشوف وأدوية ابتدعها العلماء فى بلاد أخـرى ، ففى نصف القـــرن الاخير ، تم اكتشاف البنسلين فى انجلترا ، و عقاقير السلفا فى المانيـــا والنظائر المشعة فى فرنسا ، والأنسولين فى كندا ، فلو أن جميع مجموعات الادوية كتبت عليها أسماء وبلاد الذين اكتشفوها لحصلنا على برنامج علمى فى المواطنة العالمية فى كل منضدة لوصف الداء . ولو ان جميع الأدوية التى ابتكرها أجانب ، فقدت مفعولها غدا ، لكان عـــدد الموتى فى شوارعنا مثيرا للرعب .

ولكن هنالك جانب آخـر من الصورة ، فبينما بلاد العالم بصدد أن تصبح متكافلة بالنسبة الى الاستراتيجية والعلم وربما السياسة الخارجية ، الا انهـا

آخذة فى ان تصبح اكثر تكافلا بالنسبة الى اللغة والتعليم والاقتصاد وربما السياسة الداخلية . وسوف نعرض فى موضع لاحق من هذه الدراسة ، بعض ادلة توحى بأن الاهمية النسبية « للغتين العالميتين » القديمتين وهما الفرنسية والانجليزية ، اخذت تتضاءل نوعا ما ، وأن عدة لغات قومية — وأحيانا اقليمية — فى كثير من اقاليم العالم ، قد أخذت جزءا على الاقل من مكانهما . والتقدم الاقتصادى والثقافى مصحوب فى معظم البلاد بزيادة فى استخدام لغاتها الوطنية ، وكذلك بانخفاض نصيب الطلاب (ومن ثم القادة فيما بعد) الذين تعلموا فى الخارج . فمن طلبة الكليات الامريكية وصل عدد الذين كانوا يدرسون فى خارج الولايات المتحدة الى حوالى ٥ فى المائة فى أوائل الستينات ، وهذه النسبة الصغيرة انخفضت نوعا بعد عام ١٩٧٢ بتأثير الانكماش . وبالمثل ، فمع التقدم الاقتصادى وتزايد عدد السكان تتجه نسبة التجارة الخارجية الى الانتاج القومى نحو الانخفاض ، أن التكنولوجيا الحديثة تكنولوجيا بدائل ، فالكثير مما كان يستورد فى الماضى ، مثل الصوف أو الحرير ، يمكن ان يحل محله الآن شىء يصنع محليا مثل الأرلون والنايلون، وفى الوقت نفسه فان جزءا متزايدا من الدخل القومى ، بصدد أن يتكون من خدمات يجرى انتاجها أساسا فى داخل البلد ، مثل الاسكان والمدارس والرعاية الصحية وامثالها .

والنتيجة أن المهتمين بالتجارة الخارجية من المصدرين والمستوردين ، وجميع المجموعات الممثلة للمصالح ، تسير نسبة ما يتحكمون فيه من الثروة والقوة البشرية فى كل بلد الى الانخفاض ، ومن ثم يتضاءل نصيبهم من الموارد المحتملة لممارسة نفوذ فى السياسة .

ومع ان التكافل العالمى قد استمر بالحاح ونما فى بعض الاحيان بالنسبة لبعض السلع الرئيسية مثل الزيت والقمح والحاسبات الاليكترونية ، فقد لمسنا هذا التكافل بصورة اشد عندما ارتفعت اسعار هذه السلع وغالبا ما كان ذلك استجابة لاعمال وتصرفات الدول المصدرة لها .

من الصعب ولكن من الضرورى ا ان نلخص النتائج التى تسفر عنها هذه النظرة الاولى الى الحقائق والاتجاهات . ليس كل شعب وكل جنس وكل عقيدة الا اقلية فى عالم من الغرباء لا مفر منه ولا سبيل فى الوقت نفسه الى التحكم فيه . انه عالم لا يمكن من نواح عدة التحكم فيه لانه كثير التعدد والتباين ، ولا سبيل الى الهروب منه لان تكافلنا مع البلاد والشعوب الاخرى كبير جدا وحقيقى جدا ، وهذا التكافل آخذ فى الازدياد من بعض النواحى فى العقود الحديثة بينما من نواح اخرى كان يسير نحو التناقص . وعلى ذلك ففى كل بلدتقريبا فى العالم ، كثيرا ما تتعرض كل من السياسة المحلية للدفع والجذب فى اتجاهات متناقضة عديدة فى الوقت الواحد ،

وعلى نتيجة هذه المنافسات المتعمدة قد يتوقف أمان ورخاء كل بلد وبقاء النوع البشرى .

العلاقات الدولية هى من الاهمية بمكان بحيث لا يمكن تجاهلها ، ولكنها ايضا من التعقيد الشديد بحيث لا يمكن فهمها لدى النظرة السريعة، وعلينا أن نحاول ما هو افضل من هذا . ففى حالة طارىء طبى على جميع الذين حصلوا على تدريب طبى ، التزام باسعاف رفاقهم ومساعدتهم بخلاف هذا حسب الحاجة . فى الطب نعلم ان الفرد ضحية المرض ، ولكنه كثيرا ما يكون عاملا رئيسيا فى تحقيق شفائه ، ويصدق شىء شبيه بهذا على المواطن. يمكن أن يكون ضحية السياسة ، ولكن يستطيع ايضا أن يفعل الكثير لتحسينها وتحسين مصيره ومصير بلده ، نحن الذين اتيحت لنا فرصة وميزة الحصول على تعليم عال مدينون بأن نتقدم لرفاقنا خير مساعدة يمكن أن نقدمها لهم باعتبار اننا مواطنون فى بلادنا وفى العالم ، افضل علما وأكثر كفاءة ومسئولية، علينا أن نبذل افضل مافى وسعنا للنظر الى جوهر المسائل وأن نحاول مساعدة الواحد والجميع على مكافحة ازمات السياسة المتكررة وطوارىء عصرنا .

ولكن الكفاءة هنا واجبة وجوب الرحمة ، فالجاهل حسن النية فى الطب ليس طبيبا ولكنه دجال ، ويمكن فى حالة ضرورة طارئة ، أن يعرض حياة المريض للخطر ، وفى السياسة فالمواطن الذى تثور مشاعره ويمتلكه الحماس ولكن معلوماته خاطئة ، يشكل تهديدا ، وقد يعرض هو ورفاقه حريات وحياة الملايين للخطر ، بما فى ذلك حرياتهم وحياتهم هم ، ففى عصرنا الحاضر تقف خرائب همبورج وبرلين ، وخرائب هيروشيما وطوكيو شواهد ضخمة على ما ينطوى عليه الجهل فى السياسة الدولية من تلكفة عالية ، وعلى ذلك يجب أن تدرس العلاقات الدولية بكل ما يسمح به وقتنا المحدود ومواردنا المحدودة ، من عمق ودقة ومسئولية . ما من موضوع آخر يحتمل أن تكون له صلة مباشرة بما سبق أن سماه السياسى الامريكى برنارد باروخ « الاختيار بين المسرعين والموتى » .

ليس فى امكان هذا الكتاب الموجز أن يقدم غير تمهيد أول لهذه الدراسة ، وسوف يقدمه فى خمسة أقسام يتناول أولها ما نريد أن نعرفه: فحوى العلاقات الدولية ، ويسأل القسم الثانى عن الطريقة التى تستطيع بها أن نعرف ما يتضمنه موضوعنا ، ويبحث مناهج البحث والتحليل والملاحظة بل وأحيانا التجريب ، ويلخص الثالث القليل من الاشياء التى اكتشفت ، ويعمل الرابع على استكناه شتى المعانى التى تنطوى عليها هذه الكشوف، ويناقش القسم الخامس والاخير بعض الخطوات الثابتة التى يمكن اتخاذها فى بحثنا عن معرفة يمكن التحقق من صحتها واستخدامها وعن التصرف المفيد والمؤثر .

(الجــزء الاول)

ماذا نريــد ان نعــرف :

جوهر العلاقات الدوليــة :

ان الكثير ممــا نريــد ان نعرفه عن العلاقات الدوليــة يمكن جمعــه تحت عناوين سؤالا أساسيا . وقد طرح علمــــاء السياسة هذه الاسئلة لعــدة قرون فى شكل او آخر ، كمــا طرحها ايضــا القـــادة السياسيون والمواطنون العاديون . هنـــاك اجابات تقليدية من نوع ما ومتعددة فى العادة، عن الكثير من هذه الاسئلة ، البعض عن شىء معين او اشياء اخرى كثيرة عادة. ولكن وكمــا هو الحال فى اكثــر مجالات المعرفــة يجب النظــر الى هــذه الاجابات التقليدية بحذر . من الصعب الحصول على اجابات أدق على هــذه الاسئلة ، واصعب من ذلك الحصول حتى على معرفة يسيرة بشأنها يمكــن اختيارها موضوعيا والتحقق منها او نقضها بحيث يمكن اعتبارها بمعنــى ما ، معرفة . ومع ذلك يجب أن نحاول الحصول على مثل هذه المعــرفــة . وقــد تساعدنا هذه الاسئلة الاثنى عشر من خلال البحث عن المعرفة ـــ على ابقــاء بحثنا ذى الصلة بما نريد ونحتاج الى معرفته .

الفصـــل الأول

اثنا عشر سؤالا جوهريا

تتلخص الاسئلة الاثنا عشر الجوهرية التي سوف تكون موضع اهتمامنا ، في النواحي الآتيـــة :

١ ـ الأمـــة والعـــالم :

ما علاقات امة بالعالم من حولها ؟ متى وكيف وما مدى سرعة احتمال نهوض شعب أو دولة أو أمة ومتى وكيف وما مدى سرعة قابليتها للاندثار ؟ ثم كيف تتكافل طالما هي قائمة ، مع الشعوب والدول والامم الاخرى ؟ وكيف تتصرف مع المجموعات الصغيرة في داخلها ومع الافراد ، وكيف تكون علاقاتهـــا بالهيئات الدوليـــة وبالنظام السياسي الدولي ؟

٢ ـ العمليـــات الأميـــة والتكافـــل الدولي :

الى أي مدى تستطيع الحكومات والشعوب لاى دولة قوميـــة أن تقرر مصيرها والى أي مـــدى تكون نتيجـــة اعمالها مرهونة بالظروف والاحـــداث التى تقع خارج حدودها القوميـــة ؟ هل اصبحت بلاد وأمم العـــالم اكثـــر « ســـيادة » واستقلالا عن بعضهـــا البعض أو انها اصبحت اكثر تكافلا في أعمالها ومصيرها ؟ أو هل اصبحت اكثـــر استقلالا واكثـــر تكافـــلا في وقت واحـــد وانما في قطاعات مختلفة من النشاط ؟ كيف سيكون شكل العـــالم في عـــام ٢٠١٠ بعد الميلاد بالنسبة لهذه المسائل ؟

٣ ـ الحـــرب والســـلام :

ما العوامل التـــى تحدد الحرب والسلام بين الشعوب ؟ متى وكيف ولماذا تنشب الحروب وتستمر وتقف ؟ كيف كانت هذه العمليات تسير في الماضي وكيف تعمل الآن ؟ وما الذى يحتمل أن تسير عليه في المستقبل ؟ وما مبلغ القتـــال وانواعه مما يحتمل أن يؤيـــده الناس ؟ متى ولاى اغراض وفي ظل اى ظروف؟

٤ ـ القـــوة والضعف :

ما طبيعة قـــوة اوضعف حكومة او امـــة في السياسة الدولية ، ومـــا مصادر وظروف مثل هذه القـــوة ؟ وما حدودها ؟ ثم متى وكيف ولمـــاذا تتغير القـــوة ؟

٥ ـ السياسة الدوليـة والمجتمع الدولى :

ما الشىء السياسى فى العلاقات الدولية وما هو غير السياسى ، وما علاقة السياسة الدوليـة بحياة مجتمع الشعوب ؟

٦ ـ سكان العـالم مقابل الغذاء والموارد والبيئة :

هل عـدد سكان العالم آخذ فى النمو والازدياد بمعدل أسرع من امدادات العالم من الغذاء والطاقـة وغيرها من الموارد وأسرع من « قدرة تحمل » بيئتنا بالنسبة للهواء والماء والتقنيين المحتملين وموطن معيشى غير ملوث ؟ أيمكن أن تمثل أوجـه الفشـل فى هذه النواحى خطرا على « الامن القومى » لأى امـة مساويا للخطر الذى يثيره تغير فى القـوة السياسية أو العسكرية لجيرانها ؟ . هل تمثل هذه المشـاكل « قيودا للنمو » مؤقتـة ، أو انها تنذر بمستقبل طويل المدى من الفقـر والركود المادى للجنس البشرى ؟ وما هى عواقب ذلك على السياسات العالميـة بما فيها الحرب والسلام ، وما الذى يمكن فعله ، ان كان فى الامكان فعل شىء ازاءها ؟

٧ ـ الرخـاء والفقـر :

ما مبلغ التفاوت فى توزيع الثروة والدخول بين امم العـالم ؟ وما مـدى التفاوت بالنسبة الى قيـم اخـرى ولكنها ذات اتصال ، مثل توقع الاجـل أو التعليم ؟ هل الفوارق الاقتصادية بين الامم أكبـر أو اقل منها فى داخـل كل أمـة مثل ما هو قائم بين مجموعات عنصرية أو بين مناطق داخل الامـة الواحدة أو بين طبقات الشعب ؟ ثم هل مـدى عامل من عوامل التفاوت هذه، فى تزايـد أم فى هبوط ؟ ثم ما مدى سرعـة هذه العوامل فى تغيراتها ؟ مـاذا يحدد طبيعة هذه التوزيعات وحجم واتجاه هذه الثغرات ؟ ما الذى يمكن عمله عن قصـد لتحقيق هذه التغيرات ؟ وما درجـة سرعـة امكـان تحقيق هذا، والى اى حـد ؟

٨ ـ الحـرية والقمـع :

ما مبلغ اهتمام الناس بالاستقلال عن شعوب أو عن بلاد أخرى ؟ ومـا مدى اهتماماتهم بالحرية فى داخل بلادهم وامتهم ؟ وما الذى يفعلونه اذا حـدث شىء ما ؟ ومتى يحـدث هذا وتحت اى ظروف ؟ ما مفهـوم الناس للحرية ـ هل هى الجبهة العريضة من الرغبـات مع تسامح بالنسبة الى الاقليـات والنزعات الفـردية غير الملائمة ، أم هل هى خضوع جماهير الناس لحـكم الاغلبية ، أو للتقاليد ، أو لزعيم هو موضـع الثقـة ، أو لطغيـان مناسب معروف ؟ ثم ما مدى ادراك الناس للحرية على أنها قيمـة فى حـد ذاتهـا ، وما مدى نظرتهم اليهـا باعتبارها اداة يمكن من خلالها تحقيق قيم أخرى لهـا

اهميــة اكثــر بالنسبة لهم ؟ وما الظروف التى تؤثر او تغير فى مثــل هــذه الرؤية اوهذه الرغبات ؟ وماسرعة هذا التاثير والى اى مدى ؟ ثمماحجام الفوارق فى انواع وحدود الحرية التى يريدها الناس فى الامم المختلفة وفى المجموعــات المتنوعــة فى الامة الواحدة ؟ ثم ما كبــر الاختلافات فىنوعيات وحجم الحريات التى حصلوا عليها ؟ وما مــدى وسرعــة تغير هذه التوزيعات ؟ ومتى يحدث هذا وفى ظل اى ظروف ؟

٩ ـ الادراك الحسى والوهم :

كيف ينظــر القــادة وافــراد الشعب الى امتهم ، وكيف ينظرون الــى الامم الاخرى والى تصرفاتها ؟ ثم ما مــدى واقعيــة او خيال هذه النظــرات؟ ومتى يحدث هذا وفى اى ناحيــة وتحت اى ظروف ؟ ثم متــى تدرك الحكومات او يدرك الناخبون الامور بسرعــة ؟ وما النواحى التى يعرفونها او يجهلونها؟ وما مــدى عمل الحكومات الوطنيــة فى خداعها الجماعى او الاسطورى او فى خداعها الذاتى ؟ ثم ما هو « معــدل الخطأ » لرجــال الدولة ؟ وكم من مــرة يصدرون قرارات هامــة عن الحرب او السلام على اساس خطأ ما كبير او جانب من الحقيقة ؟ ثم ماذا يمكن عمله للتقليل من هذه الاخطاء والوصول الى الحقيقــة ؟

١٠ ـ النشــاط والفتــور :

أن عند الشعب اهتمامات ايجابية بالسياسة ؟ وان من هؤلاء دور فى الشئون الدوليــة ، وما الظروف التــى تعمل على اتساع او تضييق هــذه النسب من الجموع المشتركة الايجابية ؟ وما مدى سرعــة هذا وفى اى ناحية؟ ثم من الجبهة العريضة من الشعب التى يجب ان تكون لها اهتمامات بالسياسة فى وقت ومكان ما ؟ ثم ما الظروف التــى قد تغير هذه الجبهة العريضة مــن الناس ؟ وما تاثير هذه التغيرات على حجم هذه المشــاركة الســياسية وعلى مراحل السياسة ونتائجها ؟ وبوجه خاص ما تأثير التغيرات فى درجــة مشاركة الجموع الشعبية فى السياسة على سلوك ونتائج المســائل الدوليــة ؟ ومــا نوع السياسات الوطنيــة او الدوليــة التى يمكن أن تنمو مع الزيادة الشديدة فى استخدام النفوذ وفى وسائل الاتصال بالجماهير ، وفى مستوى الثقــافة والتعليم ، وفى الحركة الاجتماعية والمشاركة السياسية ؟ لاشك انها مشــكلة خطيرة فى البلاد الناميــة ولكنها مشــكلة ايضــا فى البلاد المتقدمة الكبيــرة كالولايات المتحدة الامريكية وفرنسا والاتحاد السوفيتى .

١١ ـ الثورة والاستقرار :

تحت اى ظروف يمكن توقع سقوط حكومات ؟ متى وبأى شروط والى اى مدى يمكن أن تفقد الطبقات الراقية الحاكمة كــل او بعض سلطاتها ؟ ثــم

ما التغيرات الدائمة او الحتمية ان وجدت ، التى تسببها الثورات ؟ ثم متى وكيف تترك جانبا النظم القانونية كلها أو النظم الاقتصادية أو الاجتماعية أو كل نظم الثقافة الاساسية كلية أو جزئية وتحل محلها نظم واشكال أخرى بصفة نهائية؟ وما سرعة حدوث هذه التغيرات الكبيرة ، ثم ما الثمن المادى والمعاناة البشرية؟ ثم من من طبقات المجتمع يتحملون هذه التضحية لفترة قصيرة أو طويلة ، ثم ما فائدة هذه التغيرات ان وجدت فى المدى القصير أى فى المدى الطويل ومن المستفيدون ؟ كم من الوقت يحتاج الاستقرار السياسى أو الصناعى بعد فترة من الثورة ؟ كيف وبأى نتائج ومن يتحمل الثمن ؟ ثم ما تأثير مثل هذه المراحل السياسية والثورات المضادة والاستقرار النهائى لنظام سياسى أو اجتماعى قديم أو حديث على مجال السياسة الدولية ؟ ثم كيف يمكن للثورات الداخلية أن تؤثر على الشئون الدولية وكيف يؤثر النفوذ الخارجى والاحداث الدولية على الاستقرار أو التقلبات الثورية للنظم الداخلية والنظم السياسية لبلاد معينة ؟ ماذا يمكن للحكومات أو رجال الدولة والناخبين أن يفعلوا ازاء هذه الاحداث ؟ وما مدى خضوع هذه النواحى لتأثير على مقصود ؟ متى يحدث هذا وبأى ثمن وفى أى اتجاه ؟

١٢ ــ الذاتية والتحول :

كيف يحتفظ الافراد والشعوب والأمم من خلال كل هذه التغيرات ، بذاتيتهم وشخصيتهم ؟ ومن اى العناصر تتكون هذه الشخصية بالنسبة لأية عناصر أو نواح فى نظامها الداخلى ، وما الاختلاف الذى تحدثه فى سلوكها الملحوظ ؟ ثم الى أى مدى يمكن لشخصية الفرد ان تشكل حاجة حقيقية لاشخاص أو جماعات ، وماذا يحدث اذا لم تتحقق هذه الحاجة ؟ وما مدى أن تصبح لهذه الشخصية الذاتية قيمة فى حد ذاتها ، وما مدى اعتبارها شرطا أو أداة فى الحصول على قيم أخرى ؟ ثم ما الاحساس بالذاتية ــ وما حقيقة الشخصية المطلوبة وكيف تصبح مفقودة ؟ ما مداها وسرعتها وتحت أية ظروف ؟ الى اى حد يكون الاشخاص والطبقات ونخبة المجتمع والحكومات والشعوب والأمم اشبه بالفهود التى لا تستطيع أن تغير البقع فى جلودها ، وما مدى قدرتهم على التحول أو على التحول الذاتى ؟ واذا ما أعدنا تساؤلنا الاول فى هذا الجزء نقول : ما تأثير تحول الشخصيات والمجموعات على أمة وتحول امة على الشخصيات والمجموعات ؟ وبوجه خاص ما تأثير التغير الدولى على التحول القومى وعلى الشخصية القومية ، وما تأثير تحول امة أو بعض المجموعات الاجتماعية أو بعض الطبقات فيها على أمم أخرى وعلى النظام الدولى ؟

واضح أن طرح هذه التساؤلات أسهل من الاجابة عليها ، سبق فى الماضى أن تناولت الكتب والمقالات الكثيرة هذه الاسئلة الاثنى عشر الجوهرية ، ولكن القليل منها كان مجرد اقتراحات كما ينتظر فى المستقبل أن يكتب عنها المزيد ــ

ومع ذلك يمكن تناول الكثير منها من خلال دراسة السياسة الدولية ، ولكن علينا فى هذه الحالة أن تبدأ على الاقل فى التفكير فى هذه الاسئلة الاثنى عشر لكى نكون على علم ومعرفة بما يحمله كل سؤال من مشاكل .

وفضلا عن هذا ، تعتبر هذه التساؤلات متداخلة مع بعضها ، وقد نجد أنه مهما كانت الحلول أو اجزاء منها فان اى حل من الحلول يختلف مع أجابتنا على كل أو بعض الحلول الاخرى ، ويعتبر كل سؤال من هذه العشرة نقطة بداية طيبة ، ولكن ، كما أن كل الطرق تؤدى الى قلب نفس المدينة ــ فان كل هذه التساؤلات الاثنى عشر جميعها سوف تصل بنا وبصورة أعمق الى تعقيدات السؤال الواحد ، وكم من أمم مختلفة وهى فى طريقها الى الوجود ، تستطيع التعايش فى مزيج من الاستقلال المحدود والتكافل فى عالم لا نستطيع أن نتفق بشأنه ولكن لا تستطيع واحدة منها بمفردها السيطرة عليه ، والذى نعتمد عليه جميعها من أجل استقلالها وحريتها وسعادتها وبقائها على قيد الحياة .

الفصل الثانى

ادوات للتفكير وبعض المفاهيم الاساسية

... اذا ما اردنا ان نجعل هذه الاسئلة الاساسية الاثنى عشر اكثر فاعلية سواء بالنسبة للسؤال الواحد او بالنسبة لتفاعل هذه التساؤلات فيما بينها ؛ فعلينا أن نستخدم النظريات كادوات للتعريف ، ونظرا لان المفهوم أن النظرية عبارة عن رمز وان الرمز أن صح القول ، هو أمر بأن نراعى ما يشير اليه هذا المفهوم ، فهذا يستتبع ان المفهوم نوع من أمر لنتذكر مجموعة من الاشياء أو الذكريات وهى بمثابة أمر لاختيار وجمع بعض بنود المعرفة — وهذه تشير الى الحقائق ، ولكن ليس هناك ضمان فى اننا سنجدها .

بعض افكار عن النظم الاجتماعية :

كانت الافكار الاربع نتناولها الآن ، من اقتراح العالم الاجتماعى « تالكوت بارسونز Talcott Parsons » الذى استنتجها من الفكرة القائلة بأن هناك بعض الاشياء الاساسية التى يجب عملها فى كل نظام اجتماعى ، كبيرا كان أو صغيرا (أى فى كل مجموعة وفى كل تنظيم وفى كل بلد)؛ اذا اريد أن تكون له صفة الاستمرار .

اولا : هناك شكل او نموذج المحافظة على الشىء :

يجب أن تكون للفكرة صفة الاحتفاظ باشكالها الضرورية ، بمعنى أن هذه الاشكال أو النماذج يجب أن تتكرر حتى تحافظ على النظرية خلال تعاقب الافراد والمجموعات أو الاجيال ، والعمل الرئيسى لشكل الابقاء على الشىء فى أكثر المجتمعات ، تقوم به ربات البيوت والعائلات ، وهناك أيضا مؤسسات ووكالات فى كل مجتمع تقوم بهذا العمل وأن يكن بدرجة أقل .

ثانيا : هناك الملائمة :

على كل تنظيم وكل مجتمع أن يتكيف مع البيئة التى تحيط به ويستمد منها وجوده ويتلائم مع متغيراتها .. والعمل الاساسى لتكييف الامور فى كل بلد يقوم — كما يرى الاستاذ بارسونز — من جانب القطاع الاقتصادى ومن المؤسسات وانشطتها بما فى ذلك المؤسسات العلمية والتكنولوجية . وهكذا تتوخى المصانع والمزارع والمناجم ومعامل الابحاث فى كل بلد جانب التلاؤم فى بادىء الامر سواء كانت خاضعة للملكية الخاصة أو الملكية العامة ، ويكيف

الرجال انفسهم فى الصين على البحار وعلى السهول بزراعتها بالقبح ، وعلى الانهار ببناء محطات توليد الكهرباء ــ ومثل هــذا التلاؤم الاجتمــاعى يغير من البيئة وكذلك المجتمع ، اذ لو تغير الصياد الى مزارع لتغير أيضا السهل الى حقــــل .

ثالثا ــ هناك هدف الانجاز :

لكل تنظيم ومجتمع هدف او اكثر يحاول الوصول اليه او يرغب افراده فى تحقيقه وباشكال يتغير معها سلوكهم ، بجانب الحاجة البسيطة لنمط المحافظة على الشىء والتلاؤم . ويرى الاستاذ بارسونز أن تحقيق هدف الانجاز فى كـــل بلد تقوم بـــــه عادة الحكومات والقطاع السياسى بمراحله ومؤسساته ، فمن خلال الحكومة والاجهزة السياسية تتجمع غالبا أكثر المصادر البشرية والمادية من أجل تحقيق اى هدف ، سواء كانت الاهداف التى مثلها قــــادة المجتمع او الشعب سلمية او حربية الطابع (تتراوح من القضاء على الأمية الى غــــزو منطقة على الحدود) .

هذه الوظائف الثلاث - المحافظة على النمط ، والتكيف مع البيئة الطبيعية والبشرية ، والسعى وراء الاهداف ــ ليس من السهل اداؤها فى نفس الوقت الواحد اذا كانت الموارد محدودة كالعادة ، الا انه لا يمكن التضحية بـــأى من الثلاث ، وعلى ذلك يشير بارسونز الى أن كل بلد وكل مجتمع وكل نظــــام مركب تواجهه مهمة رابعة ، مستمرة وأساسية ، هى مهمة **التكامل** . وينحصر التكامل : فى جعل هذه الانشطة المختلفة متلائمة ، وفى جعل توقعات ودوافع الناس والابقاء عليها مناسبة مع الادوار التى يجب أن يقوموا بها . ووظيفة التكامل فى أكثر البلاد ، يقوم بهـــــا أساسا الاساليب والمؤسسات الثقافية والتعليمية والدينية . ولكن الكثير من عناصر المجتمع الاخرى تشارك فى هـــذا العمل وهى عادة مشاركة بدرجة اقل نوعـــــا .

وفى كل هيئة أو مجموعة اى فى كل نظام صغيرا كان أو كبيرا ، يتم اداء نفس الوظائف الاربع ، ففى وزارة الخارجية الأمريكية مثلا قد يكون التفكير فى تنفيذ نظرية شكل المحافظة على الشىء بصورة أكبر من جــــانب ادارات المحاسبة والمراجعة وشئون المستخدمين ومكتب الامن ، بينما نجد أن العمل الروتينى للقنصليات والسفارات وكذلك مكاتب الوزارة المختصـــــة بشئون الكونجرس والعلاقات العامة (أو « الشئون العامة ») قد يكون بمثابة خدمة لاغراض التوافق او التلائم مع الظروف المحيطة بجهات مختلفة من بيئته ، وتتحقق اغراض انجــــاز الهدف بصورة اكثر من خلال جهود الدبلوماسيين (السياسيين) فى الخارج ، ومن خلال التصريحات والاخبار الصحفية التى يعلنها المتحدثون فى الوزارة ، وعن طريق اعــداد المعــــاهدات الدولية أو

التشريعات الوطنية التى تقترحها الوزارة ، والجهود السياسية التى يبذلها كبار الموظفين ، ثم من يأتى بعد ذلك من أول وزير الخارجية الى أقل من هذا من يواجه أيضا مهمة التكامل التى لا تنتهى وهى محاولة التنسيق والمحافظة على التلاؤم المتبادل او حتى لو امكن التأييد المتبادل لكل انشطة الادارات الكثيرة والمكاتب والوكالات وجهود الموظفين .

وبصفة عامة فان تحقيق هدف الانجاز بالنسبة للولايات المتحدة يجب ان يكون اساسا من الرئيس والكونجرس ، وبصورة أقل من المحكمة العليا ، وعلى اية حال فان لفروع الحكومة مهاما هامة بالنسبة الى المحافظة على الشكل والتكامل والتلاؤم .

وفى مستوى اعلى ، تحاول الامم المتحدة تحقيق أهدافها بصورة أساسية من خلال اعمال جمعيتها العامة وسكرتيرها العام ومجلس الامن ؛ وكثير من الاعمال الخاصة بالتكييف .. يتم من خلال مجلسها الاقتصادى والاجتماعى (ECOSOC) ، كما تحققت جهود كبيرة فى مجال التكامل من خلال هيئة اليونسكو . اما عن مهمة الحفاظ على الشكل فيبدو ان هذا الامر قد ترك للحكومات والأمم الاعضاء ، وربما الى حد كبير فى أوقات التوترات الدولية .

وكما نوضح هذه الامثلة فان المهام الاربع الاساسية تتواجد على اقل تقدير فى نظام اجتماعى ولكنها ليست دائما منفصلة تماما من الناحية العملية ، كما انها ليست جميعا متطورة بنفس الدرجة دائما . فكل نظام ثابت ومعروف يجب أن يتصف بشكل المحافظة على الشيء اذا كان عليه أن يستمر قائما فى بيئة واحدة لا تتغير على الاقل . ويجب على هذه الانظمة التى تعيش فى البيئات المتغايرة ان تطور من وظيفة التلائم . وكما ان النظم التى تشوبها التعقيدات هى وحدها التى لها أهداف داخلية وبالتالى يكون عملها تحقيق هذه الاهداف . ومن ناحية أخرى قد لا تحتاج الانظمة المشابهة لتركيبها أو الاكبر منها ، الا الى تسهيلات وعمليات تكامل اشد احكاما واتقانا .

وهناك وظيفتان آخريان اساسيتان اصبحت لهما أهمية بالنسبة لاكثر الانظمة التى بلغت درجة عالية من التقدم ، ويعتبر هدف البيئة واحدا منهما . فبينما نجد الانظمة التى تبحث عن الاهداف البسيطة قد اقامت كل الاستعداد من اجل تحقيق هدف واحد او اهداف قليلة متساوية او بديلة — فللنظام المتقدم القدرة على تحقيق أهدافه بمعنى احداث تغيرات فى تعقيب مجموعة اكبر من الاهداف القائمة وفى خلق اهداف جديدة لم يفكر فيها من قبل . وتستطيع البلاد التى تتمسك اساسا بمبدأ العزلة

مثلا ، الحصول على مهمات عسكرية كبيرة وتحقيق أهداف عسكرية واسعة او (مصالح تأييدا لها) فى أجزاء متفرقة من العالم ــ كما فعلت انجلترا فى القرن السادس عشر حتى منتصف القرن العشرين ، وكما فعلت الولايات المتحدة تدريجيا منذ تسعينات القرن الماضى ، وبصورة أسرع منذ عامى ١٩٤٥ ، ١٩٦٥ . ومن ناحية اخرى قد تسقط بعض الدول من حسابها تدريجيا او بسرعة بعضا من اهدافها السابقة والتى كانت فى وقت ما ذات اهمية بالنسبة لها . فقد تخلى حكام انجلترا فى القرن السادس عشر عن طموحهم القديم الذى ساد ثلاثة قرون ، فى السيطرة على أرض أوربا وهى فرنسا الآن ، وقد تخلوا فى النهاية عن كاليه وبدأوا فى العمل على تحقيق السيطرة والقوة فى البحار وفى بعض المناطق بالعالم الجديد . وقد يكون التحول الجزئى لموقف روسيا والولايات المتحدة منذ أواخر الخمسينات، عن التنافس الاساسى حول السيطرة والحصول على القواعد المختلفة على القواعد المختلفة على كوكب الارض المزدحمة والاتجاه الى التنافس على تحقيق الاهداف فى الفضاء ــ قد يكون هذا كله مثلا آخر للتغير فى تحقيق الاهداف القومية .

وقد يكون هناك تغيير فى نوعية الاهداف و « المصالح الحيوية » التى تسعى أمة ما الى تحقيقها . فقد تخلت سويسرا فى القرن السادس عشر عن استمرار سيطرتها على لومبارديا ، كما تخلت السويد فى القرن الثامن عشر عن تحقيق امبراطوريتها على البلطيق ، وترك البريطانيون فى الفترة من عام ١٩٤٥ الى عام ١٩٦٥ امبراطورية تضم الآن نحو ٧٠٠ مليون نسمة . وعندما تقرر كل أمة من هذه الأمم الثلاث التخلى عن سيطرتها على شعوب أخرى ، فأنها تتحول كلية الى مجموعة أخرى مختلفة من الاهداف مثل تحسين ظروفها الداخلية ورفاهيتها الاقتصادية وتطوير العلوم والتعليم وكل ما يتعلق برخاء الدولة ومشكلاتها .

واذا قام نظام ما بتغيير أهدافه أكثر من مرة وبنجاح ، اصبح قوة كامنة أكبر من الاهداف التى يحاول ان يحققها فى أى وقت ، ذلك لأنه قد يكون قادرا على الاختيار والمتابعة وتحقيق أهداف أكبر فى المستقبل. وقد يذكرنا هذا بتحذير بعض الفلاسفة والعلماء القائم ضد مبدأ « عبادةالاصنام» أى ضد عبادة الماضى للاشياء الصغيرة كما لو كانت نهائية وأبدية ، وفى عالم السياسة أيضا يمكن اغراء اية أمة على التمسك باهداف صغيرة وجزئية ، ومقابل نسيان هذا اذا اريد للامة أن تبقى ، فان كثيرا من أهدافها المتشابهة سوف تتغير .

وتحتاج القدرة على اعداد اهداف وتنفيذها الى مصادر مادية وبشرية داخل النظام ، وكلما اتسع مجال الاختيار بين الاهداف القديمة والحديثة ــ

كبر احتمال حجم نسبة المصادر داخل النظام والتي قد تستخدم فى تحقيق هذه الاختيارات واعداد هذه الاهداف الجديدة والتى قد يعاد تخصيصها لتحقيق اغراضها . وتشكل نسبة المصادر داخل النظام ، عاملا هاما فى قدرة المعرفة لهذا النظام أى فى قدرته على « تعلم » كيفية السلوك والاستجابة للاحداث فى مجالاتها المختلفة أو على الاقل فى وسائلها المختلفة والاكثر سخاء .

وقد كشفت بعض الحكومات وبعض المجموعات الراقية وبعض الشعوب وخاصة فى العصور التاريخية ، عن قدرات كبيرة او اقل منها فى التعلم بهذا المفهوم عما حققه آخرون فى هذا المجال ، ويقال أن ملوك فرنسا من البوربون فى أوائل القرن التاسع عشر لم ينسوا شيئا كما لم يتعلموا شيئا حتى بعد الانقلاب الاجتماعى الذى ترتب على الثورة الفرنسية — وتم استبعادهم بعد ذلك بفترة قصيرة من السياسة الفرنسية نهائيا . وبالعكس نجد فى جانب آخر مدى ما وصل اليه الشعب الامريكى وحكومته من قدرة على اكتساب المعرفة فى الازمة العالمية الاقتصادية فى الثلاثينات وذلك فى اثناء الحرب العالمية الثانية ، ثم مرة اخرى فى ازمة الاتمار الصناعية فى أواخر الخمسينات ، وقد أوضحت بعض الازمات التى جاءت بعد ذلك بعشر سنوات فى أوائل عام ١٩٦٨ ، مثل الازمة العسكرية فى فيتنام والازمة النقدية لقيمة الدولار الذهبية وازمة المدن الامريكية والحقوق المدنية والعلاقات العنصرية — ان تكرار السياسات الماضية قد لا يكون كافيا ، وأن قدرة المعرفة السياسية فى السنوات العشر القادمة للحكومة والشعب الامريكى ، قد تواجه فترة أخرى من التجربة .

وفى السبعينات ، دلت نهاية الحرب الفيتنامية وعصر نيكسون ومجىء حكومة جديدة فى عام ١٩٧٧ على ان قدرة تعلم النظام السياسى الأمريكى ما زالت قوية .

ويمكن القول انه اذا امكن اعادة تخصيص مصادر جزء كبير أو هام فى نظام ما ليصبح بناء جديدا للنظام وبالتالى الى مجموعة جديدة من الاهداف واشكال من السلوك — فانه يمكن القول بأن هذا النظام قد أصبح متحولاه واذا كان هذا التحول قد تم اساسا من خلال مبادرات ومصادر فى النظام ذاته ، فان الحديث فى هذه الحالة يكون من نظام متحول من ذاته . وعمل هذا التحول الذاتى هو سادس وأعلى المهام الاساسية لنظام اجتماعى . وكل هيئة أو أمة لها هذا العمل ، مع قدرتهاعلى الحفاظ على الشكل الجزئى الكافى بجانب الابقاء على الاستمرار والشخصية يحتمل بقاؤها ونموها وتطورها اكثر من اية هيئة أو امة تقتصر على هذه الخصائص . هناك كثير من الهيئات الدينية والعلمانية فى العالم تعتبر

نماذج لهذا التحول الذاتي ، فقد كانت الكنيسة الكاثوليكية في عهد الصليبيين وبابواتهم النضاليون في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ـ تختلف كثيرا عن المجتمعات الصغيرة للمسيحيين الاوائل الذين كانوا يتقابلون في سراديب الموتى، وكذلك عن الكنيسة التي كانت تسيطر عليها الدولة في أيام الامبراطور قسطنطين ، ثم مرة أخرى عن الكنيسة المسيحية الآن التي اعلنت في مجلس الفاتيكان الثاني مبادىء الحرية الدينية داخل الدولة ، وبرغم هذا بقى فيها جزء كبير من روح الاستمرار . وينطبق هذا على كثير من الامم : فقد أصبحت فرنسا وروسيا واليابان والولايات المتحدة تختلف كثيرا عما كانت عليه في عام ١٧٧٠ أو عام ١٧٨٠ ، غير ان هناك قدرا كبيرا من الشخصية والاستمرار قد بقى في كل من هذه الدول .

بعض الافكار عن السياسة :

من العدد الهائل من العلاقات البشرية المختلفة ، فأيها سياسية ؟ ما الذى تعمله السياسة ولا تعمله الانشطة أو الانظمة البشرية الاخرى ؟

تنحصر السياسة في السيطرة غير الكاملة عموما على السلوك البشرى عن طريق العادات الاختيارية في الامتثال مصحوبة بالتهديدات عن احتمال **التنفيذ بالقوة** . فالسياسة في جوهرها ، مبنية على تفاعل عادات التعاون كما تعد لها التهديدات .

ان عادات التصرف في الامور والتعاون ، وطاعة القانون أو الحكومة أو احترام قرار ما على انه ملزم ، هذه العادات تميل الى ان تكون طوعية بالنسبة الى معظم الناس . ومع كل ، فذلك ما تعنيه العادات بالنسبة الينا : انها تصبح « مألوفة » لنا ـ اى تصبح جزءا من طبيعتنا ومن الطريقة التي نتصرف بها بطريقة آلية بوجه عام . فبدون عادات الكثير من الناس هذه لا يمكن أن يكون هناك قانون أو حكومة كما نعرفهما ، فلا يمكن تنفيذ قانون المرور بتكلفة يمكن احتمالها ، الا لأن معظم السائقين يلزمون الجانب الايمن من الطريق ويتوقفون عند الاشارة الحمراء . ولايستطيع البوليس أن يحمى شوارعنا وأماكن انتظار السيارات ضد العدد القليل نسبيا من اللصوص الا لأن معظم الناس لا يسرقون السيارات . فاذا لم يطع القانون ٩٠ في المائة على الاقل عن الناس ، عن طواعية وبحكم العادة ، لاصبح أما كما مهملا أو أصبح تنفيذه كثير التكلفة جدا ، أو ربما تجربة نبيلة ولكن لا يمكن الاعتماد عليها ، على نحو ما كان مصير تحريم الخمور في العشرينات من القرن الحالى ، فالامتثال الاختيارى أو الاعتيادى من جانب جمهرة السكان هو الاساس الخفى ولكنه الحقيقى جدا ، الذى تقوم عليه سلطة كل حكومة .

ولكن برغم ان هذا الامتثال اختيـاري الى حـد كبير ، الا انـه ليس كذلك تماما ، اذ لو كان اختياريا بالكليـة لما كنـا نناقش السياسة وانمـا نناقش عالم التقاليـد الشعبية والعرف والاخلاقيات ، ففى مجال السـياسة يجرى الاحتفاظ بعادات الكثيرين فى الامتثال وتعزيزها ، عن طريق احتمـال معقول بتنفيـذه ضـد القلائل الذين قـد يتعدون حـدود القانون أو يعصون الحكومة .

وينحصر الاكـراه فى التهديد بعقوبات ايجابيـة أو سلبية أو تطبيقها — أو ينحصر فى ضروب الثواب أو العقـاب . من الناحية العملية يكون العقـاب أكثـر استخداما من الثواب ، ذلك أن العقوبات أرخص ، ويتمتع بعض الناس بتطبيقها فى ظـل أى عذر أيديولوجى كالشيوعية أو مكافحة الشيوعية ويحب الكثير من الناس أن يظنوا أنهـا أدعى الى الاطمئنان اليها والاعتماد عليها . والواضح أنه حيث من عـادة معظم الناس أن يطيعوا القانون أو حكومة على أى حـال ، فانـه يبدو أن تقـديم مكافآت لهم عن ذلك هو عمل كثير التكلفة ولا حاجـة اليـه ، ويبدو التهـديد بالعقوبات للقلائل الذين ينحرفون عـن طـاعة أخوانهم ، أرخص وأكفـأ ، يمكن أن تردع العقوبات بعـض القلائل من المخالفين للقانون ، عن تكرار الذنب الذى ارتكبوه ، ولكن أهـم من هذا أن مصير هؤلاء القلائل يمكن أن يردع آخرين عن احتذاء حذوهم .

وفرض التنفيذ ليس مؤكـدا فى الغالب ، والاغلب أنـه مرجح فقط . ولكن التهديد الذى يشكله يكون كافيـا فى العـادة ، هو وعـادة النـاس فى الامتثال ، لخفض نسبة المخالفات الخطيرة ، الى مستوى يمكن احتمـاله . فاذا حكم على ٩ من ١٠ من القتلة وعوقبوا ، فقـد يكفـى هذا لردع الكثيرين من ذلك العـدد القليل ممن قد يفكرون فى ارتكاب القتل كوسيلة محسوبة للحصول على بعض الكتب . واذا كان الربع فقط من سرقات السـيارات تعقبه أحكـام بالادانة ، فقـد يكفى هذا هو وعادات معظم الناس فى الالتزام بالقوانين ، لابقـاء معظم السيارات دون أن تمتـد اليهـا يـد السرقـة ، وخفض أسعار التأمين عليها بصورة محتملة . ولكن حتى أشد العقوبـات أو أقساها ، لا تردع بالطبع تلك النسبة الصغيرة من القتلة المحتملين الـذين هم من انعـدام التفكير أو من الثقة أو من الاثارة بحيث لا يهتمون أو لايفكرون بطريقة واقعية فى أنهم قـد يقبض عليهم . هنـا واحـد من القيـود العديدة التى تحـد من فعاليـة الردع ضـد القتل فى حياة الافراد وكذلك ضد الحرب فى حيـاة الشعوب .

وبهذا فالذى يقـرر فعاليـة التنفيذ هو نفس الظروف التى تقرر تكرار الامتثال (أو السلوك المطيع أو الذى يلتزم بالقانون) . أولا ، هذا الـى حـد كبير جـدا قـوة عادات الامتثال عند الجزء الاكبـر من الناس واسـتعدادهم

لتقـــديم تأييـــد نشيط للحكومة فى تنفيذ اوامرها او فى تطبيق القانون . وثانيا هنـــاك جميع الظروف الاخرى التى تؤثر فى احتمالات السلوك الذى يلتـــزم بالقـــانون ، النسبية مقـــابل سلوك مخالفـــة القـــانون وهو الســـلوك الذى يستخدم معـــه التهديد بالالتجاء الى الاكـــراه . فاذا كـــان هناك جوع عنـــد الناس فمن المحتمل ان يعمـــد المزيـــد من النـــاس الى سرقة الخبز ، امـــا حجم وكفـــاءة جهـــاز التنفيذ ، اى مهـــارة وحماسة الضباط والجنـــود والقضاة ورجـــال الشرطة ونوعيـــة اسلحتهم ومعداتهم ، نقـــول ان هـــذا كله لا يمثل ســـوى المرتبـــة الثالثة ، امـــا الظرف الاخير فهو تغيير القواعد واصدار قوانين جديدة او التهديد بعقوبات أشـــد .

لكن عادات الجماهير فى الامتثال ، والظروف الاجتماعية العـــامة التـــى لها اقوى الآثار طويلة الاجل على سلوك الناس ، فاصعب مما يمكن ممارسته بل ان حجم القائمين على التنفيذ وتدريبهم ومعداتهم وروحهم المعنوية — وهم القوات المسلحة والشرطة ورجال القضاء ، والموظفون المدنيون الى حـــد ما، هذا كله لا يمكن تغييره الا ببطء وبتكلفـــة كبيرة ، وعلى ذلك نبقى اضعف أداة للرقابة جذابة لانهـــا الارخص فى استخدامها . فسن قانون جديد او التهديد بعقوبة اشـــد ، او قلـــة الاهتمام بالادلة او قلـــة الحرص على عـــدم معاقبة اناس أبرياء ، هذه جميعـــا أرخص وأسرع ، ومن ثم فبرغم مفعولها الضئيـــل نسبيا ، فانها كثيرا ما تبدو اشـــد اغـــراء من المهمـــة الاطـــول والاصعب وهى مهمـــة اجـــراء تغييرات اساسية بدرجـــة اكبـــر فى الموقف .

السياسة اذن هى تفاعل التهديدات بالتنفيذ التى يمكن تغييرها بسرعـــة نسبية فى ظـــل ظروف ولاء الســـكان القائمة وعاداتهم فى الامتثال ، التـــى هى أشـــد قـــوة ولكن الاغلب انـــه لا يمكن تغييرها الا ببطء أشـــد بكثير . فعن طريق هذا التفاعل بين الامتثال المعتاد والتنفيذ المرجح ، نحمى المجتمعات وتعدل أنظمتها ، وتوزيع مواردها واعادة توزيعها ، وتوزيع القيم والحـــوافز والمكافآت بين اهلها ، وانماط العمـــل الجماعى الذى فيـــه يتعـــاون الناس فى انتاج واعـــادة انتاج سلعهم وخدماتهم وحيواتهم .

الحـــكم او الســـلطان :

بمجـــرد ان نجعل مفهـــوم السياسة واضحا فى اذهاننا ، نستطيع أن نفهم بسهولة مفهومين سياسيين يرتبط كل منهما بالآخر : مفهـــوم الحـــكم أو السلطان ومفهوم السلطـــة ، **وبالحـــكم او السلطان** يمارســـه زعيم ، يعنى العالم الاجتماعى الالمانى ماكس ويبر فرصة (اى احتمـــال) طاعـــة هـــذا الزعيم . وطبقـــا للتعليل الذى يقدمه ويبر ، فالاكثـــر احتمالا أن يطيعه شعب معلوم ، اذا كان لـــه عليهم سلطان اكبـــر ممـــا للزعيم الاخـــر او الحكومة

لو سرنا بهذا التعليل خطـوة ابعـد نوعا ، لأدركنا ما دعاه ت . و . ادورونو ذات مرة « الرياضيات الضمنية فى فكر ماكس ويبر . ان الاحتمـال هو بالمعنى الدقيق ، عـدد ، فهو يدل على التكرار ويعبر عنه فى العادة كنسبة مئوية ، الذى تقع به أحداث من نوع معين (هنـا أعمال طاعة أوامر الحاكم » فى داخل مجموعـة من الاحداث اكبـر (هنـا السلوك العـام من جـانب السكان) . وعلى ذلك فالحكم حسب تعريف ويبر يمكن التعبير عنـه باعتبار انه عـدد ، اى يمكن على الاقل من حيث المبـدأ ، قياسه كميا .

وفى الوقت نفسـه يمكن أن نـرى من جهـة ، العلاقـة الوثيقـة بين فكـرة ماكس ويبر عن الصدفـة أو تكـرر اعمـال طاعـة اوامر حكـومة ما ، وان نـرى من جهـة أخرى فكرتنا نحن التى سبق أن ناقشناها باعتبارها معـدل الامتثال (أى تكـرر افعـال الامتثال) ، والاخير (معدل الامتثال) اوسع نوعـا من حيث أنه يتضمن أيضـا أعمـال الرضوخ السلبى والاحتمالى أو النفور ، بالاضافـة الى الاعمال الاكثـر ايجابية التى تدل على الطاعـة وهى الاعمـال التـى اكـد عليها ماكس ويبر حيثما يلعب هـذا السـلوك الاكثـر امتثالا بصورة سلبيـة ، دورا هاما فى تقرير نتيجة العملية السياسية.

غير أن فكرتنا عن الامتثال **الاعتيادى** أضيق نوعـا من قـول ماكس ويبر عن « فرصة أن يطـاع » لأن فكرتنـا تستبعد أعمـال الخضوع للتهـديد المباشر بالقـوة السافرة ، فالناس تطيع لصا مسلحا اذا فاجأهم ، أو جيش احتلال اجنبيا طالما فى يد الدخيـل مدفع مصوب اليهم . هذه لا تزال حـالات « الحكم » أو « السلطان » عند ماكس ويبر ، ولكنهـا عمليـات قـوة لا عمليات سياسة ، انها لا تصبح سياسة الا بقـدر ما يستمر هذا السلوك المطيع بعـد أن يدير اللص المسلح أو الغازى ظهره . عندئذ فقط وفى تفـاعل خوف هو فى الذاكـرة وامتثال مستمرة ، نجـد أنفسنا مـرة ثانية ننـاقش السياسـة .

عندما نقـول ان السياسة هى ذلك المجـال من الشئون البشرية التى يتخطاها التسلط والامتثال الاعتيادى ، فاننـا نعنى بصفـة ضمنيـة ، ان السياسة بسبب طبيعتها المزدوجة ، قابلة لان تكون ميدانا لتوتر متكرر بين المركز واللامركزية . ذلك ان التسلط او الحكم يمكن أن تمارسه بطريقة أسهل، المنظمات ذات الصبغة المركزية ، والتهديدات بالتنفيذ يمكن أيضا أن يستخدمها بشكل اشـد مفعولا ، مركز واحد . ولكن نادرا ما يمكن خلق عادات اعـداد كبيرة من الناس يمكن الاعتماد عليها ، ان كان يمكن ابدا خلقها ، عن طـريق مركز واحـد من الامـر وحـده ، ولا يمكن خلقها بسرعـة ، الاغلب ان تنشأ العـادات من حشـد من التهديدات او القـوة ، التـى تتكـرر عبر الزمن

بطرق كثيرة ، وعلى ذلك نادرا ما يخلق التهديد اوا لقـوة من هيئـة مركزية وحـدة معمرة من عـادات لهـا قيمتهـا من الناحية السياسية ، والاغلب هو ان مثـل هذه الوحدة من العادات هى التى توفـر الامكانيات لممارسـة السلطة ذات الصبغـة المركزية.

سوف نواصل فى جزء قادم من هذا الكتاب ، متابعة هذه المسائل وذلك فى سياق العمليات التى تحدد حجم الشعوب والدول والوحدات السياسية الأخرى ، وحجم هجرة السلطة بين مختلف مستويات الحكومات المحلية والقومية والحكومات التى تسمو فوق المستوى القومى ، هنـا فقط يستأهل الامر ان نلاحظ أن هذه العمليات ، مع عواقبها الضخمة ، جذورها كامنة فيما للسياسة نفسها من طبيعة مزدوجة .

الفصل الثالث

القوة والدولة القومية

ان الاعتراف بما للسياسة من طبيعية مزدوجة ، يساعدنا ايضا على أن ندرك حدود فكرة القوة السياسية ، لقد حاول بعض الكتاب النابهين أن يضعوا نظرية فى السياسة وخاصة فى العلاقات بين الدول ، مبنية الى حد كبير على فكرة القوة — ومن هؤلاء نيكولوميكا فللى وتوماس هوبز ، ثم هانز مورجنتاو وفردريك ل . شومان فى عصرنا ، وفى الوقت نفسه لا تزال فكرة القوة باعتبارها أساس السياسة الدولية ، واسعة الانتشار فى الصحافة الشعبية ، بل وفى السلك السياسى الاجنبى ومؤسسات الدفاع فى بلاد كثيرة . اذن نسأل : ما عنصر الحقيقة المتضمن فى هذه الفكرة وما حدوده ؟

فى النقاش الذى نجريه لن نهتم بقوة الشعوب والمنظمات الدولية بالعالم فحسب ولكن سنهتم ايضا بقوة الحكومات والمجموعات ذوات المصالح والنخبات الممتازة والأفراد بقدر ما يبدو أن أيا منهم يحتمل أن يؤثر بصورة لها شأنها فى نتيجة تسفر عنها السياسة الدولية .

والقوة فى ابسط تعريف لها هى القدرة على الانتصار فى الصراع وفى التغلب على العقبات ، وبهذا المعنى أثار لينين قبل الثورة الروسية الأسئلة المكونة من الكلمتين « من (فى حالة الرفع) من (فى حالة الجر والنصب » امام اتباعه باعتبارها مشكلة رئيسية من مشكلات السياسة ، وكان المقصود هو :

من ذا الذى يكون موضع الافعال والاحداث وسيرها ، ومن الذى يكون هدفها وضحيتها ؟ — وفى أثناء كساد عام ١٩٣٢ كانت أغنية احتجاج المانية تقدم صورة ترتبط بهذا : « نريد ان تكون مطارق لا سنديانات ، من الاقوى ومن الضعيف ، من ذا الذى سوف يشق طريقه ، ومن ذا الذى سيضطر الى التسليم ؟ » .

مثل هذه الاسئلة لو وجهت عن الكثير من اللقاءات الممكنة او الفعلية بين عدد محدود من المتنافسين ، تؤدى الى قوائم بالترتيب — مثل مراقب اللاعبين فى مباريات التنس أو الشطرنج ، ودرجات نوادى البيسبول فى المسلسلات العالمية ، والقوى العظمى فى السياسة العالمية ، وكلما قلت اللقاءات الفعلية الحديثة التى حدثت بالصيغ ، عظم المدى الذى يجب عنده وضع قوائم الترتيب هذه على أساس فروض مبنية على الانجازات الماضية أو الحالية أو موارد المتبارين المتوقعة .

الامكانية المحتملة للقوة كما يستدل عليها من الموارد :

يقدم الجدول رقم (١) مثالا عن امكانية القوة النسبية لدى ائتلافين من الشعوب ، هنا تقاس قوة البلاد المتحالفة وبلاد المحور فى الحرب العـــالمية الثانية أو توضح بانتاج كل جانب من الذخائر خـــلال كل سنة ، كنسبة مئوية من الانتاج الكلى .

يبين الجدول ان دول المحـــــور انتجت من الذخائر اكثر بكثير مما انتجه الحلفـــــاء فى سنوات ١٩٣٥ و ١٩٣٩ و ١٩٤٠ و ١٩٤١ ، ولكن تفوقها تضاءل فى عام ١٩٤٠ وانتهى بشكل حاسم فى عامى ١٩٤١ ، ١٩٤٢ ، بعد نقطة التحول هذه راحت دول المحـــــور تتخلف باطراد الى أن انهارت كلية فى عام ١٩٤٥ .

وثمة مثال عن ترتيب نظـــرى لقوة الشعوب الكبرى خـــــلال الفترة ١٩٦٠ ــ ١٩٦٣ وعام ١٩٨٠ على التوالى ، يمكن أن تضربــــــه على أساس حسابات حديثة (الجدول ٢) أجراها أحد علمـــــاء الطبيعة فى المانيا الغربية .

فالاسقاطات حتى عام ١٩٨٠ الواردة فى الجــــدول (٢) مبنية على النمو المتوقع فى انتاج الصلب والطاقة بالنسبة الى الفرد ، وعلى مجموع السكان فى كل بلد . وبالنسبة الى الصين فى عام ١٩٨٠ يجرى التنبؤ بســـــكان يبلـــغ عددهم ٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠١ر١ وانتاج سنوى من الصلب « بالنسبة الى الفرد » تدره حوالى ٤٠٠ رطل أى ما يقرب من نصف مستوى الاتحــــــاد السوفييتى ومستوى اليابان ، أما انــــــه سوف يثبت ان هذه التنبؤات واقعية بالنسبة الى عام ١٩٨٠ أو حتى بالنسبة الى اى وقت بعد ذلك ، فامر لا يمكن بالطبع أن نتأكد منه حتى الآن ، وخاصة بعد النكسات التى أصابت النمو الاقتصادى الصينى فى أوائل الستينات ، وعلى أى حال يبدو من الجدير بالملاحظة انـــــه فى الاسقاطات أيضا ، تقدر قوة قوة أقوى بلد بمفرده فى الفترة ١٩٦٠ ــ ١٩٦٣ وكذلك فى عام ١٩٨٠ ، بأقل من نصف مجموع قوة البـــــلاد السبعة الأولى ، وهكذا .

الجدول (١)

النسبة المئوية من مجموع انتاج ذخائر القتال عند

المتحاربين الرئيسيين (١٩٣٨ — ١٩٤٤) (x)

البلــــد	١٩٣٨	١٩٣٩	١٩٤٠	١٩٤١	١٩٤٢	١٩٤٣
الولايات المتحدة	٦	٤	٧	١٤	٣٠	٧٠
كنــــدا	صفر	صفر	صفر	١	٢	٢
بريطانيا	٦	١٠	١٨	١٩	١٥	١٣
الاتحاد السوفييتى	٢٧	٣١	٢٣	٢٤	١٧	١٥
المجموع : البلاد المتحالفة	٣٩	٤٥	٤٨	٥٨	٦٤	٧٠
المانيــا (+)	٤٦	٤٣	٤٠	٣١	٢٧	٢٢
ايطـــاليا	٦	٤	٥	٤	٣	١
اليـــابان	٩	٨	٧	٧	٦	٧
المجموع : بلاد المحور	٦١	٥٥	٥٢	٤٢	٣٦	٣٠
المجموع الكلى	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠

(×) تشمل الطائرات ومعدات الجيش والمدافع الارضية والاشـــارة والسفن البحرية والمعدات المرتبطة بذلك .

(+) يشمل الأراضى المحتلة .

المصـــــــدر :

Klaus E. Knorr, The War Potential of Nations

(برنستون : مطبعة جامعة برنستون ، ١٩٥٦) ، ص ٣٤ .

يبين هذا الجدول ان دول المحـــــور انتجت فى اعوام ١٩٣٨ و ١٩٣٩ و ١٩٤٠ ذخائر اكثر مما انتجت الدول المتحالفة . ولكن تفوقها ما لبث ان تناقص عـــــام ١٩٤٠ ثم اختفى هذا التفوق فى عامى ١٩٤١ و ١٩٤٢ . وبعد نقطة التحول هذه تخلفت دول المحور وراء الحلفاء حتى انهارت نهائيا فى عام ١٩٤٥ . وقد لخص ونستون تشرشل الصورة بقوله « ان دفة ميزان القدر قد تغيرت ضدهم »

الجـــــدول (٢) :

النفقات العسكرية العالمية عام ١٩٧٣

البـــلد	مليارات (بالدولار الأمريكى)	النسبة المئوية للعالم
العــــالم	٢٤٤	١٠٠
١ ــ الولايات المتحدة	٧٨ر٤	٣٢ر٢
٢ ــ الاتحاد السوفييتى	٦٧ر ــ	٢٧ر٥
٣ ــ المانيا الغربية	١٢ر ــ	٤ر٩
٤ ــ الصين	١٢ر ــ	٤ر٩
٥ ــ فرنسا	٩ر٥	٣ر٩
٦ ــ المملكة المتحدة	٨ر٦	٣ر٥
٧ ــ ايطاليا	٤ر١	١ر٧
المجموع الفرعى (١ــ٧)	١٩١ر٧	٧٨ر٦
٨ ــ اسرائيل	٣ر٧	١ر٥
٩ ــ اليابان	٣ر٦	١ر٥
١٠ ــ المانيا الشرقية	٢ر٥	١ر ــ
١١ ــ كندا	٢ر٤	١ر ــ
١٢ ــ ايران	٢ر٣	ــ ر٩
١٣ ــ الهنــــد	٢ر٣	ــ ر٩
١٤ ــ هولندة	٢ر ــ	ر٨
١٥ ــ بولندة	٢ر ــ	ــ ر٨
المجموع الفرعى (٨ــ١٥)	٢٠ر٨	٨ر٥
١٦ ــ اسبانيا	١ر٩	ــ ر٨
١٧ ــ استراليا	١ر٨	ــ ر٧
١٨ ــ السويد	١ر٧	ــ ر٧
١٩ ــ مصر	١ر٧	ــ ر٧
٢٠ ــ تشيكوسلوفاكيا	١ر٧	ــ ر٧
٢١ ــ البرازيل	١ر٥	ــ ر٦
٢٢ ــ بلجيكا	١ر٣	ــ ر٥
٢٣ ــ المملكة السعودية	١ر١	ــ ر٥
المجموع (١٦ــ٢٣)	١٢ر٧	٥ر٢
المجـــموع	٢٢٥ر٢	٩٢ر٣

المصــــــدر :

Ruth Leger Sivard, World Military and Social Expenditure 1976 (Leesbury, Virginia, WMSE Publications, 1976) p. 15

الجدول ٣ ـــ بعض الترتيب الافتراضي لقوى الدول الكبرى

١٩٥٠		١٩٦١		١٩٧٢		١٩٩٠ (تقدير)		٢٠١٠ « تقدير »	
١ ـــ الولايات المتحدة	١٠٠	الولايات المتحدة	١٠٠	الولايات المتحدة	١٠٠	الولايات المتحده	١٠٠	الاتحاد السوفييتي	١٠٥
٢ ـــ الاتحاد السوفييتي	٣١	الاتحاد السوفييتي	٦٨	الاتحاد السوفييتي	٨٢	الاتحاد السوفييتي	٩٦	الولايات المتحدة	١٠٠
٣ ـــ بريطانيا	١٣	الصين	٣٦	الصين	٣٤	الصين	٤٣	اليابان	٥٠
٤ ـــ المانيا الغربيه	١٠	المانيا الغربيه	١٤	اليابان	٢٨	اليابان	٤٢	الصين	٤٨
٥ ـــ فرنسا	٥	اليابان	١٢	المانيا الغربيه	١٣	المانيا الغربية	١٢	المانيا الغربية	١٢
٦ ـــ اليابان	٤	بريطانيا	١١	بريطانيا	٨	كندا	٨	كندا	٩
٧ ـــ الهند	٣	الهنـــد	٧	الهند	٧	الهند	١٦	ايطاليا	٦
المجموع الفرعي (١ ـــ ٧)	١٦٦		٢٣٨		٢٧٣		٣٠٨		٣٢٠
٨ ـــ الصين	٣	فرنسا	٦	كندا	٦	بريطانيا	٦	الهند	٦
٩ ـــ بولندة	٣	بولندة	٤	فرنسا	٦	ايطاليا	٦	بولنده	٦
١٠ ـــ كندا	٢	كنـــدا	٣	بولنده	٥	فرنسا	٦	بولنده	٥
١١ ـــ تشيكوسلوفاكيا	١	ايطاليا	٣	ايطاليا	٤	بريطانيا	٥	فرنسا	٤
١٢ ـــ ايطاليا	١	تشيكوسلوفاكيا	٣	تشيكوسلوفاكيا	٣	تشيكوسلوفاكيا	٣	تشيكوسلوفاكيا	٢
المجموع الفرعي (٨ ـــ ١٢)	١٠		١٩		٢٤		٢٦		

● مبنى على اساس معدل مجمل انتاج الطاقة والصلب والعسكر التربيعي للسكان . واتخاذ الرقم الامريكي ١٠٠ كأساس وهذه البيانات ستحدث من Wilhelm Fucks, Formeln zur Macht; Prognosen Über Volker, Wirtschaft Potentiale.

ان هذه التقديرات لعامي ١٩٩٠ و ٢٠١٠ قد اجريت على اساس الافتراض بأن معدلات النمو الحقيقية (١٩٦٢ ـــ ١٩٧٢) ستستمر بدون (Stuttgart , Deutsche Verlagsanstalt, 1965) Figs 37 - 38, pp. 129-131

وهكذا في كلتا الفترتين ، لا يزال اقوى بلد مفرد لا يمثل سوى اقلية من حيث القوة العالمية .

واحيانا يطلق على مجموع موارد القوة عند شعب ، اصطلاح « قاعدة القوة » نظراً لانه ينظر اليها كالاساس الذى عليه يمكن تحويل القوة المحتملة الى واقع بدرجة اكبر او اصغر . وترتبط بهذا فكرة ولكنها مختلفة نوعا ، هي مفهوم « قيمة الاساس » كما يعرفه (بتشديد الراء) هارولد د . لا سول (بكسر الواو) وأبراهام كبلان . حسب هذا التفكير تكون قاعدة القوة للممثل « أ » (وحيث يمكن أن يكون أ شخصا او بلدا) ، عبارة عن مقدار قيمة ما بالنسبة الى الممثل (ب) الذى هو تحت سيطرة أ . فالممثل أ يسيطر على بعض زيادة ممكنة أو نقص ممكن في ثروة ب ورفاهيته او في التمتع بالاحترام . ولما كان ب يريد مزيدا من هذه القيمة التى يسيطر عليها أ ، فيجب على ب ان يحاول ارضاء أ حتى يغريه بأن يسمح له بمزيد من هذه القيمة . وهكذا اذا كان بلد يحتاج الى معونة اقتصادية ويريدها المجاعة ، واذا كانت الولايات المتحدة او الاتحاد السوفييتى يتحكمان في بعض كى يحسن تكنولوجيته ، أو اذا كان شعب جائع يحتاج الى القمح كى يتفادى المجاعة ، واذا كانت الولايات المتحدة او الاتحاد السوفييتى يتحكمان في بعض الامدادات ، ففى هذه الحالة تملك الولايات المتحدة (أو يملك الاتحاد السوفييتى) قاعدة قوة تمكنها من ممارسة نفوذ على هذه البلاد الاشد حاجة.

اما مدى الفعالية التى تستخدم بها الحكومة الامريكية او الحكومة السوفييتية قاعدة القوة او « قاعدة القيمة » هذه ليكون لها نفوذ فعلى وسلطة على سلوك بعض أو كل تلك البلاد بالنسبة الى بعض « مجال قيمة » من قبيل اعطاء أصوات لصالحها في الامم المتحدة وهى أصوات تسيطر عليها البلاد الفقيرة وتريدها البلاد الغنية ، نقول ان هذا كله مسألة اخرى بالطبع . ان قوة « أ » في جميع أمثال هذه الحالات مبنية على اشياء ثلاثة :

اولا : على فقر ب النسبى وحاجته الى بعض القيمة الاساسية التى يسيطر أ على قدر كبير منها .

ثانيا : على سيطرة ب على قدر مهم من مجال القيمة الذى يرغب فيه أ ويحاول الحصول عليه باستخدام سلطته على ب .

واخيرا : هو مهارة أ وفعاليته في تحويل الامكانية المحتملة لقاعدة القوة عنده الى سلطة فعلية على سلوك ب (١) .

---

(١) من اجل مناقشات اوسع للفكرة انظر **H. P. Laswell and A. Kaplan; Power and Society.**

(نيوهافن : مطبعة جامعة ييل ، ١٩٥٠) و
العلم السلوكى ، المجلد ١١ ، عدد رقم ٤ (يوليو ١٩٦٦) ، ص ٢٤٥ — ٢٥٢ .

وزن القوة كما يستدل عليه من النتائج :

والامكانية المحتملة للقوة تقدير تقريبي للموارد المادية والبشرية اللازمة للقوة ، ويمكن بطريق غير مباشر ، استخدامها للاستدلال على عدد ومبلغ ضروب النجاح التي ينبغي أن يحققها بلد في مسابقة من اجل القوة ، اذا استخدم موارده لما فيه مصلحته . لكن في الامكان قلب هذا الحساب راسا على عقب . يمكن ان تسأل : الى اى حد نجح هذا الممثل (هذا الزعيم ، هذه الحكومة ، او هذا الشعب) في تغيير نتيجة ما في العالم الخارجي ؟ وعندئذ يمكن أن نستدل على « وزن » قوته من مبلغ نجاحه . (ابعاد او نواحي القوة الرئيسية الأربع هي وزنها ومجالها ومداها ونطاقها » واقربهما الى الفكرة الوجدانية التي تساور معظمنا عندما نفكر في القوة) .

ان وزن قوة او تأثير ممثل على عملية ما هو إلى اى يستطيع ان يغير احتمال النتيجة التي تترتب على هذه العملية ، ويمكن قياس هذا باكبر قدر من السهولة حيث نبحث طائفــة تكرارية من نتائج مشابهة ، كالأصوات في الجمعية العامة التابعة للامم المتحدة . فاذا حــدث كمثال افتراضي ، ان المشروعات التي تؤيدها الولايات المتحدة في تلك الجمعية اجيزت بمتوسط ثلاث مرات من اربع او باحتمال قدره ٧٥ في المائة ، بينما المشروعات التي لم تؤيدها الولايات المتحدة لم تظفر بالموافقة الا في ٢٥ في المائة من المرات ، فعندئذ يجوز أن نقول أن تأييد الولايات المتحدة يمكن ان يجول فرص الموافقة على اقتراح في الجمعية العامة للامم المتحدة بمتوسط يتراوح من ٢٥ الى ٧٥ في المائة اى بنسبة بنوط قدرها ٥٠ في المائة ، وعندئذ تكون النسبة الاخيـرة مقياسا لمتوسط وزن قوة الولايات المتحدة في الجمعية خلال الفترة موضـع الدراسة (المقياس تقريبي ، وقد ينطوى على تقليل لنفوذ الولايات المتحدة الحقيقى نظـــراً لان الكثير من الاقتراحـــات المحتملة التي تعارضهـــا الولايات المتحدة ، قد تبدو ميئوسا منها في نظر من ينتظر ان يتبنوها بحيث انها قد لا تقدم وبذا قد لا تدخل في احصائيتنا) .

وحساب او تقدير وزن القوة اشد صعوبة عندما نبحث حادثا مفردا . فاذا كانت قوة القنابل الذريـــة التي القيت على هيروشيما في السادس من اغسطس ١٩٤٠ (او القنبلة التي احرقت نجازاكي بعد ذلك بثلاثة ايــام) في التعجيل باستسلام اليابان وفي تقصير امد الحرب العالمية الثانية ؟ في راى احد الخبراء في شئون اليابان وهو الاستاذ ادوين او . رايشاور الذى كــان سفيرا للولايات المتحدة لدى اليابان خلال السنوات ١٩٦١ — ١٩٦٧ ، ان القنابل لم تقصر امد الحرب الا بايام قلائل (٢) . ولاصدار اى حــكم كهذا

(٢) E, O. Reischawer, the United Stated and Japan.
طبعة منقحة (نيويورك : فايكنج برس ، ١٩٦٢) ، ص ٢٤٠ .

من الضرورى أن تتخيل ان الحادث اى اسقاط القنبلة فى وقت كــانت اليابان فيه مهزومة ومنهوكة القوى الى حد كبير ، وكانت حكومتها تبحث عن طريقة للتسليم ، تكرر مرات كثيرة . عندئذ قد يضطر المرء الى أن يتخيل ما كــان يحدث فى المتوسط فى جميع تلك الحالات المحلية التى كــانت تلقى فيها مثل هذه القنبلة ، مقابل متوسط النتيجة فى جميع تلك الحالات المتخيلة التى لم يحدث فيها هــذا .

هذا يبدو خياليا ، ولكنه ليس كذلك « اجل ، انه ليس مختلفا جدا عن تفكير مهندس فى السبب الذى أدى الى انهيار كوبرى معين ، أو تفــكير طبيب فى السبب الذى ادى الى موت أو شفاء مريض معين . فى جميع هذه الحالات ، وحتى يتسنى تقدير تأثير ما حدث ــ وربما تقدير ما كان ينبغى أن يحدث على أساس « والممارسة الطبية » تحول الحادث الفريد الى واحد من اعضاء فئة تكرارية من أحداث افتراضية شبيهة تماما به ، وعندئذ نحاول تقدير مدى واحتمال نتائج بديلة فى وجود وفى غياب ، على التوالى ، الفعل أو الحالة التى نريد أن نقيس قوته ، وعندئذ نستدل على قوة الممثل فى الموقف من قوة الفعل أو الحالة التى يسيطر عليها .

والقوة التى تنظر اليها بهذه الطريقة تشبه العلية كثيرا ، ووزن قوة ممثل هى تلك الاسباب المؤدية الى نتيجة ما والتى يسيطر عليها .

بالقياس الى حكومات القرون الماضية زادت حكومات العصر الحديث من سلطتها على شعوبها الى حدكبير ، فالضرائب تجبى والجنودتجند ، والقوانين تنفذ ، والخارجون على القانون يقبض عليهم ، كل هذا باحتمال يزيد كثيرا عما كان يمكن أن يحلم به معظم حكام العصور الوسطى ، وبالاشارة ذاتها ، فان وزن قوة حكومات البلاد التى بلغت مبلغا عاليا من التصنيع ، اكبر كثيرا فى العادة منه فى البلاد المعاصرة التى لا تزال فى المراحل المبكرة من التطور الصناعى . كذلك بين حكومات الاخيرة يتفاوت وزن القوة الداخلية تفاوتا واسعا .

على العكس من هذا ، ففى السياسة العالميــة كان وزن قوة معظــم الحكومات وخاصة حكومات الدول الكبرى ، يسير فى طريق التناقص باستمرار منذ عــام ١٩٤٥ . فما من حكومة اليــوم لهــا من السيطرة على ما يحتمــل أن تسفر عنــه الشئون العالميــة من نتائج مثل ما كان لبريطانيا العظمــى مثلا فيما بين عامى ١٨٧٠ ، ١٩٣٥ . فلا تستطيع بريطانيا فى الوقت الحاضر

ان تسيطر على مستعمراتها السابقة ، ولا تستطيع الولايات المتحدة السيطرة على فرنسا او كوبا ، ولا يستطيع الاتحاد السوفيتى ذلك بالنسبة الى يوغوسلافيا او الصين ، ولا تستطيع الصين ان تسيطر على جيرانها . ان المحاولة التى قام بها السوفييت للسيطرة على سياسة تشيكوسلوفاكيا عن طريق احتلال عسكرى فى اغسطس ١٩٦٨، هذه المحاولة بدا انها لا توفر ضمانا دائما بالنجاح . سوف تشغلنا فيما بعد اسباب هذا الهبوط فى وزن قوة معظم البلاد الكبيرة ، ولكن الحقيقة تستاهل ان نلاحظها الآن .

اذا امعنا النظر فى الامر فقد يتضح لنا ان وزن القوة يشتمل على تصورين مختلفين ، اولهما يتعلق بالقدرة على التقيل من احتمال نشوء نتيجة لم يرغب فيها احد الممثلين ، ففى السياسة الداخلية تتحدث احيانا عن « جماعات الفيتو » الذين يستطيعون منع تشريع ينفرون منه او يجعلون سنه امرا غير محتمل . ونجد فى السياسة الدولية قوة اعتراض كبيرة جدا يمنحها ميثاق الامم المتحدة رسميا للاعضاء الدائمين الخمسة فى مجلس الامن ، ويمكن ان نتحدث وبصورة رسمية اقل من هذا ، عن قوة شعب على منع اعطاء ارض او اقليم او نفوذ لحكومة او ايديولوجية اخرى؛ وهكذا حالت الولايات المتحدة بنجاح فى الخمسينات دون استيلاء المهاجمين من الكوريين الشماليين على كوريا الجنوبية ، ومنعت الفييت كونج فى اوائل الستينات من السيطرة على الكثير من فيتنام الجنوبية .

ينبغى أن يكون من السهل ان نرى السبب فى أن الامر كذلك . فأولا ، يمكن أن تكون النتيجة التى قد نرغب فى منعها ، غير محتملة جدا . لنفرض ان حملة قامت بها عصابات شيوعية فى بلد اسيوى أو افريقى كانت الفرصة امامها لاقامة نظام حكم شيوعى هناك بنسبة واحد الى ثلاثة اى الثلث فى تلك الحالة فان تدخلا مضادا للشيوعيين تقوم به قوة اجنبية وتنفذه بقوة محدودة ، ولنقل بحوالى ٢٨ فى المائة ، هذا التدخل يمكن ان يقلل من فرص النجاح هذه امام العصابات من ٣٣ فى المائة الى ٥ فقط ، وتخلق احتمالا باخفاقهم بنسبة ٩٥ فى المائة أو ١٩ : ١ وهكذا فالنتيجة المحتملة بدرجة معتدلة يمكن أن تصبح غير محتملة الى حد كبير عن طريق استخدام حتى قدر محدود نسبيا من القوة ، فى امثال هذه المواقف سوف تبدو لنا احتمالات هذه النتيجة المعينة حاسمة تماما ، ويبدو أن هذا القدر المحدود من القوة غير قلقا كبيرا الى حالة تقرب من اليقين ، وبذا اسفر عن نتائج جديرة بالنظر .

لكن نفس الدرجة من القوة تولد نتائج اتمثل لفتا للنظر بكثير ، عندما تستخدم لتحقيق نتيجة غير محتملة نوعا اولا . فلو اردنا اقامة نظام حكم دستورى وديموقراطى ثابت فى البلد الاسيوى او الافريقى الذى

تصورناه والذى يمزقه الصراع ، فقد يلزم ان نتذكر ان حوالى واحد من كل ٢٠ من البلاد الفقيرة جدا فى العالم لا به شكل من الحكم ديموقراطى ثابت وينزل على أحكام القانون . كانت الهند من هذه الاسئلة النادرة خلال العقدين الماضيين ، ولكن لا توجد بلاد كثيرة جدا غيرها ، والاخرى ان الاكثر حدوثا كان البدائل الكثيرة عن الديموقراطية ، من قبيل الدكتاتوريات والزمر العسكرية ، وحكومات الاقلية الفاسدة المستترة وراء واجهات دستورية ، والاحتلال الاجنبى او الادارة الاستعمارية ، والنظم المدنية القائمة على وجود حزب واحد ، وتعاقب الانقلابات أو الحروب الاهلية ، او ارتباط وتعاقب هذه جميعا . ولكن اذا كانت فرصة الديموقراطية فى بلد حديث العهد ٥ فى المائة فقط ، فعندئذ يظل استخدام قوة وزنها ٢٨ فى المائة لا يسفر الا عن احتمال فى قدره ٣٣ فى المائة بنجاح اقامة نظام ديموقراطى فى ذلك البلد ، وهذا يجعل فرصة الفشل ، ٢ : ١ .

فى الحقيقة فحتى هذا الحساب متفائل اكثر بكثير مما يجب ، لانه افترض بغير مبرر أن القدرة على تحقيق نتيجة واحدة يمكن تحويلها دون خسارة الى نفس القدر من القدرة على تحقيق أخرى . نعرف جيدا جدا أن هذا ليس صحيحا وحسب ، فالقدرة على توجيه ضربة قاضية الى رجل لا تعطينا القدرة على تعليمه العزف على البيانو أو اجراء الحساب أو معالجة الارقام ، والقدرة على قصف قرية واحراقها لا يمكن تحويلها تماما أو بسهولة الى القدرة على كسب مشاعر العطف من جانب أهلها أو على حكمها بموافقتهم ، واقل من هذا انه لا يمكن تحويلها الى القدرة على ان تخلق الكثير من المهارات والقيم وضروب الولاء الذى يمنح بغير مقابل ، مما هو أساسى بالنسبة الى الحكم الديموقراطى .

كلما زاد الطابع النوعى الخاص لنتيجة ايجابية ، زاد عدد ما تستبعده من البديلات ، ومن هنا تكون فى العادة أبعد احتمالا وبذا تزداد صعوبة جعلها محتملة الى حد كبير عن طريق استخدام القوة المحدودة . وعلى ذلك تكون القوة المحدودة أشد مفعولا اذا استخدمت بطريقة سلبية كقوة الفيتو أو قوة الحيلولة دون نتيجة مخصوصة الى درجة عالية ، لانها فى هذه الحالة تستخدم (فى الواقع) ازيادة سلسلة باسرها من البدائل الممكنة ، دون اعتبار كبير أو دون نظر الى البديل المعين الذى سوف يستخدم .

ان القدرة على زيادة احتمال وقوع نتيجة ايجابية مخصوصة هى القدرة على **تحقيق الاهداف** وعلى **السيطرة** على بيئة المرء . فعلى غرار كل تحقيق للاهداف وكل سيطرة ، فهى تعنى بالضرورة درجة عالية من ضبط النفس من جانب المثل ، يستطيع فيل مهاجم أن يحطم عقبة كبيرة

ولكن لا يستطيع ان يولج خيطا في سم إبرة . اجل ، لا يستطيع ان يدور على هيئة زاوية قائمة في اثرة نصف قطرها ثلاثة اقدام . فكلما زادت قوة الفيل البهيمية وحجمه وسرعته وقوة اندفاعه ، كان اصعب عليه ان يسيطر على حركاته واصبحت سيطرته اقل دقة . يعرف معظمنا شيئا مشابها من قيادة السيارات ، فكلما كانت السيارة أكبر واثقل واسرع واقوى كانت قيادتها اصعب ، وعلى ذلك فان محاولة قياس قوتها على أساس ادائها ، تعطينا على الاقل رقمين أو عددين تقديرين مختلفين ــ تقدير عال عن قدرتها على الاسراع ، ولكن تعطينا رقما منخفضا عن قدرتها على الوقوف او الدوران

هل يصدق شيء شبيه بهذا على قوة الحكومات والشعوب ؟ كلما كان البلد كبيرا وزاد عدد سكانه وارتفعت نسب سكانه وموارده التي عبئت من أجل انتهاج سياسة ما (ويمكن أن نضيف كلما كان التزامهم العاطفي بتلك السياسة اشد بغير تحفظات) زاد الاحتمال بأن تكون قدرة ذلك البلد وحكومته على التغلب على اية عقبات أو مقاومة في طريقه . ولكن السياسات القومية تتطلب في العادة ما هو أكثر من مجرد التغلب على المقاومة ، فكثيرا ما تهدف الى تحقيق نتائج ايجابية خاصة ، وعلى ذلك كثيرا ما تتطلب السعي وراء هدف دائم عن طريق سلسلة من التكتيكات المتغيرة او حتى زيادة قيمة أساسية ما عن طريق تعاقب أهداف متغيرة . لكن كلما زاد التزام الناس والموارد بالتكتيكات والسياسات أو الاهداف السابقة ، وكلما كان ذلك الالتزام أقوى وبغير تحفظ ، عظمت الاهتمامات والحياة العملية والسمعة والعواطف التي كرست على هذا النحو ، وصعب على اى عضو بالحكومة أو حتى الحكومة بأسرها ، اقتراح اجراء تغيير . وعلى ذلك اذا لم تتخذ احتياطات كبيرة وفي الوقت المناسب ، فقد تصبح الحكومات اسرى سياساتها الماضية وقد تدفع بها قوتها وبطريقة عمياء الى مأزق او مصيدة .

هذه الاخطار تميل الى أن تزداد مع مبلغ القوة الوطنية وكثافة الجهود التي تبذل من أجل زيادتها . هذه الاخطار الناجمة من فقدان ضبط النفس بصفة جزئية ، أكبر ما تكون في العادة بالنسبة الى الشعوب الكبيرة منها بالنسبة الى الصغيرة ، والى الدكتاتوريات منها الى الديموقراطيات ، والى أوقات الحرب والاقتراب من الحرب منها الى أوقات السلم . فاذا لم تتخذ الاحتياطات ضد هذه الاخطار فان وزن القوة في الاجل الطويل قد يؤدى بصفة جزئية الى أن يهزم نفسه او يقضي عليها .

بعض ابعاد اخرى للقوة

المجال والمدى والنطاق :

من الذين تمارس السلطة عليهم ؟ ينحصر الجواب على هذا السؤال في مجال السلطة — اى مجموع الاشخاص الذين يتغير سلوكهم المحتمل تغييرا له شأنه نتيجة استخدامها . فمجال سلطة رئيس قرية تنحصر بوجه خاص فى أهلها ! وسلطة حكومة السويد مقصورة الى حد كبير على السويد ولكنها تشمل ايضا السفن السويدية والمواطنين السويديين فى الخارج ، ومجالات حكومة الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى مقصورة الى حد كبير على بلد كل منهما — وعلى سفنهما وقواتهما وقواعدهما ومواطنيهما فى الخارج — ولكنهما يؤثران بطرق اخرى ومهمة فى سلوك كل منهما وفى مصير معظم النوع البشرى ، على الاقل بطريق غير مباشر .

وقد يكون لبعض القوى مجالات تتجاوز الحدود القومية بطرق اخرى . نظرا لان الكاثوليك من اتباع الكنيسة الرومانية يتبعون أقوالها فى مسائل ذات اهمية سياسية ، أو فى مسائل تتداخل فيها السياسة والمذهب الدينى (كما بالنسبة الى السياسة العامة بشأن النمو الديموجرافى وتعليم وسائل تنظيم النسل) ، فان قوة البابا السياسية أو نفوذه السياسى يصلان الى بلاد كثيرة . ويصدق الشىء نفسه على الكثير من الاديان الاخر نظرا لان جميع الاديان الكبرى بالعالم تعلم الناس ، بطريق سافر أو ضمنى ، أن هناك قانونا اخلاقيا أعلى وسلطة اخلاقية أعلى من السياسات المتغيرة التى تنتهجها اية دولية قومية . وكل دين من هذا القبيل ، اذ يفسر هذا القانون الاخلاقى ، يخلق فرصا لممارسة الزعامة الروحية والتأثير ، ومن الممكن تماما السلطة عبر حدود الشعوب .

ويصدق بالطبع ، شىء شبيه على بعض الايديولوجيات العلمانية . فدرجة اتباع الشيوعيين فى بلاد كثيرة توجيهات موسكو وسياساتها فى كل تغيير يطرأ على سير الاحداث ، نقول ان هذا الامر كان مشهورا . ومنذ ظهور صور عدة من المذهب الشيوعى — مثل الصينية واليوغوسلافية والروسية وكل منها تساندها حكومة قائمة ، قلت بشكل ملحوظ درجة امتثال الحركات الشيوعية فى الخارج للأوامر التى تصدر عن أىّ مركز واحد من مراكز التوجيه ، ولكن هذا الامتثال لم يختف بالتأكيد حتى وقتنا هذا . (حاول التشيكون أيضا ان يطبقوا صورة خاصة بهم واكثر ليبرالية ، الى ان احتل السوفييت بلدهم فى اغسطس من عام ١٩٦٨) . والى درجة اقل نجد ان انصار الفلسفات او الايديولوجيات الاخرى ، مثل المحافظين والملكيين والاحرار والاشتراكيين والوجوديين ، وانصار المشروع الخاص الحر ، حاولوا جميعا احيانا ان يفرضوا

بعض النفوذ أو السلطة على جماعات أسهل اتصالا وادنى الى تقبل افكارهم، فى بلاد اخرى، وبذلك يمدون مجال قوتهم .

ومجال القــوة السياسية يكمن دائما وبصورة جوهــرية، فى مجمــوع الناس الذين يخضعون لها ويطيعونها . ويشــار اليها بصورة اقل تماسكا ، على انها المنطقــة الجغرافية التى تجرى فيها ممارسة السلطة على معظــم السكان ، من المهم أن نكون واضحين بصدد المقصود من استخدامها . ان اول (وافضل) معنى لمجــال قــوة حكومة ، انما يقتصر على الاشخاص فى اقليم ممن يطيعون أوامــر الحكومة أو على الاقل يمتثلون لها بطريقة سلبية ، بينما المعنى الثانى وهو تعريف جغرافى لمجــال حكومــة ما ، يشــتمل حتى على العصابات القائمة فى أرضها وتحارب حكمها ــ على الاقل طالما لا تنجح هــذه العصابات فى تحويل بعض النواحى الى مجال ثابت خاص بها .

وثمة معنى ممكن ثالث لمجــال القوة ، قــد لا يشمل فحسب الاشخاص الخاضعين لها او الذين يطيعونها ، وانمــا يشمل ايضا مقادير الارض والسلع الرأسمالية والموارد الصــامة التى يسيطرون عليها . طبقــا لهذا المنطق تكون القــوة المفروضة على مائــة من الفقــراء المعدمين اقل منها على مائة رجــل حسنى الاعداد وتحت تصرفهم موارد وفيرة . وهذه الفكــرة الثالثة عن مجال القــوة تقرب من فكرتنا السابق عرضها ، عن القــوة وتفسيرها على اساس مجموعة من الموارد .

الجـــدول (٤)

ميـــدان القـــوة الوطنية على اساس السكان فى عـــام ١٩٦٢

المرتبـــة	السكان بالملايين	كنسبة مئوية من مجموع
١ ــ الصين	٧٠٠	٢٢
٢ ــ الهنـــــد	٤٤٩	١٤
المجموع الفـــرعى : ١ ــ ٢	١ر١٤٩	٣٦
٣ ــ الإتحاد السوفيتى	٢٢١	٧
٤ ــ الولايات المتحـــدة	١٨٧	٦
المجموع الفرعى : ٣ ــ ٤	٤٠٨	١٣
٥ ــ اندونيسيا	٩٨	٣
٦ ــ باكستان	٩٧	٣
٧ ــ اليـــابان	٩٥	٣
٨ ــ البرازيـــل	٧٥	٢
٩ ــ المانيـــا الغربيـــة	٥٤	٢
١٠ ــ المملكـــة المتحـــدة	٥٣	٢
١١ ــ ايطاليـــا	٥٠	٢
١٢ ــ فرنســـا	٤٧	٢
المجموع الفرعى : ٥ ــ ١٢	٥٦٩	١٩
١٣ ــ المكسيك	٣٧	١
١٤ ــ نيجيريـــا	٣٦	١
١٥ ــ اســـبانيا	٣١	١
١٦ ــ بولنـــدا	٣٠	١
المجموع الفرعى : ١٣ ــ ١٦	١٣٤	٤
المجموع الكلى	٢ر٢٦٠	٧٢

المصـــدر : البيانات فى :

K. W. Deutsch, Nationalism and Social Communication

طبعة منقحة ، كمبروج ١٩٦٦ ، ص ٦٥ .

M. I. T. Press.

لقد استخدمت الافكار الثلاث كلها عن مجال القوة اذا اعتلنا مؤقتا لمكانية وجود شعوب وجهات فى بلد ما تسودهم روح السخط والتمرد اذن فى هذه الحالة يمكن أن تقيس مجال حكومته المباشر ، على اساس عدد سكانه حسب الفكرة الاولى ، ومساحته حسب معنى الفكرة الثانى ، ومنتجه القومى الاجمالى طبقا للمعنى الثالث .

ويقدم الجدول (٣) مقارنة عن مجالات قوة بعض البلاد الرئيسية بالعالم طبقا للفكرة الاولى عن المجال (اى السكان) . هذا يتجاهل بالطبع الشعوب القائمة خارج الحدود السياسية لكل بلد قد لا يزال خاضعا لسلطته ولكنه لا يزال يستأهل اخذه فى الاعتبار .

ونحصل على قائمة عن الترتيب مختلفة نوعا ، ومبنية على الفكرة الجغرافية عن المجال ، كما تظهر فى الجدول (٥) .

الجدول (٥)

مجال القوة الوطنية على اساس المساحة فى عام ١٩٦٢

الترتيب	المساحة بملايين الكيلو مترات المربعة	كنسبة مئوية من مجموع مساحة العالم
١ — الاتحاد السوفيتى	٢٢٫٥	١٧
٢ — كندا	١٠٫٠	٨
٣ — الصين	١٠٫٠	٨
٤ — الولايات المتحدة	٩٫٥	٧
٥ — البرازيل	٨٫٥	٧
٦ — استراليا	٧٫٥	٦
المجموع الفرعى : ١ — ٦	٦٨	٥٣
٧ — الهند	٣٫٥	٣
٨ — الأرجنتين	٣٫٠	٢
٩ — السودان	٢٫٥	٢
١٠ — الجزائر	٢٫٥	٢
١١ — الكنغو (ليوبولدفيل)	٢٫٥	٢
١٢ — المكسيك	٢٫٠	١٫٥
١٣ — ليبيا	٢٫٠	١٫٥
١٤ — ايران	١٫٥	١٫٥
١٥ — العربية السعودية	١٫٥	١
١٦ — جمهورية منغوليا الشعبية	١٫٥	١
١٧ — بيرو	١٫٥	١
المجموع الفرعى : ٧ — ١٧	٢٤٫٠	١٨٫٥
المجموع الكلى :	٩٢٫٠	٧١٫٥

تستخدم النسبة المئوية من المجموع العالمى مساحة كلية للارض تدرها ١٣٠ر٢٥١ر٧٢٤ من الكيلو مترات المربعة (تقترب الى ٤ر١٣٠) وهى مجموع مساحات أراضى ١١٣ بلدا واردة فى « الخلاصة العالمية » وفى « الخلاصة العالمية» وفى « الكتب السنوية » الاحصائية التى تصدرها الامم المتحدة . وتشتمل البيانات عن كل بلد على المياه الداخلية والارض غير المسكونة والواقعة داخل حدوده ، واستبعدنا فى العادة المناطق الخالية من السكان تماما (الاقاليم القطبية وبعض الجزر الصغيرة) . ويورد « World Geographic Atlas : A Composite of Man's Environment ».

الذى صممه وأشرف على تحريره هربرت باير بشيكاغو وطبع لحساب شركة Container of America ، ١٩٥٣ ، ص ٢٤ — ٢٥) رقما اجماليا تدره — ٠٤٩ر٣٠٣ر٦٦٦ر١٥٤ كم^2 (يحول الى ٦ر١٤٥) — يمثل مجموع مساحة اليابس بالعالم (بما فيه منطقة القطب الجنوبى ولكنه خلاف مجموع مساحة المسطحات المائية بالعالم) . اذا أردنا استخدام هذا الرقم الثانى لكانت التغيرات فى الانصبة المئوية للبلاد المختلفة غير ذات اهمية ، جميع الارقام والمجاميع عرضة للخطأ عند ما نستبعد الكسور .

المصدر : البيانات الواردة فى : B. H. Russert, et al. world Handbook of Political and Social Indicators

(نيوهافن : مطبعة جامعة بيل ، ١٩٦٤) ، ص ١٣٩ .

والقائمة الثالثة عن ترتيب مجالات القوة ، وربما تكون من نواح ما ، أكثر القوائم واقعية ، هى التى اعدت على اساس المنتج القومى الاجمالى كما يظهر فى الجدول (٦) .

مجال القوة الوطنية على أساس الأنتاج القومى

الاجمالى فى عـــام ١٩٦٢

المرتبـــة	الانتاج القومى الاجمـــالى (بالبلايين)		كنسبة مئوية من المجموع العالمى	
١ ــ الولايات المتحدة	٥٥٦		٣٣	
٢ ــ الاتحـــاد السوفيتى	٢٥٦		١٥	
المجموع الفرعى : ١ ــ ٢		٨١٢		٤٨
٣ ــ المانيـــا الغربيـــة	٨٩		٥	
٤ ــ المملكـــة المتحـــدة	٨٩		٥	
٥ ــ فرنســـا	٧٩		٤	
٦ ــ الصين	٦٠		٤	
٧ ــ اليـــابان	٥٦		٣	
٨ ــ ايطاليـــــا	٥٣		٣	
المجموع الفرعى : ٣ ــ ٨		٤٢٦		١٤
٩ ــ كنـــــدا	٣٩		٢	
١٠ ــ الهنـــــد	٣٣		٢	
١١ ــ بولنـــــدا	٢١		١	
١٢ ــ اســـتراليا	١٩		١	
١٣ ــ المانيـــا الشرقيـــة	١٧		١	
١٤ ــ الأراضى الواطئـــــة	١٦		١	
١٥ ــ الســـويد	١٦		١	
١٦ ــ المكسيك	١٥ (*)		١	
١٧ ــ البرازيـــل	١٥		١	
المجموع الفرعى : ٩ ــ ١٧		١٨٧		١١
المجموع الكلى		١٤٢٤ر١		٨٣

(*) مقدر من المنتج المحلى الاجمالى

المصدر : البيانات من كتاب ك . و . دويتش ، مصدر سابق ص ٦٧

يمكن مد نطـــاق المجال ليشمل مجـــالات المعرفة والتكنولوجيا ونظم الاسلحة .

ما نسبة الذين تلقاهم فى مجـــال هذه الحكومة أو تلك ، من علماء العالم الذين يحملون درجـــة الدكتوراه فى الفلسفة أو ما يعادلها ؟ ربمـــا الولايات المتحدة وبها أكثـــر من ١٠٠,٠٠٠ عالم فى هذا المستوى ، قـــد تضم أكثـــر من ربع العلماء فى العالم ، وقـــد يكون نصيب الاتحاد السوفيتى بنفس القـــدر تحت سيطرة حكومتى هذين البلدين العملاقين ما يزيـــد عن نصف العلمـــاء على ظهـــر هذا الكوكب ـــ وهى نسبة تزيـــد عن نصيب كل منهما من الدخـــل العالمى ، ويمكن عمل حساب مشابه بالنسبة الى متوسط نصيب كل بلد سنويا من الابحاث العلميـــة المنشورة فى العالم . والمفروض أن تسفر نتائج هـــذا الحساب عن ترتيبات قوميـــة متشابهة عن المرتبـــة وانصبة مئوية أكثـــر مما تبينـــه اعـــداد العلماء ، ولكن يمكن أن تفيـــد كأدوات للمراجعـــة وملاحق لتعويض البيانات الناقصـــة .

وثمـــة امتـــداد آخـــر لفكـــرة المجـــال نطبقها على نظم الاســـلحة . هنـــا أيضـــا تتداخل فكـــرة المجـــال مع فكـــرة الموارد ، فأى الحكومـــات تسيطر على اية احجام من الجيوش والقوات البحرية والقـــوى الصاروخية ونظم الاسلحة النووية ؟ ما انصبة حكومة معينة فى المجاميع العالميـــة من كل من هذه ؟ يعـــرض الجدول (٧) بعض تقديرات تقريبية للغاية وعلى سبيل التجـــربة .

ويبين الجدول وحسب الفروض المبنى على أساسها ، كيف يبدو ترتيب القوى النووية ثابتـــا الى ان تصل احداها الى مستوى التشبع المفـــروض ويزيـــد على ١٠,٠٠٠ من الرؤوس النووية . ومع كل يبين ايضـــا وطبقـــا للفروض ذاتها ، أن هنـــاك خمســـة بلاد كانت تملك « قـــوة الفيتو » فى عام ١٩٦٧ ، بمعنى أن كـــلا منها يملك القدرة على ردع اى هجوم عليـــه بالتهديد بأن يلحق بالذين يهاجمونه خسارة لا قبل لهم بها . الحقيقة هى انه حتى اثنتى عشرة رأسا نووية فيها الكفاية كى تهدد بتدمير عاصمة البلد العـــدو والكثير من صفوة الحكومة المركزية ومدن الحواضر ، اى تهدد بدرجـــة مـــن الخسارة لا تستطيع معظم الحكومات العاقلة أن تعتبرها ثمنا مقبولا مقـــابـــل السعى وراء اى هـــدف خارجى أو بعيد ولكن فى الوقت نفسه ، قد لا يكفى حتى التهديد باطلاق ١٠,٠٠٠ رأس ذرية لاجبار بلد على التسليم الكـــامل فى اقليمه الرئيسى وعلى التنـــازل عن قيمـــه الغـــالبة وانمـــاط عاداتـــه ومؤسساته ومجموعات الصفوة فيـــه ، وبعبارة أخـــرى نقـــول ان للابتزاز النووى حدوده . فماذا حدث خلال العقد التالى ، ان انتشرت الاسلحة النووية الى ستة بلاد اخرى او اكثـــر ، فهذا قـــد يجعل من الصعب على اى بلـــد

ان يسيطر على العالم كما يجعل العالم اشد خطرا ، ولن تعود «القنبلة» تشكل عونا كثيرا لاى بلد يحاول تحقيق اية اهداف سياسية ايجابية ذات شأن .

وتثير الاسلحة النووية أيضا مشكلة مدى القوة . هذا المدى (كما سنستخدم المصطلح)هو الفرق بين اعلى جزاء (او « انغماس » واسوأ عقاب (أو حرمان) يمكن لصاحب القوة ان ينعم به على شخص (او يلحق به) فى مجاله . ويرغم انه قد يكون لدى حاكم الكثير من الرجال فى مجاله ، فقد يكون مدى سلطته على بعضهم اقل منه على غيرهم ، وسوف تكون سلطته صغيرة حقا على الذين لا يريدون شيئا ولايخافون شيئا .

خلال القرون الحديثة مالت قوة الحكومات فى السياسة الداخلية الى التناقض . فالمكافآت التى تتسم بالبذخ والاسراف (كاعطاء شخص وزنه ذهبا او تزويجه من ابنة الملك) والعقوبات المسرفة فى القسوة كأن يجر شخص ويجلد ، أو يحرق حيا على الخازوق او يضرب علانية حتى الموت) ، نقول ان هذه زالت فى معظم البلدان ، واصبحت شائنة فى كل مكان تقريبا . وبقدر ما تعتمد الدول الحديثة على القوة ، فانها فى العادة لا تحكم عن طريق مدى قوتها وانما الاخرى انها تحكم عن طريق وزن هذه القوة ـ اى عن طريق الاحتمال الكبير بتنفيذ اوامرها . ان الطغاة الذين يعتمدون اساسا فى قوتهم الداخلية ، على مدى ما يمنحون من مكافآت مهلة ، وما يصيبون من عقوبات قاسية ، هؤلاء لا يحتمل أن يدوموا وقتا طويلا جدا فى ظل ظروف اليوم .

وفى السنوات الحديثة احيانا بدت الامور تميل فى اتجاه مختلف فى السياسة الدولية . هنا ، يبدو أن الحكومات زادت من مدى ما تمنح من مكافآت وما تهدد به من عقوبات ، وذلك فى جهودها للسيطرة على البلاد الأخرى وحكوماتها . من المؤكد أن الاعانات والقروض الخارجية تمنح بسخاء اكثر منه فى بداية هذا القرن . وفى منتصف الستينات استخدمت بعض الحكومات التهديد والقصف من الجو من ما يصحبه من قتل المدنيين بما فيهم النساء والاطفال ، وكان استخدامها لهذا كله على نطاق أوسع مما كان يظن انه يتفق مع المستويات المتحضرة منذ ٦٠ سنة خلت ، عندما كتبت اتفاقات لاهاى ولقيت القبول . وزاد التهديد بمذابح نووية شاملة من توسيع مدى التهديدات المتاحة الآن للقوى الكبيرة وحكامها ، والواقع انه فى أزمة كوبا عام ١٩٦٢ استخدمت الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى بالفعل أمثال هذه التهديدات بعبارة مقنعة (بتشديد النون) ولكن لا يمكن ان يخطئها النظر .

لكن فى الحقيقة أن آثار هذا التوسع المؤقت فى مدى القـــوة فى السياسة الدوليـــة كانت محدودة تماما ، فأسلوب السيطرة على الحكومات الاجنبية عن طريق الهبات والقروض ، أصبح الآن ذا سمعة سيئة ، فاذ كـــانت القـــوى المتنافسة راغبـــة فى مواصلة تقديم جزء على الاقل من الاعانات ذاتها فـــان ما تكسبه معظم بلاد العالم الثالث أو تخسره من جراء التحول من منعم الى آخر - قليل أو من طلب الاعانات من اثنين أو أكثـــر منهم فى نفس الوقت الواحد . وبالمثل يمكن اضعاف اى تهديد ، أو الحـــد منـــه بطلب الحماية من قـــوة منافســـة أو بالتهديد بالثأر اذا كـــان للبلد على الأقـــل قـــدر صغير من القـــوة الرادعـــة . وكانت النتيجـــة أن التوسع الحديث فى مدى استخدام القـــوة فى السياسة الدوليـــة ، جعل أيـــة سياسة خارجية نشيطة وطموحة ، أكثر تكلفـــة دون أن تجعل ثمارها أوفر أو أدنى الى الوثوق بها .

وثمة بعـــد آخر للقـــوة السياسية توسع فى العقـــود الزمنية القريبة العهـــد منا هو **نطـــاقها** ، وهو توسع كانت له ولاتزال عواقب خطيرة . اننا نعنى بنطاق القـــوة تلك الطائفـــة أو المجموعـــة من جميع الانواع الخاصة أو طبقات العلاقات والشئون السلوكيـــة التـــى يجرى اخضاعها له بشكل فعـــال . فنطـــاق سلطة جميع أنشطة الطفل تقريبا . الا أنـــه محدود بمعنى آخـــر ، ذلك انـــه لـــو كـــان فى امكـــان الابوين ان يسيطرا على جميع انشـــطة الطفل تقريبا ، فان الافعال التـــى يقـــوم بها الطفل الصغير ليست كثيرة جدا . وهكذا يزيـــد نطاق القـــوة مع قدرات الاشخاص الداخلين فى مجالها . وذلـــك بالنسبة الى أنواع السلوك التى تخضع لها . وعلى ذلك يتوسع نطاق القوة السياسية حيثما يجرى اخضاع مـــادة اضافية أو أنواع اضافية من السلوك لسيطرتها . أما مبلغ مايكون لهذه الســـيطرة من وزن أو فعاليـــة ، فمســـألة اخرى تتعلق بالحقيقـــة ، على ما بينا فى بنـــد ســـابق .

خلال السنوات المائة الماضيـــة وخاصة خلال الخمسين الاخيرة طـــرا على نطاق السياسة توسع هائل . فالكثير من أنشطة مختلفـــة تقـــوم الآن الحكومات ، ومن ثم السياسة، بتنظيمها وكانت فى الماضى تترك للعرف أو للقرار الفردى ، أولم يكن لها وجود على الاطلاق . فما من ملك فى العصور الوسطى أو سلطان شرقى كان يفكـــر فى ان يجعل جميع الاطفال فى مملكتـــه ممـــن تتراوح أعمارهم بين السادسة والرابعـــة عشرة ، يستيقظون فى كل يوم من أيام العمـــل قبل الثامنة صباحا ويتوجهون الى مبان عـــامة ويبقون هنـــــاك ساعات عديدة . الا ان هذا هـــو ما تضطلع بـــه الدولة الحديثة بنظـــام التعليـــم الاجبارى عندها ونظم المدارس وقوانين التشرد ، ويبلغ وزن قوتها المبنى على امتثال معظم الســـكان ورضائهم الايجابى ، الى الحـــد الذى عنـــده تجـــد أن هذه السيطرة تاكد أن تكون فعالة تماما فى جميع البلاد المتقدمة بالعـــالم ، فجميـــع الاطفـــال تقريبـــا يتوجهون الى المدرسة ، وجميع البالغين تقريبا يعرفون

القراءة والكتابة . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فهذا التوسع فى نطاق السلطة العامة والخدمات العامة قد بدأ الآن فى كثير من البلاد النامية . وهو جزء من عملية التحول الكبرى التى تمر بها هذه البلاد (ومعها أغلبية البشر) .

ولقد اضيفت فى العقود الحديثة مسئوليات اخرى كثيرة الى نطاق الحكم ، مثل الصحة العامة ومجموعة متزايدة من الخدمات الصحية ؛ ومعاشات كبر السن وغير ذلك من صور الامن الاجتماعى والاشغال العامة بما فيها الطرق والثغور والمطارات والتحكم فى الفيضانات ، والسدد لتوليد اتوليد القوة الكهربائية ، وتنظيم ودعم أثمان المنتجات الزراعية ، وتنظيم نقاء ونوعية الغذاء والعقاقير ، وتطوير وتمويل البحث وصناعات جديدة بأكملها بما فى ذلك الطاقة النووية والطائرات الاسرع من الصوت والصواريخ والسفر فى الفضاء ، وتوسيع الخدمات التعليمية الى حد كبير ابتداء من مدارس رياض الاطفال التى تمولها السلطات العامة الى الجامعات الكبيرة التابعة للدولة ومدارس تخريج الطلاب ، وأعباء الدفاع التى زادت بصورة هائلة .

ان كل مسئولية جديدة تضطلع بها الحكومة ، مثل شبكة جديدة من الطرق أو التعليم الحكومى او خدمة طبية تنظمها السلطات العامة ؛ تنقل توزيع نسبة مئوية اضافية من المنتج القومى الاجمالى الى القطاع العام . وهذا يزيد من خطورة السياسة ، ويوسع دائرة الاشخاص الذين يستفيدون أو يخسرون بشكل مباشر من نتائج القراراتا لسياسية . وتزيد من صبغ المجتمع بالصبغة السياسية فى المستقبل أو بالفعل حاليا ، وتقوى فى كل بلد الظروف التى تناسب فى النهاية زيادة مشاركة جماهير اكبر فى السياسة .

نستطيع أن نرى حجم هذه التغيرات وسرعتها بدراسة تاريخ مثل فرنسا وبريطانيا وروسيا ــ المانيا خلال السنوات المائة والخمسين الاخيرة. فبرغم صعوبة المقارنة بين احصاءاتها بسبب الاختلافات القومية فى حفظ السجلات ، فضلا عن عناصر عدم الدقة والثغرات ، بحيث أنه يتعين فى بعض النقاط استخدام التقديرات ، نقول أنه برغم هذا فهيكل الصورة العام واضح تماما . ففى منتصف القرن التاسع عشر ربما لم يزد المنتج القومى الاجمالى بالنسبة الى الفرد فى هذه البلاد عن ٣٥٠ دولارا بنقود اليوم ، او حوالى خمسه اليوم . وفى اوروبا كان أهل الريف والمدن الصغيرة يشكلون الاغلبية الكبيرة . كان ربع سكان فرنسا تقريبا ــ واكثر قليلا فى المانيا واكثر بكثير فى بريطانيا ــ يعيشون فى مدن تضم الواحدة منها اكثر من ٢٠٫٠٠٠ نسمة . لكن كان اكثر من نصف البالغين يعرفون القراءة والكتابة، وفى كل من فرنسا وروسيا كان حوالى ١ ٪ من السكان ــ أو حوالى ١٫٧ فى

المائة من السكان الذين فى سن العمل — يخدمون فى اى وقت فى الجيش الدائم فى وقت السلم . لكن كانت السياسة ما تزال مسالة تهتم بها القلة . كان متوسط مجموع انفاقات الحكومة المركزية فىكل من البلاد الثلاث يقل عن ١٠ فى المائة من المنتج القومى الاجمالى ، ولم ترتفع النسبة كثيرا حتى باضافة الانفاق من جانب الحكومات الاقليمية والمحلية . فاذا كانت مخاطر السياسة صغيرة نسبيا ، فكذلك كانت المشاركة . ففى العادة كان الذين لهم حق الانتخاب اقل من ثلث السكان البالغين ، وكان الذين يقترعون بالفعل اقل من الربع (اى اقل من نصف الرجال) .

فى الفترة ١٩١٠ — ١٩١٣ اى فى عشية الحرب العالمية الاولى كان المنتج القومى الاجمالى بالنسبة الى الفرد قد ارتفع ربما الى ٧٠٠ دولار، اى الى ما يقرب من نصفه اليوم . وكان التحضر اعلى ، واقتربت المعرفة بالقراءة والكتابة من ٩٨ فى المائة . واصبحت الحكومات المركزية تنفق الآن حوالى ١٣ فى المائة من المنتج القومى الاجمالى ، وربما كان ٤٠ فى المائة من السكان البالغين او حوالى ٨٠ فى المائة من الرجال ، يقترعون بالفعل . وظلت المشاركة العسكرية فى وقت السلم لم يطرا عليها تغيير جوهرى ، ولكن ترتب على حرب ١٩١٤ — ١٩١٨ تعبئة كل شعب متورط فيها الى اعماقه .

وفى عام ١٩٢٨ كانت خسائر الحرب قد عوضت باكثر منها ، واقترب المنتج القومى الاجمالى بالنسبة الى الفرد من ١٠٠٠ دولار او زاد عن ذلك، بنقود اليوم . لكن كانت الانفاقات الحكومية العامة قد ارتفعت الآن الى حوالى ٢٤ فى المائة من المنتج القومى الاجمالى ، واقترب عدد الذين لهم حق التصويت بما فيهم النساء اللائى منحن الحقوق المدنية ، من ٧٥ فى المائة من جمع البالغين • وهذا الاتجاه دعمه الكساد الكبير الذى دام خلال السنوات ١٩٢٩ — ١٩٣٣ • توقف الدخل بالنسبة الى الفرد او الاسرة انخفض • ولكن زادت الاتفاقات اذ اشتدت الحاجة الىالمزيد من الخدمات • ففى عام ١٩٣٨ كان مجموع الانفاق الحكومى فى بريطانيا وفرنسا قريبا من ٣٠ فى المائة من المنتج القومى الاجمالى ، وحوالى ٤٢ فى المائة فى فى المانيا النازيه حيث تضمن حملة مجنونة من اعادة التسلح •

وتحقق مستوى عال جديد بعد الحرب العالمية الثانية . فبمجرد اصلاح ما خربته الحرب ارتفع الانتاج القومى الاجمالى للفرد الى حوالى ١٧٠٠ دولار فى اواخر الستينات ، وشمل الآن قطاعا من الخدمات الاجتماعية كان قد توسع الى حد كبير . والآن يبلغ متوسط الانفاق الحكومى فى البلاد الرئيسية باوربا الغربية حوالى ٣٧ فى المائة من المنتج القومى الاجمالى . وانخفضت المشاركة العسكرية فى وقت السلم انخفاضا طفيفا الى حوالى ١٫٥

فى المائة او اقــل من السكان الذين هم فى ســن العمل (١٤ ــ ٦٤) ، ولكــن نسبة الذين يشتركون فى التصويت تظل عاليـــة ، فهى ٨٠ فى المائة او اكثر .

يقدم الجدول (٧) الارقام ، وهى تظهر سويا كم تغير العالم ببطء نسبيا فيمــا بين عامى ١٨١٥ ، ١٩١٤ ، وكم تغير بسرعـــة وبصورة جذرية فيمــا بين عامى ١٩١٤ ، ١٩٥٠ ، وكم يمكن ان يتوقف على سرعـــة واتجاه التغير فيما بين عامى ١٩٥٠ ، ١٩٧٥ . ومع ذلك ، اصبح هذا واضحا الآن . وسواء للخير او للشر ، فالسياســـة الخارجيـــة شــانها شـــان كل سياسة ، لــم يعد فى الامكان ان يصنعها القلة . عليهـــا ان تأخـــذ فى الحسبان اصـــوات الكثيرين الانتخابية ورغباتهم . ونفس التطور السياسى ومن حيث معالمـــه الاجمالية . يمكن تتبعـــه فى تاريخ الولايات المتحدة ، وفى الواقع فى تاريخ جميع البـــلاد غير الشيوعية التى بلغت مستوى عاليا من التطور الاقتصادى.

ان شهادة هذه الدراسة بالطول عبر تاريخ قليل من البلاد ، تؤكدها بوجه عام الادلة التى تقدمها دراســـة لمقطع مستعرض على ما يظهر فى الجدول (٨) الذى يقارن بين بلاد كثيرة فى فتـــرة زمنيـــة واحدة او ما يقرب منها . فتبين الاتجاهات فى الاجل الطويل والبيانات عن المقطـــع المستعرض أن البـــلاد المتقـــدمة غير الشيوعيـــة تميل الى أن تنفق ما بين ٣٠ ، ٤٠ فى المائة مـــن انتاجهـــا القومى الاجمالى ، عن طريق القطـــاع العـــام ، وان ما بين ثلثـــى وثلاثة اخماس هذا (بين ٢٠ ، ٣٠ فى المائـــة من المنتج القـــومى الاجمالى) يميل الى أن تسيطر عليـــه بشكل مباشر ، الحكومة المركزية فى كل بلد متقدم.

وتظهر البيانات ايضا كيف تغير العالم الحديث عن الانماط الســائـــدة فى اوربا فى القرن التاسع عشر . هناك ، وفى تلك الأيام ، نجد الارتفـــاع فى انشاء المدن وفى المعرفة بالقراءة والكتابة وفى الدخل سبق مثيله فى التصويت وفى الحجم النسبى للقطاع الحكومى . وهذا يوحى بأن القدرة الانتاجية على اشباع الكثير من الحاجات والمطالب البشرية الاساسية من قبيل الغذاء والمـــأوى والصحة والتعليم ومستوى معيشة آخذ فى الارتفاع ، زادت فى البلاد الغربية الرئيسية قبل الازدياد فى المطالب الشعبية المحلية والضغوط الدولية التنافسية مما يتمثل فى ازدياد اعداد من لهم حق التصويت ،و فى ارتفاع الانفاقات الحكومية . وحدث العكس بالبلاد النامية فى النصف الثانى من القرن العشرين .فالتغييرات الاجتماعية المترتبة على الاتجاه المبدئى والجزئى نحو استخدام النقـــود والتصنيع وانشاء المراكز الحضرية فى كثير من بلاد آسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية ، هذه التغييرات عملت هى والآثار الظاهرة المترتبة على النقل الحديث ووســائـــل الاتصال الجماهيرى ، على اثارة شعوب كثيرة فى اعماقها قبل ان حصلت على ما تشتمل عليه للحيـــاة العصرية من قدرات تعليمية وانتاجية كاملة ، بوقت طويل . ومن ثم ، فالمشاركة فى التصويت والمشاركـــة العسكريـــة ونصيب

الانفاق الحكومى ، هذه جميعا تسير الآن فى طريق الازدياد فى مستوى من المعرفة بالقراءة والكتابة والدخل والتحضر ادنى وبذلك فى مرحلة من التنمية الاقتصادية والاجتماعية اسبق مما حدث فى أوربا منذ مائة سنة خلت . ان المخاطر والآمال وضروب الاحباط ، هذه كلها تسير الآن فى طريق الارتفاع بسرعة اكثر وفى بلاد اكثر ، مما سبق أن ارتفعت به من قبل .

فى ثلاثة أرباع بلاد العالم، وبقدر مالدينا من بيانات : تنفق الدولة القومية اليوم أو تعيد توزيع ربع المنتج القومى الاجمالى على الأقل ، وفى بقية البلاد وهى افقر بلاد العالم — نراها جميعا تتحرك فى الاتجاه نفسه . وهذا يختلف عن نسبة الواحد فى المائة تقريبا من المنتج القومى الاجمالى بالعالم والتى تنفقها الآن جميع المنظمات الدولية مجتمعة · من ناحية قوة الانفاق وحدها تزيد الدول القومية على المنظمات الدولية بنسبة تزيد على ٢٥ : ١ واليوم ولعقد قادم أو أكثر ، تشكل الدول القومية وسوف تشكل المراكز الرئيسية للقوة فى العالم · وسوف تظل كذلك طالما تبقى العولة القومية اداة الانسان الرئيسية لتحقيق ما يريد .

الفصـــل الرابـــع

حدود القوة : الرمز والواقع

ينبغى ان يكون واضحا الآن ان القوة ليست شيئا واحدا ولكنها اشياء كثيرة . أو بالأحرى ، « القوة » هى علامة واحدة أو رمز واحد نستخدمـــه فى الاشارة الى أشياء وموارد وعلاقات واحتمالات مختلفة . كل هذه على ما راينا ، يجب ان تكون لها علاقة بقدرتنا على أن تغير على الأقل الى حد ما . نتيجة الأحداث . لكن ، وراء هذا ، فهى متنوعة حقا ، وهذا التنوع انما يخفيه بصورة ضعيفة الرمز الذى تدعوه « القوة » والذى نستخدمه كعلامة مشتركة تميـــزهـــا .

القـــوة كـــرمـــز :

وعلى غـــرار كل رمـــز آخر ، فكلمة « القوة » هى نـــوع من رسالة تأمرنـــا أن نسترجع شيئا من الذاكرة لاجراء مزيد من النظر او الربط فى افكارنـــا وأحاسيسنا . وهـــذا يختلف عن شـــارة التى هى أمر كما يقال ، بتوقـــع وجود شىء او وقوعه فى المستقبل القريب .(١) فعندما نصف بدقة مجموعـــة الذكريات التى يراد تذكرها بمساعدة رمز ، فسوف يقوم الرمز بدور فكـــرة بالمعنى الذى ناقشنا به افكارا فىموضع سابق فى هذا الكتاب (٢) .

فالقوة رمز عن القدرة على تغيير توزيع النتائج وخاصة نتائج سلوك الناس ، ومن هذه الناحية يمكن مقارنتها الى حد ما بالنقود التى هى رمز القوة الشرائية المعتادة ــ اى رمز قدرتنا على تغيير توزيع السلع والخدمات .

القـــوة كعملـــــة :

كما أن النقود هى العملة التى تستخدم فى الحياة الاقتصادية . يمكـــن ايضا النظر الى القوة على أنها العملة التى تستخمها السياسة . هنا القـــوة هى العملة أو الواسطة التى تسهل مبادلة قرارات قابلة للتنفيذ بوجه عامبتأييد

---

(١) عندما يعلن حاجب : « الرئيس .. فاننا نعتبر هذا علامـــة ونتوقـــع دخول الرئيس التنفيذى الأعلى ، ولكن عندما يقول محاضر فى موضوع الحكم . « الرئيس » فاننا نعتبر هذا فى العادة رمزا ولتذكر ان هناك مثل هذا الشخص ومثل هذا المنصب ، وربما نتذكر تفاصيل شتى مرتبطة بهذين ، أنظرسوزان ك. لانجر فى « الفلسفة فى مفتاح جديد » ، الطبعة الثانية . (نيويورك : المكتبـــة الأمريكية بنيويورك ، ١٩٥١) ، ص ٣٧ .

(٢) انظر ص ١٢ ــ ١٩ .

يمكن الاعتماد عليه بوجه علم . وعندما يكون من المحتمل جدا تنفيذ قــــرار عن طريق توقيع نوع ما من عقوبة مادية أو نفسية ، فاننا ننظر الى القــرار على أنه « ملزم » ، فبمجرد اتخاذه نقول انه يمكن « تنفيذه » . فاذا كان هذا القرار هو ما يرغب فيه بعض الناس كثيرا جدا ، فمن المحتمل أن يؤيــــدوا صانعه ، سواء أكان الحكومة او الزعيم ، ومـــن المحتم فى حـــالات كثيرة ان يساعدوه ويؤيدوه فى تنفيذ القرار الذين يميلون اليه .

من وجهة النظر هذه تكون عملية التبادل الاساسية فى السياسة هـــى مبادلة رقارات ملزمة بتأييد كما اوضح « تالوكت بارسونز » . ولكن فى نظـــام ســـياسى اكثر تقدمـــا ، فان عمليـــة التبـــادل هذه تقـــع أيضـــا فى مرحلتين . يضطلع الزعيم أو الحاكم او الحكومة بالمسئولية العامة عن صنع وتنفيذ قرارات كثيرة من جميع الأنـــواع ، وفى الحالة القصـــوى تضطلع الحكومة بمسئولية عامة عن اتخاذ بالسلطة تنفيذ اى وجميع القرارات الامة التى قد تحتاج الى تنفيذها . غعندما يقوم أمير أو حاكم أو حزب أو مجموعة من الثوار بهذا الـــدور العـــام . تقول انهم « يتولون السلطة » او « يستلون على الســـلطة حتى وان اتضـــح احيانا فيما بعد أنهم يفتقرون الى الموارد او القدرات أو تركيز الغرض مما هو لازم للتشبث بالساطة . لكن اذا نجحت أيضـــا المجموعـــة أو المجموعـــة التى « تتولى الســـلطة » بمعنى انهـــا تقـــوم بدور الذى يصنع معظم او كل القرارات القابلة للتنفيذ ، فى اتخاذ قرارات ترضى الكثير ممن لهم وزن فى السياســـة ، فمن المحتمل عندئذ ان يمنح هؤلاء الناس بدورهم ولاءهم لهذه الحكومة ، أىيؤيدوا قراراتها ، ليس حتما لانهم يوافقون على كل قرار معين فى حد ذاته ، ولكن لأن كلا منها هو قرار الحكومة ــ « قانون البلد » ، اى قرار « السلطة الشرعية» .

هنا القوة عبارة عن دور رمزى تتخذه الحكومة وينسبه الناس اليها : ويضفى عليه طابع المعقولية حدا أدنى مبدئى من الاستعداد والموارد والقدرات على الحكم . ودور القوة الرمزى هذا ، هو هذه القدرة الحقيقية أو المشهورة. يقوم بدور عملة تســـهل تبادل الحاجات والرغبات المتنوعة الكثير ــ « مصلحة » الكثيرين مقابل دور صناع القرار الذين يمثلون قلة ، وهو دور واحد ، مشروع وموضع التأييد الواسع .

يقينا لا ينبغى المغالاة فى التشديد على نواحى الشبه بين القوةوالنقود. فالعادة أن النقود يمكن تقسيمها بسهولة الى وحدات حسابية منمطـــة : كالدولارات والروبلات أو الجرام من الذهب . ولا يمكن حساب القـــوة أو تقســـيمها بمثل هذه الســـهولة . يمكن فى بعض الحـــالات اســـتخدام اصوات الناخبين كوحدات حسابية ، سواء فى انتخاب عام او فى تصـــويت محـــدود فى مجلس الشيوخ أو احدى لجانه أو فى الجمعية العامة او مجلس الامـــن التابعين للامم المتحدة . وفى حالات أخرى كانت القوة تحسب بعدد وحـــدات

القوة المسلحة من تبيل البوارج وقاذفات القنابل والدبابات والجنــود أو الفرق . (١) لكن كل حســاب من هذا القبيل هو ابعــد من ان يكون مؤكدا ودقيقــا واكثر اعتمادا على مواقف معينة وضرورات من الحساب السهل نسبيــا والدقيق القائم على أساس النقود والذى سهل فى ميادين كثيرة نشــوء اسلوب فى الاقتصاد ذى صفة علمية اكثر . وليس فى وسعنا ان نأمل شيئــا دقيقا يوازى هذا فى السياسة .

لا يمكن ان يصبح العلم السياسى ولن يصبح « علم اقتصاد السياسة » وحسب ولكن يستطيع أن يســتفيد من نواحى الشبه المحدود بين النقود والقوة بــأن يستخدمها وسائل ارشادالى ماوراء ها من نواحى شبه عمل واختلافات. لأن نواحى الشبه هذه ، وان كانت محدودة ، ليست بالتأكيد تافهة . فــى الاقتصاد تمثل النقود قــدرة الانسان على الشراء ، وذمته المالية تمثــل قدرتــه المشــهورة لدى اجــراء هذا الشراء . وما يصدق هنا على الناس يصدق أيضــا الى حد كبير ، على الحكومات . فهى أيضا تحتاج الى النقود او الذمة المالية حتى يتسنى لها الشراء فى اسواق العالم . وبالمثل ، فالمكانة بالنسبة الــى القوة هى مثل الائتمان بالنسبة الى النقود الحاضرة . وهذا أيضا لايصــدق فى السياسة الداخلية فحسب ، ولكن فى الشئون الدولية أيضا . وفى الحياة الاقتصادية أيضا يفقد الناس ثقتهم فى أوراق البنكنوت التى يصدرها بنــك او فى النقود الورقية التى تصدرهــا حكومة . وهكذا عندما لا يصدقون ما دعــاه كاتب فى علم الاقتصاد « الوعود التى يعيش عليها الناس » ، ففى هذه الحالة يجب أن تبين لهم القدرة على الشراء فى صورتها المادية الملموسة . اى يجب اظهار الذهب لهم . الواقع انه فى الشئون الدولية حيث الثقة بين الحكومــات اندر نوعا ، وسوء وضعها يمكن ان يكون اكثر تكلفة ، يستخدم الذهب على نطاق أوسع فى تسوية الكثير من ارصدة المدفوعات الدولية . فكما مايكــون الذهب بالنسبة الى الودائع المصرفية العادية أو النقد الحاضر الى النقــود الورقية ، كذلك تكون القوة بالنسبة الى الاشكال العادية من النفوذ والقوة . فكما أن اظهار العربات التى تحمل الذهب يمكن أن يعيد ثقة تضاءلت فى بنك، كذلك فان عرض القوة كان تظهر الدبابات فى شوارع عاصمة شعب ، يمكن ان يعيد على الأقل للحظة المكانة المهتزة لحكومة . وكذلك فالقيام بمظاهرة من السفن الحربية أو الطائرات بالقرب من منطقة حدود متنازع عليها ، أو ساحل او بلد ثالث صغير ، يمكن أن يدعم الموقف السياسى المتوتر لدولة كبرىورطت نفسها فى نزاع دولى تورطا شديدا يصل الى حدود التصديق به .

---

(١) « كم لديه من الفرق ؟ » ، هذا السؤال يفترض أن رئيس الوزراء السوفيتى الراحل جوزيف ستالين وجهــه ذات مــرة ملهجة ساخرة وهو يتحــدث عن البابا ــ دون ان يدرك على ما يظهر ، أن شهرة البابويــة وبرغم جميع نواحى النقص التى تنطوى عليها ، اثبتت انها ادوم من شهرة الكثير من الحكــام الزمنيين .

المغالاة فى التزام الهيبة : وصورة «صف الدومينو» :

التطابق ناقص تماما ولكنه ينطوى على بعض معان بالنسبة الى السياسة ، تعمل على التعقل والتهدئة : فالحكومات التى يجب أن تثبت باستمرار ارادتها وقدرتها على القتال، ربما لا تملك من الهيبة ما يكفى تماما للسياسات التى تتورط فيها ، شأنها شأن البنوك التى يجب أن تقدم باستمرار دليلا ملفتا للانظار ، عن قدرتها على الوفاء بالتزاماتها ولكن لا تملك القدر الكافى تماما من الائتمان الذى يتمشى مع نطاق وأسلوب جميع الانشطة الاقتصادية التى تحاول القيام بها . فقصور الهيبة ، مثله مثل نقص الائتمان، ليس مسألة طفيفة .

وتشبه الحكومة بنكا ايضا من حيث أن مجموع التزاماتها أكبر بكثير من مجموع مواردها . البنك يقرض نقودا تزيد على ما يتلقى من الودائع – تزيد حوالى ٧ مرات فى الولايات المتحدة – لأن مديريه متأكدون بدرجة معتدلة من أن المودعين لن يسحبوا أموالهم فى نفس اليوم بالضبط . فاذا أراد جميع المودعين أو حتى الكثير منهم ، بالفعل استرداد مالهم فى الحال – ربما لأنهم لم يعودوا يثقون بالبنك – فانهم بذلك يسببون اندفاعا على البنك الذى قد يعجز عن الوفاء بكل مايطلب منه وبذلك يلقون به فى هوة الافلاس . وبالمثل، تعد كل حكومة بأن تنفذ من القوانين وان تحرس من الاشياء والاشخاص ، أكثر مما لديها من شرطة وجنود وموارد كى تنفذ وعودها . وعندما يحدث فى السياسة الداخلية أن يعصى اناس كثيرون جدا فى نفس الوقت الحكومة فى كثير جدا من المسائل الخطيرة ،تكون النتيجة اشبه بهجوم على الحكومة ، ندعوه اضطرابا أو ثورة .

يمكن أن يحدث شىء شبيه بهذا فى السياسة الخارجية ايضا . بل أن حكومة شعب قوى بشكل مخيف وغنى ، قد تأخذ على نفسها التزامات كثيرة بالدفاع من اعداد مختلفة كثيرة من المستعمرات والبلاد التابعة او الحلفاء الأضعف منها ،وتطويرهم أو السيطرة عليهم ، بحيث انها لا تملك الموارد اللازمة لهذا اذا تعرضت قوتها فى أكثر من عدد منهم ، للتحدى فى نفس الوقت الواحد ، بفعل ثورات محلية أوهجمات خارجية او تغلغل ، أو ارتباطات بين هذه العوامل جميعا . هنا أيضا يمكن ان تجد حكومة وشعب انهما اسرفا فى تكبيل انفسهما بالالتزامات ، وأن هيبتهما معرضة للتهديد فى حالة اية أزمة خطيرة حقا قد تعجل بدفع جميع البلاد العميلة الى مطالبتهما بتنفيذ التزاماتهما ووعودهما . بالنسبة الى بعض حكام تلك القوة الكبرى قد يتخذ حلفاؤهم وعملاؤهم مظهر صف من الدومينو : فاذا سقط اى من هذه البلاد أو من نظم الحكم الصغيرة بسبب أنه لايثق فى حاميه العظيم ، فان هؤلاء الحكام يخشون أن يسقط معه الحلفاء والعملاء الآخرون . وبهذه الطريقة كثيرا ما تكون

صورة « صف الدومينو » راجعة الى ان دولة كبرى سبق ان افرطت فى مــد نطــاق مواردهــا وهيبتهــا وفى الالتزام بهــا .

لكن برغم هذه الصلة الطفيفة بالواقع ، فالأغلب ان تكــون صــورة «صف الدومينو »وهما ففى معظم البلاد وفى اغلب الاوقات نجد أن استقــرار نظم الحكم المحلية وتوجيهالد سياسة الخارجية ، والتجارة الخارجية والقروض الخارجية ، والاحتياجات الى المعدات العسكرية وقطع الغيار ، نقول أن هذه جميعا تحددها ظروف كثيرة ومتباينة لا تتغير فى العادة بسرعة ، ولا فى نفس الوقت الواحد ، ولاتتغير كلهافى نفس الاتجاه . لايكفى تغيير هامش فىالهيبة العسكرية لدولة كبرى ، لكى يغير ميزان الاحوال الداخلية فى كل بلد متحالف جعل سياسته الخارجية متحازة أولا الى هذه الدولة ويواصل الاحتفاظ بهذا الموقف . هذا العنصر الكبير والمستقل فى اتجاه السياسة الخارجية لمعظــم البلدان ، ربما يفسر السبب الذىمن أجله احتفظت فرنسا بالكثير من نفوذها فى البلاد الجديدة التى خلفتها فى أفريقيا الفرنسية ، حتى بعد جــــلاء الفرنسيين عن الجزائر ، والسببالذى من أجله احتفظت بريطانيا بالكثير من تجارتهــا ونفوذهما فى الهند وفى باكستان وفى اجــزاء اخرى كثيرة بآسيا ، حتى بعد انتهاء حكمها الاستعمارى هناك فى عام ١٩٤٧ وبعد أن فقدت نهائيــــا السيطرة على قناة السويس فى أزمات ١٩٥٤ ، ١٩٥٦ . وبالمثل ، نجد ان قيام نظــام حكم شيوعى فى كوبــا فى ١٩٥٩ ــ ١٩٦٠ لــم يعقبه اى اندفاع نحو انشاء نظم مشابهة فى اجزاء أخرى فى الكاريبى .

فى هذه المواقف من النكسات المحلية فى الكرامة ــ الفرنسية والبريطانية والامريكية علـى التوالى ــ لم يتغلب اى تاثير جوهرى للعبة « صف الدومينو » .

القوة كوسيلة وغاية : سياسة القوة وسياسة النمو :

يمكن النظر الى القوة كوسيلة للحصول على اشياء اخرى ذات قيمة فى نظر الناس . وبهذا المعنى تبدو فكرة القوة تفسر نفسها بنفسها فهى من قبيل لغو الكلام . فالرغبة فى اية قيمة ــ ثروة ، رفاهية ، احترام ، محبة ، او اية قيمة خرى ــ تعنى حتما الرغبة فى القــوة للحصــول عليها ، يمثل ما تلقــاه فى الحياة الاقتصادية حيث الرغبة فى اية سلعة او خدمة تعنى القدرة علىشرائها . وكما ينفق الناس المال فى الحياة الاقتصادية لشراء ما يريدون ، كذلك فــــى السياسة ينفق الناس قوتهم من اجل الحصول على ما يرغبون فيه .

ولكن اذا اقتصر الناس على انفاق اموالهم انتهى الامر بهم الى الافلاس، واذا اقتصر الساسة على انفاق قوتهم ، فالامر ينتهى بهم الى أن يصبحــوا عاجزين . ورجل الاعمال المقتصد مستثمر .فهو ينفق ماله علـــى المصلــع

بمال يزيد على ما انفقه طبيعه مثلا ، قد يستثمر مستثمر صنعه لانتاج السلع والخدمات (كالسلع ذات القيمة أو السلع الرابحة التي تأتي له في النهاية التي يبيعها بعد ذلك بأكثر مما أنفق على انتاجها . وهكذا فالاستثمار هـــو انفاق مال للحصول على مال اكثر ، دورة بعد دورة مرارا وتكرارا .

وفى السياسة يستثمر بعض الناس فى القوة . انهم ينفقون قوتهم على قيم اخرى بطريقة يترتب عليها ان تسترجع لهم هذه القيم مزيـــدا من القـــــوة . الدافع الذى يحركهم على ما أوحى توماس هوبز من أكثر من ٣٠٠ سنة مضت تعطش الى قوة بعد قوة لايتوقف الا فى الموت(١)» وحتى يتسنى اجراء استثمار على هذا النحو ، عليهم أن يستخدموا التأييد السياسى الذى يظفرون به في وقت ما لكى يتخذوا قرارات قابلة للتنفيذ بوجه عام ؛ من نوع يأتى لهم بمزيـــد من التأييد ، وعندئذ يجب أن يستخدموا هذا التأييد المزيد لاصدار قـــرارات جديدة تسفر عن مزيد من التأييد لقرارات اخرى ؛ وذلك في دورة متوسعـــة من اعادة الاستثمار بقدر ما يمكنهم مواصلتها.

كان هذا فى جوهره هو الذى حث ميكافللى اميره على ان يفعلــــه . فأوحى بأن على الامير الذى لا يرغب فى أن يخسر مملكته ، ان يفكر وان يعمل دائمـــا على اساس القوة . عليه أن يكتنز موارده وينميها ولا يبددها ؛ وأن يسعـــى جاهدا الى زيادة قوته ومكانته وأن يهبط بقوة منافسيه وهيبتهم ؛ وأن يعمل على ان يبقى العامة سلبيين وراضين ، ولكنهم مستعدون للقتال بولاء وإخلاص عندما يامركم ، وان يحكم بالقوة والخـــداع ، فيعجب الناس بـــه ويخشونه ولكن لا يكرهونه ، وأن يفى بوعده او ينكثه بسرعة حسبما كان الولاء او الغدر في اية لحظة يدعم قوته . وفى راى مكيافللى انه لا ينبغى لامير فطن ان يلتـــزم الحياد أبدا فى حرب بين جيرانه ، اذ لو سمح بهزيمة جاره الضعيف على ايدى امير آخر ، فعندئذ سوف ينقلب عليه المنتصر الذى زاد قوة . لكن اذا ساعد جاره الضعيف فقد يشتركان فى انزال الهزيمة بالجار الاقوى الذىكان يشكل التهديد الأكبر لكل منهما . أو اذا تحالفا على هذا النحو ؛ وحتى لو هـــــزم الاميران الضعيفان ، فقد يكونانعلى الاقل حلفاء فى اليأساء لكن على العموم فحليف اليوم هو عدو الغد ، واقوى حليف للمرء هو اكبر تهديد له . ويقول ميكافللى ان الامير الذى يزيـــد من قوة اميـــر آخـــر انما يدمر قوته هو .

من الناحية النظرية كان حساب سياسة القـــوة هذا موضوعيا ولا يقبـــل حولا . فكل أمير وكل من سيكون كذلك ـــ اى كل ممثل سياسى ؛ عليــــه ان يتصرف بدافع الضرورة لأن كل امير آخر سوف يعمل الاشياء العنيفة نفسها

Thomas Hobbes : Leviathan; cf. H. D. Lasswell and A. Kaplan : Power and Society

(نيوهافن : مطبعة جامعة بيـــل ، ١٩٥٠) .

بالنسبة اليه ، ومن يعجز منهم عن ذلك سرعان ما لايصبحون امراء ويخسرون كل ممتلكاتهم . وكما أن رجال الاعمال يطردون فى النهاية من السوق اذا لم يتمكنوا من تغطية مصروفاتهم ويجعلون رأسمالهم يزيد على الأقل بسرعة سعر الفائدة السائد ، كذلك يتم فى النهاية استبعاد الحكومات والحكام من الساحة السياسية اذا لم يتمكنوا من ان يزيدوا قوتهم على الأقل بنفس السرعة التى تزيد بها قوة منافسيهم . وبعبارة موجزة كانت سياسة القوة تظهر فى نظر مكيافللى كأنها خاصية تميز النظام السياسى الكبير الذى يحدد بدوره خصائص جميع المنافسين الموجودين فيه .

واضح أن النموذج الذى وضعه مكيا فللى لنظام تنافس للغاية يعتبر من انجازات العقل البشرى العظيمة . فالانسان السياسى الذى يتحدث عنه هو سلف فكرى (أو على الأقل من أقرب الأقرباء) للانسان الاقتصادى التنافسى بالمثل الذى تحدث عنه آدم سميث وأتباعه ، ومن الحيوانات والنباتات التى تكاد لا تقل من حيث التنافس فيما بينها ، والتى ولدتها عملية « الاختيار الطبيعى » عند تشالز داروين .

الا ان جميع هذه النماذج بقدر ما كانت مثمرة فى يومها ، لاتصدق فى أفضل الحالات الا بصفة جزئية . فالنموذج الذى وضعه مكيافللى باطل من نواح مهمة وقاصر بطريقة شبيهة بذلك الذى فيه يفتقد مجرد نموذج للمنافسة المتطرفة ، الجوهر الأساسى للاقتصاد . حقيقة أن القوة الشرائية بالنسبة الى الفرد ، تعنى فى الاقتصاد قدرته على أن يستخلص سلعا وخدمات لنفسه، وعادة فى منافسة ضد البائعين وضد المشترين الآخرين . ولكن بالنسبة الى المجتمع ككل فجوهر الاقتصاد وكما أوضح آدم سميث ، ليس قدرة الافراد على أن يختصوا انفسهم بالسلع والخدمات ولكنه قدرة بلد أو شعب على انتاجها ، وبصفة خاصة على زيادة هذه القدرة الانتاجية عن طريق تقسيم العمل الذى يجرى زيادته والاسراع به عن طريق القدرة على تبادل أمثال هذه السلع والخدمات بمساعدة النقود .

ويصدق شىء شبيه بهذا على القوة السياسية . انها تعنى بالنسبة الى الفرد قدرته على ان يأمر وان يطاع ، فى تنافس مع أوامر منافسة من جانب خصوم آخرين وفى تنافس مع رغبات جمهوره المستقلة . لكن بالنسبة الى المجتمع ككل تعنى السياسة فى اى بلد — وبين اية مجموعة من البلاد قدرة المجتمع السياسى كله على التنسيق بين جهود اعضائه وتعبئة تأييدهم واعادة توجيه انماط تعاونهم ، وبصفة خاصة ان يفعل هذا كله بمزيد من السرعة وعلى نطاق أوسع وبدقة أكبر ، من طريق استخدام القوة فى تفاعل احتمالات التنفيذ والامتثال والتأييد .

اذا صح هذا امكن الآن ان نتنبأ بأن تغييرا سوف يطرأ على الكثير من تفكيرنا السياسى . لقد انتقل علم الاقتصاد من « نظرية المعادن النفسية » التى كانت تجعل الثروة مرادفة للذهب ، الى نظريات أكثر تقدما تتحدث عن الاستثمار الرأسمالى وتقسيم العمل ، والى نظريات فى النمو الاقتصادى والتنمية الصناعية . وبالمثل بنوع ما ، قد تتحول نظريتنا السياسية بمرور الوقت من نظرية فى القوة الى نظرية فى تفاعل التلقائية والمقوبات فى توجيه جهود الناس والتنسيق بينها ، وفى عمليات الاستقلال الذاتى والعلم الاجتماعى — اى نحو نظرية فى سياسة النمو . سوف تنشأ الحاجة الى نظرية كهذه فى النمو السياسى والتطوير السياسى بالنسبة الى كل مستوى من التنظيم البشرى ، ابتداء من سياسة المجموعات الصغيرة والمجتمعات المحلية الى سياسة الشعوب فى جمية مستويات التقدم الاقتصادى ، بل والى سياسة جميع البشر . مثل هذه النظرية سوف توجه حتما اهتمامنا الى حدود القوة ، وتحملنا على النظر الى حدود نطاق القوة . اى ما نستطيع وما لا تستطيع القوة أن تعمله — والى حدود مجالها اى الحدود التى لا يمكن عندها الاعتماد على أن ما سبق تكون للقوة الغلبة وحيث انهيار السيطرة السياسية بتفجر مثيرا الحرب .

حدود القوة واخطار الحرب :

عند حدود مجال القوة ، وعند حدود نطاقها ومداها أيضا تتضاءل بشدة ولا تعود تولد السيطرة . واذا كانت ما تزال هناك حاجة الى مثل هذه السيطرة ، فان اخفاقها يسبب خسارة لبعض أو كل المتورطين فى الموقف ، وبعضهم على الأقل عرضه للالتجاء اما الى القوة واما الى الانسحاب ، باعتبار هذا اكثر اشكال الخسارة التى تحيق بالسيطرة احتمالا .

فى النظام السياسى تستخدم القوة لجميع وظائف النظام الاساسية صيانة الانماط ، التكيف ، بلوغ الاهداف والتكامل . وحيث تخفق القوة فقد تتعرض اى من هذه الوظائف وكلها للخطر . وعلى ذلك فكثيرا ما يجرى الالتجاء الى القوة اذا اخفق الامتثال والاقناع ، والى الشدة حيث تخفق القوة ، وحيث تخفق الشدة تجرى محاولة الانسحاب . بل وحيث يفشل الانسحاب أو يكون غير عملى ، تنشأ التوترات والاحباطات فى داخل النظام ، ويتعين من ثم ، تحسين ما ينطوى عليه من وظائف التكيف ، أو حيث يخفق التكيف والتكامل يتعرض الابقاء على الانماط للخطر ويصبح انهيار النظام وشيكا .

هذه هى المواقف التى تولد الحرب . فالحرب الشاملة هى الاستخدام

المنظم لاعظم واشــد قوة يقــدر عليها مجتمع . وعلى ذلك يكون الغــاء الحرب معناه « ملجأ الملوك الاخير » هذا ، ومــن القيـــود الاخيرة التى يستخدمها المجتمع للسيطرة على الخسارة . الا ان هذا يجب عمله ؛ ويجب عمله بقــوة خــلال بقيـــة القــرن الذى نعيش فيه ، اذا اريــد الا تقضى الحرب النووية الشاملة على حضارة المــدن والمصانع التى تعتمد عليهــا حياتنا ، تلك الحضارة المعرضة للتهديد . وعلى ذلك يجب ان نسال متــى واين وكيف تدخل الشعوب فى الحروب وتخرج منها ، ويجب ان نسأل ايــة موارد واشــكال للحروب ربما يمكن الغاؤها سريعا ، او حتى فى الحقيقــة ايهــا تسير فى طريقها الى الزوال او الذبول . لكن قبــل ان نوجه هذه الأســئلة علينا ان نســأل من هم الممثلون ــ الشــعوب والحكومات والمجموعــات مــن ذوات النفوذ الذين يعملون فى السياسة الدوليــة والذين هــم عرضــه للدخول فى صراعات جريئة .

الجزء الثانى

الممثلون فى السياسة الدولية

تشتمل السياسة الدولية عادة على جماعات ودون ، وفى جميع السياسة يتصرف الأفراد فى العادة بشكل فعال ، عن طريق جماعات؛ او عن طريق جماعات أخرى يمكن ان يؤثروا عليها من الخارج ، أو عن طريق التأثير فى حكومة ما . ويمكن ان نحسن فهم الكثير من افعال الحكومات على ضوء تفاعل ما لبعض الجماعات وراءها من مصالح وما تبذل من جهود .

الفصل الخامس

المجموعات والمصالح

ما الذى يصنع « مجموعة » وما الذى يشكل « مصلحة » ؟ بالنسبة الى الاغراض التى يتوخاها تحليلنا ، المجموعة هى حشد من أشخاص يربط بينهم شيئان : أولهما انهم يشاركون فى خاصية مشتركة مهمة ؛ والاخر انهم يؤدون بعض أدوار متداخلة (أو على الاقل اثنين منها) وبعبارة أخرى نقول انهم من ناحية ، يشبه بعضهم بعضا بدرجة كافية بحيث يمكن التعرف عليهم باعتبارهم أعضاء مجموعة ، ومن ناحية خرى يتصرفون بطرق مختلفة ولكنها متداخلة ، بحيث يمكنهم التعاون والعمل فى وفاق «كمجموعة».

كذلك هناك شيئان لتعريف مصلحة فى فرد وفى مجموعة ايضا ، فهى تعنى توزيع اهتمام وتوقع مكافأة . فاذا « اثار » شىء « مصلحتنا » فانه يجذب انتباهنا ، وهو يجذبه أما بأن يتيح لنا على الفور تجربة فعلية أو رمزية تنطوى على مكافأة ، أو بأن يثير فينا توقع مثل هذه المكافأة .

والحصول على مكافأة معناه الحصول على مزيد من شىء له قيمة عندنا ، أو يعنى بخلاف هذا ، تجنب خسارة بعض من هذا الشىء توشك أن تحل بنا وعلى ذلك فجوهر مثل هذه المكافأة ، فعلية كانت أو متوقعة ؛ يمكن ان يتحصر فى واحد أو عدة من الانواع الاساسية من القيم الاساسية التى يرغب فيها الناس : الثروة ، القوة ؛ الاحترام (المركز) الاستقامة (الصلاح) الرفاهية (أو الاحساس بالرضاء) ؛ الاستنارة (أو المعرفة) ؛ المهارة والود (بما فيه الصداقة وكذلك الحب) . أو قد تنحصر المكافأة فى توقع التمتع بأى من هذه القيم بطريقة مفضلة معينة ــ السلامة مثلا التى ندعوها فى الاجل الطويل ، « الأمن » أو التمتع بها تلقائيا وبمدى واسع من الفرص التى تسمح باختيار له معناه ، مما ندعوه « الحرية » ؛ أو التمتع بها بطريقة تحفظ لنا « سلامتنا » أى قدرتنا على أن نتعلم بأنفسنا وأن نحكم سلوكنا ، أو تحفظ لنا « اعتبارنا » أى فرصتنا كى نعمل ونتعلم ولا نتغير الاب سرعة بطيئة بحيث حافظ على سيطرتنا المستقلة على سلوكنا .

وأخيرا ، يرغب معظم الناس فى التمتع بطريقة مشروعة بأية قيمة يفضلونها ــ أى دون توقع أن يؤدى بهم السعى وراءها أو التمتع بها ؛ الى صراع لا يطاق مع بعض قيم أساسية أخرى لها أهمية عندهم . وهكذا يرغب معظم الناس فى اقتناء الثروة ولكن بشرط ألا يكون الثمن عن صحتهم أو رفاهيتهم ، وهم يسعون وراء الاستقامة ولكنهم فى العادة لا يعرضون أنفسهم للافلاس من أجلها ، وهم يرغبون فى المحبة ولكن لا يكون الثمن أن

(م ــ ٥ العلاقات الدولية)

يفقدوا كل القوة ، كما لا يرغب معظمهم فى الثروة أو القوة اذا كان الثمن فقدان كل استقامة أو كل محبة . الشرعية هى توقع التحرر من مثل هذا الصراع الذى لا يحتمل ، بين القيم ، وعلى ذلك فالشرعية فى توقع تلاؤم قيم أو توافقها • يحمل معظم الناس بحاجة اليها ، ويحسون ايضا بحاجة ، عن وعى أو بغير وعى ، الى تلاؤم أو توافق معرفتهم •

يريد الناس « التوافق الادراكى » فيما يعرفون ، وفيما يريدون ايضا يريدون أن يكون لعالمهم معنى ، أن يضيف الى « كل » له معنى وعملى أو على الأقل محتمل . وفى هذه الرغبة فى التوافق الادراكى يكتمون أو يرفضون معلومات لا تتفق مع الصورة التى يرسمونها للعالم ، أو قد يسعون عن وعى أو بغير وعى ، وراء صورة مبسطة للعالم تبدو واضحة ومفهومة وتناسبهم وتخفف عنهم الاحساس بسوء التوجيه وبالاحباط والاغتراب والقلق .

الأيديولوجية : هى مثل هذه الصورة عن العالم ، أو هى مجموعة من أمثال هذه الصور ، تقلل من التناقض الادراكى المثير للقلق والمؤلم • فى اذهان من يعتنقون هذه الايديولوجية . فى اذهاننا جميعا مثل هذه الصور عن العالم ، التى تجنح الى تبسيط الأمور ، وربما تكون غير واقعية بدرجات متفاوته والأغلب أن بعض هذه الصور واقعى ، والبعض الاخر وهمى تماما ولكنها على أى حال تشيع الطمأنينة فى نفوسنا عن طريق ما تتسم به من استقامة وترتيب . وعادة نأخذها قضية مسلمة بحيث لا تكون حتى على بينة منها . اننا متأكدون من واقعيتنا ولكنا نشعر بالفزع ازاء ما نعده غمامة أيديولوجية على أعين الآخرين — أو الشعوب الأخرى — الذين يختلفون معنا . كلما قل وعينا بأيديولوجيتنا وبتلك المجموعة من الصور التى رسمناها للعالم وهى صور تساعدنا ولكنها تنحو الى التبسيط ، كنا أوفر استعدادا لتقديرها والدفاع عنها باعتبارها أجزاء من ذاتيتنا وشخصيتنا فى السياسة ، من قومية ودولية ، فضل الكثير من الناس أن يفقدوا القوة والثروة أو الحياة على فقدان أوهامهم • هناك بالطبع قائمة طويلة (اجل ، ربما لا متناهية) من أشياء لها من القيمة عند الناس بحيث تؤثر فى سياستهم . لكن بالنسبة الى معظم الاغراض العملية فمن المحتمل ان تكون القيم الاساسية الثمانى (القوة ، الثروة الاحترام ، الاستقامة ، الرفاهية ، الاستنارة ، المهارة ، والمودة) والقيم الموجهة أو الادانية الست (الأمن ، الحرية ، النزاهة ، الكرملة ، الشرعية ، والتوافق الادراكى) فى قلب معظم المصالح والسياسة المبنية على المصلحة مما لها اهمية فى الشئون الدولية .

معظم المكافآت التى من هذا القبيل حقيقية جدا بالنسبة الى الافراد والمجموعات التى ينشدونها . لكن أحكامهم على احتمال أن تنجم اى مكافأة من

هذا القبيل من سياسة معينة أو فصل معين ، أحكـــام قابلة للخطأ فى الواقع، وقـــد يكون اهتمامهم بالمســـائل والاحداث التى يظنون أنها مهمـــة ، فى غير موضعه وصورة تثير الفـــزع . عندما يركز قط أو قط جائع انتباهه على فأر فى جحر فلابـــد أن يكون فيه فأر ، . ولكن عندما تكون حكومة بلد عظيم قـــد ركزت اهتمامها وجهودها على هدف معين يتعلق بالسياسة الخارجيـــة فكثيرا ما كانت النتيجة وبصورة جديرة بالاعتبار غير ذات فائدة . ولو ســـلمنا أن مشـــكلات الشعوب وحكوماتهم أشـــد تعقيـــدا بدرجـــة هائلة ، فلا يـــزال يبدو أنهم فى الحكم على مصالحهم ، كثيرا مالم يحسنوا التصرف كمـــا تفعـــل القطط .

ليست هذه نكتـــة . فخلال نصف القرن الممتـــد من عـــام ١٩١٤ حتى عـــام ١٩٦٤ يبـــدو أن قرارات الدول الكبرى بالدخول فى الحرب او بتوسيع نطاق حرب ، وأحكامها على نوايا وقدرات الشعوب الاخرى ، كانت تنطـــوى على أخطـــاء كبرى تتصل بالحقائق ربما فى أكثـــر من ٥٠ ٪ من جميع الحالات. ولقـــد يكلف كل خطأ من هذه الاخطاء آلاف الأرواح ويكلف بعضها الملايين . ويبدو أن تكرر أمثـــال هذه الاخطـــاء يصدق على الملكيـــات والجمهوريات . والديموقراطيات والدكتاتوريات ، والنظم غير الشيوعية وكذلك الشيوعيـــة، وقد يكون من الطريف أن نبحث عن دليـــل على ما اذا كانت حكومات اليـــوم اكثـــر أو اقل عرضة للخطأ فى ادراك ما تفترض انه مصالحها .

مجموعات المصالح الخاصة :

المجموعة التى تمثل مصلحة ما عبارة عن تجميع من أشخاص يتوقعـــون من مجرى يمكن أن تسير فيه الاحداث ، الحصول على مكافـــأة موازيـــة أو مشتركة ، وعلى ذلك فالمحتمل وأن لم يكن المحقق ، أن يعملوا سويا بالنسبة لمـــا يدركون أنه فرصهم المشتركة ، هذا التعريف يمكننا من تذكر الطبيعـــــة المزدوجة للمصلحة وهى الطبيعة التى تتضمن كلا من اهتمـــام فعلى ومكافأة مرجحة ، ومن ثم تنطوى على خطـــر قائـــم دائما يتمثل فى تركيز الاهتمام على الوضع الخاطىء وسوء الحكم على احتمالات النتائج وعواقبها .

بعض المكافآت المرجحة واضحة نوعـــا بالطبع ، عندما يشترى الناس مزيدا من اللبن والجبن وترتفع أســـــعار اللبن ، يســـتفيد معظم الفلاحين المشتغلين بعمـــل منتجات الألبان ، فهم يحصلون على مكافآت موازية مـــن ارتفـــاع اثمـــان منتجهم ، كمـــا ان الذين يربـــون ماشـــية الالبـــان وصـــانعى آلات فصل القشـــدة وسيات اللبن وأوعيـــة اللبن ، هؤلاء جميعا يمكن أن يظفروا بنصيب من المكافآت المشتركة الناجمة من ازدياد الطلب، على منتجات جميع الصناعات التى تتعارض مباشرة فى انتاج اللبن وعلى ذلك نظمت صناعة

اللبن منذ وقت طويل ، وجعلت منذ وقت طويل مصالحها معروفة — مثل ازدياد استهلاك اللبن وارتفاع ثمن اللبن — لكل من الكونجرس والجمهور . وكانت النتيجة أن المشرعين من الولايات المشتغلة بصناعة الالبان فى الغرب الأوسط لم يكونوا ليتجاهلوا حاجاتهم .

الا انه فى السعى وراء هذه المصلحة واجهت صناعة الالبان خصوما تتعارض مصالحهم مع مصلحتها . هناك مجموعات فى داخل الولايات المتحدة ، مثل زراع القطن ورجال صناعة زيت بذرة القطن والسمن الصناعى ممن يستفيدون لو أن الزبد حلت محلها على نطاق واسع هذه المواد الأرخص ثمنا ، ووجهة النظر هذه تدافع عنها بقوة المنظمات الممثلة لمصلحتهم كما يعرفها جيدا الكثير من المشرعين من الولايات التى تزرع القطن . ولا ينبغى التقليل من شأن تهديد المنافسة من جانب صناع الجبن فى الدنمرك وفنلندا وسويسرا وايطاليا وغيرها من البلاد الاجنبية — وهى منافسة تدعمها حكومات تحاول أن تزيد صادراتها الوطنية . قد يصرخ الكثير من صناع الجبن عندنا ممن المتعلقين بالوطن ، طالبين الحماية ولكن لو فرضنا تعريفة جمركية عالية على الجبن السويسرى مثلا ، فسوف يحمل هذا السويسريين على الثأر فيرفعون الرسوم الجمركية على السيارات الأمريكية. واذا رفعت الرسوم الجمركية الأجنبية على سياراتنا لأضر هذا بصناعة السيارات فى دترويت من الموظفين التنفيذيين المسئولين الى نقابة عمال السيارات ، وبالكثير ممن ينتخبون اعضاء مجلس الشيوخ وحاكم ميتشجان . وعندما تجرى المفاوضات حول مراجعة رئيسية للرسوم الجمركية (مثل ما يدعى « جولة كينيدى » عن تنازلات جمركية بين الولايات المتحدة وبلاد السوق المشتركة الأوربية الستة) فان الأمر يتعلق بعدد كبير جدا من المجموعات الممثلة لمصالح ، على كلا جانبى المحيط .

وقد يمتد نشاط بعض هذه الجماعات فى الحقيقة فيشمل اكثر من بلد . فقد استفاد الفلاحون الأمريكيون والكنديون من سياسة خارجية انتقل بموجبها بعض محصولهم من القمح الى أوربا الغربية طبقا لمشروع مارشال فى السنوات ١٩٤٨ — ١٩٥٢ . وفى وقت أحدث استفادوا من سياسة خارجية سمحت لهم ببيع كمية كبيرة من الغلال للاتحاد السوفيتى وغيره من البلاد الشيوعية ، ولكل من شركات البترول الأمريكية والبريطانية مصلحة فى الاحتفاظ بعلاقات سياسية طيبة مع البلاد العربية فى الولايات حقولهم البترولية وخطوط انابيبهم ، ولكن المجموعات اليهودية فى الولايات المتحدة وفى بريطانيا أيضا أكثر اهتماما بتدعيم دولة اسرائيل اقتصاديا وسياسيا فى الصراع الذى طال امده مع جيرانها العرب . ليس من الضرورى كما يذكرنا هذا المثال الأخير ، أن تكون المصلحة اقتصادية ، ولكن يمكن أن تتجمع حول الدين أو الايديولوجية أو اية قيمة أخرى يرغب فيها

الناس . ان لمعظم الافـــراد مصالح متباينة كثيرة قـــد تتعارض بعضها . فقد يستفيد فلاح كاثوليكى من زراع الطباق فى ولاية كونيكتيكت من ازدياد صادرات الطباق الأمريكى الى بولندا وهو ماقد يترتب على انتهاج سياسة أمريكية اكثر ودا ازاء ذلك البلد الذى يحكمه الشيوعيون ، ولكنه قد يعتقـــد أيضـــــا أن المزيـــد من الضغط على بولندا قـــد يحقق مزيدا من الحرية هناك للكنيســـــة التى ينتمى اليهـــا . وباعتباره من دافعى الضرائب فقـــد يستفيد من خفض فى الانفاق على الدفاع ، ولكن باعتباره مالك أرض بالقـــرب من مصنع يتصـــل نشاطه بالدفاع ، فقـــد يستفيد من زيادة الانفاق من أجل الاستعداد ، وكوالد لابن يشغل وظيفة طيبة فى مصنع للساعات ، فقـــد يرغب فى تعريفة جمركية لحماية انتاجه ، بينما كمستهلك ، قـــد يستفيد نوعـــا من سياسة الرســـوم الجمركية المنخفضة .

عندما تكون مصالح الناس متفرقة على نطاق واسع ، أو عندما تشـــل حركته بفعل «الضغوط المتقاطعة» التى تفرضها مصالح تتعارض مع مصالحة، فمن غير المحتمل أن يعمل شيئا من أجل تنميـــة أى منها ، ســـوف يكـــون تأييده النشيط لأية مجموعة تمثل مصالح ، يسيرا ، ويكون تأثيره على السياسة قليلا ، على خـــلاف هذا ، فالأفراد الذين يرون أن مصلحة معينـــة أكثـــر أهميـــة بالنسبة اليهم من معظم المصالح الاخرى ، يحتمل أن يعملوا علـــى تنميـــة تلك المصالح عن طريق مجموعات الضغط التى تمثلهم ، والاكثـــر احتمالا ان يحصلوا على جزء على الاقل مما يريدون ، لكن المغالاة فى مثـــل هذا السعى وراء مصلحة معينـــة قـــد يجعل لمـــن يقـــوم بـــه تأثيـــرا أكبـــر فأكبر على القليل من سياسة بلده والعالم .

مجموعات المصالح الأعم والطبقات الاجتماعية :

لكن بعض المصالح اقل تخصصا من غيرها . فاذا كانت ما تزال يمكـــن متابعتها على نحو فعـــال ، واذا أمكن حشـــد الكثير من النفوذ أو من الناس تأييدا لها ، فسوف تسمح مثل هذه المصلحة المنتشرة لمن يشاركون فيهـــا ، تدريا بالغـــا من التأثير على مـــدى أوسع من المواقف بكثير ، وكثيرا ما تسفر فى الواقع عن قـــوة وزن أعظم وعن نطـــاق أوسع مـــما يمكن أن يتـــاح لمصلحة اكثـــر تخصصا .

فى البلاد غير الشيوعية فاكبـــر البنوك وبيوت الاستثمار ، والشركـــات التجارية الخاصة ، بادارتها العليـــا المركزة تركيزا جيدا نسبيا ، واستخدامها المواهب من المستويات العاليـــة ، والتنوع الواسع التى تتصف به ممتلكاتها، وشركات المحامين القـــوية المرتبطة بها ، هذه جميعـــا فى العـــادة من أكثـــر المجموعات الممثلة للمصالح تأثرا ، وهى المجموعات التى تنتمى الى هذا النوع

الأوسع . ومما يمكن أن يدل على المجموعات الكبرى من هذا النوع ان نطالع قائمة بوزراء الخارجية والدفاع الأمريكيين هم وكثير من الناس الذين يشغلون مناصب وكيل الوزارة أو مساعد الوزير ، هذا الشيء نفسه يصدق على الكثير من البلاد الأخرى .

وثمة مجموعة اخرى من مجموعات المصالح ، لها غرض عام ، هي العسكريون ، اما كمجموعة واحدة أو مقسمة نوعا الى عدة خدمات . ان العسكريين يحبذون في العادة التوسع في الانفاق على الدفاع والحصول على اسلحة اقوى ، وفي بلاد كثيرة يحبذون امتلاك الاسلحة النووية التي كانت السياسة الامريكية في الماضي تهدف الى تاخير انتشارها . ويحبذ العسكريون في بلاد كثيرة ، وضعا أكثر دكتاتورية في السياسة الداخلية . وضغطا اشد من أجل تحقيق مطالب اقليمية قومية او سلالية ازاء جيران شتى . وفي البلاد غير الشيوعية يشددون في العادة على عدائهم للشيوعية حتى وان أظهرت التجربة أن الكثير من هذه المجموعات أو نظم الحكم العسكرية بها رغبة كبيرة في تسول الأسلحة من البلاد الشيوعية وبالاضافة الى هذا ، فاستعدادهم لاستخدام العنف في المنازعات على الأراضي ، تعرض أحيانا للخطر أو تحطم وحدة واستقرار العالم غير الشيوعي ، على نحو ما حدث في الستينات فيما كان يقرب من حرب بين عضوين في حلف الاطلنطي هما اليونان وتركيا بشأن قبرص ، وحدث بصورة مفجعة بين الهند وباكستان حول كشمير . ثم انفصال باكستان الشرقية التي قامت مكانها دولة بنجلاديش الجديدة .
بنجلاديش الجديدة .

ان العسكريين غالبا ما يشكلون جزءا من ائتلاف أوسع لمجموعات المصالح . وثمة ناحية هامة للسياسة الخارجية بالنسبة لأراء مجموعات الصفوة وهذه الناحية تتمثل فيمواقفها الايجابية نحو التسلح والحرب واستخدامها كأدوات للسياسة الخارجية — ان هؤلاء الذين يحبذون مثل هذه السياسات في الولايات المتحدة غالبا ما يوصفون « بالصقور » أما الذين يعارضونهم فانهم يوصفون « بالحمائم » وتبين من استفتاء أجرته بعناية كبيرة اليزابيث هانسون وبروس روزيت في شهري مارس وابريل من عام ١٩٧٣ تناول أكثر من الف شخص من كبار رجال الاعمال الامريكيين والضباط العسكريين أن من اشد مجموعات المصالح « صقرية » تتألف من الضباط واعضاء اللجنة القومية للحزب الجمهوري ورجال الأعمال .... في هذا الترتيب . وهذه الفئات الثلاث اكثر صقرية من الناخبين العاديين . وقبل ذلك بتسعة اعوام اجريت مقابلات واسعة النطاق مع مجموعات المصالح في كل من فرنسا وجمهورية المانيا الاتحادية وقد دلت هذه المقابلات والتحقيقات على ان المشاعر « الصقرية » عالية جدا بين العسكريين

فى هذين البلدين ، وتتلاقى بعدهما فرنسا ، ولكن مشاعر العسكريين الالمان تتفاوت من مسألة لأخرى ومن ثم فان كبار رجال الاعمال الالمان ابدوا تأييدا تاما الحد من انتاج الاسلحة والاشراف عليها كما ابدوا المعاهدة الأمريكية ـ السوفيتية الخاصة بفرض حظر جزئى على التجارب النووية .

لا تزال هناك مجموعة مهمة اخرى ذات مصالح مشتركة ولكنها واسعة نسبيا ، هى البيروقراطية العليا التى لها وزن كبير فى بلاد كفرنسا والمانيا والهند وايضا بطريقة متحذرة ولكنها مؤثرة ، فى بريطانيا .

واعم هذه المجموعات التى تمثل المصالح المهنية ، وسائل الاتصال بالجماهير ، والساسة المحترفون ، ووسائل الاتصال بالجماهير تشمل بصفة خاصة الصحف والكتب والدوريات والراديو والتليفزيون والافلام السينمائية ، والى حد ما صناعة الاعلان . وتعكس المواقف التى تتخذها الوسائل ازاء السياسة وخاصة مسائل السياسة الخارجية ، ارتباطا بين افكار اصحابها والمعلنين فيها وقرائها والعاملين فيها ـ بنسب تتفاوت من وسيلة الى اخرى ، ومن صحيفة الى اخرى ، ومن شبكة الى أخرى ، ومن حالة الى اخرى . فى الحالات الحرجة الدقيقة لايزال امتلاك صحيفة عونا كبيرا فى ان تغلب افكارك عليها ، لكن يتعين حتى على المالك أن يتنبه الى اتجاه ما يفضله القراء والمعلنون ، وللقدر المحدود من المواهب الممتازة التى يختار منها العاملون عنده . فخلال العقدين الاخيرين كانت صحف عدة فى بريطانيا والولايات المتحدة مملوكة لافراد ذوى ارادة قوية اكنوا من بعض النواحى على غير توافق مع عصرهم وبيئتهم ، فظلت تخسر المال الى ان توقفت عن النشر أو استحوذ عليها المنافسون ، بينما ازدهرت دوريات أخرى واصحابها الأشد حذقا ومهارة .

لا يزال الساسة اعم فى المصالح التى يمثلونها ، ولكن حتى اذا كانوا كذلك ، فان مصالحهم واتجاهاتهم وانماط اهتمامهم تختلف من نواح كثيرة عنها فى حالة رجال الاعمال والماليين ، أو العسكريين أو الموظفين المدنيين . انهم فى الغالب متخصصون فى العموميات ، وكما قيل كثيرا ، يجب أن يعملوا كسماسرة بين مصالح المجموعات والأقاليم المختلفة ، وان يصلوا الى قدر كاف نوعا من الاتفاق على مصلحة « قومية » حتى يتسنى لها جذب التأييد العريض الكافى بما يسمح لهم بتولى حكم البلد فى شئونه الداخلية والخارجية. وفى محاولة تحقيق هذا كثيرا ما يجد الساسة ان الوصول الى اتفاق عريض على المسائل الخارجية اسهل منه على الداخلية ، وثمة سبب لهذا هو أن معظم الناخبين قليلو المعرفة والاهتمام بالشئون الخارجية ، بينما الأغلب ان تكون فكرتهم اذكى نوعا عن مصلحتهم الداخلية وهما يحتملن ان

يكون لسياسة داخلية مقترحة من تأثير عليهم . وعلاوة على هذا ، فالسياسة شأنها شأن كل عمليات صنع القرارات ، تتطلب اختيارات كثيرا ما لا ترضى كل انسان ، والأسلم فى مثل هذه الحالات ان يغضبوا الأجانب الذين لا يمكنهم التصويت والذى غالبا مالا يمكنهم الثأر فورا وبطريق مباشر ، وهو ما قد تلجأ اليه مجموعة من اصحاب المصالح تسىء اليهم السياسة المقترحة.

وعلى ذلك فالدبلوماسيون المحترفون الذين يجب أن يضايقهم بطء الاستجابات من جانب الدول الأجنبية وان تكن استجابات حقيقية ، كثيرا ما يستشعرون القلق ازاء السهولة التى يتم بها تعيين سياسيين شغل المراكز الرئيسية فىوزارة خارجيتنا . وكثيرا ما يصل السياسيون المحليون فى العادة الى اجماع قوى فى الراى على السياسات ذات الصيغة القومية ، يخطىء الحكم على ردود الفعل الدولية المتوقعة او يغفلها ، ويزداد هذا الاتجاه تمشيا مع حجم البلد وقوته ، وهو ضعف يميز أكبر الشعوب وأقواها على العكس من ذلك ، كلما صغر البلد كان أكثر ساسته خبرة وتجربة أكثر مهارة فى العادة فى ان يأخذوا فى الحسبان ردود الفعل التى يحتمل ان تترتب على تصرفاتهم . خلال السنوات الحديثة اخذت مجموعة جديدة وعامة نسبيا من المجموعات الممثلة للمصالح ، تبرز فى كثير من البلاد النامية وفى البعض من اكثر البلاد تقدما ايضا وربما ظهرت لكى تبقى ، هذه المجموعة الجديدة تتكون من الجامعات بطلا بها وكلياتها وهيئات البحث والقائمين بالادارة، وذلك الى جانب المؤسسات العلمية ومؤسسات الابحاث الاخذة فى الازدياد ، و « صناعات التفكير » خارج الجامعات ، كصناعات الكمبيوتر والابحاث البيولوجية والطبية ، كل هذا النشاط الاخذ فى التوسع ، تحتاج اليه مطالب تكنولوجيا اخذة فى النمو أو مطالب تنظيم اجتماعى واقتصادى أكثر تعقيدا ، فضلا عن مطالب قطاع حكومى وقطاع خدمات عامة يسير فى طريق التوسع، وعلى ذلك ليس من المحتمل قلب ما نتج عن هذا من نمو فى الجامعات وتوابعها، بل ولا الابطاء بخطاه بشكل له قيمته فى المستقبل القريب .

ففى الولايات المتحدة تمثل الجامعات الآن واحدة من صناعات البلد الكبيرة ، وتمثل مع بقية التعليم الذى تؤثر فيه تأثيرا كبيرا ، واحدة من اكبر الصناعات واسرعها نموا ، فبطلاب يزيد عددهم على ٥ ملايين فى عام ١٩٦٦ وحوالى المليون من الخريجين ، ونصف المليون من افراد الكليات والاقسام الأكاديمية ، ونصف مليون آخرين على الاقل من المستخدمين الاخرين ، فالجامعات بصدد أن تصبح عاملا سياسيا يجب أن يعمل له حساب حتى وان كان عاملا واحدا بين عوامل عدة ، ففى راى الاستاذ الجامعى والسفير الامريكى السابق فى الهند جون كينيث جلبرايث ، ان اخفاق الرئيس جونسون فى عام ١٩٦٥ فى الظفر بتأييد كبير من المجتمع الجامعى بالولايات المتحدة لسياسته فى تصعيد الحرب فى فيتنام ، ربما كان يشير الى تغيير هام فى عملية السياسة الخارجية فى هذا البلد خلال العقد التالى .

من المؤكد ان نسبة الطلاب الجامعيين والكليات والموارد فى البلاد النامية أصغر من هذا بكثير ، ولكن امكانياتهم السياسية المحتملة غالبا ما يدعمها غياب أو ضعف معظم المجموعات المتعلمة الأخرى ، وتركز الكثير من مواهب البلد من القيادة المتعلمة الفتية ، فى طلبة الجامعات • وبرغم ان الانشطة والسياسة الطلابية تميل الى التقلب ، فمن المحتمل أن تظل الاهمية السياسية للجامعات والطلاب فى بلاد كثيرة اكبر مما كانت فى الماضى .

وثمة طائفة اخرى من المجموعات التى تمثل المصالح وعلى درجة من العمومية هى النقابات العمالية والمجموعات الزراعية والكنائس . لكل من هذه المجموعات مصلحة خاصة اصلية أو مجموعة من المصالح ، كالأجور والعمالة وخدمات الرفاهية فى حالة العمال المنتظمين فى سلك نقابات ، والاسعار الزراعية والخدمات الريفية بالنسبة الى الفلاحين ، والمسائل المتعلقة بدعم الكنائس ومدارسها والاخلاقيات العامة وذلك بالنسبة الى الكنائس ، لكن فيما يتجاوز هذا ، تهتم القوة العاملة بنمو الاقتصاد وتكلفة المعيشة وامكانية توافر الاسكان ومركز العامل فى المجتمع والفرص التعليمية المفتوحة أمام اطفاله . ويجب أن يهتم الفلاحون بتكاليف الائتمان والنقل وتوفير الخدمات التعليمية والطبية فى الريف ، وتهتم الكنائس بالصفة الكاملة للحياة العصرية ، بما فى ذلك اخلاقيات الشباب التى غالبا ما تكون استجابة من انواع للسلوك المشاهد من جانب من هم أكبر منهم سنا . وهى تهتم حتما بالعلاقات بين الاجناس وهى علاقات تعرض الكثير من تعاليمها للاختبار . كل هذه المجموعات تمثل الى حد ما مجالات عريضة نوعا من المصالح ، وكثير من هذه تؤثر بشكل مباشر فى العادة على السياسة الخارجية ، وعلى المناخ السياسى الذى يزيد من احتمال الحرب أو السلام .

ان جميع المجموعات ذوات المصالح والتى ذكرناها حتى الآن مصالح ملموسة تحددها مهن أو علاقات معينة تترك القليل نسبيا من عدم التأكد مما اذا كان شخص ينتمى الى مجموعة معينة منهذا النوع أولا . وثمة طائفة اخرى من مجموعات المصالح أوسع نطاقا ولكن تحديدها اقل دقة فتفسح مجالا من مجموعات أوسع لعدم التأكد والغموض أو الجدل فى تعريفاتها . هذه هى طائفة الطبقات الاجتماعية أو على اى حال ، طائفة مفاهيم « الطبقات الاجتماعية » . ففى بعض البلاد كالولايات المتحدة تظهر بعض نواحى المفهوم الطبقى (وان لم تكن كلها) غير حقيقية نوعا ، بينما فى بعضالبلاد الأخرى تبدو الطبقة كواقع واضح . لكن فى جميع البلاد كان كثير من الكلام والتفكير فى السياسة فى وقت أو آخر يجرى على اساس الطبقة أو يمس افكارا عن الطبقة. وفى البلاد التى يحكمها الشيوعيون ظلت الطبقة أحد المفاهيم الرئيسية التى تشملها السياسة ، ولهذه الأسباب فان للطبقات ومفهوم الطبقة اهمية قطعا بالنسبة الى المناقشة التى تجريها .

عندما يتحدث الناس عن الطبقة الاجتماعية ، فغالبا ما يشيرون فى نفس الوقت الواحد تقريبا الى علاقات مختلفة كثيرة . ومن هذه العلاقات المتضمنة فى الاستخدام العادى لكلمة « طبقة » بوجه خاص لها أهمية بالنسبة الى التحليل السياسى .

فاولا ، كثيرا ما تشير كلمة «طبقة» الى مصلحة اقتصادية عامة قد تربط عددا كبيرا من اناس يشغلون مراكز متوازية فى العملية الاقتصادية ، وبهذا فمن المحتمل أن يكسب جميع ملاك الأراضى أو أغلبهم اذا ارتفعت الايجارات واثمان العقارات وظلت الضرائب العقارية ثابتة أو انخفضت . ففى كتابات أومند بيرك وآدم سميث ودافيد ريكاردو تظهر « مصلحة الملاك الزراعيين » كمثال واضح بصفة خاصة ، عن مثل هذه المصلحة الطبقية . وبالمثل اذا هبطت الأثمان وارتفعت أسعار الفائدة ، فمن المحتمل ان يستفيد جميع الدائنين او معظمهم ، بينما يتعرض المدينون للخسارة . كانت مصلحة الدائنين المشتركة هذه معروفة تماما لاسكندر هاملتون ، والواقع أنه استخدمها عن عمد لدعم اتحاد الولايات المتحدة الفتى ، ويبدو واضحا أن معظم أرباب الأعمال يحققون كسبا اذا كانت الأيدى العاملة وفيرة فى كافة المستويات ، وساعات العمل طويلة والأجور اعلى ، الواقع أن الكثيرين من أصحاب الأعمال والكثيرين من النقابيين يميلون نحو هذه الأفكار .

هناك بالطبع حجة مضادة تستند الى « الاجر المرتفع » او « القوة الشرائية » مؤداها أن فى امكان الكثير من أصحاب الأعمال ان يجنوا أرباحا أعلى عن طريق بيع مزيد من السلع الى العمال الذين يتقاضون أجورا عالية وهناك حجة « انتاجية العمل » وترى أن الكثير من العمال سوف يستفيدون اذا حقق مخدوموهم أرباحا اكبر يعمد الأخيرون الى استثمارها طبقا لهذه الحجة ، فى آلات أكثر كفاءة وانتاجية . ليس من الضرورى أن يسبب ما ننتجه من كميات أكبر أية بطالة ، ولكن يمكن أن يؤدى الى رخاء أكبر لكل فرد باختصار لاتشدد هذه الحجج على العداء ، ولكن على توافق فى المصالح ؛ جزئى على الأقل ،وبين أصحاب الأعمال والعاملين عندهم .

متى وفى ظل اى ظروف والى اى حد تكون اى من هذه الحجج عن « التوافق » الطبقى ، واقعية ، نقول ان هذا السؤال مايزال موضع جدل فى صفوف الاقتصاديين ، ومن المحتمل أن يتباين الدليل بالنسبة الى فترات وبلاد مختلفة ، لكن فى أزمان وأماكن كثيرة بدت الصدامات بين أمثال هذه المصالح عامة ودائمة . فالشريف والقن ، ومالك الأرض والمستأجر ، والدائن والمدين ، ورب العمل والمستخدم ، والادارة والعمال ، والمالك والمسليب من الملكية ، والراسمالى والبروليتارى ، نقول ان هؤلاء كثيرا ما وصفوا بأنهم اعضاء طبقات متعارضة ، وكثيرا — وان لم تكن دائما بالتأكيد — ما اعتبروا انفسهم كذلك ،

لكن الطبقة غالبا ما لاتشير اصلا الى المصلحة الاقتصادية ، وانما كثيرا ماتشير الى المركز الاجتماعى اى الى سهولة او صعوبة حصول الافراد على الاهتمام والاعتبار والاحترام من جانب اعضاء المجتمع الآخرين ، وعلى تأثير اكبر او اقل على افعالهم . فمركز الفرد الاجتماعى عبارة عن درجة حصوله على الاكرام والاحترام فى مجتمعه ، أنه مستوى التفضيل او الأولوية الذى تناله رسائله فى شبكة وتدفق الاتصالات فى المجتمع الذى يعيش فيه ،فالذين يشغلون مركزا عاليا يمنحون الأسبقية فى الدخول فى الغرف والمرور من الابواب ، ويجلسون علـى رأس المائدة أو قريبا منها أو الى جانب مضيفيهم ، ويستمع الناس اليهم بمزيد من الانتباه وقليل من الخلاف السافر ، وكل هذا متوقف على العرف المحلى . وعلاوة على هذا ،تقرأ خطاباتهم ويرد عليها أولا ، ومكالماتهم التليفونية تحـول الى رئيس الشركة او الوكالة ، والأكثر احتمالا الى حد ما على الأقل ، أن تكون رغباتهم واقتراحاتهم موضع الاعتبار ، وباعتبار أن المركز حق فى الاكرام يلقـى قبول المجتمع ، فهو يتضمن عنصرا ثانويا من القوة ، وباعتباره حقا مقبـولا فى الاحترام ، فانه يعنى ضمنا عنصرا ثانويـا من الاستقامة والصلاح .

واذ تزيـد اعداد السكان تجرى تعبئة الشعوب ، وتصبح معـدات الاتصال وفيرة ، ويشتد ضغط العدد المتزايد من الرسائل على القدر المحدود من الوقت المتاح ، وتصبح مسالك الاتصال محملة بأكثر من طاقتها ، ويزداد العبء الواقع على صناع القرارات ، وكلما ساء الثقل عظمت الحاجة الى أولويات بالنسبة الى الرسائل التى لايزال يتعين نقلها والى الافرادالذين لايزال عليهم الوصول الى العنصر القوى او البارز . هذه العملية واسعة الانتشار فى العالم وتميـل الى أن تزيد من امكانية البيروقراطية والتسلسل الهرمى والمركز الاجتماعى او مما لهذه من أهمية فعلية . وكثيرا ما ينظر اعضاء الطبقات الاجتماعية وبعض علماء الاجتماع ايضا الى الطبقات على انها مجموعات تمثل المركز الاجتماعى ، ولقد ميز عالم الاجتماع علويد وارنر ستطبقات اجتماعية فى الولايات المتحـدة ودعاها الفئة العليا من الطبقة الراقية (العائلة القديمة فى البيت الكبير فى أحسن جزء من البلدة) ، الفئة الدنيا من الطبقة الراقيـة (الموظف التنفيذى الكبير او رجل الأعمال الكبير الذى جمع ثروته بنفسه) ، الفئة العليا من الطبقةالوسطى (الأطباء والمحامون والموظفون التنفيذيون المحليون وأمثالهم ، الفئة الدنيا مـن الطبقة الوسطى (صغار رجال الأعمال والموظفين والمستخدمين من اصحاب الياقات البيضاء) ، الفئة العليا من الطبقة الدنيـا (العمال المهرة) ، والفئة الدنيا من الطبقة الدنيا (العمال أشباه المهرة وغير المهرة والعمال الريفيون) . ثـم ابتدع تكتيكات سمحت له ان يتنبأ بقدر طيب نوعا من النجاح ، بأى من هـذه المجموعات الست يمكن أن يندرج فيها اى فرد او أسرة فى بلدة صغيرة حسب ما يـراه الجيران .

ويرتبط المركز ارتباطا وثيقا بانواع كثيرة من الاتصال . فكثيرا مايتحدث

اعضاء نفس الطبقة الاجتماعية او اعضاء المجموعة المعبرة عن المركز ، فيما بينهم ويتزاورون باسهل مما يفعل غيرهم .

ومن ثم فكثيرا ما تكون الطبقات الاجتماعية ايضا مجتمعات يتقاسم اعضاؤها حرية وسهولة الاتصال ، فقد لاحظ العالم الاجتماعي جوزيف شومبيتر ذات مرة، ان الاتصال في داخل الطبقة التي ينتمي اليها المرء ، اشبه بالسباحة في اتجاه التيار ، ولكن محاولة الاتصال عبر الطبقة كثيرا ما تشبه السباحة ضد التيار .

وهكذا غالبا ما تشكل الطبقات الاجتماعية شيئا يشبه الثقافات الفرعية في مجتمعهم . فقد يعيش اعضاء طبقة في منطقة معينة في بلدة ، كأن يعيشوا على الجانب « الصحيح » أو « الخاطيء » من الطرق الحديدية ، وقد يرتادون نفس الانواع من الاماكن لتناول الطعام والشراب ، وقد تتشابه طرقهم في الملبس وهي طرق تحدد ما اذا كانوا من « أصحاب الياقات الزرقاء » أو « أصحاب الياقات البيضاء » ، وقد تكون لهم عادات متشابهة في الجلوس على المائدة وفي طارحة الغرام ، وفي التوقعات عن الصداقة والتزاوج .

من جميع هذه التجارب المستمدة من المصلحة الاقتصادية ، والمركز الاجتماعي ، وكثرة الاتصال وسهولته ، والعادات الشعبية المنبثقة من ثقافة فرعية مشتركة ، نقول أن من هذه جميعا قد يأتي ادراك حسي بمصلحة اقتصادية مشتركة وتقبل تنظيمات خاصة لتشجيع هذه المصلحة ، وهكذا كثيرا ما ينظر الى نقابات العامة للعمال .

وقد يزيد توسيع نطاق الادراك بوجود مصلحة طبقية مشتركة الى ان يصبح احساسا عاما برسالة ثقافية او تاريخية . قد لا يشعر ملاك الاراضي النبلاء انهم يدافعون فحسب عن مصالحهم كملاك ضياع كبيرة ، ولكن قد يرون أنهم يدافعون عن جميع قيم الارستقراطية ، بل ويدافعون عن أسلوب الحياة بأسره والذي فيه ينبغي لصالح العامة أن تحكمهم هذه الطبقة الصغيرة من « الاغنياء وكرام المحتد والحكماء » . ويمكن ايضا أن يخلق أعضاء الطبقات الاخرى مثل هذا الاحساس بأن لهم رسالة . وكثيرا ما ينظر رجال الاعمال ، الى أنفسهم انهم انصار النشاط الخاص الحر الذي يودون ان ينقلوه الى بعض الشعوب غير المستنيرة بعد في آسيا وافريقيا ، بل والى بعض أو جميع الشعوب والبلاد الخاضعة للحكم الشيوعي ، ان امكن ، وفي بلاد كثيرة فالاحساس بالرسالة التاريخية أصبح جزءا من ايديولوجية الكثير من العمال الصناعيين وغيرهم من افراد الطبقات الأشد فقرا ، فقد تقبل كثير من العمال في ايطاليا وفرنسا وبلاد أخرى صورة ما من النظرية الماركسية تذهب الى ان المهمة التاريخية الملقاة على عاتق الطبقة العاملة هي أن تصبح الطبقة الحاكمة في الشعب الذي تنتمي اليه ، وان نستخدم فترة انتقالية من « دكتاتورية البروليتاريا »

فى تحويل نظام بلدها الاقتصادى والاجتماعى من هذه الايديولوجيات عن رسالة تاريخية — رسالة الارستقراطى المحافظ ، ورجل الأعمال المؤمن بالنشاط الخاص ، والعامل الماركسى — تصور العالم على أنه ابسط بكثير مما هو فى الحقيقة . ولكن يمكن أن تصبح كل من هذه الرؤى التى تنحو الى تبسيطالامور ، قوة فى كل من السياسة الداخلية والسياسة الخارجية اذا سيطرت على أذهان عدد كبير كاف من الناس . أما أن يحدث شىء من هذا القبيل فيتوقف كثيرا جدا على الظروف المعينة السائدة فى كل بلد ، وكذلك على مهارة وبلاغة أنبيائه .

ان الطبقة تعنى توافق الخبرات والتجارب والشىء الذى يصنع الطبقة هو توافق غالبية الخبراء الاجتماعية والاقتصادية والثقافية لافرادها . والشىء الذى يجعل الشخص عضوا فى طبقة هو توافق خبراته أو خبراتها الشخصية بالنسبة لهذه المصالح والقيم التى تتراوح بين مسائل الحياة اليومية والنظرات الكبيرة للعالم . وىه ذلك غالبا ما تتقوى بعضها البعض . على ان هذا التوافق ليس متساويا فى الحدوث او انه ليس قويا فى جميع الأجيال أو جميع فئات الشعب .

كانت جميع النواحى الست من الطبقة الاجتماعية تتمشى الى حد كبير مع نفس المجموعات من الأشخاص ، وذلك فى كثير من بلاد العالم القديم . كان العمال يهتمون كثيرا بانخفاض الأجور وارتفاعها ، والروابط الاجتماعية بينهم وظروف سكناهم ، وجعلتهم المعاملة التى تقسم بازدراء من جانب أصحاب الأعمال وموظفى الحكومة وأعضاء الطبقة الوسطى ، على بيئة بصورة شديدة يشيع فيها السخط ، من مركزهم الاجتماعى السىء . فقد كانوا يعيشون فى المناطق المزدحمة المخصصة للطبقة العاملة . وكانت ايديهم خشنة بسبب مزاولة العمل اليدوى ، وكان حديثهم وعاداتهم بل واغطية الراس المصنوعة مما يجعلهم كأنهم جماعة على حدة ، وكانت نقاباتهم تبدو المدافع الرئيسى أو الوحيد عن مصالح عيشهم وبالنسبة الى كثير منهم أصبحت أحزابهم الاشتراكية أم الشيوعية رموزا للمودة والتطلع —رموزا عن كبريائهم وأملهم واحساسهم بأن لهم رسالة عظيمة — وحيث سادت هذه الظروف ، استمرت الايديولوجية الطبقية والسياسة الطبقية واحيانا طيلة اجيال ثلاثة او اربعة ، وزادت فى انراقعحيث التنمية الاقتصادية عرضت جماهير الوافدين الجدد الى الصناعة وحياة المدن الى البعض أمثال هذه الظروف المتجمعة التى تدوم طويلا .

سادت فى الولايات المتحدة مجموعة مختلفة جدا من التجارب ، كان مولد فى طبقة ما لايؤثر كثيرا فى فرص الحياة بالنسبة الى كثير من الناس . فكثيرا ما تمكنوا (أو على الأقل تمكن أطفالهم) من الارتقاء فى النظام الاجتماعى والاقتصادى . . ظل المهاجرون الجدد من الخارج (وفى فترة أحدث من بورتوريكو ومن أقاليم القطن بالجنوب) يتولون الاعمال التى تتطلب أقل

قـــدر من المهارة وتحصل على اقــل أجــر ، وتبقى اســـفل الســـلم ، وبذلك عملوا على تحسين فرص الحياة بالنسبة الى من كانوا قبلهــم يشغلون الدرج الاسفل ، ثم فى فرص كل فــرد آخــر فى السلم بدوره . وعملت الســيارة على تحرير العمـــال الامريكيين وخاصة من مكنهم طموحهم من اكتساب مهارة تأتى بأجر افضل ، من ازدحام مناطق السكنى ، وجعلت الدواليب المثبتـــة فى المصانع فى امكان العمـــال أن لا يلبسوا بذلاتهم الخاصة الا فى أثناء العمل ، وفى توجههم الى عملهم وعودتهم منه يلبسون ملابس العمل العادية أو ملابس الشـــارع ولا يمكن أن نحـــدد بسهولة الى اية طبقـــة اجتماعية معينـــة او مجموعة عاملة ينتمون . والافلام السينمائية والراديو والتليفزيون — والتعليم الثانوى الموجود فى كل مكان والذى يتحسن باطراد ، هذه كلها زودت جميع صفوف المجتمع بنفس النماذج الثقافية تقريبا جدا . وأتاح ارتفـــاع الأجـــور وقصر ساعات العمل مجالات أوسع للاختيار بين الاشـــياء ، بمـــا فى ذلك انتشـــار تملك البيوت ، واستغلال أجازة نهـــاية الاســـبوع فى العمـــل فى الحوش الخلفى للبيت ، والنقابات التى كان المتوقع منها فيمـــا مضى أن تكافح من أجل ادنى مصالح أعضائها الاقتصادية فحسب ، تحاول الآن أن تســـتأثر بنصيب متزايـــد باستمرار من أرباح ومنافع المشروعات الاقتصـــادية التـــى يشـــتغل فيها اعضـــاء هذه النقابات . من المؤكـــد ان هذه الظـــروف طبقـــت حتى الآن بدرجـــة اقل على الزنوج الأمريكيين ، ســـواء فى ريف الجنـــوب أو فى المـــدن الكبيرة بالشـــمال ، لكن بالنسبة الى الاغلبية الكبيرة من زملائهم من المواطنين البيض فمشكلات الايديولوجية الطبقية والرســـالة الطبقيـــة ؛ اخذت تبـــدو غير ذات اهميـــة بصورة متزايدة ، بـــل أن الاحتجاج مـــن جانب الزنوج كان يجـــرى فى الأغلب التعبير عنه على اساس شعب أو جنس متميز بـــدلا منه على أســـاس الطبقة ، والآن لقـــد ســـارت عمليات كثيرة مســـافة بعيدة بحيث يتطلب الامـــر من الكثير من الامريكيين ، جهدا عقليـــا كى يدركوا أن الظروف التى تؤدى الى بروز السياسة الطبقية فى بلاد اخـــرى كثيرة ، يمكن ان تكون مختلفة تماما .

لكن برغم ما قلناه الآن ، فالأفكار والاتجاهات الطبقية تمارس احيـــانا تأثيرا قويا (وان كان ذكيـــا) على اتجاهات السياسة الخارجية وايضـــا سياسات حتى اكثـــر البلاد تقدما واحسنها تكاملا من الناحيـــة الاجتماعية ؛ ان ارتفاع مستويات معيشتنا تجعل من السهل علينا أن نقيم اتصالات قائمـــة على التعاطف مع كثير من الطبقات الوسطى والعالية فى بلاد العالم الفقيرة ؛ بل أن اتصالاتنا الانسانية المباشرة مع الفقراء فى الخارج هى أقل منهـــا فى بلدنا . فأيا كان ما نسمعه من اصدقائنا فى الخارج عن سياسة أو اقتصـــاد بلادهم ، فالاغلب اننا نســـمع من اصدقـــاء ينتمون الى الأقليات المتميزة نســـبيا والثبتت التجربة فى كوبا وغيرها أن فهمهم للموقف كثيرا ما كان ضعيفا . مثـــال ذلك أن تفضيل الاتصالات مع الطبقة العليـــا أسهم فى انحياز فى معـــاملة

أقاليم نيجيريا المختلفة فى الدستور الذى وضعته بريطانيا لذلك البلد ، فقد وجد الموظفون المدنيون البريطانيون فى أواخر الستينات أن الثقة بنبلاء نيجيريا الشمالية أسهل منها بالعامة الصخابين والاكثر فظاظة من أهل الجنوب والشرق . عندما منحوا دستورا للبلد الحديث الاستقلال أعطوا نصيب الأسد من السلطة الى الشماليين الأرستقراطيين الذين كانوا موضع ثقتهم . لم تمض سنوات قلائل حتى أسقط ذلك النظام الذى أختير بطريقة قسرية ، وترك رئيس وزرائه ليموت فى حفرة ، وبدأت فترة من الاضطراب والعنف قدر لها أن تكون ضحاياها بالألوف . وربما ينظر الكثير من رجال الاعمال الأمريكيين ، وكذلك بعض الدبلوماسيين الى أمريكا اللاتينية بعيون زملائهم فى تلك البلاد ممن نظرتهم قد تمثل ربما ما لا يزيد عن الفئة الخامسة أو العاشرة العليا من سكانها . وكان الدبلوماسيون السوفييت بدورهم فى بعض الأوقات يثقون فى رأى مجموعات صغيرة من الشيوعيين المحليين بأكثر مما يثقون فى الأدلة المتاحة عن الاتجاهات الفعلية لاغلبية السكان . مثل هذه التحيزات فى الادراك وفى السياسة يمكن أن تكون حقيقية تماما ومع كل . لا يجب أن تكون مما لا يمكن مقاومته . على الحكومات أن تزن مصالح رعاياها ومصالح الطبقات والصفوات بالبلاد الاخرى . يجب أن تفعل هذا وان بدت بعض تلك الطبقات والصفوات الاجنبية شبيهة بأقوى الصفوات عندها نفوذا أو متماثلة جدا معها . قد يكون التنبيه الى التحيز الطبقى كمصدر يشوه ويفسد الروايات والانباء (فى الدبلوماسية) والاعمال والشئون العسكرية احتياطا جوهريا لحماية المصلحة القومية .

الفصل السادس

قـوة جماعـات الصفـوة

يمكن ان تكون الطبقات الاجتماعية كمـا راينا ، ذات اهميـة بشـكل مباشر بالنسبة الى سياسة بعض البلاد يزيـد عنه بالنسبة الى بلاد أخرى. وعلى النقيض من هذا فلجماعات الصفوة أهميتها فى كل بلد ، ونقصد بكلمـة « صفـوة » أقليـة صغيرة جـدا (عـادة اقـل من ٥ فى المائـة) من أنـاس يملكون من قيمـة واحـدة على الاقل من القيم الاساسية ، ما يزيـد كثيرا جـدا على ما يملكه منه ابقيـة السـكان ــ عـادة يزيـد فى المتوسـط مـن خمس الى عشر مـرات على الاقل وذلك فى حـالة القيم التى يمكن حسابهـا بهذه الطريقة . فاعضاء الصفوة الاقتصادية يملكون ثروة أكثـر بكثير ، ويملك اعضـاء الصفوة السياسية قـوة أكثـر بكثير ، ويملكه اعضـاء الصفـوة القائمة على الاحترام الذى تلقـاه مثل قضـاة المحاكم العليـا أو اسـاقفة كنيسـة ما ، هم موضع احترام أكبر . (لعلهم فى الولايـات المتحدة لا يتمتعون من الاحترام بما يزيـد من خمس الى عشر مـرات عن غيرهم من النـاس . ولكن لو حاولنا أن نقيس الاحترام بصفـة معقولة على أساس ترتيب المراكز. لبرزت الصفوات الاجتماعية حتى هنا) .

والصفوة عـادة مجموعة اصغر بكثير من الطبقة . بالطبع ، الطبقـات المهضومة الحقوق بوجـه عـام كبيرة جـدا فى معظم المجتمعات . فالعمـال الأجـراء وعائلاتهم يشكلون ٥٠ فى المائة من سكان المانيا الغربية ، والطبقات الوسطى ايضـا كبيرة . وثمة ٢٠ فى المائة أخـرى تقريبا من الالمان الغربيين هم من صغار المستخدمين الذين يتقاضـون مرتبات وينتمون الى الفئـة الدنيـا من الطبقة الوسطى ، وبشـكل الذين يشتغلون لحسابهم من ابنـاء الفئـة الفئـة الدنيا من الطبقة الوسطى بالمـدن والريف ، نسبة أخرى قدرها ٢٠ فى المائـة ، وهم عبـارة عن صغار رجـال الأعمـال والصنـاع والفلاحين ، ولكن حتى الفئة العليا من الطبقـة الوسطى والمكونة مـن المـديرين والموظفين التنفيذيين وأصحاب المهن وأصحاب الأملاك الاثرياء ، لا تزال ربما تبلغ نسبتها. ٤ فى المائـة ، وربما لا تزال نسبة الطبقـة العليـا ممن يملكون ثروات اكبـر او يشغلون مراكز أعلى ، تتراوح من ٥ر. الى ١ فى المائة أو من ٥٠ الى ١٠٠ من كل ٠٠٠ر١٠ من السـكان . وفى الولايات المتحدة تشـكل الفئات العليـا من الطبقـة الوسطى وأفـراد الطبقـة العليا نسبة أكثـر من مجمـوع السـكان (١) . وعلى النقيض من ذلك لا تشكل الصفوة القائمة على أساس الاحترام أو الشهرة فى الولايات المتحدة من قبيل الاشخاص الواردة أسماؤهم فى الدليل المعروف باسم : Who's Who in America ، نقول ان هؤلاء

لا يشكلون الا حوالى ٣٫٠ فى المائة اى حوالى ثلاثة اشخاص فى كل ١٠٫٠٠٠ شخص — وحتى لو أدرجنا معهم عائلاتهم لكانوا أقل من ١٪ من السكان ، وجماعات الصفوة القائمة على أساس الثروة أو القوة أو أية قيمة أساسية اخرى ، صغيرة الحجم بالمثل ، اى ١٪ أو أقل من السكان .

وكحساب تقريبى يمكن أن نتوقع حتى من صفوة كبيرة أن تكون فى أفضل الأحوال ، ثلث حجم أصغر طبقة اجتماعية ، والاكثر احتمالا انها فى العادة تشكل عشرا او اقل . هذا الفرق لا يبدأ ينطمس الا بالنسبة الى أعلى الطبقات فى مجتمع متفاوت للغاية . ففى عشية الثورة الفرنسية فى عام ١٧٨٩ كان النبلاء ورجال الدين فى فرنسا يشكل كل منهم ٥ر. فى المائة تقريبا من السكان ، بحيث أن تلك الطبقات فى ذلك الحين كانت من الصغر بحيث تكاد لا تعتبر من الصفوات .

من حيث المبدأ يمكن أن تكون هناك مجموعات صفوة مختلفة يمثل ما توجد قيم مختلفة . ومن الناحية العملية تتداخل هذه المجموعات ولكن يحدث هذا بصورة ناقصة فى العادة . ولقد قلل سكوت فتزجيرالد وارنست هيمنجواى فى الحوار الذى دار بينهما ؛ من أهمية الموقف عندما قالا : « الاغنياء جدا مختلفون عنك وعنى ... عندهم مال أكثر » . والكثير والكثير من الاغنياء جدا يملكون أيضا قدرا طيبا من القوة فى السياسة ، وكثير منهم يحظى بالمركز الرفيع والاحترام ، وكثير منهم على درجة عالية من التعليم ويشغلون مرتبة عالية فى الاستنارة والمهارة . وبالعكس ، يتقاضى ائمة العلماء والخبراء أجورا مرتفعة وهم فى العادة موضع احترام كبير ، ولكنهم ليسوا أقوياء . والساسة من المستويات العليا فى البلاد غير الشيوعية حتى ولو كانوا فقراء فى بدء حياتهم العملية . فمن المحتمل أن يصبحوا أغنياء عاجلا أو آجلا ، ويمكنهم فى أيامنا هذه أن يصبحوا كذلك بطريقة مشروعة تماما عن طريق استغلال ما يحظون به من الاحترام وما ينعمون به من المعرفة بدلا من الاستناد الى قوتهم ؛ فيحصلون على عائدات عالية من مذكراتهم وكتاباتهم الاخرى ، ومن المحتمل أن تكون أحكامهم سليمة ومعلوماتهم جيدة وذلك فى حالة مشترياتهم من العقار أو فى حالة الاستثمارات الاخرى .

كقاعدة عامة ، من المحتمل أن الشخص الذى يحتل مركزا عاليا بالنسبة الى أى من القيم الاساسية ، يشغل أيضا مركزا مماثلا بالنسبة الى القيم

---

(١) انظر : Moris Janowitz, « Social Stratific action and Mobility in West Germany »

المجلة الأمريكية لعلم الاجتماع ، المجلد ٦٤ ، العدد رقم ١ (يوليه ١٩٥٨ ؛ ص — ٢٤ .

الأخرى ، وهذا ما يدعى « النصاق » قيمه • والنصاق القيم ، هذا كبير فى كثير من البلاد ذات الأوضاع التقليدية الى حد كبير ، فللاغنياء مركز عال ، ومركز الصفوة غنى ، وهذه الصفوة المشتركة تملك معظم القوة والمعرفة والمهارة وتحظى بأكبر قدر من الأحترام والاعجاب ، وتتمتع بأفضل صحّة ورفاهية مادية نسبيا ، وتعتبر صالحة ومستقيمة فى ضوء الأيديولوجية الرسمية أو المبدأ الكنسى السائد فى البلد الذى يحكمونه . وبقدر ما تسود هذه الظروف فى الولايات المتحدة ، فانها تشهد بوجود ما دعاه بعض الكتاب « صفوة القوة » أو « بنيان القوة » فى هذا البلد . ولكن يقدر ما لا تلتصق القيم أو لا تعود تلتصق يكون مفهوم « صفوة القوة » غير مناسب أو يطل استخدامه . يمكن فى حالة متطرفة أن تتخيل بلدا أو مجتمعا محليا فيه جميع جماعات الصفوة نوعية ولا يكون التداخل بينها أكبر مما يمكن توقعه عن طريق الصدفة الخالصة . فى مثل هذا البلد لن يملك الأقوياء ثروة لها شأنها ولن يكون للاثرياء تأثير خاص فى السيسالة ، ولن تتمتع أى من المجموعتين بأى قدر خاص أو درجة خاصة من الرفاهية والاستنارة والمهارة أو المحبة، كما لن تكون أى منمها موضع الاحترام بوجه خاص ، أو تعتبر من أهل الصلاح والاستقامة .

فى معظم البلاد بما فيها الولايات المتحدة تقع الحقيقة فى مكان ما بين هذين الطرفين من التصاق القيم الكامل وتفرقها الكامل . لمركز الصفوة بالنسبة الى أية قيمة ، أهميته من ناحية فرض الحصول على مزيد من قيمة أخرى ولكن له أهمية بالنسبة الى كل شىء . ففى الولايات المتحدة دليل يلفت النظر ، على أن درجة تلاصق الصفوة قد تضاءل نوعا ، فقد أصبحت جماعات الصفوة عندنا أكثر تخصصا وابوابها مفتوحة والى درجة ملحوظة فى بعضها ، ويبدو أن الشعب الامريكى يواصل هذه العملية من ابدال الصفوة القديمة ، الواحدة والصالحة لجميع الاغراض ، بحشد تعدوى من صفوات متخصصة تربط بينها شبكة معقدة من الاتصالات والمساومة ، واصبحت مسئولة على نطاق أوسع امام شعب أوفر تعليما واشد تأثيرا من الناحية السياسية ، ولكن لا يزال امام هذه العملية طريق طويل نقطعه .

ولوحظ دلالات عن اتجاهات مشابهة فى بلاد غربية متقدمة اخرى حيث نجد كثرة من الصفوات المتخصصة زادت من قوتها نوعا على حساب صرح الصفوة القديم ، الأضيق نطاقا والاكثر ترابطا . وقد يكون شىء شبيه بهذا يحدث الا فى البلاد التى يحكمها الشيوعيون والاكثر تقدما. والنتيجة ان فى بلاد كثيرة الآن نسبة كبيرة من اعضاء هامشيين ينتمون الى مختلف جماعات الصفوة ، بمثل ما نلقاه فى حالة الطبقات الاجتماعية ، وهذا يعنى أن نسبة كبيرة من السكان تنتمى فى نفس الوقت الواحد الى عدة

مجموعات مختلفــة ، وتختلف اتجاهات مواقفها فى الحياة وتجاربها وقيمها . هذه النسبة المتزايدة من الســكان والتى يعتبــر افرادها هامشيين ، بمعنى ما فى كثير فى المجموعات التى ينتمون اليها او فى كلها . نقــول ان هذه النسبة يقل احتمال استجابتها لشعارات السياسة الطبقيــة وارتباطاتهــا ويزداد الاحتمال عموما بتقبلها رموز السياسة الوطنية والهوية الوطنية . لكن فــى الوقت نفســه ، تميل تجربة كــون المرء هامشيا فى الصفوة أو المجموعــة الاجتماعية التى ينتمى اليها ، الى أن تجعل الناس اشــد نقــدا للمعتقــدات والأســاليب الســائدة ، واشــد ميلا الى البحث عن معتقدات وممارســات جديدة . ونتيجة لذلك تصبح مجموعات الصفوة هذه ، أوفــر تخصصــا . وأكثــر تقبلا للوافدين الجدد ، واشــد التصاقا بالنسبة الى القيم والامتيازات النسبية التى ينعم بها أعضاؤها . وفى صفوفها يزداد عــدد الذين هــم هامشيون بمعنى ما ، والساخطون بصورة مبهمة ومن هم احيانا أكثر تقبــلا للافكار الجديدة والى الاتصالات من خارج دائرة تجربتهم ، منذ نصف قــرن مضى ، قبل الحرب العالمية الاولى وبعدها كان اتجاه العمال فى البلاد المصنعة اتجاها طبقيا وكانت عواطفهم ذات صيغة دوليــة ، بينما كانت نظــرة الكثير من المثقفين وخاصة فى أوربا ذات صيغة قومية ، لكن اليــوم يستجيب العمال فى معظم البلاد المتقدمة « للشعب » الرمز وبأسهل مما يستجيبون «للطبقــة» الرمز ويشعر الكثير من المثقفين فى البلاد غير الشيوعية وفى البلاد الشيوعية ايضــا بمزيد من الضيق فى دولهم القومية ، وهم أكثــر انتقادا للانظمــة القائمة والسياسات الوطنية بما فيها بعض سياسات وطنية فى الشــئون العالميــة .

اذا كانت المجموعات التى تعبر عن المصالح ، كبيرة فانها تسبب فــى العــادة قيــام صفوات معينة تقودها ، والاغلب أن تتكون هذه الصفــوات من كبار أفــراد المنظمات التى تمثل مصالح خاصة . فقــد سببت المنظمــات العمالية الكبيرة قيــام صفوة من موظفى النقابات وقادة العمــال . ومنظمات رجــال الاعمــال ، والمجموعات الزراعية والكنائس ؛ هذه جميعا الصفوات الخاصة موضع القبول من جانب أعضاء الدوائر الاكبــر الممثلة للمصالح . اذا اريــد ان تظــل قادتهــا لأمــد طويــل ، ولكن فى الوقت نفســه قــد يبتدع اعضــاء هذه الصفــوات المتنوعة عــادات واتجاهات ومستويات معيشة وانماط ثقافة متشابهة . وقــد يتقابل بعضهم مع بعض بحكم المهنــة أو اجتماعيــا احيانا . فاذا ســارت هذه العملية بعيدا فقــد تظهــر اتجاهات ومصــالح مشتركة توحــد جماعات القيادة المتنوعة هذه ، مع الصفوات البيروقراطيــة والسياسة الاعم ، لتخلق صفوة اعرض واعم ، اى تخلق « مؤسســة » أو طبقــة قائدة .

والاكثر احتمالا ان يلقى الزعماء الفرديون بدورهم القبول من جــانب

مجموعات الصفوة التى يجب أن يعتمدوا عليها فى الحصول على التأييد ، اذا كانوا يتقاسمون ويعبرون عن اتجاهات ورغبات اعضاء الصفوة .

وبنفس الطريقة يمكن أن يكون أعضاء الصفوة اكثر قبولا ودعما من جانب قطاعات أكبر من السكان اذا كان هؤلاء الاعضاء يعبرون عن المواقف والاضطلاع بالمهام التى هى ذات أهمية لانصارهم .

ويحدث احيانا أن تتباين مصالح اعضاء الصفوة اليومية حينما تبقى مصالحهم المشتركة الاكثر أهميـة لبعض الوقت اقل أهميـة بالنسبة اليهم . وهكذا فأن فرعـا أو قسما من شركـة كيماوية كبيرة قـد تكون مهتمة غاية الاهتمام بالصادرات ،ومن هنـا بسياسة التجارة الدولية الاكثـر حـرية فى حين أن شركة اخرى أو قسم آخـر فى نفس الشركـة قد يكون أكثـر اهتماما بحماية سوقـه المحلية من المنافسة . وطالما ان هذه الظروف قائمة، فان هذه المصالح الصغيرة المتباينة قد توازن بعضها البعض ، حتى أنه لن يؤدى ذلك الى اجـراء سياسى فعـال . على انه اذا تغيرت الظروف وادت الى تصارع المصالح المشتركة الكبرى مثل ما حـدث بالنسبة لمصالح عـدد كبير من كبار اصحاب الاعمـال المحليين والاجانب فى شيلى فى عـام ١٩٧٣ الذين شـعروا بالخطـر يتهددهم بعد سياسـات التأمين التى انتهجهـا حكومة الليندى ــ عندئذ تشعر هذه الفئات المختلفـة ان هنـاك ما يستنهض هممها ويوحدها ، بل انها قـد تذهب الى حـد ممارسة نشـاط سياسى مكثف ومدعم الى ان يتم لهـا تحقيق هدفها كمـا حدث فى شيلى وحققت اعداءهـا بالاطاحة بحكومة الرئيس الليندى عسكريا فى شهر أكتوبر من عام ١٩٧٣ . وبالمثـل قـد زعمـاء وأعضـاء النقابات العمالية المختلفة متحديـن ازاء خطـر يتهدد التشريعات الخاصة بالرخاء الاجتماعى أو القوة الشرائيـة للاجـور بواسطة تجميد الاجور فى ظل ظروف من التضخم المستمر .

وحدث فى الولايات المتحدة فى الستينات أن الانفاق العالى على التسلح والاستعداد للتدخل العسكرى سياسـة يؤيـدها اليمين السـياسى وبعض مجموعات المصالح العسكرية والصناعية . على ان الصناعات الاستهلاكيـة والمستودعات والمصالح الاخرى مثل التعليم والصحة وكثيرا من وسـائل الاعلام التى تخاطب جماهير مهتمة بهذه المصالح ، لا تشاطر اليمين سياسته . وهناك بعض الجماعات الدينية والجنسية مثل الزعماء والناخبين اليهـود ما زالت تعتبـر منذ وقت طويل جزءا من هذا الائتلاف « الحمائمى » الـذى يدعو الى الحد من الاسلحة وانتهاج سياسة الرخاء ، ولكن بعـد الهجوم العربى المؤيـد من السوفييت على اسرائيل فى شهر اكتوبر من عام ١٩٧٣ ، غير جزء كبير من الصفوة اليهودية والناخبين ــ وقد يصل هذا الجزء الى الثلث ــ مواقفهم . واصبحوا بدلا من معارضة زيادة الميزانيات العسكرية

والالتزامات العسكرية للدول الاجنبية يؤيدون هذه السياسة . ومع أن قوتهم فى حد ذاتها محدودة ، الا انهم استطاعوا فى الماضى تحقيق الغاء جزئى للنفوذ الداعى الى انتهاج سياسة الصقور والمجازفات . وقد اصبحوا هم انفسهم يدينون بهذه السياسة . ونتيجة لذلك اصبحت الضغوط فى اوائل عام ١٩٧٧ لاعتماد انفاق أعلى على الأسلحة فى الولايات المتحدة اشد بكثير مما كانت عليه قبل ذلك بعامين .

ان الذى تغير فى الواقع هو الاهمية النسبية للمصالح ، ففى حين ان المصالح المتضاربة السابقة هى المسيطرة على عقول الناس، اصبحت المصالح المتماثلة اكثر اهمية . ونتيجة لذلك ، بدأ الزعماء السياسيون الذين ركبوا قمة هذا التغيير اقوى وأكثر شعبية وسيبقون كذلك ما بقى هذا المناخ السياسى الجديد .

يستطيع الزعماء كل بصفته الفردية ، ان يحدثوا اختلافا مهما فى نتيجة سلسلة من الاحداث ، بأن يتخذوا قرارا شخصيا فى وقت أزمة حادة . فقوانكلين د. روزفلت وونستون تشرشل وشارل ديجول وجوزيف ستالين وهارس س . ترومان ودوايت د . أيزنهاور وجون ف . كنيدى وليندون ب جونسون وريتشارد نيكسون وجيرالد فورد هؤلاء اتخذ فى وقته قرارا أو عدة قرارات من هذا النوع . وسبب عبء القرارات ارهاقا لبعض الزعماء أوصلهم الى نقطة الانهيار (ربما كان هذا حال وودو ويلسون وجيمس ف . فورستال) ، بينما يبدو أن زعماء آخرين كسبوا من الضغط . لكن لا يستطيع القادة فى معظم الوقت الا أن يتخذوا قرارات تلقى القبول من معاونيهم من رجال الصفوة ومن حلفائهم ، ومن اتباعهم على المستوى المتوسط ومستوى الجماهير . ان رئيس الولايات المتحدة كما أوضح ريتشارد نيوستادت كثيرا ما يتعين عليه ان يتصرف كسمسار أو وسيط بين مطالب المجموعات القومية المختلفة التى تعبر عن مصالح ، ولا تتاح له حرية التصرف فى اتخاذ قرار بمفرده الا فى حالات قليلة نسبيا .

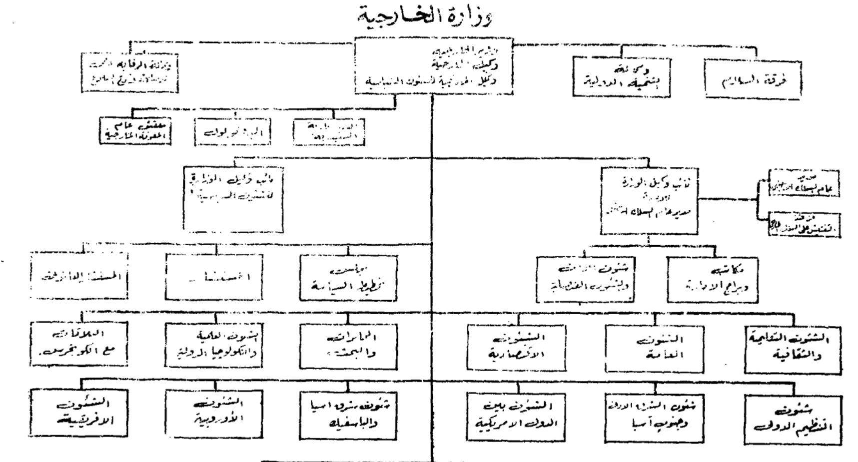
ان محاولة ريتشارد نيكسون لتوسيع سلطات الرئاسة الى حد كبير — وفى المقابل خفض سلطات الكونجرس — انتهت باستقالته فى عام ١٩٧٤ على ان بعض القرارات الرئيسية التى اتخذها فى حقل السياسة الخارجية مثل القرار الخاص بجلاء القوات الامريكية من فيتنام وكمبوديا ولاوس والقرار الخاص « بالوفاق » — أى خفض التوترات — بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى وتحسن العلاقات بين الولايات المتحدة والصين الشيوعية قد نجحت وكتب لها الدوام فى فترة رئاسته وكانت كلها بمثابة السياسات الرسمية التى انتهجتها الولايات المتحدة فى منتصف عام ١٩٧٧ .

لكن فى بعض المناسبات يمكن أن يكون خطيرا قرار يتخذه سياسى واحد . اذا ادى الى النجاح هلل الناس له بسبب جراته وحكمته ، واذا اعقبه فشل فيحتمل أن ينكر هو والمدافعون عنه (السياسى نفسه ينكر هذا عادة فى مذكراته) انه كان حرا فى اتخاذ هذا القرار ، ويصرون على انه لم يكن ثمة بديل عنه ، وأنه ما كان من الممكن فى ظل ظروف الوقت اتخاذ قرار آخر . مثل هذه الصور المبسطة من الجبرية البيئية او التاريخية ، كثيرا ما كانت الملجأ الاخير للسياسيين غير الناجحين .

واحيانا يستطيع الزعماء اتخاذ قرارات تغير التاريخ ويتخذونها بالفعل. ولكنهم لا يقدرون على هذا الا فى حدود مواردهم ومواقفهم وعقولهم . فى العادة لا يكون الزعيم « القوى » رجلا ذا شخصية حازمة وحاسمة فحسب، ولكن يكون وراءه ، ايضا مجموعة قوية او ائتلاف قوى من مجموعات (واحيانا يجد ان هؤلاء الذين يساندونه يعطلون سلطاته الشخصية واعمال الزعامة التى يقوم بها ، اذا كان هذا يناسب مصالحهم) . وبالعكس كثيرا ما يكون الزعيم الضعيف رجلا قليل الانصار او جد بينهم روابط ضعيفة وغير مستقرة ، من حيث الاتجاه والمصلحة .

ولكن عقل الزعيم له حدود ايضا . سبق ان بينا ان نجاح الزعيم يتوقف الى حد كبير على اتفاق سياساته ومذاهبه مع احتياجات الزمان والمكان اللذين يعيش فيهما ، ولكن للزعيم حاجات خاصة به باعتباره شخصا كغيره ، والاكثر احتمالا انه لا يتخذ لنفسه سوى الافكار والسياسات التى تلاءم سياساته ومذاهبه بقدر ما يستطيع ان يحكم عليها حسب مدى خبرته وخياله واتجاه تفكيره ووقته المحدود واستعداداته للنظر فى بدائل ليست مألوفة كثيرا . وهكذا كثيرا ما يقتصد القادة فيما يبذلون من جهود ذهنية ، وربما يجب أن يكونوا كذلك (أو يجب أن تكون) المجموعات التى تتبعهم وتثق بهم اذ تبدو نظرة ومعتقدات هؤلاء القادة شبيهة على نحو يبعث على الاطمئنان ، بأفكار واحاسيس المجموعات التى تتبعهم فضلا عن الصفوات الصغيرة التى كثيرا ما تتكون منهم بيئة الزعيم المباشرة .

هكذا نرى أن الزعماء كثيرا ما يكونون أسرى مواردهم الخارجية او انصارهم الخارجين من جهة ، وأسرى عاداتهم هم وحاجاتهم الفكرية والتناسق والتوائق فى الصور التى يرسمونها للعالم من جهة أخرى . واكثر من هذا أن القادة حركتهم ودفعتهم صور عن العالم كانوا شديدى التشبث بها ، أصبحت اساس شعبيتهم عند الجماهير او جماعات الصفوة ، وكذلك أساس الصورة التى يرسمونها لأنفسهم وأساس احترام الذات ، وهم فى هذا يتصرفون بفعل المصلحة الاقتصادية المحضة أو بالحساب الهادىء الرزين لاعتبارات الاستراتيجية والقوة . فاذ يطلب منهم اتخاذ قرارات خطيرة تتصل بالحرب والسلم ، واذلا يتوافر لهم من الحرية الا القدر القليل ولكنه خطير ، نقول انه بهذا كانت الظروف التى يعيش فيها القادة الوطنيون فى مصرنا قريبة من حافة المأساة .



وزارة الخارجية
وكالة للتنمية الدولية
فرقة السلام
مفتش عام الخدمة الخارجية
نائب وكيل الوزارة
مكاتب وبرامج الإدارة
تخطيط السياسة
المخابرات والبحث
الشئون التعليمية والثقافية
الشئون العامة
الشئون الاقتصادية
الشئون العلمية والتكنولوجيا الدولية
العلاقات مع الكونجرس
شئون المنظم الدولي
شئون الشرق الادنى وجنوب آسيا
الشئون بين الدول الامريكية
شئون شرق اسيا والباسفيك
الشئون الأوروبية
الشئون الافريقية
البعثات الدبلوماسية والوفود لدى المنظمات الدولية

الفصل السابع

مجموعات تمثل مصالح تخدم جميع الاغراض

اذا كانت مجموعة تربط بين اعضائها المصلحة ، كهواة جمع طوابع البريد أو تربية الأرانب ، وكالذين يشتغلون بصناعات النفط أو الطائرات ، تتجه مثلا نحو الحصول على مكافأة واحدة أو نوع واحد من المكافأة . فعندئذ نقول ان لهذه المجموعة مصلحة « خاصة » ٠ بسبب ما بين اعضاء هذا النوع من المجموعة من وحدة فى المصلحة ، فمن المؤكد ان تنعم بقدر معين من التضامن ٠ واذا كانت مجموعة ما توحد بينها انواع عديدة من المكافآت المتوقعة ومن ثم عدة مصالح خاصة ، فمن المحتمل ان يكون تضامنها اقوى ٠ واذا تعلقت الروابط المشتركة **بكثير** من المكافآت والقيم المشتركة فقد يصبح التضامن عاما و « منتشرا » فى صفوف اعضائها فيشعرون الآن انهم متحدون لا بالنسبة الى هذه المصلحة الخاصة او تلك فحسب ، ولكن بالنسبة الى اى وجميع الحاجات والمصالح والقيم التى يمكن أن تفيهم . وقد يكون كل منهم راغبا فى مساعدة الآخرين لمجرد انه عضو فى هذه المجموعة وليس بسبب مزايا الحالة التى يكون فيها ٠

من هذا الشكل الأخير من التضامن تقترب العلاقات بين أفراد المجموعة الصغيرة نوعا القائمة على المصلحة ، والمعروفة باسم الاسرة النووية التى تتكون فى العادة من الزوج والزوجة واطفالهما ٠ وعلى نطاق اكبر الى حد ما ، كانت الاسرة الموسعة التى تنتمى الى المجموعة القائمة على صلة الرحم ، تشكل فى الكثير من الثقافات اليوم مجموعة تمثل مصلحة وتخدم جميع الأغراض ، وثمة مجموعة أكبر من هذه المدن ـ الدول الاغريقية القومية ، اقتربت فى أيامها العظيمة من هذا الاحساس بالتضامن لخدمة جميع الأغراض ، بين مواطنيها ٠ وفى ظل الظروف الحديثة فان اكبر مجموعة من هذا النوع الذى يتوافر لدى أعضائه مثل هذا الاحساس بالتضامن المنتشر ، هذه المجموعة عبارة عن شعب ، وان كان البعض من انبل الرؤى الخاصة بالسياسة تناولت بالبحث امكانية مد نطاق هذا الاحساس العام بالتضامن أو الاخوة ليشمل البشر جميعا ٠

الشعب مجموعة اشخاص لهم عادات اضافية فى الاتصال . فأساليبهم فى الحديث والاستماع والفهم تناسب بعضها بعضا بمثل ما يتناسب القفل مع المفتاح ، او كأجزاء لغز الكلمات المتقاطعة ، فهم فى العادة يتكلمون نفس اللغة (وان كان أفراد البريطانيين والسويسريين وأهل ويلز واليهود يتكلمون أكثر من لغة واحدة) ٠٠ لكن بالعكس ، حتى لو تكلم

الانجليــز والارلنديون والامريكيــون نفس اللغة فهم ينتمون الى شعوب مختلفة . ويصــدق الشيء نفســه على العديد من شــعوب العالم التى تتحدث بالفرنسية والالمانيــة والأسبانية .

الشيء اللازم لتكوين شــعب هو أن تجمع بين اعضائه وحــدة من معــان مى الاتصــالت يشتركون فيها ، بحيث يستطيعون ان يفهم بعضهم بعضــا بصورة فعــالة بالنسبة الى الكثير من الموضوعــات المختلفــة . واضــح ان اللغــة المشتركة وان لــم تــكن عنصرا لا يمكن الاســتغناء عنــه ، تســاعد كثيــرا جــدا فى تحقيق هذه الغايــة . كما أن الثقافــة المشتركــة التى توفر المعانى المشتركــة ، عامل حاســم . مثل هذه المعانى المشتركة مبنيــة على ذكريــات مشتركة أو متداخلة تتولــد من ثقافــة مشتركة . وعلى عادات مشتركة للاتصال . يجرى تعلمها واستخدامها فى الحيــاة الحقيقيــة . ومثل هذه الذكريــات الثقافية وعــادات الاتصــال التى تجــرى ممارســتها ، تصبح جــزءا من بناء شخصية كل فــرد ، ومن ثــم من ذاته هــو . والعــادة أن هذه العــادات يجرى تعلمهــا بأكبر قــدر من الســهولة ، فى عهــد الطفولة حين يتــكون الكثير من بنيــان عــاداتنــا وشــخصيتنا ، ولكن يمكن تعلمهــا حتى فى ســن متأخــرة (وان تطلب هذا مجهــودا أكبر وتحقق بدرجــة أقــل من الكمــال) ، فالشـــعب الامريكى يضــم اشخاصــا كثيرين لــم يتعلموا أن يتكلموا ويســتمعوا ويحســوا ويتصرفــوا بوجه عــام كأمريكيين الا فى ســن متأخــرة ، ولكنهم اندمجوا تماما مثل الاخرين (كانت هذه تجربة جليــة بالنســبة الى الكثيرين مــن الامريكيين الحديثيين . وهى ان يحســوا أن الشـــعب لا يؤويهم فحسب ولكــن يضمهم اليــه) . ويصــدق شيء مشــابه على الكثير من بــلاد الهجــرة اذا أتــاحت للوافديــن الجــدد فرصــة حقيقيــة للاندمــاج ، وثيقــة الصلة بكســب كبير فى القيــم المهمة التى جــاءوا بحثــا عنها .

وعلى ذلك فى امكــان فــرد أن يكــون فى حالة انتقــال من العضويـــة فى شـــعب الى العضويـــة فى آخــر ، ولكن من الممكن ايضــا ان ينتمى ملايين الناس الى شــعبين فى وقت واحــد ، اذا استطاعــوا الاتصــال والتعــاون فى كليهما ، تماما كمــا أن فى امكــان أى فــرد (داخــل حــدود) ان يتصــل اتصــالا لــه معنى مع أكثــر من شريك . هكذا كان الاسكتلنديون طيلة أكثــر من قرنين اسكتلديين وبريطانيين ، والكنديــون الفرنســيون فرنسيين وكنديين فى آن واحد ، وكثير من أهــل بافاريــا بافاريــا شديد والتعلق بأصلهم البافارى وأصلهم الالمانى . وقــد ينظــر الزنــوج الامريكيــون الى أنفســهم كأعضــاء فى الشعب الزنجى فى الولايــات المتحدة وكأمريكيين ايضــا . ويحس اليهـــود الامريكيــون ويتصرفــون كأمريكيين ، ولكن الكثيرين منهم يشتركون فى اتصالات مهمة ويتصرفــون مع اليهــود الآخرين ومع شــعب اسرائيــل . والبنغاليون أعضــاء فى شــعبهم وفى الوقت نفســه أعضــاء فى شعب الهند .

واذ يصبح العالم اكثر عصرية تصبح العضوية فى الشعب اكثر اهمية وتزيد القدرة على الاتصال والفهم فيما بينهم من احتمال نشوء الثقة المتبادلة ، وتعمل على تيسير التعاون والتنظيم ، وتسهل التوظف والترقية . ومد نطاق الائتمان ، وتكوين روابط أكثر من الصداقة التزاوج وبذلك تزيد من الروابط العالية ونقل المتلكات · فى جميع هذه النواحى تربط العضوية فى نفس الشعب جميع أفراده عن طريق روابط مشتركة ليست من الاتصال فحسب ولكن ايضا من جزاءات مشتركة ارجح ، وبهذا عن طريق توقعات المصلحة المشتركة التى لها بعض اساس فى الواقع · واذ تصبح الحياة أكثر مرونة وتنافسية وانتقارا الى الأمن ، فى خلال انتقال بلد الى العصرية ، يقل اعتماد الافراد على الأمن القديم الممثل فى الاسرة والقربى ، وفى الجيرة والقرية يزاد تعرضهم للتغيرات المحيرة والخطرة فى السوق بالنسبة الى عملهم ومنتجهم وضرورات حياتهم · وكلما عظت هذه التغييرات زادت اهمية التشبث ببقايا الأمن وامكانية التنبؤ مما توفره لغة وثقافة مشتركة وعضوية مشتركة فى شعب ، هذه العضوية المشتركة فى شعب هى التى تبشر الآن بتحويل الغرباء الى اخوة ، او على الأقل الى أصدقاء ، والربط بينهم على الأقل من اجل تعاون وتاييد متبادل يمكن التنبؤ بهما بنوع ما ·

وهكذا تنسق العضوية فى شعب اتصالات الأفراد وتوقعاتهم ، والى حد ما مصالحهم ، وكلما زاد ما تتعرض له حياتهم من تغيير سريع وقلق ، اصبحت حاجاتهم الى مثل هذا التنسيق الزم واشد الحاحا · وكما فى الكثير من حالات التنسيق الاجتماعى ، يقوم الكثير منه على الامتثال الاختيارى أو المعتاد ، ولكن يمكن تعزيز بعضه عن طريق بعض احتمال فى التنفيذ المنظم ، وبمجرد أن يصبح الافراد راغبين فى تنسيق سلوكهم عن طريق الثقافة المشتركة لشعب — وعادة عن طريق لغة مشتركة — فيحتمل ايضا ان يريدوا ويطلبوا منظمات مشتركة مناسبة للتنفيذ حتى يكون هذا التنسيق الآخذ فى الظهور والمتعلق بسلوكهم ، اكثر مدعاة الى الثقة به والاعتماد عليه ·

بهذه الطريقة تصبح المصلحة فى ثقافة ولغة مشتركة ، مصلحة سياسية · فالرغبة فى الانتماء الى شعب مشترك تؤدى الى الرغبة فى الظفر بالسيطرة على حكومة ودولة قائمتين حتى يتسنى تحقيق هذه المصلحة أو خلق دولة وادارة « قوميتين » جديدتين حيث لم يكن ثمة وجود لأى منهما من قبل · وبهذه الطريقة فان ما يقل عن أربع وعشرين دولة قومية فى العالم منذ ١٥٠ سنة مضت ، حل محلها ربما ضعف ذلك العدد فى عشية الحرب العالمية الثانية ، وأكثر من ١٤٠ دولة قومية فى أواخر الستينات ، ولا تزال دول قومية اخرى فى طريق الخروج الى عالم الوجود ·

الأمـــة الحديثـــــة :

الدولة تنظيـــم لتنفيذ القرارات او الأوامر التى تجعلها عادات الامتثـــال القائمة عند الســـكان قابلة للتحقيق ، مثل هذا التنفيذ المنظـــم اداة تخـــدم جميع الاغراض ، ويمكن ان يعمل على تعزيزأى قـــرار او اى امـــر طالمـــا ينـــزل معظـــم الســـكان على احكامه او يمكن اقناعهم بذلك ، وكلمـــا كان مثل هذا الامتثـــــال الشعبى ادعى الى الاعتمـــاد عليه وعاما ، عظـــم ما للدولة من قوة محتملة ، ويصدق هذا على جميـــع ابعـــاد قوتهـــا : فوزنهـــا ونطاقهـــا ومداهـــا ومجالهـــا ، هـــذه كلها يمكن ان تزيـــد اذا عظـــم الامتثـــال من جانب الناس • هذا الامتثـــال يمكن كما لاحظنـــا ، ان يكـــون ســـلبيا او ايجابيـــا ، يمكن ان يقـــوم على مجـــــرد اللامبالاة وفقـــدان الشـــعور ، او يمكن ان يشـــتمل على التاييـــد الايجابى الاختيـــارى حتى لـــو انطـــوى على تضحية • ويمكن زيـــادة مثـــل هذا الامتثال الايجابى والتاييـــد عن طريق التضامن وبالاقتنـــاع ، وبذا يمكن زيادته باكبر قـــدر من الفعاليـــة عن طريق ما يملك شـــعب من شـــــبكة اتصـــال بين اعضائـــه ، ويمكن اســـتخدام الامتثـــال لدولة لتعزيز عـــادات شـــعب فى الاتصال وتعاونه وتضامنـــه ، ويســـتطيع الشـــعب عن طريق وحـــدة الاتصـــالات فيـــه وامتثاله وتضامنـــه الايجابى ، أن يزيـــد من قـــوة الدولة الى حـــد كبير • وهذا ســـــبب من الأســـباب اثبت الارتبـــاط بين الشـــعب والدولة القوميـــة الحديثة قوتـــه فى السياســـــة ، ويفسر كيف تســـلطت الدول القوميـــة على الكـــرة الارضيـــة خـــلال الســـنوات المائـــة والخمســـين الأخيرة •

اذا حاولت نسبة لها شـــانها من اعضـــاء شـــــعب الســـيطرة على جـــزء من جهـــاز التنفيـــذ والحـــكم ــ كمجالس المدينـــة ولجـــان المدارس او الهيئات التشريعيـــة بالأقاليـــم ــ فان هذه ندعوهـــا **قوميـــة** ، واذا نجحـــوا فى الظفـــر بالســـيطرة على قـــدرات مهمة للتنفيـــذ فى منطقـــة كبيـــرة ــ اى اذا ســـيطروا فى الصـــادة على الدولة ــ فعندئذ ندعوهم **أمـــة** ، وعـــادة يطلقـــون هذه التسمية على انفســـهم •

ومن ثـــم فالامـــة شـــعب يســـيطر على دولة ، ولكن ليس من الضرورى أن يتطابق الشـــعب والدولة تماما ، فقـــد يعيش بعض اعضـــاء الشـــعب فى الخارج مكونين اقليـــات فى دول اخـــرى ، وقـــد يشـــكل اعضـــاء شـــعوب اخـــرى اقليـــات فى الشـــعب • فى كل دولة قوميـــة بالمعنى الصحيح ، شـــعب واحـــد اوثق تماثلا مع الدولة ، ويلقى من الرعايـــة من حيث القـــوة السياســـية والاحترام وغالبـــا من ناحيـــة الثروة وقيـــم أخـــرى ، ما يزيـــد عما تحظى بـــه الشـــعوب الأخـــرى فى تلك الدولة • ليس من الضرورى أن تشـــــكل هذه القومية المحظوظة الاغلبيـــة العدديـــة من مجموع ســـكان الدولة ، ولكنهـــا عرضـــة لأن تتصرف كأغلبيـــة وذلك بالنسبة الى ما تدعيـــه لنفســـــها من نفـــوذ وتفضيل واكرام • غالبـــا ما تدعـــو نفســـها « الاغلبيـــة » او يدعوهـــا بذلك المراقبـــون ، بينما

يطلق على المجموعــات الأخــرى فى الدولة اصطــلاح « اقليــات » بغض النظر عن الاعــداد الفعليـــة فى كل مجموعـــة ٠

ففى اسبانيا يشــكل الناطقــون بالاسبانية اغلبيـــة حقيقيـــة من السكان أما الباســك وأهــل قطالونيــا فأقليــات حقيقيــة ٠ ويبلــغ عــدد الذيــن يتحدثون بالهندوكية اقــل من نصف الســكان فى الهنــد ، وهذا هــو مركــز الباكستانيين الغربيين الناطقين بالاوردية فى داخــل ســـكان باكســتان ، ولم يــزد عــدد النســاويين والهنغاريين سويــا عن ثلث امبراطوريـــة النمســـا والمجر التى تحطمت فى الحرب العالمية الأولى ، والناطقــون باللغة الامهرية والذين يحكمون اثيوبيــا هم اقليـــة اصغر بكثيــر ، ولا يزال الناطقــون بلغـــة الروسيا الكبرى أغلبيـــة فى الاتحــاد السوفيتى ولكن قــد يفوقهم عــددا الناطقـــون باللغــات الأخرى قبــل نهايـــة القرن الحالى ، وحتى فى الولايــات المتحــدة لا يشــكل الامريكيــون المنحــدرون من البروتستانت الانجلــو ســكسوفيين البيض ، اغلبيـــة ، ولكنهم فقط اكبر اقليـــة فى صفوف الســكان ٠

كثيرا ما لا يتوقف مركــز « الاقليـــة » على اعدادهـــا بقــدر ما يتوقف على وجــود التفرقـــة أو انتفائهـــا او على نوعهـــا ودرجتها ٠ فالسويسريون مــن الناطقين بالفرنســية اقليـــة فى الشـــعب السويسرى الذين يتكلم منهم ثلاثـــة من أربعـــة اللغـــة الالمانيـــة ، ولكن معظم الناطقين بالفرنســـية لا يعاملــون باعتبارهم أقليـــة ويعتبرون انفســـهم سويسرين وذلك عن رضـــاء منهم ٠ لكــن حيث الأقليـــة ضحايـــا للتفرقـــة فى دولة قوميـــة ، فمن المحتمل ان يصبحــوا مبعدين عن تلك الدولة ، وكثيرا ما يبحثون فى الخــارج عن اصدقـــاء وحماة كى يســاعدوهم على الانضمام الى مجموعـــات أخــرى خــارج دولتهم الحاليـــة ، لهـــا نفس اللغـــة والثقافـــة ، أو لينفصلوا ويقيموا دولة قوميـــة صغيـــرة خاصة بهم ، فى كـــل أمثـــال هذه الحـــالات يمـــكن أن تصبـــح الاقليـــات الســـاخطة و « المســتعدة » ممثلين فى السياســـة الدولية وتســـهم بصـــورة لها شـــأنها فى اضطـــراب النظـــم السياســـية والاجتماعيـــة القائمة وفى الضغـــوط من اجــل اجـــراء تغيير حاســـم بوجــــه عـــام ٠

لكن اذا نجحت اقليـــة كهذه أو مجموعـــة كانت موضـــع الازدراء من قبل ، فى اقامة دولة قوميـــة لهـــا يسيطر عليها أعضـــاؤها فعندئـــذ من الســـــهل تماما ان تجـــد اقليـــة اصغر أو حتى أغلبيـــة عدائيـــة اقــل قـــوة ، لتنظـــر اليها باحتقـــار أو تضطهدهـــا وتمارس التفرقـــة ضدهـــا ٠

لقـــد روى الرومان القدماء قصـــة عبد اعتقـــه مولاه ، ســـئل عن أول شىء يفعله فى ظـــل حريتـــه الجديدة فأجـــاب : « اشترى لنفسى عبدا بالطبع » ٠ يمكن أن يقـــال شىء شـــبيه بهذا عن كثير من القوميين ، فاذ يشعرون بالغضب

بصدد أى ظلم يتعرض له شعبهم ، فانهم يبحثون عن شعوب أخرى ليضطهدوها • لقد دخلت عادات الامتياز والظلم اذهانهم تماما بمثل ما سبق أن دخلت فى ذهن العبد الرومانى الذى انتهى منذ امد طويل •

الامبراطوريات والمنظمات الدولية :

عندما يكون الشعب ذو الحظوة اقليه صغيرة نسبيا تتسلط فى دولة كبيرة نسبيا على بلاد وشعوب كثيرة ، فعندئذ نتحدث عن هذه الدولة المركبه الكبيرة بانها **امبراطوريه** • وعادة تضم مثل هذه الامبراطورية شعبا متسلطا يؤيد ويدافع عن حكومتها ، كما ان لها فى العادة اقليما مختصا بالعاصمة الامبراطوريه وحافة من المقاطعات او المستعمرات التى يجب أن تخضع لصور شتى من الاستغلال الاقتصادى والعسكرى والسياسى والاجتماعى • هذه الاخيرة تستفيد من منافع السلام والقانون والادارة مما تفرضه الامبراطورية ، ولكن عليها ان تتحمل معظم تكاليف الامبراطورية فى وقت السلم وخلال الحروب المتكررة التى تتعرض لها الامبراطوريات •

ان الكتاب من مدن العواصم الامبراطورية القديمة والاقاليم المختصه بالعواصم أو القوميات المحظوظة نسبيا ، كثيرا ما تؤثر فيهم روائع الامبراطورية ومزاياها ومنافعها ، بينما الاغلب أن يميل المراقبون من الأقاليم الصغيره والمستعمرات ومن الشعوب الخاضعة المستغلة ، الى ملاحظة ما تجر الامبراطورية فى أذيالها من ضروب المعاناة والاهانة والتكاليف •

فى الحالات القصوى يستطيع شعب ان يقيم امبراطورية على شعوب اخرى وبدرجة من النجاح بحيث قد يرتفع مستوى الجميع من الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية الى النقطة التى عندها قد نضرب الامة الحاكمة فى داخل الامبراطورية من ان تصبح الطبقة الحاكمة • أن تحويل امة الى طبقة ممتازة هو حقا انتصار القومية النهائى ، وان الكلمات من قبيل « الشعب » و « التفوق » و « السيادة » لتشهد باستمرار وجود الصورة التى تكمن تحتها •

ان أساس الامبراطوريات هو بلاده معظم أعلها ، وكما لوحظ فهذه البلادة بدورها مبنية على تأخرهم وفقرهم وعزلتهم الريفية •

هذه الظروف الأساسية آخذة الآن فى الزوال فى معظم بلاد العالم ، والنتيجه أن البلادة السياسية آخذة فى التضاؤل ، واصبحت الأسس التى تقوم عليها الامبراطورية مهتزة فى كل مكان •

لقد وصل عنصر تداعى الامبراطوريات والاحتمال بأن تنقلب هذه العملية فى اى مستقبل قريب ، احتمال قليل جدا ٠

كان التنظيم السياسى فى العصور الوسطى مسألة مستويات خمسة : القرية ، المركز أو الجهة التابعة لبارون والمقاطعة أو الدوقية ، المملكة ، والامبراطورية ، وهذه المستويات تتمشى بصورة غير دقيقة مع التقسيمات الكنسية وهى المصلى أى الكنيسة الصغيرة ، كنيسة الأبريشية ، الأسقفية . المطرانية ، والاختصاص البابوى على مستوى الامبراطورية أو على امتداد العالم ويقع الكثير من السياسة الدولية الحديثة على مستويات ثلاثة فقط الى حد كبير : السياسة الوطنية الفرعية التى تنتهجها المجموعات المثلة للمصالح ، شعوب الأقليات والاقاليم ، الدول القومية التى خلفت ممالك العصور الوسطى وتعدد الامبراطوريات مثل البريطانية والفرنسية والأسبانية والعثمانية والروسية والصينية ـــ التى كانت لها الغلبة فى القرن التاسع عشر ، ليصيبها الانحلال أو تحل محلها انماط أخرى فى القرن العشرين ٠

ان الرسالة العالمية القديمة التى كانت تدعو اليها امبراطورية العصور الوسطى ، وهى توحيد البشر على الآقل من ناحية الرموز والأمانى ، هذه الرسالة اضطلعت بها مجموعة جديدة هى المنظمات الدولية ٠ بعض هذه المنظمات ذات طبيعة خاصة الى حد كبير كالاتحاد العالمى للبريد ، والبعض الآخر أقرب الى طابع المنظمات التى تخدم جميع الأغراض ، كالأمم المتحدة ، ولكنها لم تصل حتى الآن الى نطاق الدولة القومية العام وأهميتها وقوتها وتستطيع أى منها وكلها التدخل اذا دعا الحال فى عملية السياسة الدولية ، بطرق سوف نعرض لها فى موضع قادم ٠

والنتيجة المترتبة على تفاعل جميع هذه الاتجاهات هى عالم دول تصدمها المنافسة الدولية من الخارج والضغوط والصراعات السياسية من الداخل ، والكثير من هذه الحكومات والدول مسلحة تسليحا كبيرا ، وكلها عرضة لارتكاب الأخطاء الى حد كبير ، وكلها تقريبا فى خطر صدام عنيف ، فى ظل هذه الظروف يتوقف بقاؤها على قيد الحياة وبقاء النظام الدولى الى حد حاسم على قرارات كل دولة وكل حكومة ـــ وعلى كل ممثل على المسرح الدولى عموما على التوجيه وضبط النفس ٠

الجزء الثالث

مصالح الممثلين : عمليات الرقابة والصراع

يقال ان الافراد والمجموعات والاسم جميعا على حد ســـــواء ، تتصرف فى السياسة ((حسب ما لهم من مصالح)) ـــ اى حسب توزيع انتباهها وتوقعـــاتها عن الجزاء الحسن ، ونعلم ان مصالحهم قد تكون متناقضة وان ادراكهم لها عرضة للخطأ الى حد بالغ ، ولكن ، حتى يتسنى ان نفهم كيف تستطيع الدول التصـــرف سعيا وراء ما يظن قادتها انه مصالحها ، علينا أولا أن نفهم كيف تسيطر الدولة على مسلكها هى ، وبوجه خاص : كيف تصنع السياسة الخارجية وتنفذ ؟ وما مـــكان قطاع السياسة الخارجية فى مجموع شبكة صنع القرارات القومية ؟ ؟ ومتى تكون للسياسة الخارجية الأولوية على السياسة الداخلية ؟

الفصل الثامن

١

كيف تتحكم دولة فى نفسها ؟

ينطوى جميع ضبط النفس على استمرار المزج بين محتويات ثلاثة مجـــــار منفصلة من المعلومات ، والربط بينها وتحليلها واستخدام ما يقع الاختيار عليـــه من بينها ، احد هذه المجرى المتدفق من نظام وموارد الممثل (ويحل عن مركزهم) ، والثالث عبارة عن مجرى الرسائل التى تستعاد من الذاكرة ، وعلى ذلك فأى نظام مستقل (أى يوجه نفسه بنفسه) يجب ان يحتوى فى داخله على ثلاثة ((صروح)) لمالجة المعلومات الفعالة (يجوز ان نقول « أجهزة الاستقبال » و « القنـــــوات » وما اليها) للقيام بما تتطلبه عملية الربط بين هذه المجارى وموازنتها ، ان أى نظام يوجه نفسه بنفسه ، أو اى تركيب أرقى او أى نظام من الشخصية او اى تنظيـــم اجتماعى أو اية حكومة ، لا يستطيع ان يجـــد اســـتقلاله الذاتى وشـــــخصيته وحريته وأن يظفر بهذه كلها ويحافظ عليها ، الا اذا كان مزودا ومعـــــدا على هذا النحو السليم ٠

صنع القرارات : ربط المعلومات الجديدة بالذكريات القديمة

الاغلبية الساحقة حتى من أبرز ذكريات الافراد تكون مختزنة فى رؤوسهم فقط ، أما ذكريات الدول فمختزنة فى أماكن كثيرة ، وذكريات الدول الاقل مخـــزونة (كمذكرات فى العادة) فى رؤوس حكام الدولة وكبار موظفيها ، وفى رؤوس اعضاء جماعات الصفوة . وفى الرؤوس الاكثر عددا لجميع الصفوف الاجتماعية الهـــامة من الناحية السياسية ، ولكن الذكريات المهمه حقا تختزن فى رؤوس الشـــــعب بأسره ، وفى ثقافته ولغته (هذه المخزونات من الألفاظ والصور والأفضليـــــات الثقافية والأخلاقية يمكن أن تعنى ضروبا عامة من التحيز وميولا سابقة نحو أنواع معينة من الاستجابات لأنواع معينة من الأحداث ــ وهى ميول سابقة غالبا ما يمكن ان لا يكون الافراد المعنيون أنفسهم على بينة منها حتى لحظة الاستجابة) ، وهى مختزنة فى الصحف والكتب والملفات ، وفى الخرائط والصور والآثار والمكتبات ، وفى التقارير الدبلوماسية والمذكرات الخاصة بالسياسة ، وفى خطط هيئـــــات الاركان للحرب ، وفى سجلات مكاتب الحكومة والمنظمات الاقتصـــــادية ، وفى القوانين وفى المعاهدات ٠ (للحكومة ــ أو الوكالة الحكومية كوزارة الخارجيـــة أو وكالة المخابرات المركزية ــ التى تملك الملفات الاكبر ، ذاكرة ((افضل)) اذا استطاعت أن تجـــد فيها بسرعة وبدقة المعلومات المناسبة للقـــــرار الذى يجب أن تتخذه) ٠

لنقل ان رسالة ترد الى الحكومة الامريكية عن ازمة سياسية مفاجئة فى بلد اجنبى ، على الموظف المسئول فى وزارة الخارجية أن يستعيد من ذاكرته أنسب الحقائق : اين يقع البلد وما الظروف السياسية والاقتصادية والعسكرية الرئيسية السائدة هناك ، ما المصالح الامريكية هنـــــاك ممثلة فى الرعايا الامـــــريكيين والاستثمارات الامريكية فى البلد ، وكذلك مصالحنا السياسية والاقتصــــادية والاستراتيجية الاوسع نطاقا ، ما الموارد على هيئة نفوذ اقتصادى أو سياسى . وكذلك على هيئة ما قد يكون للولايات المتحدة من قواعد وقوات وسفن وطائـــرات على مقربة من البلد ، وما حلفاؤنا فى المنطقة ، وبالاضافة الى المعلومات عن حالة مصالحنا وقواتنا المسلحة على الموظف المسئول أن يتذكر حالة الرأى السياسى عندنا ، وافكار الرئيس والكونجرس ، والافضليات المعروفة والاستجابات المحتملة من جانب المجموعات الرئيسية عندنا الممثلة للمصالح وعن وسائل الاتصـــال بالجماهير وهيئة الناخبين عندنا ٠

وحتى يكمل ذاكرته يمكن لهذا المسئول أن يرجع الى ملفات تقارير ســـابقة والى مذكرات عن السياسة الجارية وغير ذلك من المصادر المكتوبة ، ويمـــكن ان يستشير الموظفين الآخرين فى الوكالة التى يعمل بها وفى الوكالات الاخـرى من مدنية وعسكرية ، وان يرفع المسألة لتقرير ما يتخذ بشـــأنها الى رؤســـائه البيروقراطيين أو الى رئيس جمهورية الولايات المتحدة الذى قد تصبح ذكرياتـــه والصور والافضليات التى يتذكرها ، حاسمة فى المسألة ، هؤلاء الرجال يمثلون فيما بينهم ذكريات الحكومة الامريكية والتى لها أثر فعال فى اتخاذ هذا القرار ٠

فى ليلة الخامس والعشرين من يونية ١٩٥٠ وردت الرسالة الى واشنطن بأن القوات والدبابات الكورية الشمالية عبرت بقوة خط عرض ٣٨° الى كوريا الجنوبية وان حربا بدأت ٠ خلال الليل استدعى عدد متزايد من كبـــار الموظفين الى وزارة الخارجية ، فتذكروا ــ ورددوا فيما بعد ــ شذرات مناسبة من المعلومات ، تذكروا مثلا ، كيف أن الدول الغربية ترددت طويلا فى الثلاثينات من القرن فى مقـــاومة العدوان اليابانى ضد منشوريا فى عام ١٩٣١ وضد الصين فى عـــام ١٩٣٧ ، والعدوان الالمانى فى أوربا الوسطى فى عامى ١٩٣٨ ، ١٩٣٩ ٠ واذ راحوا يفكرون فيما يتوقع أن يترتب على انتصار شيوعى من آثار على الرأى العام العالمى ، وفيما للولايات المتحدة من مصالح سياسية واستراتيجية فى عدم السماح للجيـــوش الشيوعية باجتياح كوريا الجنوبية ، تذكروا أيضا أن بلادهم ظلت زمنا عازفة عن الاشتراك فى ((حرب باردة)) خطرة مع الاتحاد السوفيتى ، وتذكروا أيضا الفكرة الواسعة الانتشار فى ذلك الوقت عن أن الروسيا على عهد ستالين كانت تختبـــر باستمرار عزم الولايات المتحدة ، وانه اذا نجح هجوم شيوعى فسوف تعقبه هجمات شيوعية اكبر فى أماكن اخرى ٠ وأخذوا يسترجعون فى أذهانهم حالة الرأى العام الامريكية الداخلى فى عـــام ١٩٤٩ ، والغضب الشديد الذى تملك الكونجرس وجزءا كبيرا من الجمهور عندما أحرز الشيوعيون النصر فى الحرب الاهلية الصينية فى

تلك السنة وبسبب الطابع المحدود الذى اتسمت به المعونة الامريكية التى قدمت لفريق ((الوطنيين الصينيين)) المهزوم • وكانوا على علم بقوة القدرة البحرية والجوية والعسكرية الامريكية المتاحة فى الاقليم من القواعد الامريكية فى جزيرة اوكيناوا وفى اليابان •

هذه الذكريات لم تشر جميعها فى نفس الاتجاه ، فقبل ذلك بوقت وصف وزير الخارجية دين اتشيسون كوريا الجنوبية بأنها خارج محيط مصالح الدفاع الوطنى الأمريكى الرئيسية ، كما وصف بعض القادة العسكريين المحترمين اى اشتباك عسكرى امريكى هناك بأنه أمر غير مستحب الى حد كبير • غير أن هذه الذكريات كانت أهميتها قليلة جدا فى عملية القرار عندما ووزنت مقابل غلبة الذكريات التى تؤيد التدخل الامريكى ، ولم يمض وقت قصير حتى كانت قوات امريكية كبيرة تقاتل فى كوريا • فى الظاهر أن أيا من هؤلاء المسئولين أغفل مجموعة من الذكريات لها أهمية بوجه خاص خلال تلك الليلة من يونيه ١٩٥٠ : ذكريات أغسطس من عام ١٩١٤ عندما تصاعد صراع محلى بسرعة بين قوتين ثانويتين الى صراع بين القوى الكبرى أطبق على العالم ؛ على الاقل لم يذكر أن أيا من هؤلاء الموظفين لفت نظر الآخرين الى تلك الحادثة •

واضافت المعلومات الواردة الى نتيجة الجدل الامريكى الدائر حول كوريا . كان هناك نداء من حكومة كوريا الجنوبية بطلب المساعدة ، وكان هناك استعداد تريجفى لى ، سكرتير عام الامم المتحدة فى ذلك الحين ، للتعاون فى الحصول على قرار من مجلس الأمن فى أثناء غياب الممثل السوفييتى مؤقتا (الذى خرج فى اجتماعات المجلس اعتقادا بأن غيابه سوف يكون الأثر الآلى لفيتو قانونى ضد جميع قرارات المجلس الهامة طبقا لميثاق الامم المتحدة) يخول الولايات المتحدة سلطة القيام بعمل عسكرى فى كوريا تحت علم الأمم المتحدة وباسمها • وأخيرا ، كان هناك تأثير ذكريات وشخصية رئيس الولايات المتحدة الذى كان عليه أن يكمل القرار الذى كان مستشاروه قد وافقوا عليه بشدة ، ولم يكن هارى ترومان بالرجل الذى يتردد أمام قتال يرى ان له ما يبرره •

ووافق الجزء الاكبر من الراى العام الامريكى ترومان . كان هناك رد فعل ايجابى بدلا من سلبى من جانب الكونجرس والصحافة ، بينما ظلت الاحتياجات على التورط الامريكى فى حرب برية فى آسيا ، ثانوية ومتفرقة ، وفى خارج البلاد كان هناك تأييد من جانب حلفاء امريكا وان كان على نطاق محدود جدا ، بينما كانت المعارضة السوفيتية للتدخل الامريكى فى كوريا عنيفة بالكلمات ولكنها بخلاف ذلك ظلت مقصورة بوجه خاص على تقديم المعونة الاقتصادية والغذائية الى كوريا الشمالية ، وعلاوة على ذلك ، سرعان ما كانت أوائل تجارب التدخل . ملائمة ومواتية ، ففى أكتوبر ١٩٥٠ أحرزت القوات الامريكية نصرا كبيرا فى انشون ، وعندئذ بعثت الحكومة الامريكية بقواتها الى داخل كوريا الشمالية لغزو

ذلك البلد أو تحريره ، فتقدمت عبر معظم ارضه نحـــو يالو والحد الصـــــينى فى منشوريا ، كان القرار الامريكى الاصلى بمقاومة العدوان فى كوريا الجنوبية ، قد تحول الى عمل اكبر واشد خطورة بكثير ٠

الحرية والسياسة : الحاجة الى اتخاذ قرارات ثابتـــة

ان القرارات الخاصة التى يتم الوصول اليها عن طريق مثل هذا التفـــاعل بين الرسائل الراهنة والذكريات التى يسترجعها أصحابها ، وكذلك تفاعل الرسائل الخارجية والمحلية ، هذه القرارات ليست حتمية ٠ فبرغم ان نتيجة معينة تترتب على عملية القرار ، قد تكون أكثر احتمالا من نتيجة أخرى ، تظل العملية فى طبيعتها توافيقية واحتمالية ، هذا فحسب يبدو سمة مميزة للافراد والجماعات ، ولسيادة الدولة ــ وباختصار ، تميز الحرية التى تحظى بالحكم الذاتى ، فمن قرار لآخـــر لا يمكن التنبؤ بنتيجتها بيقين كامل ، لا من جانب أى مراقب خارجى ، بل ولا من داخل النظام نفسه ٠

السياسة مجموعة واضحة من افضليات وخطط أعدت كى تكون سلاســـل القرارات المستقبلة أقرب الى امكانية التنبؤ بها وأكثر ثباتا وانتظاما ٠ ان انتهاج سياسة ثابتة يحمى صانع القرار من ان ينقض فى يوم ما فعله فى اليـــــوم الذى قبله ، ومن أن ينقض فى الايام الفردية ما يعمله فى الأيام الزوجية ، فكلما زاد عدد القرارات التى يجب ان تتخذها حكومة ، عظمت حاجة الأخيرة الى السياســـــة . وبمجرد أن توضع السياسة وتلقى القبول فان امثال هذه الافضليات والخطط ومن ذلك بالنسبة الى الولايات المتحدة مثلا ، تأييد وتشجيع توحيد أوربا الغربيـــة ، يخصص لها مكان مفضل فى نظام ذكريات الحكومة ورجالها الذين لهم عـــلاقة بالموضوع ، ثم يعطى لهذه السياسة وزن معين فى عملية صنع القرارات حيث قـد تفوق الذكريات الأخرى والرسائل الجارية التى تتعارض مع هذه السياسة ٠ قد يتعين من وقت لآخر تغيير مثل هذه السياسات لمواجهة الظروف المتغيرة ، ولـكن لا يجب الاكثار من تغييرها اذا أريد أن لا ينقص أو يضيع ثبات وفعالية أعمـــال الحكومة ٠

يمكن أن يقوم مسئول أو عدد قليل من المسئولين برسم خطط تجريبية للحكومة عن السياسة الخارجية ، ففى السياســـة الخارجية البريطانية اعتبرت مـــذكرة مشهودة اعدها السير آير كرو فى عام ١٩٠٧ ، أن المانيا بدلا من فرنسا أو الروسيا ، هى أقرب تهديد للمصالح البريطانية ، وتصرفت الحكومات البريطانية تبعا لهــذا خلال السنوات التى ادت الى الحرب العالمية الاولى ، وفى الولايات المتحدة أصبح معروفا أن جورج كينان هو صاحب مقال فى مجلة ((الشئون الخارجية)) فى عـــام

١٩٧٤ بشر بتوقيع مستر (أكس) وكان يبحث على انتهاج سياسة امريكية طويلة الاجل تقوم على ((احتواء)) اى توسع للنفوذ الشيوعى والسوفيتى بعد ذلك فى اى مكان بالعالم ، واتخذت السياسة ، واتيح لكينان الذى كان ما يزال آنذاك عضوا فى هيئة تخطيط السياسة التابعة لوزارة الخارجية (وبعد ذلك سفير الولايات المتحدة لدى الاتحاد السوفيتى ومن بعده لدى يوغوسلافيا) فرصة الاشتراك فى تنفيذ السياسة التى سبق ان ساعد فى وضعها (ولقد عدلت هذه السياسة نوعا ما منذ عام ١٩٧٣ فصاعدا وذلك بربطها بسياسة الوفاق او ((تخفيف التوترات)) بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى ٠ وأجرى الرئيس نكسون تغييرا كبيرا فى سياسة الولايات المتحدة ازاء الصين الشيوعية وحاول الرئيس كارتر فى اوائل عام ١٩٧٧ انتهاج سياسة جديدة وهى ممارسة الضغط على الحكومات لكى تكون اكثر احتراما لحقوق الانسان لمواطنيها ٠ الى اى مدى ستثبت هذه السياسات انها تتمشى مع بعضها البعض فهذا أمر يحتاج الى تدقيق ٠

تعدد صناع القرارات وعناصر القرار

وحتى اذا وضعت سياسة ما بوضوح ، وجب اتخاذها ، كما يمكن أن ننظر الى الحكومة الامريكية بأسرها كنظام واحد لصنع القرارات ، له ذاكرته ومسالكه الخارجية والداخلية لتلقى المعلومات ، كذلك نستطيع أيضا أن ننظر الى النظم الفرعية الاصغر فى داخل الولايات المتحدة ــ من قبيل الوكالات الحكومية الرئيسية كوزارة الخارجية او وزارة الدفاع ، أو الأحزاب السياسية الرئيسية والتجمعات فى داخل الكونجرس ــ على أن كلا منها تشكل نظاما كهذا لاتخاذ القرارات ، له ذكرياته وقنوات استقبال المعلومات ، واذن فأى قرار رئيسى فعلى خاص بالسياسة الخارجية يتخذ هو نتيجة تفاعل هؤلاء الممثلين العديدين فى الداخل والمتنازعين . وسوف يتعين اتخاذ اية سياسة خارجية طويلة الأجل ، عن طريق عملية تعددية وتنافسية مشابهة ٠

وهكذا فصنع السياسة الخارجية يشبه مباراة آلة كرة الدبابيس ، فكل مجموعة تمثل مصلحة ، وكل وكالة ، وكل موظف أو مشرع مهم او زعيم وطنى للرأى العام ، كل واحد من هؤلاء يكون فى مركز دبوس ، بينما القرار الصادر يشبه النقطة النهائية فى طريق كرة من الصلب تنط فى اللوحة من دبوس الى دبوس . واضح أن بعض الدبابيس موضوعة بطريقة استراتيجية اكثر منها فى دبابيس اخرى وبذا يكون لها فى المتوسط تأثير اكبر قليلا على نتيجة المباراة ، ولكن ما من دبوس واحد يحدد النتيجة ، فتوزيع النتائج ليس يحدده سوى توزيع جميع الدبابيس المهمة على اللوحة ــ لأن بعض الدبابيس قد تكون بعيدة عند المحيط بحيث لا يؤبه بها ٠ هذا التوزيع غالبا ما يمكن التنبؤ به فى ثقة طيبة بالنسبة الى اعداد كبيرة من الجولات ، أما عن الجولة الواحدة ــ كما هو بالنسبة الى القرار

الواحد ــ فلا يمكن حتى أفضل الاحوال ، الا الالتجاء ألى عنصر الاحتمال ، اننا اذ نسأل حكومة أمة كبيرة عمن يدير اموررها ((فى الحقيقة)) وفرضا من وراء الستار ــ سـ ؤال ســـاذج فى العادة بمثل ما تســـأل عن أى دبوس يقدر ((فى الحقيقة)) نتيجة المباراة ٠

أن عملية توافقية مشابهة ، تشــــبه من بعض النواحى لعبــــة آلة كرة الدبابيس التى أشرنا اليها ، هذه العملية قد تكون دائرة فى ذهن أى زعيم ســياسى أو صانع قرارات بصفته الفردية ، يحتمل أن يتلقى رسائل مختلفة من العـــالم الخارجى كلها تميل بشدة نحو القرار الذى يجب آن يتخذه ، وقد يسترجع معلومات مختلفة كثيرة من ذاكرته ــ ذكريات عن حقائق وذكريات عن أفضليات ــ تـــؤيد القرار ٠ ما من مراقب خارجى ، بل ولا نفس صانع القرار فى الواقع ، بقـــادر على أن يقول أية رسالة خارجية واحدة أو اية عبارة اســــترجعت من الذاكرة ، اثرت تأثيرا حاسما فى الطريقــة التى اســتقر بها رآيه فى النهاية وفى أسلوب العمل الذى اختاره ٠

برغم أن من الصعب التنبؤ بنتيجة جولة واحدة على آلة كرة الدبابيس ، فالتنبؤ بتوزيع سلسلة من أمثال هذه الجولات ليس بمثل هذه الصعوبة تقريبـــا ٠ وبالمثل فعندما ترمى زهرين صحيحين فلن تستطيع أن تتنبأ بالقيمة العـــددية لأية رمية واحدة ، ولكن اذا واصلت الرمى ففى امكانك طبقا لمزايا رياضية موثوق بها ، أن تتوقع الحصول على العدد سبعة حوالى ســـدس الوقت ، والعدد ١٢ فى ١/٣٦ من الوقت ، واذا كان عليك أن تقامر فان معرفتك بالتوزيع المحتمـــل للنتائج أو المكاسب على أداة من أدوات المقامرة ، سوف تكون الاساس الذى تقوم عليه استراتيجيتك المعقولة ، والمعرفة (حتى بصورة تقريبية) بالتوزيع المحتمـــل لقرارات زعيم سياسى أو تنظيم سياسى ، معناها ان تعرف حكومة او امة شـــيئا عما ندعوه طابعهم السياسى ، وهو الأساس الذى تقوم عليه أية استراتيجية معقولة يمكن انتهاجها بالنسبة اليهم فى السياسة ٠

الأهداف السياسية وصور الأهداف :

كل ما قلناه حتى الآن عن القرارات السياسية ــ الأسس التى تقوم عليهـــا وامكانية التنبؤ بها ــ لا يعنى أن الحكومات مخالفة للمجموعات والمنظمات الأخرى ، وان ليس لها أهداف ولا تتابعها ، للحكومات أهداف بالتأكيد ، والبعض اهم هــذه الأهداف هو فى ميدان العلاقات الخارجية ٠

قد تجد الحكومات فى متابعة اهدافها اما بطريقة واعية أو ٠ آلية ٠ أن هدف اى نظام هو تلك الحالة السائدة وخاصة فى علاقته بالعالم الخـــارجى والتى فى داخلها هبط اختلال توازنه الداخلى ــ أى دافعه ــ الى حد أدنى نسبى ٠ فـــاذا

كانت دولة تعانى نوعا ما دن عدم التوازن أو التوتر ــ ومعظم الدول تعانى بعض اضطراب من هذا النوع ، شأنها شأن معظم النظم العاملة الأخرى ــ فسوف تميل الى تغيير بعض نواحى سلوكها الى أن يخف اختلال التوازن هذا · وعندما يخف الاضطراب الداخلى تماما بالدرجة الكافية ، يكون قد تم الوصول الى الهدف سوف تميل الدولة الساعية وراء هدف (أو أى نظام آخر يسعى وراء أهداف حسب تعريفنا للمصطلح) الى تكرار تلك الانماط من السلوك وأن تستمر فى الحالات التى يكون فيها اختلال توازنها الداخلى اقل نسبيا ، وتميل بالمثل الى أن تتفادى أو تتخلى بسرعة عن الحالات التى يزيد فيها اضطرابها الداخلى · لسبب أو آخر سوف يميل اى نظام او تنظيم او دولة يتصرف بهذه الطريقة الى الاقتراب من أهدافه والتمسك بها · سوف يكون سلوكه الساعى وراء هدف ، وسوف يبدو انها تتابع غرضها حتى ولو كان الأشخاص الذين فى داخل التنظيم أو الدولة (سواء كان الشكل الأول أو الآخر) على غير بينة منه ·

هكذا يحدث أن دولة كبرى وزارة الدفاع فيها واقعة تحت ضغط من جانب قواتها المسلحة كى تنشىء قواعد بحرية وجوية استراتيجية فى بلاد أجنبية ، وتحت ضغوط أيضا للتقليل من كل من التكاليف المالية والمشكلات السياسية مع الشعوب المضيفة ، هذه الدولة قد ينتهى الأمر بها بأن تقيم قواعدها فيما وراء البحار فى البعض من افقر بلاد العالم واكثرها تأخرا حيث قد تكون حكومات مكروهة وفاسدة أو مستبدة على استعداد لتقديم مواقع استراتيجية لأمثال هذه القواعد الى قوة أجنبية ((بأرخص ثمن او بأقل اصرار على أى نصب فى الرقابة السياسية على هذه القواعد · والنتيجة ان دولة ديموقراطية كبيرة كالولايات المتحدة ، وبدون أية نوايا متعمدة وضرورية من جانب قادتها ، قد تجد نفسها متحالفة فى مختلف أنحاء العالم مع مجموعة تثير الانتباه ، من ملكيات متأخرة ونظم حكم دكتاتورية ، ودكتاتوريات عسكرية أو مدنية · ان صورة الهدف فى أذهان الكثير من رجال السياسة والكتاب والناخبين ــ صورة عالم حر باعتباره تحالفا عظيما من بلاد حرة ــ هذه الصورة انما تصف بشكل ناقص جدا الهدف قصير الاجل الفعلى الذى تحاول الحكومة الامريكية الاقتراب منه بالبحث عن ضرورات سياسية من قبيل حلفاء اجانب يوافقونها وقواعد استراتيجية فيما وراء البحار بأنسب شروط فى المدى القصير ·

اعادة الاستثمار ومسلك السعى وراء الأهداف :

من الناحية النظرية تستطيع الحكومات (شأنها شأن الكثير من النظم العاملة الاخرى) ان تحقق أهدافها بمجرد التجربة والخطأ ، تستطيع أن تجرب أنواعا مختلفة من السلوك ازاء بيئتها ، وان تدخل فى مواقف مختلفة بالنسبة الى هذه البيئة ، ثم تواصل تلك الانواع من السلوك وان تبقى فى تلك المواقف (التى تدعى كما رأينا ، مواقف اهداف أو أهداف) التى يقل فيها الى أدنى حد ، ما تعانيه هذه الحكومات من اختلالات أو توترات داخلية · والواقع ، تستطيع معظم

الحكومات (مثلها مثل جميع المنظمات الفعالة بصورة معقولة والباحثـة عن الاهداف ، أن تتصرف على نحو افضل ، تستطيع ان تستخدم ما تحصل عليه من معلومات للاسترشاد بها خطوة خطوة وهي في الطريق الى تحقيق اهدافها ٠

وعملية اعادة الاستثمار هي من جوهر كل سلوك فعال يسعى وراء هـدف وهي تنحصر في ان تعيد الى النظام القائم بالعمل ، فيضا من المعلومات عن نتائج أفعال سبق ان قام بها ، وهكذا يحصل النظام على معلومات عن نتـائج ما عمل ، ويستخدم هذه المعلومات لتعديل ما سيقوم به من اعمال بعد ذلك ، وعملية اعـادة الاستثمار تتم في دورات : من الفعل الى الصدى (اى الى عودة الرسائل عن نتائج ذلك الفعل) ثم من الصدى الى الفعل (اي ـ كالخطوة التالية ـ اما الى تـكرار الفعل الأصلي أو الى فعل يختلف نوعا على الاقل ، عن الأصلي) ٠

اذا كان النظام اشد تعقيدا أمكن ان نعتبر انه ينطوي على مكونات خاصـة ونظم فرعية ، تدعى المؤثرات وعن طريقها يؤثر في العالم الخارجي ٠ فالجنـود ورجال الشرطة والدبلوماسيون والمشرفون على تقديم المعونة الاقتصادية الخارجية ، هؤلاء جميعا يمكن ان يقوموا بدور المؤثرات بالنسبة الى حكومة ما ، فينفذون أوامرها على نحو دقيق وفعال في العادة ٠ هنا ايضا يمكن أن تزود عملية اعادة الاسـتثمار الحكومة بما فعل مرؤوسوها وبنتائج اعمالهم ، وعلى ضوء هذه المعلومات يمـكن للحكومة أن تعدل وتبدل الأوامر الأخرى التي سوف تصدرها لهم فيما بعد ، وفي الوقت نفسه فان عملية استثمار اقصر قد تعيد الى احد المكونات ((كالقائد المحلي لقوة الشعب العسكرية في المنطقة)) النتائج التي ترتبت على فعل قام به من قبل ، ويمكن أن يقوم بخطوات تصحيحية من عنده بدون انتظار الأمر التالي من عاصمة أمته ٠ الواقع أن الكثير من فن وعلم الادارة في الشئون الخارجية ، كمـا في المسائل الأخرى ، يتناول مشكلة عدد وأنواع القرارات التي يراد تخصيصـها للدورات المحلية القصيرة المدى التي تمر بها عملية ارسال المعلومات من النظم المحلية التي تقوم بدور المؤثر ـ السفارة المحلية ، قائد مسرح القتال ، المكتب المحـلي الخاص بالمعونة الاقتصادية والأنواع التي يراد الاحتفاظ بها للمسالك التي تغذي الحكومة القومية بالمعلومات وهي مسالك غالبا ما تكون أبطأ ، أو حتى للنظام القومي الأكبر الذي يتخذ القرارات وقد يشتمل على الهيئة التشريعية والمجموعات الضاغطة والرأي العام وفي النهاية هيئة الناخبين ٠ (نشأت مشكلة من هذا النوع ، مثـلا في القرار السريع الذي اتخذه الرئيس توماس جيفرسون عام ١٨٠٣ لمساندة القرار الذي اتخذه ممثلو الولايات المتحدة في باريس بشأن شراء اقليم لويزيانا ومن ثـم شراء كثير من قارة امريكا الشمالية ، هذا القرار ما كان في الامكان أن يتخذه أي موظف اقل شأنا ، مثل السفير الامريكي في باريس ـ ولكن حتى عند ما يتخـذه الرئيس وهو ما حدث بالفعل ، فقد كان بدون الموافقة التامة من جانب السـلطة الدستورية ولم يصدق عليه الكونجرس الا فيما بعد) ٠

قلنا ان الاشارات التى نؤديها المعلومات الواردة يمكن أن تستخدم لاحداث زيادة أو نقص فى حدة أو تكرار السلوك الأصلى الذى سببها • فاذا كانت التغذية بالمعلومات تزيد دائما من حدة و / أو تكرار السلوك الأصلى فعندئذ تدعى التغذية الايجابية أو المكبرة ، وتدفع السلوك الأصلى للنظام الى أعلى باطراد الى أن يتحطم عنصر ما فى النظام أو فى بيئته ، أو الى أن يتم استنفاد مورد أو عرض رئيسى • فكما أن النقود بالفائدة المركبة تزيد ببطء ولكن بمقادير مطلقة اكبر ، وكمـــا يزداد اشتعال نار فى الغابة على ما يغذيها ، كذلك تفيد افعال أفراد جمهور فى حالة فزع باعتبارها اشارات متبادلة تدفعهم جميعا الى سلوك ينم عن أقصى درجات الذعر • ففى السياسة على ما وجد ثيوقليدس فى أثينا فى القرن الخامس قبل الميـــلاد فالخطب التى يلقيها الساسة المتنافسون قد تدفعهم الى المطالبة باستراتيجيـــات أشد تطرفا فى شئون بلدهم الخارجية • وعندما يتبادل كلبان فى الشارع الزمجرة ، ويتبادل تلميذان الشتائم فى فناء المدرسة ، وتتبادل قوتان كبيرتان التهديدات أو الاعتمادات للاسلحة — نقول أن هذا كله قد يعمل على تصعيد نزاع الى مستويات من العداء أشد قوة وحدة ، فالتصديق وجميع اشكال التغذية بالمعلومات صـــفة تميز مواقف الهروب المبدئية ، فاذا استمرت فسرعان ما تصبح عرضة لأن يفلت زمامها من الايدى ، بغض النظر عن النوايا المعتدلة للاطراف التى بدأتها ، واذا أريد ان يظل الممثلون السياسيون — سواء كانوا اشخاصا أو حكومات أو شعوبا — يسيطرون على مصيرهم ومصير سلوكهم ، وجب أن توقف بسرعـــة عمليـــة التغذية بالمعلومات ، أو وجب الاســـراع بالابطـــاء بها حتى تظل فى داخـــل حدود بمكن احتمالها •

معنى هذا ان التغذية الايجابية يجب ان تحل محلها تغذية سلبية تقلل من السلوك السابق أو تقلبه حتى تحد من النتيجة • فالتغذية السلبية هى العمليـــة التوجيهية الرئيسية التى تكمن وراء كل ابقاء على الحدود وكل سعى وراء الاهداف • وهى تتطلب نوعين من المعلومات : أولا ، موضع الهدف (أو الحد) ، وثانيا ، مبلغ ابتعاد السلوك الماضى للمثل أو النظام عن الهدف • وعندئذ فالمعلومات عن النتيجة الفعلية المترتبة على السلوك الماضى للمثل تواصل أو تزيد من سلوكه اذا كانت تقربـــه من هـــدفه ، ولكن تقلل من ســـلوكه الراهن أو تعكســـه اذا كانت تبعده عن هدفه •

فالتغذية السلبية اذن هى التى تتحكم فى السلوك فى كل خطوة أو مرحـــلة لا بالنوايا الطيبة ولكن بنتائجها الفعلية فى المرحلة السـابقة عليها ، فهى فى التكنولوجيا أساس أجهزة التكييف التى تجعل بيوتنا فى درجة حرارة معتـــدلة برغم تغير المناخ ، وعن طريق التحكم الآلى الذاتى الذى يمكن من هبوط طائـــرة بدون طيار أو توجه صاروخا نحو هدفه • التغذية السلبية معناها فى السياســـة معلومات قد توحى بأن حكومة ما تواصل سياسة يبدو انها تقربها من موقـــف واضح ، ولكن قد تشير الى تغيير أو انقلاب فى افعالها اذا كانت هذه الافعال تبعد

الحكومة عن هدفها • وبرغم أن عمليات التغذية الفعلية فى الحكم والسياسة ، متعددة ومعقدة فمفهوم التغذية الأساسى هو من البساطة بحيث يكون اداة فعالة تساعدنا على أن ندرك ونعزل ونفهم مختلف عمليات التغذية الايجابية والسلبية التى نجدها من الناحية العملية • وقد تتضمن هذه العمليات ما هو اكثر من المدخل المباشر الى الهدف ، مثال ذلك انه بمساعدة البيانات التى تسترجع عن الذاكرة ، يستطيع ممثل ان يتابع هدفا حول العقبات او عن طريق خليط من عمليات الدوران والانحراف • ان مواصلة العمل على تحقيق هدف استراتيجي على المدى الطويل ، عن طريق تعاقب عمليات التفاف ودوران تكتيكية بالنسبة الى تغييرات قصيرة الأمد ، نقول أن هذا قريب مما ندعوه متابعة ' وسلوكا هادفا . واذ ندرك فى كل حالة مثل هذا السلوك الهادف بين الدول ، ونكتشف تدفقات من رسائل خاصة وقنوات اتصال ، الى جانب ما يعتمد عليه من أشخاص معينين ومنظمات وتسهيلات مادية ، نقول أن هذه مهمة رئيسية يضطلع بها التحليل السياسى فى الشئون الدولية • فبمجرد أن يطرأ تغيير حاسم على هذه المجموعة الرئيسية وقنوات الاتصال (اشخاص وتسهيلات لاعداد هدف معين والسعى وراءه) أو يبطل عملها • فالتنظيم الكبير أ الدولة القومية التى كانت تحتوى عليها ، قد يواصل الوجود ، لكن يتوقف هذا السلوك الهادف المعين نظرا لانه كان يعتمد على قيامها بعملها •

سير التاريخ : الاغراض والأسباب :

ليس جميع سلوك القادة السياسين والمجموعات التى تمثل المصالح والحكومات والدول سلوكا هادفا ، فالكثير منا ليس كذلك • ففى جميع المستويات — فى صفوف الافراد والمجموعات والاسم — نجد أن قنوات الاتصال والرسائل التى توجههم نحو اهدافهم ليست بالوحيدة التى تؤثر على سلوكهم ، فالواقع أن اهداف عدة ومسالك عدة تنتقل فيها الرسائل التى توجههم نحو اهدافهم ليست بالوحيدة التى تؤثر على سلوكهم . فالواقع أن أهداف عدة ومسالك عدة تنتقل فيها الرسائل من الخارج والداخل ، قد تتنافس على المتاح من وسائل اتصال محدودة وعلى وقت صانعى القرارات واهتمامهم • وقد تكون بعض هذه المدخلات المتنافسة عشوائية ، وكلها قد تزيد من الخلط والاضطراب فى داخل النظام الذى يصنع القرارات ومن العبء الواقع على مسالكه ومرافقه واشخاص العاملين فيه ، وهذا قد يجعل جزءا من انتاجيه يتم كيفما اتفق نسبيا ومن ثم تقل امكانية التنبؤ بتوزيع نتائج دورة المنتجات والمخرجات •

وعلاوة على هذا يعتمد كل ممثل الى حد ما على مكوناته التى قد لا تكون كلها تحت سيطرته ، ويمكن أن يتغير سلوكه اذا أخفق أحد المكونات الدقيقة

او تغير ، ولهذا السبب يواصل الساسة الاعتماد (ويحكم عليهم) على سلامتهم الجسمية والذهنية ، ومزاج شخصيتهم وتركيبهم العاطفى ٠ شاهد الزعماء الامريكيين من قبيل جون فوستر دالاس ودوايت ايزنهاور وودرو ويلسن وجيمس ف — فورستال ٠ وبالمثل ، قد تعتمد الشعوب فى بعض سلوكها على مجموعات فرعية او زعماء لهم اهمية ٠ واذا فشل هؤلاء أو تغيروا . فقد يتغير التاريخ القومى بل وتاريخ العالم ، فالصراع بين الجيش والشيوعيين فى اندونيسيا عام ١٩٦٦ غير سياستها الخارجية ، ووفاة فرانكلين د٠ روزفلت وجون ف٠ كيندى اعقبتها تغييرات بعيدة المدى فى بعض سياسات الولايات المتحدة الخارجية ٠

وفى الوقت نفسه يعتمد كل ممثل ايضا والى درجة مهمة ، على بيئته التى تشمل تصرفات جيرانه وشركائه ومنافسيه . والحقيقة ان نتيجة سلوك أى نظام تتوقف الى حد بالغ على تصرفات الممثلين الآخرين وعلى النظام فوق القومى الاكثر الذى فيه النظام الأول . والنتيجة انه برغم ان كل ممثل يمكن أن يتابع غرضا ، فقد تكون النتيجة مما لا يقصدها أى منهم ٠ فالوقت الذى يعود فيه موظف الى بيته فى نهاية اليوم ، لا يتوقف على اسراعه أو على جودة سيارته القوية فحسب ، ولكن قد يتوقف بصورة مهمة على حركة المرور فى الساعة الخامسة مساء ، وبالمثل لا يتوقف نجاح او فشل سياسة امة على قوتها ونوايا قادتها فحسب ، ولكن على الموقف السياسى أو الاقتصادى الاكبر السائد آنذاك فى العالم ٠

فبقدر ما يمكن أن نتنبأ بالتغييرات فى النظام الفرعى او فى النظام الاعلى مستوى ، أو على الأقل نفسرها بطريقة منتظمة ، فاننا نميل الى ان نعدها اسبابا ، عندئذ نقول ان هذه السياسة اوقفت ، بسبب « وفاة مسئول كبير ، أو ان سياسة اخرى اتخذت ، بسبب الموقف الدولى المتغير ، وبالعكس . اذا لم نستطيع أن نفسر بطريقة ترضينا ، كيف ولماذا وقعت هذه التغييرات الخطيرة فى النظم الفرعية والنظم الأعلى مستوى ، فعندئذ نميل الى أن ندعوها حوادث عارضة ٠

ان مختلف مصادر العناصر الممكنة الممثلة فى العشوائية وعدم الاستمرار والتغير غير المتوقع . هذه جميعا تعمل سويا على تعديل (وغالبا بطريقة حاسمة تماما) سير السياسة وسير التاريخ ، وتبدل ايضا آثار ما يمكن تحتها من احتمالات التاريخ وتحيزاته و « قواه الصامتة » التى كثيرا ما تشير فى حد ذاتها وبذاتها الى نتيجة مختلفة ٠ كثيرا ما يكون التنبؤ بنتيجة سياسة دولية فى صعوبة التنبؤ بنتيجة مباراة يتعادل فيها الزهر الذى يستخدم فى اللعبة ، فاذا كان الزهر محملا بطريقة شديدة جدا أصبح التنبؤ بالنتيجة سهلا نوعا ، واذا كان تحميلها

بسيطا لا يؤبه به ، امكن اجراء بعض التنبؤات باتخاذ العشوائية قاعدة ، ولكن اذا كان الزهر محملا الى حد معتدل ولكنه مهم وبدون الطغيان على جميع العوامل الأخرى ، التي تؤثر في النتيجة ، فهنا يصبح التنبؤ صعبا ولكنه يثير الاهتمام ، ولما كان يبدو أن هذه الحالة فحسب تسود في السياسة الدولية فان التفكير في السلام والحرب يتطلب نموذجا افضل من العشوائية او الجبرية .

ونحتاج ايضا الى مثل هذا النموذج كي يساعدنا على تناول النظريات الجزئية ولكنها متعارضة ، التي وضعها كبار المفكرين في الماضي ، فاعتمادا على تجربة حروب نابليون شدد الاستراتيجي البروسي كلاو ستوتز على عنصر الهدف الذي تنطوي عليه حرب يبداها ويديرها الساسة باعتبار أنها « استمرار للسياسة بطرق أخرى » . ومن احداث العصر ذاته استخلص الكاتب الروسي الكبير ليو تولستوى النتيجة المضادة : كانت الحروب والمعارك بالنسبة اليه سلاسل طويلة من الحوادث العارضة ، اقل فهما لها اولئك الذين يشتبكون فيها مباشرة واخيرا بدا لمن يعتقدون في الأسباب الاقتصادية والاجتماعية ، مثل أفلاطون وكارل ماركسي وتشارلز بيرد ، أن الحروب سببها المال (كما قال أفلاطون) أو (كما عبر عن الأمر ماركس وبيرو تنظيمات طبقية اجتماعية ومجموعات للمصالح ، اشد تعقيدا .

نموذج المشي العشوائي :

وثمة اداة تساعد في تناول هذه النظريات والحقائق المتعارضة ، هي نموذج المشي العشوائي ، تصور رجلا مخمورا يمشي مترنحا فوق طنف جرف عريض ومسطح ، يخطو خطوة خطوة كيفما اتفق ، ولكن عالما رياضيا تملكه الرعب ولكنه مشغول بحيث لا يستطيع تقديم المساعدة . يراقبه من بعيد لكي يرسم ويتنبأ بسيره ، هناك عنصر من الجبرية في المشي العشوائي ، لا يستطيع المخمور ان يتحرك الا من الموضع الذي هو فيه ، ولا يستطيع ان يسير الا خطوة واحدة في كل مرة . يرتبط بهذا عنصر من الاحتمال : نظرا لأن خطواته عشوائية ، فمن غير المحتمل تماما أن تكون كلها في نفس الاتجاه ، والاكثر احتمالا انها كثيرا ما تغير اتجاها ، وأحيانا تسير في الاتجاه المضاد . ونتيجة لهذا يستطيع الرياضي باستخدام تكتيكات في التحليل ان يحسب سير الرجل . يستطيع ان يحدثنا عن مدى احتمال عودة المخمور بعد عدد معين من الخطوات ، أن يعود الى النقطة التي بدأ منها ، وفي أي جزء من الطنف يعظم الاحتمال بأن يكون فيه في أي وقت معين ، وما الاحتمال بأن يقفز من فوق الحافة خلال أية فترة . لكن اذا حدث لحسن حظ المخمور أن ترنح فسقط على جانب التل فان انحدار التل سوف يضيف اتجاها نزوليا مستمرا

الى طريقة مشية المتعرج ، ولكن اذا لم يكن هذا المنحدر شديدا ومفاجئا جدا فسوف يظل للعنصر العشوائى فى السير تأثير مهم على النتيجة ٠

للمشى العشوائى من جانب السكران ، ما هو أكثر من شبه قليل بسياسات الشعوب الكبيرة ويسير النتائج على سطح الارض ٠ ففى كل خطوة يبدأ المشى من موقع معلوم فى ذلك الوقت ، وهو يتضمن عنصرا عشوائيا ثابتا قد يكون كبيرا او صغيرا من ناحية الآثار المترتبة عليه وعرضة لان يدخل عليه تعديل بفعل أسباب مستمرة وتحيزات ومؤثرات مقدرة ، يمكن أن تعمل الكثير فى تغيير توزيع النتائج المحتملة ولكن لا تستطيع فى العادة ان تجعل أية نتيجة واحدة مؤكدة ٠ وبالمثل لا يمكن أن تبدأ السياسات الوطنية والعمليات التاريخية الا من نقطة واحدة ومما هو معلوم آنذاك وهناك ٠ وهى ايضا عرضة لمؤثرات مستمرة وانحيازات وعمليات علية ، تتراوح من الظروف الاقتصادية والأفضليات الشعبية الى القيود الفنية والى قوة وموارد ممثلين معينين ، فى تلك الشعوب وفيما بينها ٠ انها تعكس بالطبع سلوك المشتركين المختلفين الهادف واستراتيجياتهم التى كثيرا ما يقع عليها الاختيار عن عمد ، ولكنها تتضمن أيضا عناصر عشوائية أو مايقرب منها : سلوك بعض المكونات العشوائى فى داخل بعض او كل النظم الفرعية والنظم المتداخلة ، والصراعات والصدامات بين الممثلين المختلفين ممن استراتيجياتهم يمكن ان يحبط بعضها بعضا وتولد نتائج لا يرغب فيها أحد ، والتفاعل بين المستويات المختلفة للنظام التى ربما تربط مزاج أو صداع أحد الساسة فى بلد بعجز محصول فى بلد آخر ، وربما تربط هذه جميعا بكساد اقتصادى او ازمة نقدية على نطاق عالمى ، ان التعليق الذى يتم عن زوال الوهم *والذى جاء على لسان صاحب « كتاب سفر الجامعة » وهو* ٠ « ليس السباق للذين يجرون بسرعة ، ولا المعركة للأقوياء ، ولكن الزمن والصدفة يحدثان لهم جميعا » ملاحظة مناسبة عن خواص المسيرات العشوائية ٠

فى ظل هذه الظروف يجب ان يقل اعتماد الناس والحكومات على اليقين ويزيد اعتمادهم على الضمان ، وحتى هذا فالى حد محدود فقط ٠ فاذ يعرفون حدود قدراتهم فانه يمكنهم محاولة توفرها ، يستطيعون اتخاذ الحيطة ضد الاخطار التى يمكن ان تنشأ والتى لا يمكنهم تقديرها الا بصورة ناقصة جدا ، ويمكن ان يجاهدوا للتقليل من حجم الاخطار ٠ وان يكيفوا مستويات تطلعاتهم فى الشئون الخارجية بما تحت أيديهم فعلا من القوة البشرية والمواد ، على ضوء الموارد والاحتياطيات التى يتطلبها كل مستوى من اهداف السياسة الخارجية ٠

حساب المجازفة والنجاح : نظرية «انهيار المقامر» :

ونظرا لأن السياسة الدولية فى عالم اليوم تشتمل على نواح كثيرة من مقامرة ، فعلى صانعى السياسة الخارجية ــ نزولا حتى المواطنين فى نظام ديموقراطى من ذوى الفاعلية والاهتمام ــ ان يكونوا على معرفة بالفكرة الأساسية الكامنة وراء الحساب الرياضى لما يطلق عليه اصطلاح **خراب المقامر** ، فى مباريات الحظ التى يطول أمدها ، من المحتمل جدا أن المقامرين الذين لديهم احتياطى قليل ، تمحوهم التقلبات فى حظوظهم حتى ولو كانت الاخطار لصالح البنك معتدلة تماما ، فبمجرد أن يصاب المقامر الصغير بضربة من الحظ السىء ، يكون عرضة لان يحل به الدمار ، ومن ثم لا يستطيع ان يستفيد من اى جولة بعد ذلك وأنسب . الا أن البنك باحتياطاته الأكبر أو اى لاعب بالمثل تمويله جيد ، يمكن أن يظل قائما حتى بعد جولات طويلة من الحظ السىء ويعتمد على الصدفة فى ان يحسن اللعب فى مرحلة اخرى بعد ذلك ، فكلما عظمت الاخطار وزاد عدم التأكد من حظوط المباراة وتقليبها ، عظم احتمال القضاء على اللاعب الصغير ٠ فى امكان المقامر ــ اوالبلد ــ ذى الموارد الاكبر ان يتحمل حوادث عارضة واخطاء اكثر ، ويظل مشتركا فى المباراة ، بينما يجب أن يكون المقامر ذو الاحتياطيات الضئيلة ماهرا جدا بل وحسن الحظ جدا بحيث يظل مستمرا فى اللعب ، هذه القاعدة العامة تلائم البلاد الكبيرة ضد الصغيرة من ناحية عوم التأكد فى الحروب التقليدية ، لكن ازاء القوة التدميرية للاسلحة النووية فى حرب كبرى ، تكون احتياطيات الحياة البشرية حتى فى اكبر البلاد ، صغيرة تماما الآن ٠

فى داخل هذه القيود يجب ان يعمل العقلاء والمسئولون من صانعى السياسة أما عن بلادهم فان فى امكانها أن تزودهم بموارد واحتياطيات أسخى لمواجهة الطوارىء المتوقعة أو التى لم يجر التنبؤ بها ٠ أما عن سياساتهم الخارجية ، ففى امكانهم أن يصروا على أن يتركوا لانفسهم هوامش عريضة من الأمان : يوحى نموذج المشية العشوائية بأنه اذا كان من المحتمل ان تكون خطواتهم كيفما اتفق ، كان خيرا لهم ان يبقوا بعيدا عن حافة الهاوية ، واخيرا ، فعن التصرف ازاء خصومهم ، ففى امكانهم ان يظلوا على ادراك بالمعرفة الناقصة والعناصر العشوائية المحتملة فى الافعال التى يقوم بها الجانب الآخر ، واذا كانوا فى شك من افعالهم هم أمكن ان يلتزموا بنصيحة المفكر المحافظ الكبير ادمند بيرك وهى ان على رجل الدولة الا يكون مقتصدا فى شىء يمثل ما يكون مقتصدا فى انتاج الشر ٠

ويمكن ان تؤدى نماذج العمليات الاحتمالية الى فهم للسياسة الخارجيه وصنعها اكثر من تزويدنا بنصيحة فلسفية عامة ، يمكن ان تحدثنا عما نحتاج

الى معرفته او الى تقديره بأفضل ما يقدر عليه ، من حسابات مبدئيه وعلاقات واحتمالات ومعدلات تغيير ، وعن أى نموذج للعملية تعنيه ، واذا كان النموذج واقعيا بدرجة معقولة فانها تحدثنا عن النتائج الاكثر احتمالا التى ينبغى توقعها وعن اية نتائج اقل احتمالا ولكن لا تزال ممكنة تماما وينبغى اتخاذ الحيطة بصددها ·

ان ما سبق ايراده من نماذج للعمليات ، مبنية على معدلات انتاج الطائرات والتفتت وعلى معدلات خسائر الطيارين اثناء التدريب وحالات استرجاعهم وهذه النماذج استخدمت نماذج أخرى لتنشيط سير الحملات بريطانيا فى عام ١٩٤٠ ، واستخدمت نماذج أخرى لتنشيط سير الحملات الانتخابية ، ويمكن تعديل وتكييف امثال هذه النتائج فى حالة صراع مدنى داخلى (باستخدام معدلات تجنيد وتفتت العصابات وقوات الحكومة ، وربما ايضا معدلات تغير مشاعر العطف السياسى فى صفوف بقية السكان ، وربما معدل التدخل الأجنبى لصالح احد جانبى الصراع أو كليهما لتقدير حجم ومدة بقاء النضال ونتيجته المحتملة ، بل وحجم التدخل الخارجى اللازم للسيطرة عليه ، ومدة بقائه وتكلفته الماديه وفى الأرواح · وحيث لم تعمل امثال هذه الحسابات او عملت بطريقة ناقصة أو كانت مبنية على تقديرات غير واقعية الى حد كبير فقد مات اناس بغير ما حاجة ، وكان فى الامكان تفادى حروب بسبب الاحباط وخيبة الامل ، بدئت على أساس ذلك التفكير المسبق الاكثر معقولية وواقعية .

لكن حتى فى افضل الحالات ، سوف تظل جميع هذه الحسابات غير مؤكدة وناقصة لوقت طويل فى المستقبل ، ومع ذلك سوف يكون على الناس ان يتخذوا قرارات بقلوبهم وعقولهم ، وعلى ذلك يجب الا نقلل من تقدير الأهمية الفكرية والفلسفية التى ينطوى عليها فهم نواحى مشبهة العشوائية من السياسة الدولية ، سوف تذكرنا أننا عند ما نواجه مجالات كبيرة من القلق ، يتعين علينا ان **نبين أيا من قيمنا تتبع عندما نكون فى شك من الأمر** : قيم الكبرياء والقوة أو قيم الاعتدال والرحمة ، الناس يصنعون السياسة الخارجية ، أو يتقبلونها أو يرفضونها ، فى ضوء ما يحسبون أنهم يعرفونه وما يحسبون أنهم يحبونه ، وسياستهم الخارجية عرضة للتغيير لا تمشيا فحسب مع أى تغيير كبير فى معرفتهم الادراكية بالعالم أو فى نظمهم للاتصال وصنع القرارات ، ولكن تمشيا مع أى تغيير رئيسى فى قيمهم البارزة ·

الفصل التاسع

كيف تصنع السياسة الخارجية

ان سياسة كل بلد الخارجية تتناول اولا المحافظة على استقلاله وامنه ومتابعة وحماية مصالحه الاقتصادية ثانيا (وخاصة مصالح اكثر مجموعاته المثلة للمصالح ، نفوذا وتأثيرا) . ويرتبط بهذه المصالح ارتباطا شديدا فى حالة القوى الكبرى على الاقل — اهتمام بمقاومة أى تغلغل من جانب البلاد والايديولوجيات الأجنبية ، ومجهود جرىء لتحقيق بعض تغلغل فعال من جانبه وجانب ايديولوجيته . واخيرا ، يرتبط ارتباطا وثيقا بالأمن القومي والمصالح الاقتصادية والعسكرية السرية لكل قوة كبرى ، سياساتها المتعلقة بالمعونة الاقتصادية للشعوب الأجنبية وجهودها من اجل نشر دعايتها الوطنية والايديولوجية فى البلاد الأجنبية وتاييها لبعثات التبادل الثقافى والعلمى التى تساعد على بلوغ تلك الغاية .

البحث عن الأمن القومي :

كل من هذه الانشطة يعتبر الى حد ما أداة لتنمية بعض الانشطة الأخرى أو كلها ، ولكن كلا منها يميل ايضا الى حد ما ، الى ان يصبح غاية فى حد ذاته . وبمرور الوقت يسبب كل منها قيام منظمات بيروقراطيه رسمية ومجموعات غير رسمية تمثل مصالح خاصة . وكل منها يولد شبكة متميزة عموما من تدفقات المعلومات ومن الصور والذكريات ، فضلا عن شبكة من التوقعات والمكافات المادية . فى الحقيقة هناك شبكات كثيرة من المكافآت بما فيها الادوار والوظائف والاعتمادات المالية والعقود . وكذلك فى مستويات النجاح واحترام الذات فى صفوف الاشخاص المشتغلين بهذا الفرع المعين من جهود بلدهم فى مجال السياسة الخارجية .

وكانت النتيجة تناقضا ، فالويالات المتحدة والاتحاد السوفيتي — والى حد له شأنه ، الصين الشيوعية وبريطانيا العظمى وفرنسا — كلها قوى هى من الكبر بحيث لا يستطيع احد القضاء على استقلالها الوطنى . حتى لو جن أحد فحاول هذا الأمر — الا ان الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي هما بالضبط الدولتان اللتان تنفقان أكثر الاموال والقوه البشرية والموارد والجهود فى متابعة ما يعتبر أمنهما القومي ، فى نظر حكومتيهما وجماعات الصفوة وشعوبها ، وتحذو حذوهما الدول الكبرى الثلاث التى تليهما ، وبصورة وثيقة ، وذلك من ناحية مستوياتها النسبية فى الانفاق على امنها القومي ، وان لم يكن واضحا ذلك الذى يهدد استقلالها الوطنى بشكل خطير .

التفسير بسيط ، انه نوع من « قانون باركنسون » فى الامن القومى : يزيد احساس امة بعدم الامن تزايدا مباشرا مع قوتها : فكلما كانت الامة اكبر واقوى ، زاد مستوى تطلعات قادتها واهل الصفوة وفى الغالب اهلها ، فى الشئون الدولية ، اى كلما زادت نظرتهم الى أنفسهم على أنه مقدر لهم — او انهم مضطرون أن ينظموا شئون العالم او على الأقل يفرضوا عليها نوعا من النظام يبدو سليما فى نظرهم ، مثل هذه الفكرة لا تساور فى العادة اعضاء الشعوب الصغيرة كالنرويجيين والسويسريين ممن لهم تجربة طويلة فى المحافظة على استقلالهم ، انه يبدو من الطبيعى فى نظرهم ان يركزوا اهتمامهم وجهودهم على المحافظة على استقلال شعبهم فى عالم لا يتوقعون أن يسيطر اقتصاده صورة مقبولة فى الظاهر على الأقل . لعالم قد يعملون بجهودهم الوطنية على تشكيله أو تغييره أو الابقاء عليه كله أو بصفة جزئية ، حسب رغباتهم ، وتبعا لذلك تزيد مخاوفهم وضروب قلقهم وجهودهم ومصروفاتهم ٠

الآن تخلت حتى دول كبيرة مثل بريطانيا وفرنسا واليابان وايطاليا والمانيا الغربية عن الطموح فى ان تدير العالم . بل وان تكون لنفسها امبراطوريات كبيرة او تحتفظ بها ، انها فى الحقيقة راغبة فى التعاون مع غيرها الى حد يتسم بالحرص ومحدود ، وتأمل الا تضطر الى الاستجابة (وان كانت سوف تستجيب) لهجوم مباشر كبير على اى بلد قد يشكل تهديدا مباشرا على الاطلاق ٠ وفكرة تغيير نظام العالم أو حتى المحافظة عليه من جانب واحد عن طريق قرارات يتخذها اساسا شعب من الشعوب وجهود كبيرة يبذلها دون المساعدة من جانب غيره (« التصرف من طرف واحد · كما دعاه المغفور له الأستاذ تشارلز لرش (١)) ، هذه الفكرة لا يمكن أن تعتنقها بشكل جاد حتى ولو كفكرة مغرية ، اى قوى خلاف الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى وربما الصين الشيوعية ، وحتى من بين البلاد العملاقة الثلاثة فلعل الولايات المتحدة وحدها هى التى فى مركز يسمح لها بتجنيد وارسال مئات الالوف — وربما الملايين — من شبابها للقتال فى سبيل فكرتها العالمية النطاق عن الأمن القومى فى قارات بعيدة ٠

وفى تعقيب على هذا الموقف يبين الاستاذ لرش « ان الذين يحبذون انسحابا امريكيا من الشئون العالمية ، هم قلة ٠ التفرقة الرئيسية هى بين الذين يفضلون ان يكون لامريكا الحد الأقصى من حرية التصرف وهؤلاء هم أصحاب « الاجراء من طرف واحد » ، وبين الذين يؤكدون ترابط الشعوب لاغراض الامن والرخاء ، وهؤلاء هم أصحاب « الاجراء متعدد الاطراف » (٢) ٠

---

(١) Charles O. Lerche, Jr. the Uncertain South (Chicago : Quatdrangle.

(٢) برتون م٠ سابين : صنع السياسة الخارجية الامريكية ، المجلد رقم ١٠ (وشنطون ، المدنية : معهد بروكنجز ، ١٩٦٦) ، ص ٤٨ ٠

هكذا تسود مصالح وتنظيمات الامن القومي في الانشطة الخاصة بالسياسة الخارجية والتي يقوم بها اي شعب كبير ٠

المصالح الاقتصادية في السياسة الخارجية :

والآن ننتقل الى المصلحة القومية التي تلي الأمن القومي في الأهمية وتعتمد عليه اعتمادا كثيرا : الصروح والعمليات الاقتصادية والسوسولوجية والسيكلوجية ، طبقا لما يراه ماركس لينين ، ويراه أيضا ج٠ أ٠ هوبسون وتشارلز ا٠ بيرد ، يجب ان نتوقع أن تكون الطبقة الاقتصادية أو مصالح المجموعات هي الحاسمة ، ولكن توحي الادلة بصورة أشد تعقيدا . فبرغم اهمية المصالح الاقتصادية فهي لا تقف وحدها ولكنها مرتبطة بمصالح سياسية قد تغير آثارها أو حتى تتجاوزها وتطغى عليها ٠

في الولايات المتحدة كما في غيرها من البلاد الكبيرة ، نجد أن المسائل من قبيل الحماية الروتينية للتجارة والسفر وسفر موطني الشعب في الخارج ، وتنظيم انشطة الرعايا الاجانب في داخل بلد المرء ، هذه المسائل لا تستغرق سوى جزء صغير نسبيا من انشطة وزارة الخارجية وغيرها من الوكالات الحكومية التي تعمل في قطاع الشئون الخارجية ، هناك مصالح اقتصادية خاصة أكبر في الولايات المتحدة كما في البلاد الأخرى التي تغلب عليها اقتصاديات المشروع الخاص ، داخلة في الاستثمارات الخاصة الامريكية والطويلة الاجل في الخارج ، مثل مناجم النحاس والحديد ، ومزارع قصب السكر والموز ، وشركات التليفون وغيرها من المرافق الخاصة في امريكا اللاتينية ، أو حقول البترول في فنزويلا وليبيا والعربية السعودية وايران ، ويذكرنا الاستاذ ريموند فرنون من حقيقة أن :

٠٠٠ النصف تقريبا من أكبر الشركات الامريكية البالغ عددها ٥٠٠ شركة والتي أوردتها مجلة فورشن ، لها اليوم استثمارات واسعة النطاق فيما وراء البحار في المصانع أو المناجم او حقول البترول ، تمثل مبلغا اجماليا قدره واحد وخمسون بليون دولار ، وعشر أو عشرون من هذه الشركات الكبيرة يقع ثلث أصولها أو أكثر في الخارج ، ويحصل عدد اكبر من هذا على ثلث دخلها أو اكثر من المبيعات الخارجية عن طريق واحد أو آخر من مسالك البيع ، لو اردنا أن نذكر كل شركة امريكية تملك وتسيطر على تسهيلات للانتاج في ستة بلاد أو أكثر بالخارج ، لشملت القائمة على حوالى مائتى اسم ، ولو وضعنا قائمة أوروبية من نفس النوع لكانت

(م ـ ٨ العلاقات الدولية)

أصغر بكثير ، ولا تغطى سوى ثلاثين من الحالات او نحوها ، والمصالح التى تملكها الشركات فيما وراء البحار لن تزيد عن خمس الالتزام الامريكى (٣) ٠

وأضاف البروفسور فيرنون بعد ذلك بعشرة اعوام :

« ان الشركات الكبيرة التى كان يمكن اعتبارها شركات متعددة الجنسيات فى الولايات المتحدة فى عام ١٩٥٠ تبلغ حوالى ١٧ فى المائة فقط من مجمل مبيعات الشركات الامريكية ٠ وبحلول عام ١٩٦٧ أصبحت الشركات المتعددة الجنسيات حوالى ٤٢ فى المائة من المبيعات الامريكية ٠ وبحلول عام ١٩٧٤ أصبحت ٦٢ فى المائة (حاشية للمؤلف : ان هذه الأرقام والأرقام الواردة فى الجملة التالية ٠ جمعتها مؤسسة مشروع هارفارد المتعدد الجنسيات) ٠ وفى العالم غير الشيوعى بانها شركات متعددة الجنسيات قد أعلنت عن مبيعات بلغت حوالى ٨ فى المائة من الانتاج الاجمالى ٠ وبحلول عام ١٩٦٧ ارتفع هذا الرقم الى ١٧ فى المائة وبحلول ١٩٧٤ اصبح ٢٢ فى المائة ٠

المتوقع من الحكومة الامريكية ان تحمى الى حد كبير ، المصالح الخاصة لمواطنيها فى الخارج ، والكثير من المجموعات الممثلة للمصالح والتى ذكرناها هى على قدر كاف من التنظيم وحسنة الارتباط عن النواحى السياسية ، مما يجعلها من أن هذه الحماية سوف توفر لها ٠

لكن ، يمكن أن تكون النتائج أنسب للمواطنين الامريكيين منها للأجانب ١٠ فاذ تسدد البلاد المدنية قروضها الخاصة والعامة ، واذ تحول أرباح الاستثمارات الخاصة الى البلد الذى أرسل عذه الاستمارات . فهنا يكون تحويل صافى للثروة من البلد النامى الى البلد المتقدم ٠ (مثال ذلك أنه فى تسع من ١٠ سنوات ممتدة من عام ١٩٥٢ الى عام ١٩٦١ ، كان المال الذى انتقل من امريكا اللاتينية الى الولايات المتحدة يزيد على الذى انتقل من الأخيرة الى المنطقة الأولى (٤) ٠

وبالاضافة الى التدفقات الدولية من السلع أو المال ، تتضمن المصالح الاقتصادية الامريكية فى الخارج الحصول على حقوق ملكية اراض

---

(٣)
Raymond Vernun, « Multinational Enterprise and National Sovereignty
(مجلة هارفارد للاعمال ، المجلد ٤٥ ، العدد رقم ٢ (مارس — ابريل ١٩٦٧) ، ص ١٥٦ ، ١٥٨ ٠

(٤) Paul Rosentein Radan, Oral Communication, M. I. T., 1967.

ومبان وموارد معدنية ومنشئات انتاجية (مثل هذه الحقوق يحصل عليها فى البلاد الأجنبية أما المواطنون الامريكيون مباشرة ، واما بطريق غير مباشر على ايدى الشركات والشركات الفايضة التى يشترك فيها رأس المال الامريكى أو الشركات التجارية) • وأخيرا ، يمكن أن تتضمن المصالح الاقتصادية الامريكية المحافظة او الحصول على شروط ملائمة بوجه خاص للشراء أو للبيع أو تقديم الائتمان للشركات الامريكية فى تلك البلاد الأجنبية التى تعتمد على نحو ما نسبيا على الولايات المتحدة ، وهكذا كانت كوبا قبل ايام كاسترو ، تحصل على الكثير من وارداتها مثل المنسوجات ، من الولايات المتحدة ، برغم ان هذه لم تكن رخيصة فى السوق العالمية ، وكانت كوبا تشترى القليل نسبيا من اليابان حتى برغم انه كان يمكن شراء هذه السلع اليابانية والتى من نفس الجودة ، بثمن أرخص • ولم يعمل اليابانيون انفسهم فى أواخر الخمسينات كما قال سرا أحد المتحدثين بأسمهم ، لم يريدوا الاساءة الى الولايات المتحدة بالعدوان على سوقنا المفضلة •

وحتى برغم ان امثال هذه الشروط تبدو مؤيدة للنظريات التقليدية فى الامبريالية الا ان ما تقدمه من ادلة يجب ان يواجه بحقيقة اساسية . فى نصف القرن الممتد من عام ١٩١٣ كانت الاستثمارات الأجنبية وجميع المعاملات الاقتصادية الأجنبية تشكل نسبة آخذة فى التناقص ، من المنتج القومى الاجمالى لجميع البلاد الرئيسية ، وبالمثل كان نمو التجارة العالمية وتدفق المدفوعات الدولى ابطأ من نمو الانتاج الصناعى بالعالم ، او من انتاجه من الخدمات ، فاذا كانت النظريات التقليدية عن الامبريالية تعطى صورة مناسبة وواقية للواقع ، وجب ان يكون العكس هو الحال ، فجميع المصالح الاقتصادية والمجموعات الممثلة للمصالح التى تتجه نحو التجارة والاستثمارات ــ العالمية ، لا تتحكم الا فى نسبة صغيرة وتسير فى طريق الانخفاض ، من المنتج القومى الاجمالى ، ولعلها تسيطر فى الاجل الطويل على نصيب متناقص من النفوذ السياسى والاهتمام القومى ، ففى الولايات المتحدة فى أوائل الستينات كان هذا النصيب حوالى ٧ فى المائة ، وكان حوالى ٥ فى المائة فى الاتحاد السوفيتى • وحتى لو كان الاقتصاد الجماعى فى البلد الاخير قد صيغ بما يؤدى الى استغلال البلاد التى تدور فى فلكه ، لكانت المبالغ هامشية •

يبدو أن الدليل اقرب الى ان يكون متفقا مع ما تنبأ به الاقتصادى وعالم الاجتماع جوزيف شومبيتز : ففى جميع البلاد الرئيسية مال مركب الامن القومى الذى يضم القوات المسلحة ، والدعاية ، والمخابرات ، وأجهزة الحرب السياسية ، والصناعات الرئيسية والمنظمات التكنولوجية الخاصة التى تقدم جزءا كبيرا من انتاجها الى نظم الامن القومى ، نقول أن هذه جميعا تميل الى أن تشكل الى حد ما مجموعة تعبر عن مصالحها ودائمة • ففي الولايات المتحدة كما فى بعض بلاد اخرى ، اشتملت هذه المجموعات على ((مثقفى الدفاع)) العسكريين والمدنيين

ورجال الاستراتيجية واجزاء من الأسلحة والفضاء الجوى والصناعات الالكترونية ٠ وثمة سبب يدعو الى الظن بأن هناك تجميد مشابه كذلك للمصالح المهنية والتكنولوجية والايديولوجية ربما حدثت أيضا فى قطاعات من جماعات الصفوة فى الاتحاد السوفيتى والصين الشيوعية ، ويمكن ملاحظة مركبات مشابهة وأن حدث هذا الى حد اقل ، فى دول من المرتبة المتوسطة مثل فرنسا وبريطانيا ، ويمكن ان تكون مجموعات مصالح اضافية من هذا النوع فى الطريق الى الظهور فى المانيا الغربية وفى اليابان ٠

المضمون الاجتماعى والسيكولوجى :

الواضح أن بعض المكافآت التى تدعم مثل ((مركب الامن)) هذا فى كل بلد كبير ، اقتصادية ، ولكن الكثير من أهم المكافآت سوسولوجية وسيكولوجية الى حد اكبر بكثير مما كان مفروضا من قبل ٠ هذه مكافآت تتمثل فى المركز الاجتماعى والدور المهنى ، وفى صورة الذات واحترام النفس الفردى والجماعى وفى توافق الصورة التى سبق ان رسمها الانسان للعالم ، واحساس المرء بالانتماء الى مجموعة ، والحاجة الى رؤية مكانة ومعنى فى افعال المرء الماضية والحاضرة ٠

و « صقور الحرب » (« الصقور » أعداء « الحمائم ») عبارة عن سرب من الطيور يبقى على نفسه بنفسه على ما يقول جوزيف شومبيتز ، ذلك أنه يتوقع من اية مجموعة مصلحة لها اتجاه عسكرى ، أن تبتدع تفسيرات لتبرير السياسات ذات الصبغة الحربية ، أى لتكرار التصرف حسب انماط السلوك التى سبق ان تعلموها ، الملاحظة التى تنم عن القلق والتى وردت فى خطاب الوداع الذى القاه الرئيس دوايت د ٠ أيزنهاور ، وهى الملاحظة عن تأثير المركب العسكرى الصناعى ((فى الولايات المتحدة ، توحى بأن شومبيتز ظل وحيدا فى شكوكه)) ٠

فى أواخر الستينات وأوائل السبعينات تحول الرأى العام فى الولايات المتحدة ضد المستويات العالية للانفاق العسكرى ، وتبين من استفتاء اجرى فى شهر سبتمبر من عام ١٩٧٠ أن ((٦٠ فى المائة من الناخبين دون الثلاثين يريدون خفض الانفاق العسكرى فى حين أن ٤٦ فى المائة فقط الذين هم فى الثلاثين من العمر فما فوق هم الذين كان جوابهم مطابقا لهؤلاء ٠ وفى الوقت نفسه تحول الرأى العام نحو تأييد سياسة الرئيس ريتشارد نكسون وهنرى كيسنجر ، وزير الخارجية التى تحبذ تخفيف حدة التوتر بين الولايات المتحدة وروسيا وبين الولايات المتحدة والصين والتى اصبحت تعرف بالتعبير الدبلوماسى الفرنسى ((الوفاق)) ٠ وبعد استقالة نكسون فى اعقاب فضيحة ووترجيت ، واصل الرئيس جيرالد فورد هذه السياسة ولكن فى حملة الرئاسة عام ١٩٧٦ قام الصقور من الافراد والمجموعات الذين كانوا قد أيدوا الحرب الفيتنامية وكذلك السياسة الخارجية المتشددة التى من طراز ((الحرب الباردة)) مع رفع مستوى التسلح ،

بمحاولة جديدة لاستعادة نفوذهم المفقود او الذى اصابه الضعف وذلك بالدعوة الى انهاء ((الوفاق)) ووضع حد لخدمة كيسنجر كوزير للخارجية · واصبح رونالد ريجان ، حاكم كاليفورنيا السابق ، من بين المرشحين الجمهوريين للرئاسة والسناتور هنرى م · جاكسون · من بين المرشحين الديموقراطيين المتحدثين الرئيسيين باسم هذا الاتجاه ((الصقرى)) الجديد · حتى وان لم ينجحوا فى الترشيح · وكان الفائز فى الانتخابات هو الرئيس جيمى كارتر الذى انتخب بعد حملة وعد خلالها باجراء خفض معتدل فى الانفاق العسكرى ــ وبدون القطيعة مع الجناح الصقرى فى حزبه ·

وفرق شومبيتز بنفسه بين المجموعات الممثلة للمصالح والتى لها نزعة حربية ويؤيدها ويقويها بشكل حاسم صرح بلادها وثقافاتها التاريخى والسوسيولوجى والايديولوجى بأسره (كما فى حالات المانيا الامبراطورية واليابان فى وقت الحرب العالمية الأولى) والمجموعات المماثلة وجماعات الصفوة الأضعف فى نزعتها الحربية فى البلاد الديموقراطية اساسا مثل بريطانيا العظمى حيث طابع المجتمع بأسره (فى رايه) اعلنت نبذها المبكر لاحتمال تكوين امبراطورية ــ وهو تنبؤ أثبتته الأحداث · وليس من شك كثير انه كان يعد الولايات المتحدة ، كما عد بريطانيا ، فى صفوف البلاد الديموقراطية اساسا حيث مجموعات الصفوة ذات النزعة الحربية غير متاصلة الجذور ولا تستمر طويلا · وعلى اى حال هناك دليل وافر على أنه فى العصر النووى ليس لدى معظم اعضاء حتى المحالفات العسكرية والصناعية التى تضم المجموعات الممثلة للمصالح ، اى ميل الى الانتحار · وثمة دليل أيضا على ان المسئولين من رجال الشركات الكبيرة الذين يأتون للخدمة فى وزارة الدفاع هم شخصيات متزنة بحيث ان النظام السياسى الامريكى بكامله تعددى بصورة لا تقبل العلاج ، وعلى ذلك فالاكثر احتمالا فى ظرف عقد زمنى أو اثنين أن يشجع التفاهم والاعتدال ·

اثر الأمريكيين فى الخارج :

وزارة الخارجية

لكن اما انه سوف يتعين على الولايات المتحدة والعالم فى هذين العقدين التاليين ان يظلا على قيد البقاء ، فيتوقف الى حد كبير على السياسة الخارجية التى توضع هنا والآن ، والأدوات التى تصنع هذه السياسة فى الولايات المتحدة هى أيضا متعددة : واولها على ما تشير التقاليد ، وزارة الخارجية التى تضطلع أيضا بمهمة احداث تناسق ما بين انشطة الوكالات الحكومية الاخرى فى الشئون الدولية ·

فى اوائل السبعينات كانت وزارة الخارجية الأمريكية تستخدم حوالى ٢٣٫٠٠٠ شخص منهم حوالى ١٣٫٠٠٠ من المواطنين الامريكيين الذين يخدم

نصفهم تقريبا فى الخارج ، كما كان شأن ١٠٫٠٠٠ من رعايا اجانب كانت تستخدمهم الوزارة ، كان جوهر المجموعة الامريكية حوالى ٣٦٠٠ من موظفى الوزارة المحترفين . يضاف اليهم ١٣٠٠ آخرون من الموظفين الاحتياطيين فى الاعمال الخارجية ، وكان حوالى نصف هؤلاء المحترفين يخدمون فيما وراء البحار ، وفى مايو من عام ١٩٧٥ كانت وزارة الخارجية تضم خمسة مكاتب جغرافية تقاسمت المسئولية عن معظم مناطق العالم ، وعددا من المكاتب التى تضطلع بمهام عبر الاقاليم الجغرافية والتنظيم موضح فى الرسم رقم (١) .

من هذه المكاتب اكبرها واهمها من نواح عدة المكاتب الجغرافية ، ونظرا لانها تتعامل مع مناطق وحكومات مختلفة ، لهذا تتراءى لها صور مختلفة نوعا عن مشكلات معينة تتصل بالسياسة ، وهكذا يمكن ان يكون مكتب الشئون الاوربية ومكتب الشئون الافريقية على بينة من نواح مختلفة نوعا من مشكلة المستعمرات البرتغالية الباقية فى افريقيا . وحتى اذا كان المتوقع من كلا المكتبين ان يتفقا على الاهداف الاساسية للسياسة ، فقد يختلفان وقتا طويلا حول التكتيكات اى على ما ينبغى عمله ... وللمكاتب الوظيفية مثل الشئون الاقتصادية والتعليمية والثقافية تأثير مباشر اقل على السياسة العامة فى منطقة ما ، ولكن يجب استشارتها حيث يتعلق الامر باختصاصها المعين .

والقرارات الفعلية توضع على مراحل (لا يمكن ان نقدم هنا سوى وصف مبسط للغاية) بعض بدائل السياسة تكون موضع التأكيد عليها بصورة ضمنية . وربما يكون غيرها حبسها مقدما ، وبهذه المناسبة نقول ان السفير الامريكى سجل تقريره من البلد الأجنبى الذى يعمل فيه ، وتاتى مرحلة اخرى فى تقييم هذا التقرير على يد الموظف المكتبى المسئول عن تناول شئون ذلك البلد فى احد مكاتب الوزارة الجغرافية ، ويمكن ان تتخذ السياسة شكلها فى ((ورقة الموقع)) (التوصية بالسياسة أو العمل) التى يعدها هذا الموظف ، ثم يقرأ رئيسه فى المكتب هذا التقرير ، فيؤيده أو ينقحه أو يرفضه .

فاذا أجيزت الصورة المنقحة انتقلت الى المستويات الاعلى . عندئذ يمكن أن تستشار المكاتب الوظيفية كما يتم الحصول على الموافقة من جانب مكاتب أخرى . وقد يتعين عقد اجتماعات للتوفيق بين الاختلافات الباقية فى وجهات النظر . واذا بقيت الصيغة بعد كل هذا (وهو ما يحدث فى العادة) يكون قد تم وضع صيغة قرار أو توجيه خاص بالسياسة ، متفق عليها ، صيغتها اللغوية مقبولة وكذلك مادتها فى الاغلب ، من جانب جميع الموظفين المسئولين والمكاتب المعينة ، وهؤلاء يشملون فى العادة مساعد وزير الخارجية أو نائبه . واذا كانت هذه الصيغة مهمة بالدرجة الكافية رفعت عندئذ الى وكيل الوزارة للشئون السياسية ، أو الى وكيل وزارة الخارجية أو وزير الخارجية نفسه . بالطبع ، يستطيع اى واحد من هؤلاء ان يعيد الصيغة لاجراء تغييرات أخرى كما يستطيع أن يرفضها كلية ، وبخلاف

هذا فالنص الذى تمت الموافقة عليه مع مراجعة نهائية للاسلوب ، يرسل الى غرفة الشفرة حيث يكتب بالشفرة ويبرق به الى السفير ·

فى داخل الوزارة فهذه العملية كلها تشبه مجموعة الستائر أو المرشحات أعدت بعناية ، اكثر مما تشبه ما تعمله ماكينة كرة الدبابيس أو اية وسيلة اخرى تجمع بين الحظ والمهارة ، يستطيع العرف والسابقة أن يعملا الكثير لضمان تناسق قرارات جديدة اتخذت طبقا لقرارات اتخذت فى الماضى ، ويمكن الاعتماد على موظفى الادارة الخارجية ووزارة الخارجية بأسرها ، ليوجهوا اهتماما شديدا اليها ، ان قدرا كبيرا من السياسة فى جميع البلاد ينحصر فى ((متابعتها)) — باكمال ما بدىء فيه وتكرار ما تم من قبل · يكاد لا يتوافر وقت حتى فى صفوف كبار الموظفين ، للتفكير العميق المؤدى الى تحولات جديدة بصورة جذرية ، ولا تلقى العادة تشجيعا فى صفوف صغارهم · وفضلا عن ذلك ، فموظفو وزارة الخارجية فى جميع المستويات مدركون للاجماع فى الرأى ، وحساسون بالنسبة الى الجو · انهم فى العادة على معرفة طيبة بالاتفاقات الصامتة بشأن مسائل وصور تؤخذ كقضية مسلمة وتبين الحد الدقيق بين ما يلقى القبول ومالا يلقاه من المقترحات المتعلقة بالسياسة · وفى ضوء هذه لا يتقدمون الا بالتوصيات التى يشعرون انها سوف تبقى بعد عملية الاختبار هذه ، والمراجعة مع المكاتب الأخرى تجعل هذه القيود اضيق نطاقا · وأخيرا ، يستخدم رؤساء المكاتب وكبار المسئولين فى وزارة الخارجية ذكرياتهم ورأيهم لضمان أن السياسة المنبثقة متفقة مع السياسات الاخرى لوزارة ومع السياسات العامة الجارية لحكومة الولايات المتحدة · وبهذه الطريقة تعمل الوزارة فى الاغلب كخط تجميع للقرارات يمكن الاعتماد عليه بدرجة طيبة ·

وتصبح المسألة اشد تعقيدا اذ يتعين استشارة وكالات تنفيذية اخرى ، مثل وزارة الدفاع ووكالة المخابرات المركزية أو لجنة الطاقة الذرية ، ولكل منها حاجاتها ورؤاها التى قد تختلف نوعا عن حاجات ورؤى وزارة الخارجية ، وقد يضيف رجال البيت الابيض وجهات نظرهم ، وقد يتعين أن يتخذ القرار النهائى الخاص بالسياسة ، مجلس الامن القومى الذى يمثل الوكالات أو يتخذه رئيس الجمهورية نفسه ·

ونتائج هذه العملية الكبيرة فى تنفيذ السياسة ، أقل اتساقا وأصعب فى التنبؤ بها من النتائج فى داخل وزارة الخارجية · ولكن المسألة لم تنته بعد ، فقد يتطلب حتى قرار الرئيس اعتمادا ماليا من الكونجرس لتنفيذه ، أو قد يتوقف نجاحنا على تأييد الصحافة والراى العام (بما فيه حيث استفتاءات استطلاع الراى العام) ، أو قد يتطلب تأييد او على الأقل رضاء الجماعات الممثلة للمصالح الرئيسية ، من قبيل المشروعات الكبيرة او نقابات العمال ، او أقليات اقليمية أو سلالية معينة ، والحقيقة الصلدة أن أيا من هذه ليس تحت سيطرة اى منها تماما ،

بالطبع ، ان وزارة الدفاع مسـئولة عن مئات الوف من القوات الامريكية الموجودة في الخارج ، وخاصـة في آسيا واوربا • ويبين الجدول رقم (٩) التوزيع الجغرافي ولا يمكن ان يقهرها حتى اتحاد قوى بين جاذبية الزعامة والاستخدام الماهر لوسائل الاتصال بالجماهير • فاذا تعاونت فذلك بالاتفاق الاختياري فقط في الرأي •

عند هذه النقطة يمكن ان نتذكر قصة الخبير الامريكي في الشئون السوفيتية الذي رقي اثيله في الاتحاد السوفيتي لان ذلك الروسي المرهق كان يضطلع بالمهمة الأصعب وهي التنبؤ بالتحركات التالية للسياسة وهي التحركات التي تولدها العمليات السياسية الامريكية التي لا يمكن التمعن فيها ، والى هذا يجب أن نضيف الاعتبار الذي مؤداه ان نتائج سياساتنا ، مثلها مثل نتائج سياسات البـلاد الاخرى ، كثيرا ما تتوقف على التأييد من جانب الشعوب الاخرى ، وخاصة تأييد حلفائنا الرئيسيين ، كما تتوقف على حركات خصومنا ـ وليس لنا سيطرة على أي من الطرفين • والنتيجة النهائية المترتبة على جميع هذه العمليات اتحاد احتمالي بين المثابرة الحازمة والتخطيط الدقيق والاتجاه القوي والحادثة العشوائية التي تميز السياسة الدولية •

في داخل وزارة الخارجية وكالتان شبه مستقلتان هما وكالة التنمية الدولية ووكالة الاستعلامات الامريكية ، ولكل من الوكالتين وهما تابعتان لوزير الخارجية ، رئيسها وهيئة موظفيها وأقسامها الفرعية الجغرافية والوظيفية ، في عام ١٩٦٢ كانت وكالة التنمية تستخدم حوالي ١٥٠٠٠ شخص ومكتب الاستعلامات حوالي ١١٠٠٠ ، ومن هؤلاء ٧٠٠٠ ، ٤٠٠٠ على التوالي مواطن امريكي ، وعلى وزارة الخارجية وكالة ثالثة اخرى شبه مستقلة هي وكالة الرقابة على الاسلحة ونـزع السلاح ، وهيئة العاملين فيها أقل عددا في منتصف كانت وزارة الخارجية ومعها هذه الوكالات تستخدم ما يزيد على ٥٠٠٠٠ شخص ، منقسمين بالتساوي تقريبا بين المواطنين الامريكيين والرعايا الأجانب واربعـة اخماس هـؤلاء تقريبـا . بما فيهم جميع الرعايا الاجانب فعلا ، يعملون في الخارج ، ويبدو بغير شك كثير أن توزيع القوة البشرية هذا قد فاق الجهود المماثلة من جانب الاتحاد السـوفييتي وكذلك جهود أي بلد آخر في العالم •

لكن حتى مع جهد بهذا الحجم لا تحتل وزارة الخارجية المرتبة الاولى بيـن الوكالات التي تستخدم وتوزع المدنيين الأمريكيين في الخارج ، فكانت وزارة الدفاع في عام ١٩٦٢ تضم ٥٨ في المائة من جميع المدنيين الامريكيين الذين اسـتخدمتهم في الخارج نحو ٢٨ وكالة اتحـادية ، مقابل ٣٧ في المـائة في وزارة الخارجية و ٥ في المـائة تستخدمهم جميـع الوزارات الاخرى (١) ، وبالاضافة الى هـذا

---

(١) تقرير اللجنة المشكلة لبحث افراد الشئون الخارجية (برئاسة كريستان • هرتر) وعنوانه : Personell for the New Diplomasy.

(مدينة واشنطن : مؤسسة كارنيجي للسلام الدولي ، عدد ديسمبر ١٩٦٢) ص ٥ •

فى الخارج لموظفى وزارة الخارجيـــه وغيرهم من المستخدمين المدنيين الامريكيين . ويشير ترتيب البـلاد الثمانية عشر الاساسية الى بعض التغييرات التى وقعت منـذ عـام ١٩٤٥ فى مصالح السياسة الخارجيـة وجهود الولايات المتحدة . ويبدو ان « علاقتنا الخاصة » بانجلترا ليست على نحـو مـا سبق أن كانت عليه

الجـدول (١١٠) موظفو وزارة الخارجيه وغيرهم من المستخدمين المـدنيين الفيدراليين فيما وراء البحار ١٩٧٤ (مواطنون أمريكيون فقط) .

	وزارة الخارجية			جميع الوكالات الامريكية	
	البلد	العـدد		البلد	العـدد
١	المانيا	٨٣٢	١	المانيا	١٦٩٠٩
٢	الهند	٦٦٢	٢	الفلبين	١٦٨٨١
٣	فيتنام	٦٢٦	٣	كوريا	١٣٣٨٠
٤	ايطاليا	٥٦٠	٤	تايلاند	٦٣٣٣
٥	فرنسا	٥٤٣	٥	فيتنام	٦٠٠٠
٦	الفلبين	٥٢٨	٦	اليابان	٥٤٨٧
٧	المكسيك	٥٢٧	٧	ايطاليا	٤٤٠٦
٨	اليونان	٤٦٤	٨	المملكة المتحدة	٣٤٠٥
٩	اليابان	٣٨٧	٩	جمهورية الصين	٢٠٩٧
١٠	تايلاند	٣٦١	١٠	تركيا	١٤١١
١١	البرازيل	٣٥٢	١١	البرتغال	١٣٨٥
١٢	المملكة المتحدة	٣٤٣	١٢	الهند	١٢٠٤
١٣	باكستان	٣١٥	١٣	اسبانيا	١١٩١
١٤	نيجيريا	٢٧٦	١٤	لاوس	١١٣١
١٥	بلجيكا	٢٥٦	١٥	اليونان	١٠٣٣
١٦	كندا	٢٤٦	١٦	المكسيك	٩٨٥
١٧	ايران	٢٢٦	١٧	كوبا	٩٦٠
١٨	كوريا	٢٠٩	١٨	فرنسا	٩٤٦
١٩	تركيا	٢٠٦	١٩	كنـدا	٨٠٣
٢٠	النمسا	٢٠١	٢٠	ايسلندة	٢٤٧
٢١	المجموع الجزئى	٨١٢٠	٢١	المجموع الجزئى	٨٦٧٨٤
٢٢	بقية العالم	٨٠٨٢	٢٢	بقية العالم	١٨٣٣٢
٢٣	المجموع الكلى	١٦٫٢٠٢	٢٣	المجموع الكلى	١٠٥١١٦

ملاحظة : الارقام الآسيوية تعكس مدى التواجد الامريكى فى جنوب آسيا الشرقى . ١٩٦١ ـ ١٩٧٣ .

المصدر ١ التقرير السنوى لادارة الاستخدام المدنى الفيدرالية ، لجنـة الخدمة المدنية ، وشنطن ، ١٩٧٤ ـ ص ١٦٤ ـ ١٦٥ .

الجدول (١٠ ب) موظفو وزارة الخارجية وغيرهم من المستخدمين المدنيين الفيدراليين فيما وراء البحار ٣٠ يونيو ١٩٧٦ (مواطنون أمريكيون فقط) ٠

وزارة الخارجية			جميع الوكالات الامريكية		
	البلد	العدد		البلد	العدد
١	المانيا	٣٠٣	١	المانيا	١٣٦٢٧
٢	الفلبين	١٧٤	٢	اليابان	٣٠١٥
٣	فرنسا	١٦٥	٣	كوريا	١٥٩٨
٤	المكسيك	١٦١	٤	المملكة المتحدة	١٣٦٧
٥ ـ ٧	اليونان	١٣٤	٥	الفلبين	١٢٨٦
٥ ـ ٧	الهند	١٣٤	٦	ايطاليا	١١٠٨
	ايطاليا	٥ر٧	٧	تايلاند	٧١٥
٨ ـ ٩	تايلاند	١٢٤	٨	أسبانيا	٦٨٢
٨ ـ ٩	المملكة المتحدة	١٢٤	٩	تركيا	٣٩٦
١٠	البرازيل	١٢١	١٠	فرنسا	٣٨٤
١١	اليابان	١٢٠	١١	المكسيك	٣٣٧
١٢	بلجيكا	١١٥	١٢	كندا	٣٠٦
١٣	كندا	٩٧	١٣	اليونان	٢٧٨
١٤	ايران	٩٢	١٤	جمهورية الصين	٢٣٦
١٥	تركيا	٨٤	١٥	الهند	١٩٩
١٦	باكستان	٧٩	١٦	البرتغال	١٧٠
١٧	النمسا	٧٧	١٧	ايسلنده	٧٢
١٨	نيجيريا	٧١	١٨	لاوس	١٩
١٩	كوريا	٦١		كوبا	ـ
	فيتنام	ـ		فيتنام	ـ

ومن بين موظفى وزارة الخارجية وغيرهم من الأفراد الأمريكيين المدنيين العاملين فيما وراء البحار ، تحتل المانيا الغربية الآن المركز الأول بينما لا تشغل بريطانيا سوى المركز الثامن ٠ ويبدو أن مصالحنا ليست مركزة على الحلفاء الثابتين بقدر ما هى مركزة على البلاد التى فيها ترتبط فرصة امام النفوذ الامريكى بادراك قدر من انعدام الأمن أو التهديد ٠ وهكذا فبالنسبة الى موظفى وزارة الخارجية العاملين فى الخارج تحتل ايطاليا وفرنسا والفلبين كلها مرتبة أعلى من انجلترا . وتتفوق ايران وتركيا على كندا ، وفى توزيع جميع المدنيين الامريكيين فى الوظائف الاتحادية فيما وراء البحار ، نجد ان التأكيد الموضوع على امكان وقوع مواجهة بين القوى وعلى آسيا أشد وضوحا :

هنا كوريا تفوق كندا فى المرتبة . وفوق تايلاند كلا من الهند والمكسيك ويبدو انه فى توزيع معظم موظفينا الذين يعملون فى الخارج . يوضع التأكيد على العمل بدلا من وضعه على الاستماع الى الدول أو الاتصال بها ، والتى نفوذنا عليهـــا صغير أو لا وجود له ومهما كانت كبيرة ، اما الاتحاد السوفييتى وهو ثالث اكبـــر شعب وثانى أقوى شعب على سطح الارض . فلا يظهر حتى على الرســـم الذى قدمناه ، ففى عام ١٩٧٤ لم يزد عدد أفراد وزارة الخارجيـــة المقيمين هناك عن ٧٨ ، واوصل المستخدمون التـــابعين للوكالات الاخـــرى مجموع المدنيين الامريكيين هناك الى ١١٢ فقط (١) .

والعدد المقابل من العاملين فى الهند البالغ عدد سكانها ٥٨٦ مليونا . هـــو ٦٦٢ . ولكنه صفر فى الصين البالغ عدد سكانها ٩٠٠ مليون فقد بلغ عدد العاملين ٣٢ فى الاتحاد السوفيتى والهند والصين يضمون ما يقرب من نصف الجنس البشرى وما يقرب من ربع دخل العالم ، الا ان هذه البلاد الضخمة الثلاثة لم يكن بها فى عام ١٩٧٤ سوى حوالى ٤ر٨ فى المائة من مجموع موظفى وزارة خارجيتنا فى الخارج . وفى ربيـــع عام ١٩٦٧ دارت منـــاقشات مطولة فى مجلس الشيوخ الامريكى حول ما اذا كان من الامان أو الحكمة تبادل اثنى عشر أو نحو ذلك من موظفى القنصليات مع الاتحاد السوفييتى ، حتى وان كانت تلك الهيئة قد أقرت فى النهاية الاتفـــاق المقترح . يبقى أن نرى ما اذا كان انشاء ((خط ســـــاخن)) بين البيت الأبيض والكرملين ، يمكن أن يعوض تماما ندرة الاتصالات الدبلوماسية والبشرية .

ومع أن توزيع الدبلوماسيين الأمريكيين وغيرهم من الموظفين الحـــكوميين فى الخارج ، متفاوت الى حد كبير ، فان اعدادهم كبيرة نسبيا فى جميع البلاد التى تتركز فيها قـــوة الولايات المتحدة ونفوذها ومصالحها ، ولو اضفنا الى الموظفين المدنيين الأمريكيين فى الخارج وعددهم أكثر من ٣٣٫٠٠٠ ، رجال الاعمـــال البالغ عددهم ٢٥٫٠٠٠ ورجال الارساليات وعددهم ٣٠٫٠٠٠ والمعلمون والطلاب وعددهم ١٠٫٠٠٠ ، وأعضاء قواتنا المسلحة مع أسراتهم ، لوصلنا فى النهاية الى المجموع الكلى الذى اقترحه هارلان كليفلاند وهو حوالى ٦ر١ مليون ((أمريكى فيمـــا وراء البحـــار يعيشـــون فى الخـــارج فى أى سنة واحدة فى هـــذه الفتـــرة الجديدة من التوسع العالمى فى أنحاء العالم ــ بالاضافة الى اكثر من ٤ مـــلايين أمريكى يسافرون الى الخارج فى كل سنة .

الى هؤلاء الأمريكيين الدائمين نسبيا فيما وراء البحار والبالغ عددهم ٦ر١ مليون يجب أن يضاف ١٠٠٫٠٠٠ تقريبا من الرعايا الاجانب تستخدمهم الحكومة الأمريكية مباشرة ، ولا نذكر العدد الأكبر من هذا بكثير ويمثل الرعايا الأجانب الذين يستخدم الأفراد الامريكيون والشركات الأمريكية . ولكن الحساب حتى هنـــا ناقص ، لأن وكالة المخابرات المركزية بالولايات المتحدة لا تنشر ميزانيتها ولا عدد

---

(١) سابين ، مصدر سابق ، الملحق رقم (ج) ، ص ٤٠٠ .

من تستخدمهم من الامريكيين او الاجانب ، بل ان حجم عملياتها الاجمالية لا يمكن معرفتها الا بطريق التخمين (قدر أنه شبيه بحجم عمليات وزارة الخارجيـــة أو اكبر) برغم أن بعض عملياتها غير المباشرة احتلت العناوين الرئيسية بالصحف فى العالم برغم أن هذه العمليات كثيرا ما تتم عن طريق منظمات وأفراد الأمريكيين أو المنظمات الأجنبية أو الأفراد الاجانب الذين لا يرقى اليهم الشك ٠

وكـــالة المخابـــرات المركزيـــة :

هذا الجهـــد الامريكى من عمليـــات المخابـــرات المنظمة والمرتبط باشـــكال شتى عن الحرب الخفيـــة والنفســـية ، جذوره فى الحرب العالميـــة الأولى ، بـــل واكثـــر منهذا فى الحرب العالميـــة الثانيـــة ، عندمامارســـت الولايات المتحدة . شـــأنها شـــأن جميع الدول الكبـــرى ، مجموعـــة كبيـــرة من امثـــال هذه النشـــاطات ٠ وبعـــد الحرب العالميـــة الثانيـــة زيـــد هذا الجهـــد الامريكـــى وعـــدل على نحـــو خاص ليوازن ويتغلب على الضغط السياسى فى انحـــاء العالم من جانب الاتحاد السوفيتى وحلفائه الحكوميين الرسميين ، وحلفـــائه أو أدواتـــه غير الرســـمين والاحـــزاب الشيوعيـــة بالعالم ، فى هذه الاحـــزاب هى وجهـــاز الدولة الشيوعيـــة والمنظمات التى خلفتهـــا وفى العديـــد من « المنظمات الطليعية » و « أحزمة النقـــل » وكذلك فى مخابراتهـــا العســـكرية والمدنيـــة ، كان تحـــت تصرف حكومة الاتحـــاد السوفيتى دائـــرة قوية مـــن الادوات للتأثيـــر فى السياســـة العالميـــة والاحـــداث الداخلية فى كثير من البلاد الناميـــة والبلاد التى تسيطر عليا الازمات (لكن برغم نجاحات دعائية قصـــيرة الامـــد من وقت لآخـــر ، كان تاثيرهـــا الفعلى فى البلاد التى تنعـــم بالرخـــاء والمســـتقرة مثل الولايـــات المتحـــدة وبريطانيـــا ، وفى البلاد الاخـــرى الناطقـــة بالانجليزيـــة وسويسرا ، والبـــلاد الاسكنديناوية ، صغيرا جـــدا على الـــدوام ٠

وعندما دخلت الولايـــات المتحـــدة بعد عـــام ١٩٤٥ فى مبارزات على النطاق العالمى ، مع هذه المنظمـــات التى يوجهها الســـوفييت او التى يحكمها الشيوعيون ، تصرفت على نحـــو ما يتصرف اهلهـــا عـــادة فى المســـابقات : راحت فى حماس تبذل جهـــدا اكبر واحســـن من خصومها ، وفى هذا نجحت بقـــدر ما يمكن ان نرى الميـــاه المظامة التى تمثل الحرب السريـــة ٠ ولعـــل جهـــود وكالة المخابـــرات المركزيـــة والمنظمـــات المرتبطة بها ، فى حرب المخابـــرات والحرب السياسية ، اكبر وافضـــل تنظيما من جهـــود المنظمـــات الســـوفيتية أو الصينية المقابـــلة التى تقاومهـــا فى المعتـــرك العالمى ، هذا النجـــاح جـــاء معه بنقيضـــه ، فعندما ظهر ان التوغـــل والدعايـــة الشـــيوعية نشيطان الى درجـــة كبيرة ويحققـــان نجاحـــا بصـــورة متزايـــدة ، وبـــدت الولايـــات المتحـــدة سلبية ولا يعنيهـــا الأمـــر ، رأى الشـــعور القومى فى بـــلاد كثيرة فى الشـــيوعية التهديـــد الرئيسى للاســـتقلال الوطنى ، قـــاوم الكثير من الوطنيين بشـــدة النفوذ

السوفييتى او الصينى وتطلعوا الى الولايات المتحدة يلتمسون منها المساعدة ·

وفى اواخر الستينات حينما بدت الولايات المتحدة لكثير من البلدان انها المنافس الاقوى والاكثر نشاطا والاوسع مالا والافضل موظفين . ساروا كثيرا من الوطنيين الخوف لئلا تحصل على نفوذ كبير على بلادهم وفى منتصف السبعينات بدت الولايات المتحدة اقل نشاطا فى الصراع على السلطة ، وعمدت بعض المجموعات الأجنبية من جديد الى حث الولايات المتحدة على انتهاج سياسة خارجية اكثر تشددا ·

مضمون التوسع :

هنا وفى القطاعات الأخرى من السياسة والاقتصاد العالمى والراى العالمى ، ولد نفس حجم تدخلنا فى الشئون الدولية ، بعض استجابات من البيئة الدولية تحد من المؤثرات الخارجية وتوازنها ، وكما كان حال كل دولة عظمى اخرى فى الماضى ، فقد يثبت ان توسع قوتنا ونفوذنا فى العالم والذى تم بتصرف من جانب واحد ، هو عملية تحد من نفسها · وفى شهادة ادلى بها سفير امريكى سابق لدى الكنغو ، أمام لجنة فرعية منبثقة من مجلس الشيوخ ، قال : ان حجم التمثيل الامريكى يشكل أحيانا عنصر مضايقة فى علاقاتنا الخارجية ، قليلا ما يدركه الجمهور الامريكى · هناك أماكن حجم البقية الامريكية فيها هو كحجم وزارة الخارجية فى البلد المضيف (٧) ·

ليست المسألة بالطبع مجرد مسألة تظاهر كأن يتركز الموظفون الامريكيون فى بلد اجنبى بشكل ظاهر فى مبنى كبير (كما هو حال الكثير منهم فى لندن) أو انهم متفرقون بصورة فى عدة مبان صغيرة (كما هو حالهم فى نيودلهى) · انها مسألة تتعلق بالجوهر ، مسألة ازدياد حجم وقوة الجهد الامريكى من أجل التأثير فى مسلك الشعوب الأجنبية · وبرغم هذا فأننا نواصل هذا الجهد الطموح · ويواصل السفير الامريكى سالف الذكر ، كلامه فى المذكرة التى قدمها الى لجنة مجلس الشيوخ الفرعية ، فيقول : « فى الواقع يتردد هذا الكاتب حتى فى ان يلفت النظر الى امكانية خفض القوة خشية أن يستغله أولئك الذين

---

(٧) أومنذ (ا) جليون : « الدبلوماسى الامريكى فى البلاد النامية » « وزير الخارجية والسفير » الذى اشرف على تحريره اسناتور هنرى م· جاكسون . تقارير لجنة جاكسون الفرعية عن « سير السياسة الخارجية الامريكية » · (نيويورك : بريجر ، ١٩٦٤) ص ١٩٦ ·

يهتمون بالهروب من التزامات امريكـا كقـوة عالميـة ، أكثـر مما يهتمـون بالقصـدوالوفـر (٨) ٠

ما الذى يدفعنـا الى بـذل هذا الجهـد ، وما الذى يحافظ على هذه الصورة لالتزاماتنـا ؟ الى اى حـد هـو شـبكة من التزامـات صريحـة تنص عليهـا المعـاهدات ازاء حكومات حقيقيـة لشـعوب أجنبيـة ذات سـيادة ؟ الى أى حـد هو المنطق الآلى الذى تنطـوى عليـه عمليـة الصراع الدولى ، التى يزداد تضييقهـا الخنـاق علينـا وعلى خصومنـا ؟ الى اى حـد هـو الصـورة الشـعبية « لفراغ قـوة » فى البلاد الناميـة ، يدفعنـا بصـورة لا يمكن مقاومتهـا ، الى مزيـد من الجهـود والالتزامات ؟ والى اى حـد هـو نتيجـة عمليتنـا السياسـية الداخلية ، هى والآثـار الداخليـة الناجمة من التزامات سـابقة من جانبنـا ؟

---

(٨) شرحـه ، ص١٩٧ ٠

الفصل العاشر

قطاع السياسة الخارجية

في اوائل عام ١٩٤٧ ، وعلى حد عبارة مراسل حسن الاطلاع في وشنطن ، كان وزير الدفاع الامريكي روبرت س ٠ مكنمارا مسئولا عن ٤ ملايين نسمة ، وممتلكات قيمتها ١٧٥ بليون دولار ، بما في ذلك ٥٠٠٠ رأس ذرية ٠ وكانت القوة البشرية التي تشرف عليها الوزارة اشرافا مباشرا ، تشمل حوالي ٣ ملايين من القوات المسلحة ومليونا من المدنيين ٠ وانفقت في عام ١٩٦٦ ما يقرب من ٦٠ بليون دولار (لا تدخل فيها في ذلك الوقت المبالغ الاضافية التي طلبها الرئيس جونسون لحرب فيتنام) ، وفي مارس ١٩٦٧ بلغت الانفاقات على الدفاع ٧٤ بليون دولار في السنة ، وكانت هذه المبالغ تزيد في كل سنة على نصف مجموع ميزانية الحكومة الاتحادية بالولايات المتحدة (١) ٠

ولقد كتب آدم بارمولنسكي في عام ١٩٦٧ ، وهو نائب سابق لمساعد وزير الدفاع لشئون الأمن الدولي : « ليست المؤسسة العسكرية اكبر منظمة في العالم وحسب ، ولكنها آكبر بنسب عدة ٠٠ من آية ادارة حكومية اخرى ، والحقيقة انها اكبر من جميع الادارات الحكومية الأخرى مجتمعة » (٢) ٠

وبحلول عام ١٩٧٣ ومع انتهاء الحرب الفيتنامية ، تقلصت القوات المسلحة نوعا ما الى زهاء ٢ر٣ مليون ولكن ظل عدد المستخدمين في الدفاع المدني حوالي مليون شخص وزادت الرؤوس النووية الى حد كبير واستمرت في الزيادة حتى وصلت الى حوالي ٣٠ر٠٠٠ راس نووي في عام ١٩٧٦ وفي ذلك العام زادت الميزانية الجديدة عن ١١٠ مليار دولار (منها حوالي ٢٠ مليار ادرجت في الميزانية تحت اعتمادات وكالات الدفاع الأخرى مثل الدفاع ووكالة الفضاء الامريكية (ناسا) وادارة المحاربين القدماء ٠

هذه الكتلة الضخمة من الجهد والاهتمام البشري والاقتصادي تولد حتما مجموعة هائلة من المصالح الاجتماعية والسياسية والاقتصادية

---

(١) المجلة الشهرية اتلانتنيك (مارس ١٩٦٧) ، ص ٥٦ ، حقوق الطبع عام ١٩٦٧ لشركة اتلانتيك الشهرية ، بوسطن ، ماساسوشتس ، ٢١١٦ ٠
(٢) المصدر السابق ، ص ٥٨ ٠

تناسب حجمها ، هذا الحجم ، وهذه المصالح على ما هو محتمل ، كانت تساوى فى عام ١٩٦٧ ما يقرب من ١٠ فى المائة من المنتج القومى الاجمالى الامريكى ، ويصل الى أكثر بكثير من مجموع تجارة الولايات المتحدة الخارجية بعنصريها الصادرات والواردات ، وهى التجارة التى لا تضيف الا ما يزيد قليلا على ٧ فى المائة من منتجنا القومى الاجمالى . وتقرب من مجموع جميع الاستثمارات الامريكية فى الخارج ، واكبر بحوالى ١٠ مرات الى ٢٠ مرة من مجموع العائدات السنوية منها . منذ ثمانين عاما خلت كانت مؤسستنا الدفاعية تعتبر أداة لحماية مصالحنا فى المسرح الدولى ، واليوم أصبحت هى نفسها أكبر مصلحة بينها .

ولقد عبر يارمولنسكى عن المعانى التى ينطوى عليها هذا الامر ، فى لغة واضحة بشكل يبعث على الاعجاب ، انه يذكرنا بان جميع القرارات الرئيسية التى يتخذها وزير الدفاع وغيره من كبار المسئولين فى البنتاجون ، والتى تمس مسائل السياسة والتموين والمعدات ونظم الأسلحة الجديدة والاستراتيجيات والترتيبات او الالتزامات الدولية :

... تنطوى على موازنة القيم والاخطار ، هذه قيم واخطار لا للبلد فحسب ، وكثيرا ما تكون للعالم ، ولكنها أيضا للمجموعات ذوات المصالح فى داخل البنتاجون ، وعبر بوتوماك ومخترقة طريق بنسلفانيا الى الكابيتول . والضغوط من أجل التوفيق بين هذه القوى المتنافسة ضغوط هائلة ، وبسبب تعقد المشكلات من جهة ، ففرص الوصول الى حلول وسط ليست بسيطة ، وحتى فى النوع الأول من القرار هناك مجال للتفاهم والتسوية ، فالموافقة على مشكلة يمكن أن يوازنها رفض مشكلة أخرى ذات صلة بها ، ومن جهة أخرى تميل سلسلة متصلة من الردود بكلمة « لا » الى أن تمنع الاتصال كلية وهو ما يشبه نوعا فكرة العلاقات العمالية عن الفشل فى المساومة بحسن نية .

فما من وزير للدفاع يستطيع ان يرفض بانتظام المقترحات المقدمة من مستشاريه العسكريين ، خاصة حيث كل من اختصاصهم المهنى وحياة الانباء الامريكيين موضع النظر ، وما من حجج تحليلية تغير تأثير رفض سافر على العلاقة العملية المستمرة بين الوزير والقواد ـ الواقع ، ليس الشىء الجدير بالاعتبار هو الكيفية التى تتخذ بها الكثير من قرارات الحلول الوسط فى البنتاجون فى وجه جميع الضغوط من اجل التفاهم ، ولكنه كيف أن هذه القرارات قليلة .

هنـــا ، ان كان فى اى مـــــكان آخر ، يأتى مفعـــول ما يدعى المركـــب العســــكرى ، الصنـــاعى عندما حذر الرئيس ايزنهاور وهو يغـــادر المنصـــب ، من تزايـــد قـــوة المركب العسكرى ــ الصناعى . فربما كان ينفس عن صـــدره مشـــاعر الاحبـــاط التى ســـــاورته بسبب عجـــزه عن خفض ميزانيــــة الدفـــاع ، كان فى نهايـــة فتـــرة رئاســـته ما يزال يظن ان رئيس الجمهوريـــة ينبغى أن يكون قـــادرا على اصدار أوامـــر بمثل ما يفعـــل قائـــد عسكرى ، وعندما وجـــد أن الأوامـــر لـــم تـــكن تطاع مباشرة ، آثـــــر أن يلقى اللـــوم على مؤامـــــرة ٠

من المؤكد ان المركب الذى يضم العسكريين والصناعة والكونجرس ليس مؤامرة ٠ ولـــكن هنـــاك صـــدف تتوافق فيهـــا المصالح بين ضابط المشروعـــات العســـكرى الذى يتطلـــع الى ترقيـــة ، والمدنى الذى يرى فتحـــة ينفذ منهـــا ليكـــون رئيس فـــرع جديد ، ومقـــاول الدفـــاع الذى يتوقف عمله ، ومندوبو النقابات الذين يـــرون حالات التعطـــل قادمة فى الطريق ، وعضـــو الكونجرس الذى تعنيــــه التبرعـــات للحملة الانتخابيـــة يقدمهـــا رجـــال الأعمـــال والعمال ، يعنيـــه رخـــاء دائرته الانتخابيـــة ٠ كـــل من مجموعـــات المصالح هذه تريـــد أن توســـع مؤسســـة الدفـــاع فى الاتجـــاه الخـــاص بهـــا ٠ فى أوائـــل الســـتينات كان النتاجون عالمـــا آخـــذا فى التوســـع ، وكان هذا من المزايـــا العرضيـــة القلائـــل التى نعـــم بهـــا مكنمارا فى بدايـــة توليـــه منصبه ٠

فالموارد التى اقتطعت من أنشـــــطة غير ضروريـــة ، غالبـــا ما كان يمكن أن توظف فى مجـــالات كانت فى حاجـــة الى التقويـــة ٠ ويسود موقف مشـــابه اليـــوم ٠ فالى عهـــد قريب جـــدا لـــم تكن معسكرات التدريـــب التابعـــة للجيش متاحـــة فحسب لتدريب احتياطيـــــات الحاجة اليهم أقـــل ضرورة ، وهى احتياطيـــات أوصت بهـــا احـــدى جماعات الضغط ، لان معســـكرات التـــدريب كانت مستغلة بالكامل فى اعـــداد قـــوات عاملة لفيتنـــام ، ولكن عندما تنتهى حرب فيتنام ، فســـوف تزداد بالضرورة ضغـــوط المركب المكـــون من العســـكريين والصناعـــة والكونجرس ٠

لا يـــزال فى الامكـــان مقاومة الضغـــوط ، وتشير كافـــة الدلائل الى انها ســـوف تلقى المقاومة ولكن من غير المعقـــول ان نتوقـــع من أى وزير للدفـــاع ان يقاومهـــا وحـــده ، أو لا يســـانده ســـــوى العـــدد القليـــل من الناس فى داخـــل وزارتـــه ممن هم رجاله تماما ٠

فخلال السنوات الست الماضية انشا البنتاجون نوع الادوات التنظيمية والتحليلية التى تسمح بالاتصال الفعال بين البيروقراطية والقيادة السياسية المسئولة ، ويبين عناصر البيروقراطية وهى العناصر التى لها مصالح نظامية متعارضة ٠ الا أن القائمين بالادارة انفسهم فى النتاجون لا يمكنهم تحديد دور المؤسسة العسكرية فى الولايات المتحدة ، ولا ينبغى أن يطلب ذلك منهم ٠ لقد دار نقاش قومى فترة من السنين حتى اظهر أن المؤسسة العسكرية قاصرة عن الاضطلاع بمهامها وانها بحاجة الى اصلاح رئيسى يتناول بنيانها ٠ تلك الاصلاحات أتاحت الآن للولايات المتحدة مزيدا من القوة العسكرية التى يمكن استخدامها ، ان الاستخدامات التى نؤثر أن تجعل المؤسسة العسكرية توفرها ، والحدود التى يراد أن تفرض على نمو المؤسسة وعملها ، موضوع كبير سوف يعود فيشغل اهتمام الشعب ٠٠٠ (٤) ٠

نظرة أخرى الى نظام القرار القومى ـ نموذج مسقط ماء بسيط :

يمكن النظر الى الشعب الذى يتعلق الأمر هنا باهتمامه وقراراته . على انه نظام للقرارات القومية ، ويمكن لبعض اغراض تتعلق بالتحليل . ان نتصور تدفق الاتصالات والقرارات فى صورة مبسطة جدا ، كأنه مسقط ماء من خمسة مستويات ، ويمكن أن نتخيل ان كل مستوى يكونه خزان معين من الراى العام أو رأى الصفوة ، وكل من هذه الخزانات متصل بمركب معين من المؤسسات الاجتماعية والجماعات التى تمثل المركز الاجتماعى ٠ وتنساب الاتصالات بسهولة أكثر فى داخل كل مستوى منها لو كانت تنساب من مستوى الى الآخر ، وهى تنساب من مستويات المراكز الاجتماعية العليا والقوة الى المستويات الدنيا . بسهولة أكبر مما لو انعكس الوضع ، ونظام الاتصال والعمل فى كل مستوى يمكن ان يمثله « صندوق أسود » بسيط فيه بطاقات قليلة ملصقة بأجزاء منه ، بحيث تشير الى ما يهمنا هنا من مهامه أو وظائفه الرئيسية : الرسائل والخبرات الواردة ، الذاكرة والتذكر ، القرار عن طريق ربط البيانات الواردة بالمعلومات المستقاة من الذاكرة لتحديد انتاج السلوك ، وانتاج الرسائل والافعال التى تنتج والتى يمكن أن تعيد المعلومات الى جانب الوارد فى النظام وبهذا تعدل المراحل التالية من سلوكه ٠

أول هذه المستويات من خزانات الراى فى أى بلد غربى هو مستوى

---

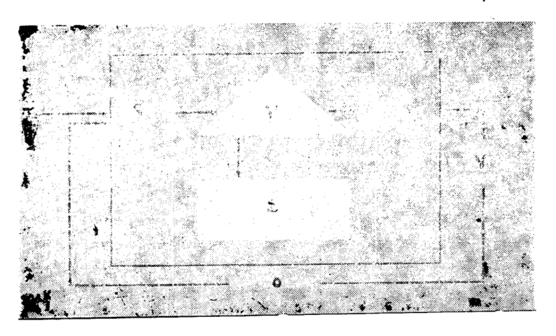
(٤) المصدر السابق ، ص ٦١ ٠

الصفـــوة الاجتماعيـــة والاقتصـــادية وتمثل على وجـــه التقريب ٢ او ٣ فى المائة او نحـــو ذلك من الســـكان على اساس الملكيـــة والدخـــل والمركز الاجتماعـــى ــ الاقتصـــادى ــ كبـــار المـــلاك ، حملة الاســـهم ، اصحاب الأعمـــــال ، المستثمرون ، والموظفـــون فى الادارة العليـــا فى البلـــد مع اسراتهم ، ومؤسساتهم الرئيسية مثل الشركات الرئيسية فى مجـــالات التجـــارة والمصرفية والاستثمار . هؤلاء الناس وهذه المؤسســـــات لا يشـــكلون فئـــة بســـيطة مصنوعـــة من خامة واحـــدة ، ولكن تربط بينهم شـــبكة كثيفـــة من روابط وصلات ومسالك اتصـــال متعـــددة ، وهم يشتركـــون فى الكثير من الذكريـــات والتفضيـــــلات والاســـاليب ، وانمـــاط عـــادات الثقافـــة الفرعيـــة للطبقـــات العليـــا ، وافكار ومصـــالح واســـاليب ســـلوك الصفـــوات الفرعيـــة الاكثر تخصصـــا ، تنتقل بسرعـــة فيما بينهم . وبالاضافـــة الى تدفق اتصـــالات هذه الصفوة وما تشترك فيـــه من ذكريـــات ، فهى تتلقى أيضـــا رســـائل من بقيـــة المجتمع ومن العالم الخارجى ، تولـــد رســـائل وافعـــال موجهـــة نحـــو المجموعـــات الاجتماعيـــة الأخـــرى والى العالم الخارجى ، ونحن نمثلهـــا بصـــورة ملخصـــة . وعلى ذلك نمثلهـــا « بصندوق أســـود » بـــه قطـــاع الوارد وقطـــاع للصـــادر ، ومجموعة من الذكريـــات متاحـــة للتذكـــر ، ونظـــام لاتخـــاذ القـــرارات يولـــد على الأقـــل تفضيـــــلات لأنـــــواع معينـــة من ســـلوك الصـــادر أو نواحى النفور منهـــا .

والمستوى الثانى فى مجتمع غربى على درجـــة عاليـــة من التقـــدم ، يتكون من الصفـــوة السياســـية والحكومية ، وهذه الصفـــوة تـــدور بصفة خاصـــة حـــول الحكومة القوميـــة . لكنها ايضـــا ليســـت كتـــلة صبت فى قـــالب واحـــد ، ففى داخلهـــا مجموعـــات فرعيـــة من قبيـــل موظفى الفـــرع التنفيذ والمشرعين والقضـــاة ، وكبـــار الموظفين المنتخبين وكبـــار أفـــراد البيروقراطية وهى المجموعـــة الأخيرة تضم أصحاب المراكـــز العليـــا من المدنيين والعسكريين وهنـــاك أيضـــا الفوارق المميزة بين الصفـــوات السياســـية فى المركـــز القوم وفى الأقاليـــم البعيـــدة ، والاختلافـــات بين مصالح ورجـــال السياسة القوم وسياســـة حكومات الولايـــات والهيئـــات البلديـــة . وأخيـــرا ، هناك الفوارق بين شـــاغلى الوظائف الحكوميـــة الرســـمية والافـــراد الذين يرتكز نصيبهم القـــوة السياســـية على مركزهم فى التنظيـــم الهرمى أو جهـــاز حـــزب مـــا ، وهناك التفرقة الحقيقية بين من هم فى داخل السياســـة ومن هم خارجها وان كانت ادوارهم يمكن أن تنقلب راســـا على عقب حين تنتقـــل القـــوة من يـــد الى اخـــرى . وبرغـــم كافـــة هذه الانقســـامات الحقيقيـــة ، هنـــاك قـــدر طيب من التماســـك والاتصـــال فى الصفوة السياســـية . وهى تتجه بوجـــه عـــام مـــع الصفوات البيروقراطية والعسكرية على تكوين الحكومة فضلا عن معظم البيئـــة الاجتماعيـــة المباشرة حولهـــا . وعلى ذلك يمكن ان نعـــود فنمثل هذه الصفـــوة الحكومية والسياســـية على أنهـــا نظـــام للاتصالات واتخاذ

القرارات ، بذكرياتهـــا وقدراتها فى اتخـــاذ القرارات ، ووظائفهـــا المتعلقة بالوارد والصـــادر شــــبيهة بالرســـم البسيط المبين فى الشـــكل رقم (٢) ٠

ويتكون المستوى الثالث من وســـائل الاتصـــال بالجماهير ـــ وخاصـــة الصحف والمجـــلات والتليفزيـــون والراديـــو، مع وكالات الاعلان والســـينما والاسطوانـــات ، وصناعات النشر باعتبارهـــا ملحقـــات وثيقـــة الاتصـــال بهـــا ـــ هذه الشـــبكة من وســـائل الاتصـــال بالجماهير يمكن ان تعامـــل أيضـــا باعتبار كونهـــا نظاما لـــه نواحيـــه المتعلقـــة بالصادر والوارد والذاكرة والقـــرار ، ويمثلها صندوق أســـود آخـــر شـــبيه بما ذكرنـــاه بصدد المستويات الســـابقة ٠



(٨) الشكل رقم (٣) مستوى الصـــفوة الاجتماعية والاقتصادية كنظـــام لصنع القرارات ٠

١ ـــ الرسائل والخبرات الواردة ٠ ٢ ـــ الوارد ٠ ٣ ـــ القرارات ٠
٤ ـــ الذكريات ٠ ٥ ـــ معلومات يعـــاد استخدامها ٠ ٦ ـــ الصادر
٧ ـــ السلوك (الرسائل والافعـــال الصادرة) ٠

ونظـــام الاتصـــال فى المســـتوى الرابع أكبر بكثير وأقـــل تماســـكا بكثير ولكنـــه لا يقـــل أهميـــة ، ويمكن تمثيله كصندوق أســـود شـــبيه بما فى كل من المســـتويات الأخرى ٠ ولكن علينـــا أن نتذكـــر أنـــه يختلف عنها من حيث المحتـــوى ، فهـــو يتكون من شـــبكة قـــادة الـــرأى المحليين ـــ أى نسبة قدرهـــا ٥ أو ١٠ من الســـاكن ممن يوجهـــون اهتماما متصـــلا الى وســـائل الاتصـــال الجماهيريـــة ، والى حـــد ما الى الشـــئون الخارجية ٠ هؤلاء هـــم الرجـــال والنســـاء الذين ينقلـــون أخبـــار الكثير من الشـــئون القوميـــة والعالميـــة

الى جيرانهم الأقل اهتماما الذين يتطلعون اليهم لتزويدهم بالتفسيرات وبنماذج للاتجاهات والاستجابات للاحداث البعيدة وغير المألوفة التى تجعلها وسائل الاتصال الجماهيرية فى نطاق رؤيتهم ، فاذا اتفقت شبكة قادة الرأى المحليين مع الرسائل والتفسيرات التى توفرها وسائل الاتصال بالجماهير ، أمكن أن تفعل الكثير لتعزيز تأثيرها ، واذا اختلفت معها وعارضتها او تجاهلتها امكن أن تفعل الكثير لالغاء تأثيرها ٠ وهكذا فان نفس البرامج التليفزيونية القومية عن أفريقيا او عن التكامل العنصرى فى قوات الولايات المتحدة المسلحة ، كان يمكن ان يكون لها تأثير مختلف جدا فى الشمال وفى الجنوب ، وهذا متوقف على الاستجابات المختلفة من جانب قادة الرأى (واستجابات الأهالى عموما) فى كل اقليم ٠ فى تحاليل استفتاءات الرأى ربما يكون فى الامكان الاقتراب من « طبقة قائد الرأى المحلى » هذه بتقسيم الخمسة أو العشرة فى المائة ممن يجيبون على الأسئلة الموجهة اليهم ، حسب المركز الاجتماعى والاقتصادى والتعليم وتحليل اتجاهات كل منهم على حدة ٠ وبدلا من هذا يمكن التعرف مباشرة على أعضاء هذه الطبقة ــ أو اعضاء اية مجموعة فرعية فى داخلها ، مثل المدرسين والمحامين المحليين ــ وعمل استفتاء عن عينة مناسبة فى صفوفهم ٠

وتتكون المجموعة الخامسة والاكبر المكونة من الشعب ، من طبقات السكان عموما ممن لهم اهمية من الناحية السياسية ، نظرا لامكانية الوصول اليهم واهتمامهم وقدراتهم ولانهم كبار فى السن بدرجة تجعل لهم تاثيرا محتملا على السياسة بحيث يتعين أخذهم فى الحسبان فى تقدير مجرى الاحداث السياسية المحتمل والنتيجة المحتملة للازمة ٠ وهؤلاء « الناس » من ذوى الفعالية من الناحية السياسية ، يشكلون فى البلاد الغربية مجموع الناخبين الذين يدلون بأصواتهم بالفعل ــ أى يبلغ عددهم ما بين ٦٠ ، ٩٠ فى المائة من السكان البالغين ٠ ويتلقى الناخبون (والجمهور العام) أيضا رسائل ، ويسترجعون ذكرياتهم ، ويتخذون القرارات ويولدون نتائج فى صورة رسائل وافعال ٠

تتحرك مجارٍ أربعة من المعلومات الى أسفل ، بطريقة مستقد الماء ، من نظم الاتصالات بالمستوى الأعلى الى نظم اتصالات المستويات الادنى ، فالصفوة الاجتماعية والاقتصادية تتصل مباشرة بالحكومة والنظام السياسى ٠ ويسهل على الكثيرين من افرادها الاتصال بالفروع التشريعية والتنفيذية من الحكومة والتأثير فيها ٠ وللكثيرين منهم أيضا مثل هذا الاتصال وهذا التأثير فى عالم وسائل الاتصال بالجماهير ، اتصالاتهم بأغلبية قادة الرأى المحليين أقل وتأثيرهم على الآخرين مباشر بدرجة أقل ، كما أن تأثيرهم المباشر على جماهير الناس هو الأقل

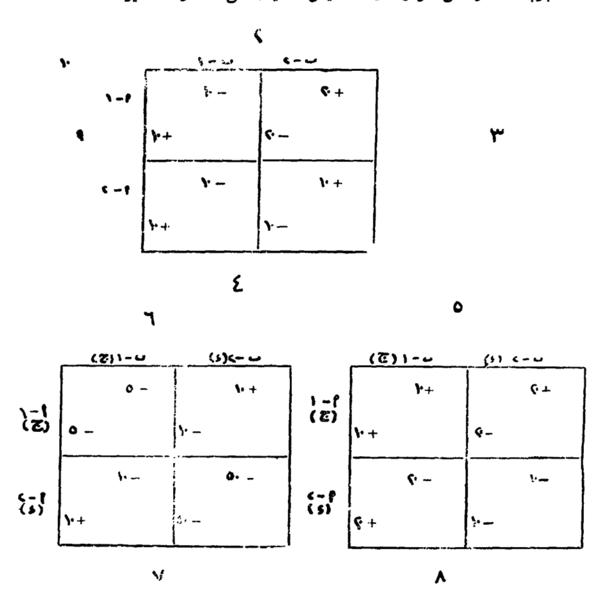
للحكومة بعض انصالات مباشرة بوسائل الاعلام وتأثير عليها ، ولكن اتصالاتها وتأثيرها اضعف فى حالة قادة الرأى المحليين والشعب . ووسائل الاعلام بدورها تتحدث بأكبر درجة من الشكل المباشر ومن الفعالية ، لقادة الرأى المحليين الذين يقومون بنقلها او تأكيدها بالنسبة الى الناس ، وان كان الاندر حدوثا ان ينولوا نقدها ، لكنهم يتحدثون ايضا بشكل مباشر الى الناس ، ويتحدثون بمزيد من السلطة والتأثير اذا كانت رسائلهم تسير بموازاتها على القادة المحليين اذ تصفهم بأنهم المتحدثون بأسمها . وأخيرا ، يتصل القادة المحليون اتصالا مباشرا بالناس ويؤثرون فيهم بتأييد سياسة وسائل الاعلام أو بمعارضتها ، وهذا مبين فى الشكل رقم (٤) ويلخصه الجدول (١١) .

الا انه لكل من المجموعات الخمس ذكرياتها ودرجة استقلالها . فتستطيع كل مجموعة أن ترفض وتتجاهل وتعيد تفسير الكثير من الرسائل غير المستساغة — وربما كلها تقريبا ، وكل منها قادرة على الابتداع والمبادرة وتستطيع كل منها ايضا ان تدفع مجرى المعلومات الى اعلى لتغذية بعض او كل مجموعات المستويات الأعلى .

ويستجيب الناس لقادة الرأى المحليين بزيادة أو تقليل انتباههم واحترامهم لهم . ويستجيبون لوسائل الاعلام بتوجيه اهتمامهم اليها أو حبسه عنها ، وعن طريق الاشتراكات ، ورعاية كل وسيلة والشركات التى تعلن عن طريقها . وفى ظل الديموقراطية فان لهم مسالك قوية ترفع أفكارهم الى الحكومة ، لكنهم لا يملكون سوى مسالك ضعيفة وغير مباشرة للاتصال بالصفوة الاجتماعية والاقتصادية والتأثير عليها ، لأن معظم أفرادها لا يعتمدون فى دخولهم أو مراكزهم على الرضاء الشعبى ، ويستطيع قادة الرأى المحليون أن يؤيدوا وسائل الاعلام أو يتجاهلوها أو معارضتها ، ولهم الى حد ما اختيارات مشابهة فى تصرفاتهم من ناحية الحكومة والقيادة السياسية فى البلد ، لكنهم لا يستطيعون فى العادة أن يفعلوا الكثير بالنسبة الى الصفوة الاجتماعية والاقتصادية الا اذا أصبح القادة المحليون ومن المستويات الدنيا مبعدين عن الصفوة التى تحتل مركز القمة ، أو اذا كانت الأخيرة الى حد كبير من دخلاء ظاهرين أو اجانب . ولكن فى امكان **الحكومة** وقادة النظام السياسى أن يعملوا شيئا بالنسبة الى الصفوة الاجتماعية والاقتصادية . ففى امكانهم الدفاع عن امتيازاتها بطريق التشريع والضرائب وقادة الرأى والادارة الوطنيين ، وعن طريق الكثير من أعمال الحكومة والقرارات المتعلقة بالسياسة .

اذا نظرنا الى المستويات الخمسة التى يشتمل عليها نموذج مسقط الماء الذى اخترناه ، نجد أن كلا منها مستقل من جهة ، ولكنه

ايضا الى حــد ما التأثير المباشر من جانب الواقــع الخارجى • فحين يكـــون هناك انتكاس اقتصـــادى ويفقــد الناس وظائفهم ، فهم يلاحظونها وكذلك يلاحظهـــا جيرانهم ، دون اعتبـــار تقريبـــا لمـــا قــد يقوله قـــادة الـــرأى المحليون ووسائل الاعـــلام بـــل والحكومة • ويصـــدق الشىء نفســـه على المواقف التى يكون الناس فيها قــد عانـــوا الجـــوع او تقتين المواد اللازمة لهم أو ارتفـــاع قوائـــم ضحايا حرب طـــال أمدهـــا • فى جميـــع هذه الحالات تســـتطيع وســـائل الاعـــلام والقـــادة السياســـيون المحليـــون وعلى مستوى الأمـــة أن يفعلوا شـــيئا لتفسير تجـــارب الناس ، ولكن بمرور الوقـــت قــد يزيـــد وزن التجربـــة التراكمى (وان كان ذلك ليس حتميا) على آثـــار التفسير •



١ ــ الجـــدول رقم (٢) •

بعض الامثلة عن نماذج المبـــاريات •

٢ ــ « الحــد الادنى » ٠

« عامودى اللاعب ب » ٠

٣ ــ قالب النتائج : تمثل كل غرفة النتيجة التى تأتى بعــد ذلك اذا اختــــار (أ و ب) الاستراتيجيات التى تؤدى اليهــا و المكاسب التى تؤول الى (أ) مبينـة فى الركن الاســفل الى الشمال ومكاسب (ب) مبينـة فى الركن الاعلى الى اليمين من كل غرفة ٠

٤ ــ النتيجة الطبيعية : (أ ــ ٢ ، ب ــ ٦٢ ــ و ١٠ + ١٠ ٨١٠ ٠ أ ــ ٢ هى أفضل مــا يمكن أن يعمله (أ) لنفســه اذا عمــل (ب) أسا مــا يمكنــــه لــه . ب ــ ٢ هى أفضـــل ما يمكن أن يعمله ب ضــد أحسن استراتيجية يتبعها (أ)

٥ ــ ٣ ٠ « ورطة السجناء » ٠

٦ ــ ٢ ٠ « الكتكوت » ٠

٧ ــ الصادر « الطبيعى » : ج ج (ــ ٥ ، ــ ٥) ٠

٨ ــ الصادر « الطبيعى » : د د (ــ ١٠ و ــ ١٠) ٠

٧ ــ (أ) ٠ الشلال الرئيسى للرسائل و الاستجابات من النـاس ٠

١ ــ الصفوة الاجتماعية و الاقتصادية ٠

٢ ــ النظــام السياسى للحــكم ٠

٣ ــ وسائل الاتصال بالجماعير ٠

٤ ــ قادة الرأى ٠

٥ ــ النـــاس ٠

٦ ــ الواقـــع ٠

١٣ ــ (ب) توفق اتصالات الصفوة الاجتماعية و الاقتصادية ٠

٧ و ٨ و ٩ و ١٠ و ١١ و ١٢

مثــل ١ ــ ٦

المــذكرة اعــلاه

١ ــ ج ٠ توفق الاتصالات من الصفوة الحكومية و السياسية ٠

١١ ــ د ٠ توفيق الاتصالات من وسائل الاتصال بالجماهير ٠

١ ــ ع ٠ تدفق الاتصالات من قــادة الرأى ٠

١٤ ــ و ٠ تدفق الاتصالات من السكان على مستوى الجماهير فى بلــد متقـــدم

٧ ــ ز ٠ تدفق الاتصالات من السكان فى مستوى الجماهير فى بلــد متخلف تقليدى

١٢ ــ ح ٠ التفاعلات مع واقع البيئة فى البــلاد المتقدمة ٠

١ ــ ط ٠ النموذج المتجمع : توفق الاتصالات فى نظام من خمسة مستويات وبيئته

٧

١

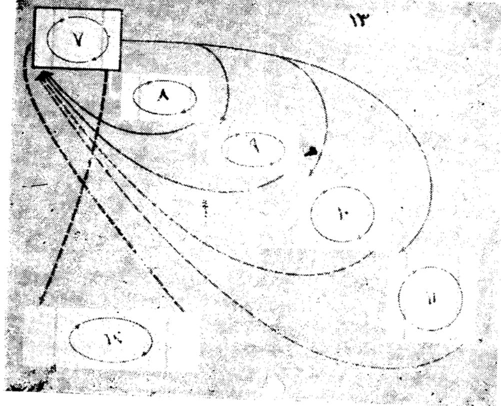
٢

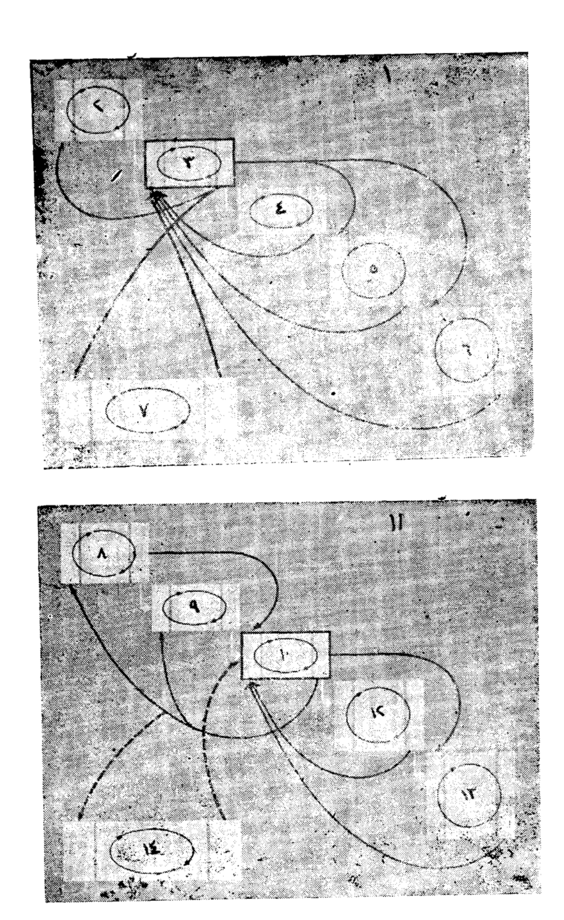
٣

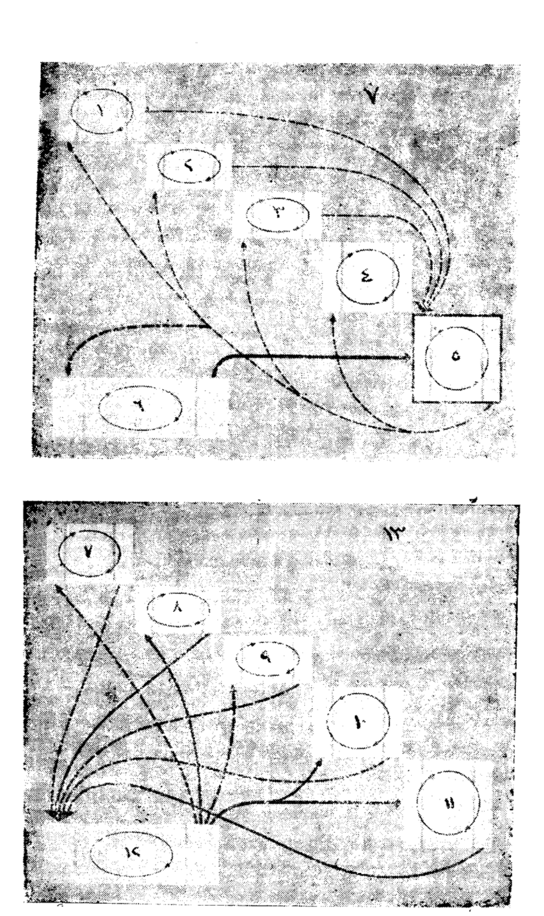
٤

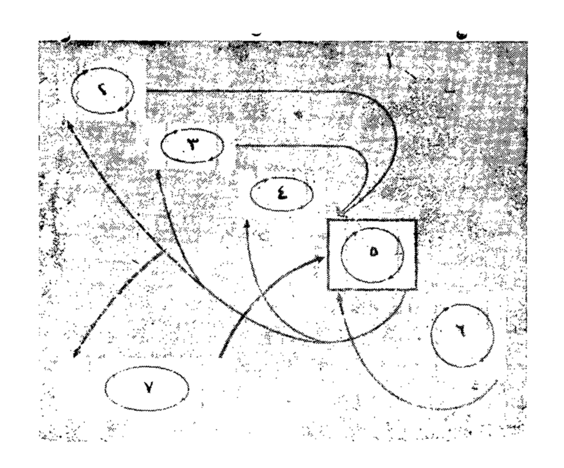
٥

٦

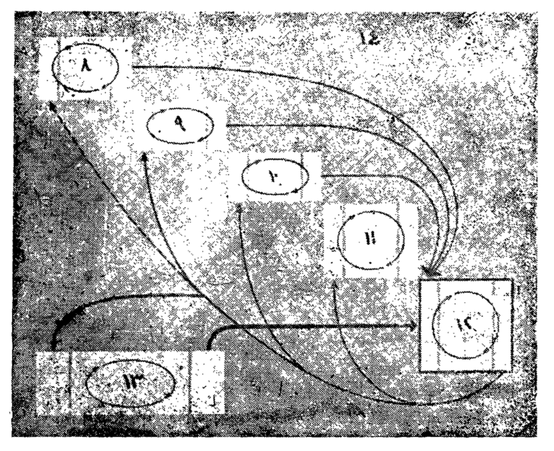



I
٢
٣
٤
٥
٦
٧
II
٨
٩
١٠
١٢
١٣
١٤

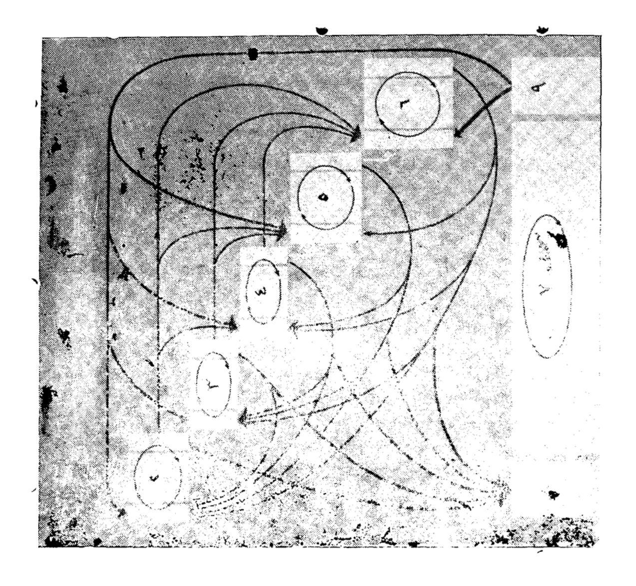

٧
١
٢
٣
٤
٥
٦
١٣
٧
٨
٩
١٠
١١
١٢



١
٢
٣
٤
٥
٦
٧



١٤
٨
٩
١٠
١١
١٢
١٣



٧ ــ (أ) الشلال الرئيسى للرسائل و الاستجابات من الناس ٠

١ ــ الصفوة الاجتماعية و الاقتصادية ٠
٢ ــ النظام السياسى للحكم ٠
٣ ــ وسائل الاتصال بالجماهير ٠
٤ ــ قادة الرأى ٠
٥ ــ النــــاس ٠
٦ ــ الواقع ٠

---

١٣ ــ (ب) تدفق اتصالات الصفوة الاجتماعية و الاقتصادية ٠
٧ر٨ر٩ر١٠ر١١ر١٢

(مثل ١ ــ ٦ المذكورة أعلاه)

١ ـــ (ج) • تدفق الاتصالات من الصفوة الحكومية والسياسية •

١١ ـــ (د) • تدفق الاتصالات من وسائل الاتصال بالجماهير •

١ ـــ (هـ) • تدفق الاتصالات من قادة الرأى •

١٤ ـــ (و) • تدفق الاتصالات من السكان على مستوى الجماهير فى بلد متقدم •

٧ ـــ (ز) • تدفق الاتصالات من السكان فى مستوى الجماهير فى بلد متخلف تقليـــدى •

١٢ ـــ (ح) • التفاعلات مع واقع البيئة فى البلاد المتقدمة •

١ ـــ (ط) • النموذج المتجمع : تدفق الاتصالات فى نظام من خمســة مستويات وبيئته •

ويصدق الامـــر نفســـه على المستويات الأعلى ، فقـــادة الـــرأى المحليون ووســـائل الاعـــلام ، والحكومة ، والصفـــوة الاجتماعيـــة والاقتصادية ، كلهم يحتمل انـــه كانت لهم تجـــارب مباشرة مع مســـائل من قبيـــل الرخـــــاء الاقتصـــادى او الكســـاد ، وتدفق الذهب على البـــلاد أو خروجـــه منهـــا ، وسهولة او صعوبة الهجـــرة ، وحـــالات النجاح أو الاخفـــاق فى العلاقـــات الخارجيـــة او فى الحرب ، ونواحى تقـــدم أو احبـــاط شتى بالنسبة الى العلم التكنولوجيـــا والصحة العامة والزيـــادة السكانية وتحسين أو تدهور البيئة ، والمحافظـــة على الموارد الطبيعيـــة أو نضوبها • يمكن أن يكـــون لأى من هذه أو كلها آثـــار على تجـــارب فى كل مستوى من نظـــام الاتصـــالات الاجتماعيـــة . وهكذا يمكن ان تؤثـــر بشـــكل مباشر فى نظراتهم الى أنفســـــهم والى العالـــم الخارجى ، فضـــلا عمـــا يســـــود علاقاتهم بعضهم ببعض من الثقـــة او الشك • ان الثقـــة فى حكومة ما أو صفوة وطنيـــة أو نظـــام وطنى من وسائل الاتصال بالجماهير ، فى الســـــاحة الدولية ، وكذلك فى السياســـــة المحلية ، قـــد يعتمد بدرجة غير بسيرة ، على مـــدى اتفـــاق رســـائلها مع التأثير الفعـــلى للواقـــع على الشـــعوب والجماعات والحكومات الأخرى المعنية •

وكـــل مستوى من مستويـــات الاتصـــال المترابطة هذه مكـــون هو نفسه من المجموعـــات والمؤســـســـات ذات المصـــالح ، وهنـــاك مخالفات بين المجموعات فى مستويات مختلفـــة فى نظـــام الاتصـــال • يمكن أن توجـــد أمثـــال هذه المخالفـــات بين بعض القـــادة السياســـــيين الوطنيين ، وبعض وســـــائل الاعـــلام ، وبعض القـــادة المحليين وبعض أجـــزاء من الناخبين • وهـــــؤلاء

جميعــا قــد يؤيــدون « خطــأ متشــددا » « او خطــأ ســهلا » فى السياســة الخارجيــة ــ أى استعدادا أكبر أو اقــل للاقتــراب من حافــة الحرب فى السعى الى تحقيق الأهــداف التى يفضلونها والتى تنطــوى عليهــا السياســة الخارجيــة القوميــة ــ بينما قــد تفضــل مجموعــات او ائتلافــات اخــرى أن تجعــل الاولويــة لأهدافهم المحلية ٠

هــل هنــاك « أولويــة فى السياسة الخارجية ؟ » :

ونظــم الاتصــالات السياسية المعقدة التى من هذا النــوع لا يحتمــل دائمــا أن تجعل الأولويــة للسياســة الداخلية أو الخارجيــة ٠ لقــد تحــدث مؤرخ القرن التاســع عشر الكبير لبويلد فــون رانكــة عن « أولويــة السياســة الخارجيــة » ، ولكن هذه الفكــرة كانت إنيســب للملكيــات منها للمجتمعــات الجماهيرية ٠ واليــوم لا تزال جماعات الصفــوة ترســم السياســة ، ولكن السياســة ــ على الأقــل متطلباتها ونتائجهــا ــ غالبــا ما تصنــع جماعات الصفــوة أيضــا أو تغير تماســكها وقوتهــا ، فضــلا عن العلاقــات بين مجموعــات الصفــوة ٠ كذلك فان نظاما حديثا للاتصــالات والقرارات السياســية من هذا الطراز ، يجعــل من الصــعب على بلــد أن يحتفظ بسياســة خارجيــة متســقة جــدا فى الأجــل الطويــل ، فلــو أن صفــوة من مســتوى واحــد او مجموعــة من أصحــاب المصالح كانت متأكــدة من التغلب على الآخرين جميعــا ، واذا كان هؤلاء الأخيرون جميعــا ظــلوا سلبيين نســبيا ، فعندئذ تســتطيع هذه الهيئــة الغاليــة وبدون بــذل مجهــود خاص أن نضــع ونحــافظ على سياســات دوليــة متسقة لسنوات كثيرة ٠ أن الديموقراطية ذات العناصر المنفــردة تجــد حتما أن فرص النفــوذ بصفة مستمرة على شــعب آخــر أو الخضــوع باستمرار لنفــوذه ، أمــر أشــد صعوبــة بكثير ٠

كلما زاد عــدد عنــاصر التعدد والاتصــال والمشاركة فى نظــام مــا ، صعب على جماعات الصفــوة وأصحاب المصالح ان تظــل محتفظــة بوضعها ، وزادت قابليــة التوازن بين مستوياتها وتدفقــات الاتصــالات والقــرارات السياســية من داخلية وخارجيــة ، للتنقــل ٠ ليســت الديموقراطيــات الحديثة مؤهــلة تماما على الاطــلاق من هذه الناحيــة لحــكم أو ارشــاد بــلاد أخرى لفترات طويلة . وليســت مستعدة بالمثــل للرضوخ زمنــا طويــلا لأى نفــوذ أجنبى أو ارشــاد من بعيــد ، مهما حسنت نوايــا ٠ وتبين علاقــات بريطانيــا ببلاد الكومنولث الديموقراطيــة شيئا من هذه الصعوبة ، كما تبينها تجارب أمريكــا منذ عــام ١٩٥٤ فى محاولة التأثيــر فى سياســات فرنســا ، وجهودنــا الأحــدث عهــدا للتأثير فى ســبر الحيــاة الاقتصــادية والسياســية بالهنــد ٠

ولكن ما يصـــدق على الديموقراطيـــات الحديثة ربما يصـــدق ايضـــا والى حـــد بالغ ، على جيمع البلاد الحديثة الأخـــرى ، ان كل تجـــدد يعنى ضمنا مزيدا من الاتصـــالات المحلية ، ونظما داخليـــة للاتصـــال أكثر تنوعـــا وتعقيـــدا ، وقطاعات عامة اكبـــر ومزيـــدا من المشـــاركة الشـــعبية يتجاوز حـــدود المستوى المحلى واحتمالات اكبر بتنقـــلات متكررة فى علاقـــات الاتصـــال والقـــوة فى داخـــل نظامها السياسى • وحتى وراء واجهة الدكتاتوريـــة تعمل هذه العمليات المتنقلـــة من السياســـة والاتصـــال عملها ، فتجعـــل الدكتاتوريـــات الحديثة اقـــل قـــدرة على الاحتفـــاظ لفتـــرة طويلة جـــدا بســـيطرة شـــديدة على البلاد الأجنبيـــة البعيـــدة ، فالصعاب التى عاناها الاتحـــاد السوفييتى فى محاولـــة الاحتفـــاظ بالسيطرة على سياســـات تشيكوسلوفاكيا ورومانيـــا ، وفقدانـــه الســـيطرة على يوغوسلافيا والصين ، كل هذا يبين كيف اتحـــدث التنقـــلات فى داخل الاتحاد السوفييتى مع التغيرات فى البلاد الأخـــرى لاضعاف او حـــل ما كان يبـــدو من قبـــل ، فى الســـطح على الاقـــل ، كأنـــه كتلة خاضعة للسيطرة الشـــديدة •

وبرغـــم ان الدول الحديثة تجـــد مـــن الصـــعب ان تؤثـــر فى الدول الأخـــرى او ان تســـيطر عليها لفتـــرات طويلة ، الا ان مصالحهـــا كثيرا ما تدفعها الى اجـــراء المحاولة • وقـــد يضيف ترابـــط البلدان الجزئى حاجة ملحـــة الى أمثـــال هذه الجهـــود دون ضمان نجاحهـــا • وحيث يستمر الترابـــط ولكـــن تخفق محـــاولات الســـيطرة ، وحيث تصبح المصالح المتعارضـــة بارزة ، فمن المحتمل ان تنشـــأ الصراعـــات • هنا ايضـــا ، ينشـــأ الصراع الدولى مـــن اخفـــاق محاولات الصـــيطرة •

الفصل الحادى عشر

كيف تنشأ الصراعات بين الدول

هناك ثلاثة اشياء تريد أن نعرفها عن اى صراع سياسى ٠ اولا ، هل يستطيع الجانبان ان ينجوا منه ؟ وثانيا ، هل ينتهى هذا الصراع الى غير رجعة ، أم انه سيتكرر ؟ وثالثا ، هل يمكن معالجته والاحتفاظ به داخل حدود معتدلة أو هل انه سيفلت من الزمام ويصبح هو نفسه سيدا لمصائر جميع الأطراف المشتركة فيه ؟

ثلاثة جوانب حاسمة للصراع :

فى اى صراع يضطرم بين الدول ـ وفى الحقيقة فى اى صراع بين الممثلين السياسيين من اى نوع ـ تكون الاسئلة الآنفة الذكر هى الهامة والحاسمة ٠ وسنبحث مضمون كل سؤال منها فيما يلى :

النهاية المرة او البقاء المشترك

فى حالة الصراع « حتى النهاية المرة » ، ليس هناك احتمال الا لبقاء احد الجانبين المتصارعين على حساب دماره أو استسلامه التام ، أما فى صراع « البقاء المشترك » ، فان من المحتمل ان يكتب البقاء للجانبين ، وذلك لقدرتهما على القتال او التعاون فى المستقبل ٠ كانت الحرب العالمية الثانية حرب « نهاية مرة » ، فقد انتهت باستسلام المانيا واليابان مع تدمير دكتاتوريتيهما وتدمير نظام الحكم الفاشى فى ايطاليا ٠ اما حرب الهمالايا بين الهند والصين فى عام ١٩٦٢ فكانت حرب « بقاء مشترك » ، وكذلك كانت الحربين بين الهند وباكستان فى عام ١٩٦٤ و ١٩٧١ ، والحرب الباردة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى من ١٩٤٥ حتى ١٩٧٢ ٠ وفى جميع هذه الحالات استطاع الجانبان أن يحافظا على بقائهما واستمرا يعيشان جنبا الى جنب أو « يتعايشان » كما يحلو للروس أن يسموه ٠

فى صراعات « النهاية المرة » يلجأ احد الخصمين او كلاهما الى استخدام استراتيجيات الابادة بهدف تدمير القوات المسلحة والاستقلال واحيانا الحكومة فى الدولة الخصم او على الأقل القضاء على قدرتها على اتخاذ قرارات ذاتية ٠٠ وقد يشعر الشعب على جانب أو الجانبين انهم يحاربون من اجل حياتهم ـ اى حياتهم كمجتمع سياسى منظم يحكم نفسه بنفسه ـ وقد يجعلهم ذلك على استعداد لاستخدام اشد الأسلحة والأساليب القتالية فتكا التى فى متناول يدهم ٠

وعلى العكس ، فانـــه فى حالة صراع البقـــاء المشترك فانه لا يمكن ان يتوقع اى من الجانبين التخلص نهائيـــا من خصمه · ذلك انـــه ينبغى عليهما أن يواجها بعضهما البعض من جديد ، فى ســـلم او حـــرب ، وحينما يشعرون بذلك فـــان اكثـــر الاحتمالات توقعـــا هو أن الناس قـــد يصبحـــون اكثـــر ميـــلا نحـــو الاعتـــــدال اثنـــاء الصراع ونحو التوصل الى حـــل وســـط لتسويته ·

اساسى ام عرضى ؟

اذا كان الصراع اساسيا ، بمعنى ان لـــه جذورا فى كيـــان اساسى دائـــم لاحـــد الطرفين المتنازعين او لكليهما ، فان من المحتمل أن يتكـــرر المـــرة تلـــو الأخرى ، واذا كان الصراع عرضيا أو مؤقتـــا بمعنى أن يكون قائما على أســـــاس ظـــروف عابـــرة ، فانـــه قـــد لا يتكرر فى المســـتقبل · ان الصراع بين الولايات المتحـــدة والاتحـــاد السوفيتى ــ وعموما بين البلدان التى تســـود فيها المؤسسات الخاصـــة والبلدان التى تحكمهـــا نظـــم شـــيوعية حيث يســـــود التخطيط المركزى والملكيـــة العامة أو الجماعيـــة ــ يعتبر صراعـــا اساسيا لا من جانـــب كثير من النظريين الماركسيين فحســـب ، وانما من جانب كثير من الناس فى الغرب · وعليه فانهم يتوقعـــون ان يستمر لوقت طويـــل ويصبح ملحوظـــا بعد كل حل وسط مؤقت كان وفاقا او هـــدوءا طالمـــا ان جذوره لا تتلاشى · وعلى العكس فان هنـــــاك كثيرين لا يرون ان الصراع بين الاتحـــاد الســـــوفيتى وجمهورية الصين الشعبية صراعـــا بين نظامين أجتماعيين اساســـيين وانما هو صراع بين قـــادة سياســـيين فى الســـلطة أو بين تيارين فكريين يســـودان لفتـــرة مؤقتـــة ، وانـــه حينما يختفى هؤلاء من الســـلطة فانه قـــد لا ينشـــب صراع بين روســـيا والصين من جديد ، وهذا هو على الأقـــل رأى كثير من المثقفين الســـــوفييت فى أوائـــل السبعينات ولكن بعض المراقبين الامريكيين لا يرون رأيهـــم ·

وثمة راى آخر هو أن الاتحاد السوفيتى لم يقم الا منـــــذ عام ١٩١٧ وان جمهورية الصين الشعبية لـــم تقم الا منذ عـــام ١٩٤٩ وهكذا فانه ليس لدى العالم حتى الآن خبرة سوى ٦٠ عاما مع نظامين اجتماعيين حديثين (مثل الرأســـمالية والاشتراكية الدكتاتورية) واقل من ٣٠ عاما خبرة اذا اعتبرنا الصين كنظـــام اجتماعى مميز خاص به · أن هاتين الفترتين اقصر من ان يستخدما كحكم لتحديد اى الصراعات بينها أساسى وايها غير أساسى ·

وقد ظن بعض المثقفين انهم يتبينون مصادر اخرى للصراع الأساسى بين الدول ــ مثل الصراع حول الاقاليم ذات الاهمية الاستراتيجية الرئيسية او الأهمية الاقتصادية او حول مسائل الجنسية والدين واللغة والجنس او التقليد الثقـــافى أو حول الخلاف بين الديموقراطية والدكتاتورية كأشكال للحكومـــات . على أن كثيرا من الصراعات من هذا النوع لم تتسم بصفة الدوام بين اى دولتيـــن

بعينهما • وكذلك فان الاحلاف والمسائل موضوع النزاع تتغير من حين لآخر او تنتهى اهميتها او لا تعود مرة ثانية •

ولكن الصراعات الاساسية لا تحتاج الى تدمير احد الخصمين او كليهما ؛ ولكنقد يفعل ذلك صراع مؤقت او عرض اذا تصاعد الى مستوى عال من العنف • وهذا الاحتمال السيء يؤدى الى السؤال الثالث •

هل هو قابل للتحكم فيه ام لا ؟

اى الصراعات هى التى تظل عند نقطة سيطرة الأطراف وتقف عند حد الاقتراب من الدمار المتحكم فيه أو غير القابل للتحكم فيه ، واى الصراعات هى التى تحول الخصوم أنفسهم الى اسرى لسلسلة من الأحداث التى لم يتنبأ بها احد منهم او يمكن أن يتحكم فيها ؟ ان الحرب الكورية (١٩٥٠ ــ ١٩٥٢) والحرب الفيتنامية (١٩٦٥ ــ ١٩٧٢) ظلتا حربين تحت التحكم ، فيما يتعلق بالدول العظمى ، بمعنى انه فى كل مرحلة منهما ظلت الولايات المتحدة والصين والاتحاد السوفيتى متحكمة فى اعمالها • وكانت حكوماتها تستطيع ان تقرر هل تتدخل ام لا ، واذا كان الآمر كذلك ، بأى انواع وكميات من امدادات والقوات وأنواع الأسلحة ، ومتى تزيد أو تنقص التزاماتها وما هى التسويات السياسية والعسكرية التى تقبلها عند نهاية تدخلها •

وبالمقارنة كان نشوب الحرب العالمية الاولى غير قابلة للتحكم فيها • فقد كانت النمسا وروسيا وفرنسا والمانيا فى سباق مع بعضها البعض فى محاولة لتعبئة وتوزيع قواتها بأقصى سرعة ممكنة • لقد كانت كل من هذه الدول رأت التسلح ثم التعبئة فى الدول المنافسة لها كشىء لا يرحم ولا بد من مواجهته أو التفوق عليه مهما كلف الثمن • وقد فقدت كلها جماعات وفرادى ، السيطرة على الاحداث والتحكم فى مصيرها نفسه •

والقول بأن الصراع (أساسى) هو أذن قول شىء عن وقوعه المتوقع وتكراره فى المستقبل ، وربما عن مدى وعمق التغيرات الكيانية اللازمة عند أحد الاطراف أو الدول ، هذا اذا أريد لهذا الصراع ان يلغى • وبالمقارنة ، فان القول عن صراع بأنه ((غير قابل للتحكم فيه)) هو قول شىء عن العقبات المتوقعة فى طريق تحديده وعن خطر تصاعده المدمر الذى لا يمكن التحكم فيه •

ان الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى والصين تستطيع جميعها ان تعيش بأى صراعات اساسية قد تكمن فى نظمها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية طالما انها تستطيع الاحتفاظ بها داخل حدود يمكن السيطرة عليها • ان العلاقات الدبلوماسية و ((الخطوط الساخنة)) للاتصالات السلكية واللاسلكية بين

رؤساء الحكومات والاتفاقيات الخاصة بالحظر الجزئى على تجارب الأسلحة النووية والاتفاقيات الخاصة التى تقضى بالاخطار مسبقا عن المناورات الحربية واتفاقيات التفتيش ضد الهجوم المفاجىء وانتهاكات حظر التجارب ـ كل هذه الاجراءات قد اتخذت بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى (ولكن بالنسبة للصين اقل من ذلك بكثير) وذلك حتى يتسنى جعل التصاعد غير القابل للسيطرة من اسباب الريبة والشكوك والعمليات العدائية بين الدول العظمى اقل احتمالا ٠

ان اسئلتنا الكبيرة الثلاثة عن الأبعاد الرئيسية الثلاثة للصراعات ـ هل هى ذات نهاية مرة أو بقاء مشترك ، أساسية ام عرضية ، هل يمكن التحكم فيها ام لا ؟ ـ قد عولجت بميزات خارجية قليلة ٠ ولكن ما هى الطبيعة الداخلية لعلاقات الصراع ؟؟ وما هى انواع الصراع التى نستكشفها هنا وما هى مصادرها المتوقعة وآثارها فى السياسة الدولية ؟ ٠

ثلاثة انواع رئيسية للصراع

ايا كان نوع الصراع الذى تخوضه دولة فانها تجد نفسها تحتفظ بقدر من السيطرة لا على سلوكها هى فحسب ، وانما على سلوك خصمها ايضا ، ويمكن التفرقة بين الانواع المختلفة من الصراعات طبقا لما تنطوى عليه من مختلف مقادير وانماط ضبط النفس والسيطرة المتبادلة ٠ وحسب المصطلحات التى اقترحها اناتول رابوبورت صاحب نظريات الالعاب ، يمكن ان نطلق عليه اهم ثلاثة انواع من الصراعات اصطلاحات « معارك » و « العاب » و « مناقشات » ٠ ولكل نوع منها ظروف خلفية مختلفة ونمط مختلف من التنبؤ وتوزيع مختلف للنتائج التى يمكن التنبؤ بها ٠

ان بعض العلاقات المحتملة بين نواحى الصراع الثلاث الآنفة الذكر وانواع الصراع الثلاثة التى سيجرى شرحها فيما يلى موجزها فى الجدول رقم ١٢ ٠

جدول ١٢ : جدول يبين انماط الصراعات وجوانبها

جــوانب الصراع			
١ ــ امكانية البقاء المشترك	٢ ــ جوانب الصراع عرضى	٣ ــ قابل للمعالجة	٤ ــ الجانب المركب
		نعم (م)	ســام
	نعم « أ »	لا (م)	ســام
نعم		نعم (م)	ســام
			ســام
	لا « أ » « أساسى »	لا (م)	ســام
		نعم (م)	ســام
	نعم « أ »	لا (م)	ســام
		نعم (م)	ســام
	لا « أ »	لا (م)	

أنماط الصراع

حروب	لعبات	مناقشات
	« بـــويبنلو » (١٩٦٧) و « ماياجويز » (١٩٧٣) حوادث	« العالم الأول » « العالم الثالث » نظام اقتصادى جـــديد (١٩٧٤ —)
نظريات ســباق التسلح (ل٠ف٠ ريتشاردسون)		الحـــروب العربية — الاسرائيليــــة ١٩٤٨ ، ١٩٥٦ ، ١٩٦٧ ، ١٩٧٣
الحروب الهندية الأمريكية القرنان الثـــامن عشر والتاسع عشر الحرب العالميـــة الأولى	ديـــن ايتشيســـــون : « ســياسة عش ودع غيــــرك يعيش » هـ٠ كيسنجر (١٩٧٢ — ٧٧) نظريات التعايش السلمى السوفيتية بعد عام ١٩٤٧	نظريات التقــــارب فى الفــكر (توينبى ، تلهارد)
الحرب الأهلية الأمريكية ١٨٦١ — ١٨٦٥	أمريكا ازاء حكومة اربتر، جواتيمالا ، ١٩٥٤	
حروب المهدى حروب المهدى الســودان (١٨٨٥ — ١٨٩٨)		
الحرب العالمية الثانيــة	آراء لينين ومـــــاو فى « الحـــرب الثـــورية » ١٩١٧ ، ١٩٤٩	المسيحية — الاسلام بعد نهاية الحروب الصليبية (١٢٠٥) حروب البروتســــتانت — الكاثوليك (القــــرن السادس عشر)

(قتـــال) يعتبر انواعا شبه اوتوماتيكية للصراع :

في نوع ((الحرب)) من الصراع يهبط ضبط النفس والسيطرة المتبادلة بسرعة ، لان تصرفات كل ممثـــل تفيـــد كنقاط بـــدء بالنسبة الى تصرفات مضــــــادة من جانب الممثل الآخر . فعندما يتقابل كلب مع كلب آخـــر في الشــــارع ، فقـــد يزمجر في وجهـــة فيرد عليـــه آخر مزمجرا . يزمجـــر الكلب الاول بصوت اعلى فاذا بالثـــانى يزمجر باعلى منـــه . يعوى الكلب الاول وكذلك يفعل الثـــانى . وفي التتابع التقليدى للتصاعد يتوالى التكشير عن الانيـــاب والعـــواء وينتهى الامـــر بقتالهما . وعندما يبـــدأ ولـــدان صغيران العراك في فنـــاء مدرســـة ، فقـــد يمران بهذه المراحل المتعاقبة : يؤدى تبـــادل نظرات التعنيف الى تبـــادل ألفاظ وحركات التعبير ثـــم الى التهديدات والتحديـــات المضـــادة الى أن ينتبـــادل الطرفـــان الضربـــات وتنشب معركة كاملة .

ومـــا يمـــكن ان نشـــــاهده بين الكـــلاب يمـــكن ان يلاحظ ايضـــا في ســـباقات الاســـلحة بين الشـــعوب وفي مواجهـــات القـــوى الكبرى . يصبح مستوى شـــعب من الاسلحة او السباق على التسليح خط الاساس لشعب فان يقرر ان يتجـــاوزه بهامش « أمـــان « وليـــكن ١٠ في المائـــة . حتى يشـــــعر بالامن . ولكن هـــــذا المستوى الجديد الاعلى من الاسلحة عنـــد الشعب الثـــانى يصبح الآن أســـاس الحسابات المتعلقة بأمن الاول الـــــذى يحاول من ناحيته أن يكون انفاقه على الاسلحة اعلى منه عند منافسة بنسبة ١٠ في المائة أو أكثر . فيحاول منافسة بدوره أن يرفع هذا المبلغ بنسبة ١٠ في المـــــائة وهـــــكذا في تتـــــابع الاســـــلحة المتصـــــــاعدة الى أن يصـــــاب أحـــــد المتنافســـين أو كلاهمـــــا بالانهـــــاك : أو الى تنشب الحرب ، أو الى أن يحدث في آخر لحظة أن يغير الجانبين سياستهما .

وفي مواجهة بين القوى الكبرى تحاول كل قوة ان تزايد على الأخرى بقـــدر ما في التزامها الشفوى أو المادى في كل مرحلة . والمذكرات المعتدلة في لهجتهـــا تتلوها مذكرات عنيفة . والمذكرات تتلوها تحركات السفن والقوات او الطائرات في مواقع قريبة من مسرح الشجار ، وربما يجرى علنـــــا تسريب أو انزال بعض القوات . تطلق النيران فيرد الجانب الآخر بأكثر منها . وتتدخل الشـــــعوب المتحالفة في الصورة . وهكذا . عن طريق التهديد والتهديد المضاد . والثأر والـــرد الثأرى المضاد ، الى أن يصـــل الطرفان الى حافة الحرب الشاملة ـــ وربما يعبران الخط الفاصل .

ان عمليات الصراع من نوع ((القتال)) تميل في جوهرها الى ان تـــــكون اوتوماتيكية وبغير تفكير ، مثلها مثل حركات المبتدئين في لعبة الشطرنج ممـــن يعرفون عن اللعبة أقل مما يتراءى لهم . كل حركة من جانبهم تبدو لهم واضـــحة

ولازمة • فى الحقيقة غالبا ما تكون هذه العمليات من السرعة بحيث يصعب تمييزها عما هو انعكاس لها ، فهى اشبه بحركات اثنين من لاعبى الشطرنج متمرنين ولكنهما ليسا ماهرين جدا فى اللعبة • وهكذا فالساسة الذين يبداون بقولهم ((ليس امامنا من بديل)) ، والشعوب التى ينبغى ان تتعلم من التجربة درسا افضل (وهو ما يفعله حتى المبتدئون من هواة اللعبة) يجدون انفسهم وقد تورطوا فيما يبدو (لهم) عادة انه عمليات صراع لا سبيل الى تجنبها ، تجعل الهروب من تطور تعاقب الاحداث اشد صعوبة بصورة متزايدة •

والصراع من هذا الطراز يشبه فى طابعه الأوتوماتيكى عملية من عمليات الطبيعة ، وعلى غرار عمليات طبيعية معينة ، يمكن وصفه بمعادلتين تفاضليتين ، (ان النماذج الرياضية لامثال عمليات الصراع هذه قد رادها عدة من علماء الطبيعة والاجتماع بما فيهم لويس ف • ريتشارسون ، نيكولاس راشفسكى ، ج • ف • جوس ، اناتول رابوبورت وكينيث بولدنج) • وتتضمن امثال هذه المعادلات نوعين من الحدود • فبعض الحدود تمثل عمليات التعجيل ــ اى انها تمثل بالحركات كل ممثل من آثار تعجل بحركات الآخر ، وربما ايضا ما يكون لها من آثار على خطواته هو نفسه •• غير ان النوع الاخر يمثل الاثار المضادة التى تحدث ايضا فى كثير من مواقف الصراع • هذه هى الآثار المعطلة او **التى تقلل من السرعة** ، وهى بنوع خاص الآثار التى تؤدى الى زيادة كبح النفس من جانب كل ممثل عندما يتصاعد الصراع • مثل هذه الآثار تتضمن آثار التكاليف (السياسية او الاقتصادية) الآخذة فى الارتفاع ، او ازدياد المعارضة فى الداخل او تناقص الموارد ــ او آثار عدة من هذه سويا •

فى ظل ظروف معينة سوف تغلب العوامل التى تعمل على التعجيل ، ويبين نموذج رياضى مناسب أن الصراع يتصاعد الى غير ما حد الى ان يقع دمار او انهيار احد الممثلين او جزء من النظام • بل وقد يبين السرعة التى يتم بها الى مثل حد او نقطة الانهيار هذه • لكن فى ظل ظروف اخرى قد تزيد عوامل ضبط النفس بأسرع من العوامل التى تعجل بالصراع • وفى تلك الحالة تبطىء سرعة تصاعد الصراع وقد يهدأ نظام الصراع بأكمله فى نقطة ما تقصر عن انهيار النظام وتدمير اى من الطرفين المتنازعين • فى ظل أمثال هذه الظروف سوف تبين النماذج الرياضية متى وكيف تواصل الانواع المتنافسة من الخنافس فى نفس الحقيبة من الدقيق ، أن تتعايش الى غير ما نهاية ، او متى وكيف تبقى الأديان ذات الرسالات او الايديولوجيات المتنافسة فى حالة مستقرة من التعايش التنافسى ، او متى وكيف يمكن أن تتوقف مستويات الانفاق على سباق الأسلحة • اذا أمكن ان نكتشف وندعم مثل هذه العوامل التى تؤدى الى مزيد من ضبط النفس من جانب الدول المتنافسة ، فحتى الاوتومية الخالية من العقل والتى تتميز بها الصراعات من نوع ((القتال)) ، يمكن ان تتيح لنا بعضا من الأمل •

الألعاب : الصراعات المعقولة التى تتميز بالاستراتيجية :

وثمة نوع من الصراع مختلف جدا يشبه الألعاب التى يحتفظ فيهـــا كل لاعب بسيطرة معقولة على حركاته ، وان لم تكن بالضرورة على نتائجها ، ويمكن ان تطبق عليها بعض نماذج نظرية الالعاب · ان الكثير من الألعاب التى تمارسها على سبيل التسلية مثل البوكر والبريدج او الشطرنج ، تنطوى على شبه مجـــرد ومحدود بمواقف الصراع فى الحياة الحقيقية ــ كالمنافسة التجارية والسياســة والدبلوماسية والحرب ، ويرجع الى بعض هذا السبب أن الناس وجدوا أن مثل هذه الألعاب طريفة وجذابة · فى اى لعبة من هذه يكون لدى كل لاعب مجـــال من المنـــافع التى يفضـــل طبقا لها بعض النتائج طالما يمارس اللعبة على الاطلاق ، ولـــديه أيضـــا مجـــال من الاختبارات بين الحركات المختلفـــة التى يمكن أن يقوم بها ، ولديه مجموعة من التوقعات بصدد النتيجة التى يحتمل ان تترتب على اية حركة قد يختارها ·

وعلى ذلك فلاجادة اللعب يجب على اللاعب أن يعـــرف ما يريد ، وان يعـــلم ما يعرف ، وان يعرف ما يستطيع ومالا يستطيع ان يعمله · ان معرفته بالنتيجـــة غير مؤكدة اذ انه فى لعبة مثالية تتوقف نتائج الحركة التى يقوم بها على الحركة التى يقوم بها خصمه · وهو غالبا مالا يعرف تماما ما يمكن خصمه) ، ولا ما قد يقرر أو يعتزم خصمه ان يعمله (نواياه) · ازاء مثل عدم التأكد هـــــذا يجب على كل لاعب ان يبنى حركاته على أقرب تخمين او تقدير من جانبه الى المعقول · فيقال ان نابليون نصح قواده بأن يبنوا حركاتهم العسكرية على تقديراتهم لقـــــدرات خصومهم بدلا من ان يبنوها على تقديراتهم عن نواياهم وهى تقديرات اقل مدعـــاة الى الاطمئنان اليها حتما ·

طالما ((يلعب المباراة)) فان كل لاعب يلعب ليكسب او على الأقـــــل حتى لا يخسر · ولهذا الغرض يختار حركاته المفردة والتعاقب القصير للحركات ، وهو ما ندعوه **التكتيك** ، وكذلك انماطه الأطول وتعاقبات الحركات ممـــا ندعـــــوه **الاستراتيجية** والتى يدخل فيها التكتيك باعتباره من مكوناتها · واذن فأقـــرب استراتيجية الى المعقول يتبعها لاعب هى الاستراتيجية الاقرب احتمالا بأن تمنـــع نتيجة رابحة له ، أو ــ بمعيار آخر ــ الاستراتيجية الأكثر احتمالا بأن تمنـــع نتيجة خاسرة · فاذا امكن التعبير عن المكاسب بحدود كمية ، فعندئذ تـــكون أقرب استراتيجية الى المعقول هى تلك التى ترفع المكاسب الصافية الى الحــــد الأقصى وتقلل الخسائر الصافية الى أوفى حده ·

مباريات المجموع الصغرى او مباريات المجموع الثابته :

يطلق على فئة كبيرة من الألعاب اصطلاح مباريات المجموع الصـــــغرى او بتعبير اعم ، مباريات المجموع الثابتة · فى مباراة المجموع الصغرى يكون مجموع

المكاسب لجميع اللاعبين يســاوى صفرا ، بحيث أن أى شىء يكسـبه لاعب يتعين ان يخســر لاعب آخر أو لاعبون آخرون • (الشطرنج والبريدج والبوكر امثلة عن مباريات المجموع الصغرى) •

وفى مباراة المجموع الثابته يحدد مجموع جميع المـكاسب بعدد ما ليس من الضرورى أن يكون صفرا ولكن يمكن ان يكون أكبر او اصغر • (ولكن هنــا أيضا فان ارباح أى لاعب يجب حتما ان تكون على حساب اللاعبين الآخرين) ، وعلى ذلك فمباريات المجموع الصغرى عبارة عن فئة فرعية من مباريات المجموع الثابته ، ولكن يمكن تحويل أى مباراة من النوع الثانى الى مباراة من النوع الاول عن طريق تغيير رياضى بسيط لأن جميع الخواص الرياضية الهامة التى تتصف بها مبــاريات المجموع الصغرى وغيرها من مباريات المجموع الثابتة متماثلة • وعلى ذلك فمـا نقوله هنا عن مباريات المجموع الصغرى ينطبق على مباريات المجموع الثابتة •

تمثل كل مباراة مجموع صغرى نمطا من صراع خالص لا هوادة فيه • ففى المباراة بين اثنين فان ما يكسبه لاعب يخسره الآخر • وكل ما هو فى صالح واحد هو بالضرورة فى غير صالح خصمه ، وأى شىء يكون بأى حال فى صالح الخصم يجب حتما ان يكون بنفس القدر فى غير صالح اللاعب الآخر • ومنذ اكثر من اربعة قــرون قبـل اكتشــاف نظرية اللعبــة استخدم نيكولو مكيافللى هــذا النمط كنموذج يمثل فــكرته عن القــوة عندما كتب أن الامير الذى يزيد من قوة آخــر . يقلل من قوته هو (١) •

ان فكرة عن القوة وعن المنافسة بين الدول وخاصة بين الايديولوجيــات المتنافسة ، شبيهة بمجموع المباراة الصغرى ، عاشت فى بعض الصور الأساسية من تفكير الحرب الباردة فى وقتنا • فواضح أن ما فى صالح الغرب أو حتى يمــكن أن يلقى القبول من جانبه (قد يفكر كذلك بعض المؤمنين الحقيقيين فى الشيوعية النضالية فى بكين أو موسكو) يجب أن يكون فى غير صالح الشيوعية ، وان كل ما هو فى صالح الشيوعية أو حتى مقبول من جانبها — فحسب (هكذا يرى بعض اصحابنا من ((المؤمنين الحقيقيين)) فى المعسكر النضالى المعادى للشيوعيــة) يجب بصفة آلية أن يسىء الى الولايات المتحدة • واية خطوة نحو الاعتدال ، أو التسوية المتبادلة او التفاهم بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى ، أو بين الولايات المتحدة والصين الشيوعية فى أى موضوع ، ليست سوى تهدئة عديمــة الجدوى لعدو شجع لا يقنع ، وتضحية تنطوى علا الخيانة ، بمصلحة الشعب ، هكذا يظن ((المؤمنون الحقيقيون)) فى الحرب الباردة •

---

(١) Niccolò Machiavelli : The Prince and the Piscures.
(نيويورك : المكتبة العصرية ، ١٩٤٠) ، ص ١٤ •

الاستراتيجية والحلول : ان عالم مباريات المجموع الصفرى التى يشترك فى الواحدة منها شخصان ، عالم قاس وغير مسالم • فطبقا لفروض هذا النموذج لا يمكن ابدا ان تتغير دوافع اللاعبين ولا مصلحتهم ، ويجب أن يظلوا متعادين الى الأبد • ولكن حتى هذا العالم تحكمه العقلية • يستطيع كل لاعب أن يحسب متوسط فرص خسارته أو كسبه فى الأجل الطويل ، فى تعاقب ألعاب متكررة من نفس المباراة • ويستطيع ان يحسب افضل استراتيجية يمكن ان يطبقها بالنسبة الى هذا الأجل الطويل ، ويستطيع أن يفترض طالما لا تتوافر له معلومات خاصة عن العكس ، ان هذه الاستراتيجية سوف تتيح له افضل الفرص فى لقاء واحد • ويستطيع خصمه ايضا ان يحسب افضل استراتيجية يتبعها هو ، كما يستطيع كل لاعب أن يحسب أفضل استراتيجية عند خصمه •

اذا كانت هناك أفضل استراتيجية ، لكل لاعب واذا استطاع كلا اللاعبين أن يستخدما أفضل استراتيجياتهما ، فعندئذ نقول أن المباراة لها ((حل ثابت)) وبهذا تكون الحلول فئة فرعية من الاستراتيجيات التى لا يمكن لأى لاعب ان يتوقع القدرة على الخروج عنها دون خسارة ، والتى تؤدى بناء على ذلك ، الى نتائج ثابتة بالنسبة الى جميع اللاعبين العاقلين •

والحقيقة انه كثيرا ما يحدث ان تمثل هذه المباراة أكثر من حل واحد كهذا برغم أن عدد الحلول الثابتة يحتمل ان يكون صغيرا • على خلاف هذا طبعا ، هناك فى العادة استراتيجيات غبيه كثيرة جدا ، ولكن مما يستأهل ان نضعه فى أذهاننا انه قد يكون هناك أكثر من طريقة واحدة ، ثابتة وقابلة للنجاح ، فى معالجة موقف صراع • لو نظرنا الى السياسة الدولية ، وبصفة أعم الى العلاقات البشرية على انها طريق لمعالجة صراع يمكن ان ينشب ، فعندئذ قد يوحى لنا هذا الخط من التفكير بأنه يمكن ان تكون هناك طرق متعددة لمعالجتها • وبينما من الخطأ أن نتخذ موقف اللامبالاة من جميع السياسات الخارجية الممكنة او طرق الحياة ، فلعل من الواقعى أن نعترف بأن سياسات بديلة قلائل ، بل وطرقا للحياة يحتمل ان تكون ثابتة وحية حتى وان كان من المحتمل ان ننظر الى سياسة واحدة كهذه وطريقة للحياة على انها الأكثر اتفاقا مع قيمنا وتقاليدنا • هذه المعانى التى تنطوى عليها نظرية مباريات الالعاب تحبذ التعددية ولكنها لا تحبذ عدم المبالاة • انها توحى بأننا نستطيع ان نختار مجموعة من استراتيجيات او سياسات بديلة للحياة ونقوم على اسس معقولة تماما ، ولكنها توحى بأن اختيارنا النهائى بينها قد يتعين أحيانا ان يكون مبنيا على أسس خلاف المعقولية الصرفة •

فكرة اصغر الكبريات : حتى فى موقف صراع لا يقبل المصالحة ويكون على نمط مباراة المجموع الصفرى بين شخصين ، فقد يكون هناك حل ثابت أو عدة حلول ثابتة تشبه من بعض النواحى ما يعادل حلا وسطا يمكن ان يتم بطريقة

اوتوماتيكية · عذه عى ما تدعى حلول **أصغر الكبريات** (او **أكبر الصغار**) · اذا افترض لاعب أن خصمه سوف يكون بارعا بقدر الامكان وسوف يلعب ليكسب أكثر مما يقدر عليه ، فعندئذ غالبا ما تكون عند لاعبنا هذا استراتيجية ما (يستطيع ان يحسبها او يكتشفها) يتمكن بها ان يقلل خسائره الى أدنى حد ممكن ، وبهذا يقلل مكاسب خصمه · وحيث توجد مثل هذه الاستراتيجية فهى تتطلب فى العادة من لاعبنا ان يقبل أقل المكاسب المتاحة (« الحد الأدنى » من « الحدود القصوى ») او اصغر خسارة نسبيا (ومن ثم نمن وجهة نظره ، الكسب الأقصى النسبى) من بين جميع الخسائر المكنة (« الحدود الدنيا » عنده) ·

ويتفق اصحاب نظريات اللعب على انه فى مواقف مباريات الصراع الذى لا يقبل المصالحة ، تكون أكثر استراتيجية أمانا للاعب عى ان يختار اما ((الأفضل من بين اسوأ)) النتائج المكنة او ((الأسوأ من بين افضلها)) · وعم يقولون انه حيث يفعل اللاعب هذا بصفة مستمرة ، فان توزيع كافة النتائج التى يمكن أن تسفر عنها المباراة ، يجب ان يتضمن على الاقل نقطة يتلاقى فيها الحد الادنى أكبر مكاسب لاعب مع الحد الأقصى من ادنى خسائر خصمه ، وعى نقطة يمكن الوصول اليها بمثل هذه الاستراتيجية · وحتى فى المواقف التى لا وجود فيها لمثل نقطة الالتقاء هذه ، فكثيرا ما يستطيع لاعب ان يفرض على خصمه معادل حل اصغر الكبريات اذا اتبع استراتيجية ((مختلطة)) محسوبة بطريقة مناسبه · فلو كان عنده مثلا ، اربع استراتيجيات يمكن اتباعها ، فقد يكون من صالحه أن يختار بطريقة عشوائية بين استراتيجياته ، الاولى والثالثة بالتعاقب ، ولكن يلعب الاستراتيجية رقم ١ مرتين بمثل ما يلعب رقم ٣ ، ولا يلعب الاستراتيجيتين ٢ ، ٤ على الاطلاق · (لا يمكن متابعة عذه الحجج عنا بما يتجاوز التلميحات الخام والمعالم العامة الموجزة للغاية التى عرضناها ، ولكن يمكن دراستها بتفصيل فى مؤلفات أصحاب نظريات الالعاب مثل مارتن شوبيك واناتول رابوبورت ودنكان ليوس ، وبالطبع فى المؤلف الشهير ((نظرية الألعاب والسلوك الاقتصادى)) الذى وضعه جون فون نيومان واوسكار مورجنشترن) ·

ولما كانت هذه الاستراتيجية السديدة التى ناقشناها (والتى تشبه أساليب معينة من السياسة الخارجية ، تفترض أن الخصم سوف يبذل اقصى ما فى وسعه ، لهذا فهى ليست باستراتيجية عجومية ، اذ لا يمكنها أن تستفيد من اى خطأ قد يمكن أن يقع فيه · والأحرى أنها دفاعية فى جوهرها · انها تحمى لاعبا من ركوب مخاطر لا لزوم لها ، وتمثل افضل ما يمكن أن يعمله فى الأجل الطويل ضد الخصم الذى يلعب بأحسن ما يقدر عليه · انها استراتيجية من الحزم والحذر لا تلين ، تتيح للاعب الذى يستخدمها أفضل كسب ممكن ضد أى خصم فى مثل مهارته ، بل وقد تتعب الخصم بمرور الزمن · ولكنها لا يمكن ان تعد بنصر سريع · وباعتبارها سياسة ((عدم كسب)) (كما تدعى) فمن المحتمل اذا استخدمت فى العلاقات الدولية ألا يرضى عنها القواد الذين يؤشرون العمل ، أو المدنيين الذين

يملؤهم الضجر • لكن بصرف النظر عن عدم شعبية هـــذه السياسة ، وبرغم ان السياسة الخارجية الفعلية يصنعها السياسيون والدبلوماسيون بوجـــه خاص ولا يصنعها اصحاب نظريات مباريات الألعاب ، الا انه ربما نلمح فى ((سياســة الاحتواء)) التى تنتهجها الولايات المتحدة ازاء الاتحاد السوفييتى ، شيئا مـن اسـلوب فكر سياسة اصغر الكبريات • هذه السياســة التى كان جورج كينــان اول من رسمها فى عامى ١٩٤٦ ، ١٩٤٧ واصلتها الولايات المتحدة خـــلال معظم العقدين التاليين •

مباريات المجموع المتغيرة (الدافع المختلط)

لكن ليست جميع مواقف الصراع ، سواء فى الحياة اليومية أو السياسة الدولية تشبه مباريات المجموع الصفرى ، ولكنها فى اغلب الاحيان تشبه **مباريات المجموع المتميزة** • وهذه هى المباريات التى لا يقتصر فيها الامر على ان يكسب اللاعبون شيئا من بعضهم بعضا بطريقة تنافسية ، ولكنهم يعملون بصفتهم الجماعية على ان يكسبوا أو يخسروا شيئا من لاعب **اضافى** (أو ثانوى) (يمكن ان نعتبره ((صاحب البنك)) فى الألعاب ، او انه « الواقع » او « الطبيعة » فى مواقف معينة فى الحياة الحقيقية) • وعلى ذلك فأمثال هذه المباريات هى **مباريات الدافع المختلط** بالنسبة الى اللاعبين الأصليين • انها بالنسبة الى هؤلاء اللاعبين مباريات منافسة نظرا لان هؤلاء المتسابقين يحاولون أن يكسبوا من بعضهم بعضا ، ولكنها ايضا مباريات تنسيق من ناحية أن هؤلاء اللاعبين سوف يكسبون او يخسرون سويا ايضا حسب قدرتهم على تنسيق حركاتهم طبقا لمصالحهم المشتركة ضد ((الطبيعة)) أو ((البنك)) •

من وجهة النظر هذه فان ثورة تنشب فى سجن هى شبيهة بلعبة يتنافس فيها السجناء الذين يحاولون الهرب ، مع حراسهم الذين يحاولون منعهم من الهرب • وقد ينجح عدد قليل من الحراس فى هذا طالما يتمكنون من منع السجناء وهم أكثر منهم عددا فى العادة ، من تنسيق جهودهم • وفى الوقت نفسه قد تكون الثورة شبيهة بلعبة تنسيق بين السجناء نظرا لانه يتعين عليهم أن ينسقوا حركاتهم ضد الحراس القلائل حتى يتسنى التغلب عليهم • وقد تشبه ايضا لعبة تنافس بين السجناء نظرا لأن بعضهم يجوز أن ينحازوا الى جانب الحراس ضد زملائهم كى ينالوا معاملة تفضيلية وهم فى السجن ، او يظفروا بخفض فى مدة العقوبة لانهم كانوا اول سجناء يلقون بتأييدهم الى جانب الحراس • وهكذا شبهها العام فى العلاقات الدولية ، ببعض مشكلات الامن الجماعى وتكوين المخالفات الدولية ضد قوة عظمى •

التهديدات المتبادلة : لعبة ((الكتكوت))

جرت دراسة بمزيد من الاتقان نوعا لنماذج معينة من مواقف الصراع حيث تختلط الدوافع ، منها المباراة التى تدعى « الكتكوت » • فى هذه المباراة (التى تقول الأساطير ان جماعات من المراهقين من أهل الساحل الغربى فى الولايات المتحدة ، لعبوها فى وقت ما فى الماضى) يقود لاعبان سياراتهما فى طريق منفرد بسرعة عالية كل منهما نحو الآخر مباشرة . وأول لاعب ينحرف عن وسط الطريق كى يتفادى صداما ، يطلق عليه اسم « كتكوت » ويعتبر فى نظر بقية العصابة كأنه ارتكب فضيحة . أما اللاعب الأكثر تهورا الذى رفض أن ينحرف فهو موضع اعجابهم كبطل ، طبقا

لمـــا ذكره بعض المعلقين تحمل هذه المباراة شبها أكثر من أن يكون عرضيا .
بالمواجهات المباشرة فى السياسة العالمية بين قوى كبرى كل منهـــا تهـــــدد
بشن حرب نووية) .

لو أمعنا النظر فى لعبة « الكتكوت » لوجدنا انها تكشـــف عن النمـــط
الرياضى الكامن وراءها . فلكل اللاعبين أن يختار بين استراتيجيتين : فيمكن
أن يتعاون مع اللاعب الآخر بأن ينحرفا حتى يتفادى صداما معرضا نفســـه
لخطر الفضيحة اذا انحرف قبل أن ينحرف خصمه) ، وأما أن « ينســـحب » مـــن
مصلحتهما المشتركة فى البقاء على قيـــد الحياة ويقود سيارته مباشرة امـــا الى
موته ؛ اذا فعل خصمه الشىء نفسه ، واما الى نصر يحـــرزه اذا استلسم
خصمه . يؤدى كل لاعب « حركتــــه » بأن يقرر لنفســـــه ما اذا كان يتعـــاون أو
ينسحب ، ولكن نتيجة حركته لا تتوقف على قراره فحســـب . ولكـــن ايضــــا
ــ وبصفة قاطعة ــ على القرار الذى يتخذه خصمه .

فى النموذج العام الذى يمثل هذا الموقف أربع نتائج يمكن ان تتحـــقق .
أولا ، قـــد « يتعاون » كلا اللاعبين بالانحراف فى نفس الوقت الواحـــد بحيث
لا يعاب تصرف كل منها . أو قد « ينسحبان » من مصلحتهما المشتركـــة ويقودان
سيارتيهما نحو صدام أكبر الاحتمال أن يقتلهما أو يصيبهما بالشلل . او يمكن
أن يتعاون اللاعب (أ) بالانحراف بينما يسوق (ب) سيارته الى الامام مباشرة ،
وعندئذ يكون (أ) موضع التعبير من الجماعة بينما يكـــون (ب) موضـــــع
أعجابهم . أو أخيرا قد « ينسحب » (أ) ويقود سيارته الى الامام ، بينما يتعاون
(ب) بأن ينحرف ، وعندئذ يظفر (أ) بالاعجاب بينما يتعرض (ب) للازدراء .

عندما يقود اللاعبان سيارتيهما بسرعة كبيرة فى مباراة « الكتكوت » فليس
لدى اى منهما وقت كى يرى ما يوشك خصمه أن يفعله ، وعلى كل أن يختـــار
افضل استراتيجية عنده مقدما ويتصرف وفقا لها . ولكن مـــا هى افضـــــل
استراتيجية بالنسبة الى اللاعب (أ) مثلا ؟ فى لعبة « الكتكوت » واضـــــح
انهـــا C اذ أنه فى أفضل الأحوال لو تعاون (ب) أيضـــا فسوف يخرج
سليما ولا يحمل عارا ، وفى اسوأ الأحوال اذا انسحب (ب) فان (أ) سوف
يبقى على قيد الحياة حتى ولو هبطت مكانته فى العصابة ، وينطبق الشىء ذاته
بالطبع على (ب) .

فأفضل الاستراتيجية هى أيضا أن يختار التعاون ، بغض النظر عمـــا
يختاره خصمه طالمـــا لا يمكن التنبؤ بهذا الاختيار بما يدعو الاطمئنـــــان .
واختيـــار C هـــذا لكل لاعب معقول بصورة لا غموض فيها طالمـــا أن
عقوبة كل منهم عن الانسحاب المزدوج DD وهى هنـــا القتـــل أو
التشويه ــ أكبر من عار وحزن .

الذى يتعاون وهو مطمئن الى الآخر ، بينما ينسحب خصمه فى انتصار CD ، وطالما العقوبة عن النتيجة DD هى ايضا أكبر من الاغراء الذى يجعل كل لاعب يخدع خصمه بأن يجعله يتعاون بينما هو نفسه ينسحب بحيث يحقق عار خصمه وانتصاره هو . بالطبع . قد يكون المراهقون أحيانا أقل اهتداء بالعقل من اصحاب نظريات الألعاب . ولكن حكم نظرية اللعبة واضح . فطالما الكسب السلبى من النتيجة DD اكبر من اى كسب ايجابى أو سلبى مترتب على النتائج CD او DC ، فالمباراة مبارة « كتكوت » حقيقية . ولها حل معقول عو بالنسبة الى كل لاعب أن يؤثر التعاون على الصراع . وحيث المواجهة فى السياسة الدولية تشبه مباراة « الكتكوت » هذه ، فعلى الساسة المعقولين أن يختاروا طبقا للنظرية ، سياسة « الخط الناعم » بدلا من سياسة « الخط الصاب » .

التهديدات والوعود : ورطة « السجناء » . لكن لسوء الحظ كثيرا ما يكون نموزج مباراة آخر من الصراع الدولى ، اكثر واقعية ، وهذا هو مباراة « ورطة السجناء » . حسب القصة التى تصاحب تفسيرا لها ، حدث ذات مرة أن كان سجينان لم يكن فى امكان مأمور السجن أن يشنقهما بغير اعتراف اختيارى من واحد منهما على الأقل . وبناء على ذلك استدعى سجينا وعرض عليه حريته ومبلغا من المال اذا اعترف قبل السجين الثانى بيوم على الأقل . حتى يتسنى اعداد قرار العفو وبحيث يمكن شنق السجين الآخر . لكن قيل للسجين الأول أنه اذا اعترف الاخير قبله بيوم فسوف يطلق سراح ذلك السجين ويكافىء ، أما هو فيشنق . وسأله السجين الأول : « وماذا لو اعترفنا نحن الاثنان فى نفس اليوم ، يا صاحب السعادة ؟ » عندئذ تظلون على قيد الحياة ولكن تقضيان ١٠ سنوات فى السجن . « واذا لم يعترف أى منا يا صحب السعادة ؟ » عندئذ يطلق سراحكما — دون مكافأة بالطبع . لكن هل تراهن بحياتك أن زميلك فى السجن — وهو ذلك المجرم المخادع — لن يسرع بالاعتراف وقبض المكافأة ؟ اذهب الآن الى زنزانتك وفكر فى ردك حتى الغد » . وعندما التقى السجين الثانى مع المأمور قيل له نفس الشىء . وأمضى كل من الرجلين الليل وحيدا يفكر فى ورطته .

ان تركيب هذه المباراة الرياضى يشبه من بعض النواحى تركيب مباراة « الكتكوت » عند كل سجين استراتيجيتان يختار منهما : أن يتعاون مع زميله بالتزام الصمت (C) . أو ينسحب منه بتقديم اعتراف (CC) . هناك ايضا اربع نتائج يمكن أن تتحقق : (١) CC — يلتزم كلا السجين الأول الصمت ويظفران بحريتهما بغير مكافأة (٢) يلتزم السجين الأول الصمت ولكن الثانى ينسحب ويبعث به الى المشنقة . ويسترد حريته مع مكافأة ، (٣) DC ينسحب السجين الأول فيطلق سراحه ويكافىء ، بينما يتعاون السجين الثانى ويشنق بسبب ثقته فيه .

(٤) DD يتصرف كلا السجينين كرجال واقعيين دماغهم صلبة ، ويعترفان ويمضيان ١٠ سنوات فى السجن .

واذ يعرف كل سجين فى زنزانته بمفرده ، هذا النمط من النتائج التى يمكن أن تتحقق ولكنه لا يعرف قرار زميله ، وليس له وسيلة اتصال أو تنسيق معه ، فأية استراتيجية ينبغى أن يختار كل منهما بأكبر قدر من المعقولية ؟ مرة ثانية تقدم لنا النظرية الكلاسيكية فى المباريات ، جوابا واضحا : يجب أن ينسحب . ففى افضل الحالات يمكن أن يأتى له الانسحاب بالحرية والمال ، وفى أسوأ الحالات ١٠ سنوات فى السجن . وفى افضل الحالات يعده التعاون بالحرية دون اى مال ، وفى أسوأ الحالات تكون عقوبته أشد : المشنقة . فطالما لا يستطيع اى من السجينين أن يعتمد على زميله ، فالمصلحة الذاتية العاقلة يجب أن تفترض اختيار الانسحاب بما يترتب عليه من مكافأة أكبر وعقوبة اقل . وهذا مايفعله كلا السجينين : يعترفان — ونظرا لانهما عاقلان بالمثل ، فهما يفعلان هذا فى نفس اليوم . وهكذا ، فبرغم أنه كان فى امكانهما الحصول على الحرية لو أنهما التزما الصمت ، فسوف يمضيان الآن ١٠ سنوات فى السجن يفكران فى نتائج تمكيرهما المعقول وفى هدوء وثبات .

وكما فى مباراة « الكتكوت » يكسب اللاعبان اذا استطاعا تنسيق استراتيجياتهما ويلعبان CC . ولكن على خلاف مباراة « الكتكوت » ففى « ورطة السجناء » يجد اللاعبان أن من الصعب جدا (واذا فكرا كأفراد . فمن غير المعقول) أن يفعلا هذا . ولماذا ؟

فى لعبة « الكتكوت » يكون من المعقول التعاون بدلا من الانسحاب اذ واضح أن عقوبة الانسحاب المزدوج أكبر من الاغراء على الانسحاب من شريك متعاون حتى يستفاد من الخيانة . لكن عقوبة « الأحمق » فى « ورطة السجناء » لانه كان موضع الغدر بينما يتعاون وهو مطمئن الى زميله : هى اسوأ من عقوبة الانسحاب المزدوج . وعلى ذلك يبدو من غير المعقول أن يتعرض اللاعب لخطر الخيانة . ان مواقف الرقابة على الأسلحة ونزع السلاح أو عدم التصعيد بعد خصوم ايديولوجيين متعارضين بمرارة هذه المواقف تبين خصائص مشابهة نوعا . يستطيع كلا الجانبين تحقيق مكاسب حقيقية من الثقة المتبادلة ، ولكن هذه المكاسب توازنها أو تربو عليها المكافآت المترتبة على الغش الناجح ، وتوازنها او تربو عليها العقوبات التى تترتب على الثقة فالتعرض للخداع .

ليس ثمة حل معقول مقنع للعبة واحدة من « ورطة السجناء » ، فيما عدا ذلك الحل الأحمق وهو أن كلا اللاعبين اذ يحاولان سويا اختيار DD

ويبقيان فى السجن لمدة ١٠ سنوات، . لكن يمكن أن نسقط فرض «نهاية العالم » الذى ينطوى عليه النموذج الذى وضعناه وجعلنا ندعى أن لا شىء يهم فى هذه العبارة سوى لعبة واحدة . ولو حولنا الاهتمام الى أفضل استراتيجية لسلة من العاب متكررة . أمكن أن نكتشف بداية حل .

ويشتمل المدخل الى هذا الحل على مزيج من التعديل والتجربة . فاذا امكن فى مبارياتنا هذه أن ينسق السجينان استراتيجياتهما أمكن أن يظفرا بالحرية ، ولكن ليس لديهما وسيلة من هذا القبيل اذ يوصل أى منهما شيئا الى الآخر « طوعا أو كرها » عن طريق كل حركة يقومان بها وعن طريق ما تسفر عنه من نتيجة . ولقد أجرى أناتول رابابورت وشركاؤه فى جامعة متشيجان تجارب على مباريات « ورطة السجناء » حيث أدى اللاعبان ٣٠٠ لعبة متتالية ، كل منهما ضد الآخر . والنتائج التى توصلوا اليها مبنية على الخبرة المستمدة من حوالى ١٠٠ر٠٠٠ لعبة ، وهى ذات أهمية كبيرة لجميع من يدرسون الصراع بين الاشخاص والمجموعات والشعوب .

لا نستطيع ان نذكر هنا سوى عدد قليل من هذه النتائج . ففى اللعبة المبدئية من ٣٠٠ متعاقبة . ينجح الخصمان فى تحقيق تعون مزدوج CC وجزءا مشترك فيما يقل قليلا عن ٥٠ فى المائة من الألعاب . وتتميز الالعاب التالية وتتراوح من ٣٠ الى ٤٠ بنوع من زوال الوهم فيه يتشدد كل منهما مع الآخر ، وعندئذ تصبح مباراتهما أكثر تنافسية فى العادة ويهبط التعاون المتبادل CC الى حوالى ٢٧ فى المائة بحيث أن كلا اللاعبين تحيق بهما الآن خسارة فادحة . وخلال الألعاب التالية وعددها ١٠٠ يتعلمان بالتدريج أن الاخير فى هذه المنافسة القاتلة وأن التعاون مفيد . وخلال الألعاب الباقية وهى ٥٠ لعبة من ٣٠٠ . يتعاونان بنجاح فى تحقيق المكاسب الناتجة عن CC فى حوالى ٧٣ فى المائة من العابهما .

وثمة تفسير ممكن لهذه النتائج التى توصلوا اليها وهو أن كلا اللاعبين فى المراحل المبكرة يستخدمان تعاونا نوعا بأكثر مما يلجأ الى الانسحاب ، ولكن من المحتمل جدا أن يفشلا فى تنسيق حركاتهما التعاونية . وبمجرد أن يحدث هذا فان اللاعب الذى أجرى الحركة التعاونية يتعرض لعقوبة شديدة نتيجة حركة الانسحاب من جانب خصمه ، ويحتمل أن يفسر هذا على أنه سوء نية وخيانة ، فيثار لنفسه بأن يتحول الى استراتيجية الانسحاب وتعقب هذا سلسلة من الثأر المتبادل (يتطلب تخلص الجانبين من آثاره وقتا طويلا) الى أن يتعلما فى نهاية الأمر الوصول الى مستوى من التنسيق والمحافظة عليه أعلى بدرجة طيبة من المستوى الذى بدأ منه فى الاصل .

ويتضح أن لشخصية اللاعبين كل منهما بصفته الفردية ، علاقة يسيرة

جداً يتعاقب نتائج المباراة . والذى له أكبر الاهمية هو نتائج الالعاب القليلة الاولى التى يبدو انها « تحول » بشدة دون مزيد من مواصلة المباراة . واذا بدأ خيطا من السوابق المبكرة للعداء فعندئذ يكون الصراع وتعرض الطرفين للعقوبة شديدين وطويلين ، ويتأخر كثيرا استرداد الثقة والتعلم من التعاون الذى يزداد تكراره . وعلى النقيض من هذا اذا فرضت الحركات المبكرة اطارا من التعاون ، فان الكثير من الأثر النافع سوف يميل الى أن يظل قائما فى المراحل التى بعدها .

هذه النتائج التى تم التوصل اليها يمكن ان توحى بالتنبؤ بالصراع الدولى وادارته ، وتؤدى بنا الى تأثير أقل يترتب على نوايا الحكومات الأجنبية او خصائصها الحقيقية المفترضة وتؤدى بنا الى توجيه اهتمام اكبر الى انماط التفاعلات المتبادلة بين الحكومات ، بما فيها حكومتنا بوجه خاص . وعندئذ يكون السؤال : « ماذا قصد البلد س من هذا التحرك تجاه البلد ص ؟ » أقل اهمية من السؤال « ماذا حدث بالفعل بالنسبة الى البلدين س ، ص نتيجة للحركة التى قامت بها حكومة س ولاستجابة ص لها ؟ » ومن هذا السؤال الآخر : « ماذا كان يمكن أن يكون الأثر المعرقل بالنسبة الى المستقبل والمتولد من هذه التجربة ؟ » .

وتؤكد البيانات ما كان يشك فى وجوده أولئك الذين يدرسون علم السياسة ، وهى أن أداء الشهداء ضعيف فى هذه المباراة . والشهيد عبارة عن لاعب يلعب دائما الحركة التعاونية C مهما كان عدد المرات التى يخونه ويعاقبه فيها خصمه بالانسحاب . وتظهر البيانات ان امثال هؤلاء الشهداء يميلون الى أن يكونوا موضع الاستغلال الشائن من جانب خصومهم ، أى يبدو انهم يصابون بأشد الخسارة فى المقاومة . ويميل الشهداء الى ان يظلوا خاسرين حتى نهاية المباراة ، غير أن الذين ينسحبون باستمرار ، يلقون نفس المصير السىء . فهم سرعان ما يثيرون الشر . واذا واصلوا استراتيجيتهم فى الانسحاب فسوف يظلون محصورين ويتعرضون للعقوبة التى تنطوى عليها نتائج النموذج DD ويخسرون باستمرار . ويتضح أن أكثر استراتيجية احتمالا لتحقيق النجاح هى (أ) أن يبدأ بالتعاون ، (ب) أن يواصلا اجراء تحركات تعاونية طالما أنها متبادلة بين الطرفين . (ح) والثأر باستمرار حينما يواجهان انسحابا متكررا . و (د) وأن يكررا بعد ذلك ومن وقت لآخر ، مسلسلة من حركتين أو ثلاث حركات تعاونية من طرف واحد حتى يتسنى اعطاء الخصم فرصة الانتقال الى سلسلة من التعاون المتبادل .

ويتضاعف تكرار السلوك التعاونى عندما يتجلى الكسب بشكل واضح ومستمر لكلا اللاعبين خلال المباراة من أولها الى آخرها . (لوحظ هذا الأثر

حتى برغم ان جميع اللاعبين ابلغـوا بموضع الكسب عند بدء المباراة ، وابلغت لهم مكاسبهم أو خسائرهم فى مستهل كل لعبة) . هذه النتيجـة التى تـم الوصول اليها يمكن أن تخيف بعض التأييد لفكرة ايمانويل كانت وغيره من الفلاسفة ، وهى انه اذا كان الناس على بينـة من موقف ، زاد الاحتمـال بأن يتصرفوا بروح من التعاون والأخلاقية .

العـاب التهـديد ضـد التبـاين

ان نماذج الألعاب التى جرى بحثها قد طبقت اساسا على مواقف حيث يكون اللاعبون فيها متساوين وقوالب السداد متنافسة . وكان الاهتمام بين النظريين فى القوالب غير المتنافسـة لخصوم غير متكافئين ضعيفـا . على انـه حدث فى السبعينات ان اكتشف أناتول رابوبورت وشركاؤه نمطا جـديدا من الألعاب التى تركز على مواقف التباين وتنطوى على مضمون لطبقة كبيرة من الحالات السياسية الدولية والمحلية . وهم يهتمون بلعبة القوالب التى توضح بالشكل (٦) .

ملحوظة : يلى ذلك الشكل :

فى هذه الحالة يكون اللاعب A فى موقف بىء وقد يوصف بأنـه مغلوب على أمره . فاذا عمد A الى أن يلعب الاستراتيجية الثانيـة T فان اللاعب A سيخسر فى كل لعبة ــ ٣٠ أو ــ ٢٢٠ وهذا مرهون بما يفعله اللاعب B واذا لعب A الاستراتيجية A - C فانه لن يناله شيء ، ويستسلم اللاعب المستبد الموقف وهو B الذى يكون فى موقف جيد أو « المسيطر » . والواضح أن B يريد أن يلعب B - S ويحصل على مكسب قدرة + ٢٠ . ولكن من وجهة النظر العقلانية القصيرة المدى الفردية ، تبدو هذه أحسن ما يمكن أن يفعله A لأن أية محاولة لكى يلعب الاستراتيجية البديلة B - T . ستجعله يمنى بخسـارة اكـبر فى الحال .

ولكن فكر فيما يحـدث لو أن A المغلوب على أمره يركب راسـه ويتمرد وصر على أن يلعب AT فى هـذه الحالة سيخسر ــ ٣٠ فى كل لعبـة ، ولكنهـا فى الوقت نفسـه تبـدد اللاعب B الـذى هـو فى موقف أفضـل أن أن يخسر ــ ٢٠ اذا واصـل أن يلعب B - S أو بخسـارة أقـل ــ ١٠ اذا لعب اللاعب « ب » ، B - T وحالمـا يكشف اللاعب B أن A لا يمكن زحزحته من ثورة غير المعقولـة فان اهتمام B الـذاتى سيشجعه أو يشجعهـا على التحول الى لعب B - T حتى يتسنى الاحتفاظ بالخسـائر قليلة . ولكن حالمـا يفعل B ذلك فان

A المغلوب على أمره سيتحول الى أن يلعب A - S حتى يسجل ربحا قـدره + ٢٠ ، وعنـد هـذه النقطة سيتحول الى لعب B - S حتى يحصل على ربح قـدره + ٢٠ .

وتكون النتيجـة أولا أربع لعبـات قوامهـا الدوران كمـا يوضـح السـهام المكسورة فى الشكل ــ ٦ . وتبـدأ النتائج عنـد SS (0, + 20) ثـم تنتقل الى TS (— 20, - 20) ثم الى ST (+ 20,0) والعودة الى SS ثم دورة أخرى . وتكون نتيجـة الـدورة خسـارة مقـدارها ــ ٣٠ للاعب و ــ ١٠ للاعب ولكن سيكتشف أن عاجلا أم آجـلا أن حركات متعـاقبة بين S و T تكون افضل بكثير على شرط أن يستمر فى أن يلعب دائما حركة S ولاشيء خلاف ذلك . وفى تلك الحـالة سيجمع + ٢٠ فى كل لعبـة ثانية ــ يعنى فى كل لعبـة ذات عـدد فردى ــ وسيحصـل B على + ٢٠ فى كل لعبـة ثانية ــ اى فى لعبـة ذات عـدد زوجى . وفى هـذه الحالة يظل كلاهما يكسبان على حسـاب البنك .

مـا الذى حـدث هنـا ؟ أن B المغلوب على أمره اكتشف عقلانية طويلة المدى كدليل سلوكى ، وسيؤدى الحـل السـائد القصير المـدى SS الى استدامة موقفه أو موقفهـا الادنى . ولكن برفض هـذا الموقف وبتهديد B الذى يكون فى موقف افضـل ، بنتيجـة TS التى سيجرى فى فرضها وبقبول ثمن تنفيـذ هـذا التهديد اذا لـزم الامر ، فان A يستطيع الآن أرغـام B على التنـازل عن عـدد من نتـائج A التى تعطى A نصيبـا من الارباح حتى النصف من المجموع (ولكن فى لعبـات فعلية كثيرة تنتهى اللعبـة بأن يقتسم الطرفان المكاسب لا بنسبة O : O وانما بنسبة ٦ : ٤ على التوالى ــ أى بين الـذى فى موقف افضل والمغلوب على أمره).

أن مواقف من هـذا النوع تجرى فى الحيـاة الحقيقية . ففى بلـد من البلدان أو مصنع قـد يضرب العمال مع مـا يعود عليهم ذلك بشىء من الخسارة ولكن على أمـل أن يرغموا الادارة على التسليم بنصيب اكبر من أربـاح المؤسسة أو المصنع لهم : وقـد تكون هـذه الزيادة فى نصيبهم اكبر على مـدى وقت من الزمن ــ من الاجـور التى فقـدوها فى الاضراب . وفى السـوق العالميـة قـد تلجـأ البلـدان الناميـة التى تـوفر بعض المـواد الخـام الهامة او الوقود مثـل الزيت الى منعـه عن السـوق حتى تحقق زيـادة فى السعر مع مـا يصـاحب ذلك من نصيب اكبـر من الارباح نتيجـة لاستخدام الزيت فى البلـدان المستوردة .

وطبقـا لهـذا النموذج ، يمكن أن تستفيد الجماعات أو الامم المحرومة من تكتيكات تهديدية من هـذا القبيل ، وأن كان ذلك فى حـدود معينـة .

اولا ، لابــد ان يكون هنــاك عائــد فى النظــام الذى يمكن اقتسامه بين الاطراف المتنافسة . وثانيا ان الجانب او الفاعل الــذى هـــو فى موقف طيب يجب أن يحتفظ بنصيب كاف من هــذا العــائد لكى يجعله جــديرا بأن يحفز على الموافقـــة على تقــديم تنــازل الى المغلوب على أمــره ، وثالثــا أن تكاليف التهديدات والصراعات للمغلوب على أمره لا يجب ان تكون اكبر ممـــا يتحمل ذلك اللاعب ولا أكبر مما يتوقع ذلك اللاعب ان يكسب على مــدى فترة أطــول اذا أريــد ان يكون التهــديد او النضــال ناجحا .

لعبــات البقــاء الصراع الممتــد

ان ثلاثمائة لعبــة متعاقبــة ، « للعبــة التهديـــــد » أو « ورطـــــة المسجونين » يجعل أيــا منها أكثر واقعيــة فى ناحية حاسمة . لــم تعــد هى لعبــة « نهــاية العالم » التى لا يكون هنــاك مستقبل للاعبين ، ومن هنــا ليس ثمــة حاجــة الى بحث اى ســلوك مستقبلى عنــد لاعبين آخرين يغرون على انتهاجه باستراتيجياتهم . ولــكن اللعبــة تلعب الآن « كلعبة بقــاء » تكون الجائزة فيهــا للنجــاح تتمثــل الى حــد كبير فى أن يسمح لــك بالمضى فى اللعب والعقوبة على الفشــل تتمثــل فى الخراب والاضطرار الى ترك اللعبة ــ وهــذه تشــبه اللعبات الحقيقية فى العمــل أو السياسات الحزبيــة والعلاقات الــدولية بين الحكومات . أنــه ينبغى التفكير فى نماذج للعبــات مــدروسة ومحكمة المستقبل « كلعبات بقــاء » اذا أريــد لهــا مــع تشبه العمل فى الحياة الحقيقية والسياسة والعلاقــات الــدولية ، واذا أريــد أن تكون ذات منفعــة لنــا فى لعبــة البقــاء الذى نلعبها جميعــا من أحــل الجنس البشرى .

أن لعبــات البقــاء تشبه فى طرق محــدودة نماذج « القتــال » البسيطة التى تناولنــاها فى هــذا الفصل ، ولكنهــا تختلف عن اللعبــات الجوفاء التى تشــبه العمليات الشــبه الاوتوماتيكية ، وذلك باعطــاء كل من المتخاصمين بعض الفرص للاختيار . ولــكى يتسنى لنـــا القــــاء نظرة ثاقبــة على تعقيدات الصراعات الممتــدة ، فان مجموعـــة النماذج التالية لابــد وأن تكون نوعــا مــا اكثر تعقيدا . وبصــفة خاصــة فان نماذج اللعبــات حتى هــذه النقطة تفترض أن قوالب الربح وقرارات اللاعبين ستقرر تماما النتيجــة المشتركة لاعمالهما ، فالنماذج الجــديدة تأخـــذ فى اعتبارها احتمال النتائج المختلفة ودمــار واحــد أو آخــر من اللاعبين .

ولنفرض أن هنــاك سياقا متصلا من القرارات الاحتمالية وأن لاثنين من اللاعبين رغبــات متعارضة فى نتيجــة كل خطوة أو لعبــة . وهــكذا

فانهما قد يلجآن الى القرعة بقطع من النقود ويتراهنان على نتيجة كل قرعة ، فاذا اقترع وراهن A على « الرؤوس » يقترع B على « الذيول » ؛ أو انهما قد يكونان قائدين لقوات عسكرية متقاتلة تقع بينهما سلسلة من المناوشات يخرج احد الجانبين فى كل مقاوشة منهما فائزا وللاعبين مطلق الحرية فى المراهنة أو المغامرة بمواردهما فى كل لعبة من اللعبات . والاسئلة الحاسمة هى : « اى اللاعبين سيدمر اولا ؟ « ـ ومن هنا ـ » أيهما سيبقى ويعتبر فائزا ؟ وسؤال آخر : « وما هى افضل استراتيجية للرهان يمكن أن تضمن عدم الدمار ، والاستمرار فى البقاء ؟ « يصف الرياضيون هذه المشكلة بانها » دمار المقامر » . ولكن لها مثيل فى الحياة الحقيقية ؛ لا بين المقامرين فحسب وانما بين الجيوش والاحزاب والامم أيضا .

وثمة نقطتان اخريان ينبغى بحثهما . يحتمل الا يكون اللاعبان على قدر متساو من الغنى او القوة البشرية التى تحت تصرفهما . ما هى افضل استراتيجة للاعب ، ولو اعطى اللاعبان موارد متكافئة فان اللاعب الذى يمتاز على خصمه بالمهارة أو الظروف هو الاكثر احتمالا فى الفوز . ولكن ما هو مدى الامتياز بالنسبة للثورات أو المهارة الذى يمكن أن يحدثه فى الفرق ، عند فرض طرف فى البقاء دون الآخر ؟

واخيرا ، ما الذى يحدث اذا كان احد اللاعبين فى موقف افضل من حيث الثروة فى حين أن الآخر يمتاز بالمهارة أو بظروف أخرى ؟ وكم من الوقت ينتظر أن يستغرق ظهور نتائج صراع من هذا القبيل ؟

ان جميع هذه الاسئلة يمكن الرد عليها بنماذج حسابية تسمى «عمليات التصويب » أو « نماذج المشى العشوائى بين الحواجز » .

ويمكن تلخيص نتائج قليلة ونتائج محتملة هنا :

١ ـ أن تفوقا قوامه واحد فى المائة المحتمل ان يسود فى كل سلسلة من اللعبات والقرعات أو المواجهات يساوى فى الواقع تفوقا قدره سبعة فى المائة من الموارد المادية ـ ولكن هذا ينطبق بين مواردها هما المادية عن ٤ : ١ .

٢ ـ اذا كانت نسبة موارد لاعب لموارد المنافس تتروح بين ٤ : ١ و ٩ : ١ فان أثر الواحد فى المائة الزيادة فى الموارد لايكاد يساوى واحد فى المائة من احتمال الفوز فى مواجهة واحدة .

٣ ــ اذا كان لــدى لاعب تفوق قــدره ٩ : ١ أو أكثر فى الموارد مقابل منافســة ، فان كل واحــد فى المــائة زيــادة فى تفوق الموارد ســيكون لــه أثر قــدره اثنان فى المــائة فى زيادة احتمال الفوز بلعبــات واحــدة . وصفــوة القول ان الفروق المعتدلة فى العمل أو المــال حتى ٤ : ١ تكفــل آثــار التأييــد الشعبى أو المهــارة تكون أكثر سبعة اضــعاف من آثــار الثروة . أمــا فى حــالة المستويات المتوسطة للفروق فى الموارد التى تتراوح بين ٤ : ١ و ٩ : ١ فان المهارة والثورة يكون لهــا تأثير متســاو ؛ ولــكن فى حــالة المستويات العاليــة للفروق المــادية ، أى التى تزيــد عن ٩ : ١ فان الثروة الاضافية أو العمل يكون تأثيره موارد ماديــة كثيرة ؟ ومــا هــو افضــل ســلوك أو خصمهــا ذى الموارد أو ذات الموارد الاضعيفــة ؟ والى جانب ذلك ، قــد لا يكون اللاعبان على درجــة متكافئة من المهارات أو فى ظروف مواتية . قــد يكون فوز احدهما أكثر احتمالا من خصــمه ليفوز فى كل مواجهــة ، ذلك لان اللاعب الــذى يكون فى موقف افضل قــد يتمتع بمهارة اكبر ، من ذلك معرفــة التضاريس والشعبية بين الناخبين أو ســلعة اكثر رواجا او تكون القطع النقدية أو الزهر موضوعة فى صــالح ذلك اللاعب .

ولــو أعطى اللاعبان فرصــا متساوية للفوز فى كل لعبــة واحــدة ؛ فان اللاعب الــذى لديه موارد أكبر هــو الــذى يكون اكثرهما احتمالا فى البقــاء .

٤ ــ والجانب الــذى يكون فى مركز أفضــل يزيــد من احتمال فوزه فى المواجهات . ولكنــه فى موقف سيء نتيجــة لضعف موقعــه فى الموارد ؛ يتصرف بطريقة أفضل اذا قصر حــدود التزامات موارده على مواجهــة واحــدة وحــاول اطــالة الصراع مثــل استراتيجية تجنب قتــال واسع النطاق أو بانتهاج تكتيكات حرب العصابات . امــا اذا كانت قوته أو موارده اكثر من ١ : ٩ فانه من المحتمل أن تبوء تكتيكات حرب العصابات بالفشــل .

٥ ــ أمــا الجانب الــذى يكون فى وضــع افضــل من حيث توفر الموارد المــالية او العمل ولكنــه دون الخصم فى الفرص للسيادة فى الصدامات فان افضــل ما يفعله هــو فرض قــرار سريــع فى الصراع بأن يبــدأ صدامــات واســعة النطــاق مثــل تكتيــك « الحرب الخاطفــة » كمــا اســتخدمها هتلر فى عامى ١٩٤٠ ــ ١٩٤١ واليابان فى عــامى ١٩٤١ ــ ١٩٤٢ . واذا فشــل الجانب الاقــل مهــارة والاقــل شعبية فى احــراز النصر السريع الذى ينشــده ، فان هزيمته تصبح محتملة .

ان النماذج الرياضية بما تنطوى عليــه من نتائج حتمية لا يمكن بالطبع

ان تحل محل المعرفة التامة بمواقف الحياة الحقيقية بما فيها من تعقيدات كثيرة . ولكنها تستطيع ان تساعدنا على التنبؤ وتنبهنا الى مسائل وامكانات الحياة الحقيقية التى بدونها قد تغفلنا . وبهذه الطريقة يمكن أن تساعدنا على زيادة قوة قدراتنا المحدودة على التفكير .

تكاليف التفكير والقدرة على التفكير

وتم تحسن آخر فى نماذج نظرية اللعبة مطلوب جدا ولكن من الصعوبة بمكان تحقيقه . ولكى تكون نماذج اللعبة أكثر شبها بواقع العلوم السياسية ؛ القومية والدولية ، فانه ينبغى أن نأخذ بعين الاعتبار « تكاليف التفكير وصنع القرار » . ونفترض نظرية اللعبة الكلاسيكية ان اللاعبين يمكن أن يحسبا جميع الحركات الممكنة لقواتهما وما ينطوى عليه ذلك من نتائج متوقعة وانهما يستطيعان أن يفعلا ذلك فورا وبدون اى تبديد للوقت أو الجهود أو الموارد . ويجوز لكل لاعب أن يعرف جميع القطع والمواقف التى للخصم ، كما هو الحال فى لعبة الشطرنج ، أو أن لاعبا قد يكون جاهلا ببعض أو جميع الاوراق والتركيبات التى يملكها الخصم كما هو الحال فى لعبة الورق ؛ مثل البوكر ؛ ولكن على اية حال ؛ نفترض نظرية اللعبات الكلاسيكية لفون نيومان ومورجنشترن أن كل لاعب ينبغى الا تكون لديه صعوبة فى التفكير فى الحال فى جميع التركيبات المحتملة للتحركات والنتائج التى تنطوى لعبها فى تلك الحقائق التى يعرفها .

فى الحقيقة بالطبع أن هذا ينطق على الشطرنج او البوكر . فالشطرنج طريف بالضبط لان الوقت الذى ينقضى من حركة الى أخرى — غالبا ما يكون ساعة فى المبارزات — هو اقصر مما ينبغى بالنسبة الى أى لاعب (ويكون ذهنه محدودا جدا حتى ولو كان لديه وقت أطول للتفكير) مما لا يسمح له بالتفكير فى كل ذلك المحيط الهائل من امكانيات الارتباط التى تقدمها قطع الشطرنج البالغ عددها ٣٢ على مربعاتها البالغ عددها ٦٤ مربعا . وبالمثل فعالم الارتباطات الممكنة فى لعبة البوكر عالم لا ينفد خلال الحدود الزمنية للمباراة والقيود البشرية التى تحد من امكانيات اللاعبين . وفى هذه الحالة يكون خير ما يستطيع اللاعب عمله هو أن يلتقط عددا قليلا من « استراتيجيات » أو « حلول » مبشرة يختار من بينها وذلك عن طريق مزيج من المعقولية والتخمين والالهام ، ثم يصرف وقته المحدود للتفكير وموارده فى اجراء الحسابات ، على تحليل معانى هذه الاستراتيجيات المفضلة القلائل ؛ املا على الاقل فى

ان احــدها قــد يلقى القبول . ويجب أن يجرى اختباراته على أن يتحمل مخاطر الاختبــار .

وثمــة قيــد مشابه نصــدق على السياسة وعلى الكثير من المواقف

يكون مجموع الارتباطات بين جميع الحركات الممكنــة والنتائج بالنسبة الى جميع الاطراف المعنيــة ، أكبر من أن يسمح بشيء يشــبه الحساب الشامل الدقيق فى نطــاق الوقت المتــاح .

فى ظــل هــذه الظروف يكون من الوهــم أن نتحدث عن الحــل « الامثل » (أى عن « افضل جميع » الحلول الممكنــة) لان الاكثر احتمالا ان يظــل نطــاق الحلول الكامل غير معروف لكلا اللاعبين والمراقبين فى اية حــدود من الوقت المتــاح للفكر والفعل . وهكذا يصبح البحث عن أفضل استراتيجية أخيرة بصورة مطلقة للفوز ، وقــد تحول الى بحث عن افضــل استراتيجية متوسطة من اجــل البحث عن أفضــل استراتيجية نســبيا للفوز أعنى تلك التى تعتبر افضــل استراتيجية يحتمل أن توجــد فى داخل الحــدود المعاينة للوقت وموارد الحساب .

ان لاى جهــد يبــذل فى البحث ، تكاليفه ؛ شــــأنه شــأن جميــع الجهود الأخرى . فيجب الاختيار بين حــلول يمكن أن تكون افضل ، البحث عنهــا أكثر تكلفــة واكتشافها اقــل احتمالا ، وبين حــلول أو استراتيجيات أكثر وضــوحا نسبى اقــل جودة ولــكن ايجــادها أسرع وأرخص . ففى السياسة العملية ، القومية والدولية ، تكون تكاليف الوقت والتفكير حاسمة فالبحث عمــا يفترض انــه الاستراتيجية الافضــل ، عرضــة لان يتوقف بمجرد أن توجــد اية استراتيجية تلقى القبول وبتكاليف محتملة بالنســبة الى البحث والحساب بشرط الا تكون استراتيجية بــديلة وجــذابة بالمثــل قــد ظهرت . فبرغم أن الساســـة المــديرين التنفيذيين فى المشروعات كثيرا مــا يعتقدون أنهم « يحسنون استراتيجاتهم الى الحــد الامثــل » (بمعنى اختيــار افضلهــا جميعا) الا انهم بالفعل لا يعملون ســوى مــا دعاه العالم الاجتماعى هربرت سيمون « الاكتفاء » الـ ذى معنــاه اختيار اكثر استراتيجية مــدعاة الى الرضــاء ، من بين البدائل القليلة التى يمكن أن يستعرضوها فى حــدود الوقت والموارد التى يمكن أن ينفقوها أو ســـوف ينفقوها على البحث .

كثــيرا مــا تكون النتيجة فى السياسة الدولية شيئا شبيها بما يدعى « قانون اقل جهد عقلى » . يجب أن يجد السياسات الخارجية أو على الاقل يوافق عليها رجال مرهقون ومشغولون يعملون فى ظل ضــغوط شــديدة

تفرضها قلة الوقت والاتصالات . ان اية سياسة يسهل نسبيا اكتشافها وتفسيرها وتتمشى مع عادات التفكير المستقرة من قبل ، عند العناصر المهمة التى تتخذ القرارات ، وليس لها مساوىء رئيسية واضحة ، مثل هذه السياسة أمامها فرصة طيبة للاخذ بها . وعلاوة على هذا . فبمجرد الأخذ بها ، فان قدرا هائلا من التنسيق والتزام بين رجال كثيرين جدا ، وهو ما يحتاج اليه تنفيذ اية سياسة كبرى ، تقول أن هذا القدر الهائل سوف يجعل من العسير جدا تغييرها . وعلى ذلك فالسياسات الخارجية الرئيسية لا يجرى دائما اختيارها والاحتفاظ بها بطريق الحساب أن يتم هذا بعملية بعضها عقلى وبعضها عشوائى أيضا . من البحث المحدود والتقييم المحدود الذى لا تتوافر لدينا عنه حتى الآن نماذج من نظرية المباريات يمكن الاطمئنان اليها .

التهديدات والردع كمباريات تختلط فيها الدوافع :

قدم توماس س . شلنج Schelling اسهاما قيما يساعد على فهم افضل للسياسة الدولية ، حيث أظهر أن مواقف التهديد والردع يمكن النظر فيها باعتبارها مباريات مختلطة الدوافع . فالواضح أن الطرف الذى يطلق التهديد والطرف الذى يتعرض للتهديد ، لابد أن يكون لديه مجموعة واحدة على الاقل من المصالح المتعارضة : فالمهدد (بكسر الدال الاولى) يجب أن يكون قائما بعمل شىء أو يوشك أن يفعل شيئا يكرهه المهدد (بالفتح) بحيث يطلق تهديده لوقفه او تغييره أو منعه . وفضلا عن هذا يقول شيلنج ان لطرفى التهديد ايضا مصلحةمشتركة فى عدم تنفيذه ، لان العمل الذى يجرى التهديد بالقيام به ليس مؤلما بمعنى ما للمهدد (بالفتح) ولكنه أيضا كثير التكلفة أو مؤلم للمهدد وانما يعمل . وكونه يفضل أن يطلق تهديدا ، هذه الحقيقة لا تشهد بأن شعورا من الشفقة يتملكه ، وانما تشهد بأنه يعرف ويكره ما سوف يكلفه العمل الذى يهدد باتخاذه . وعلى ذلك يكسب الطرفان شيئا اذا امكن تجنب الفعل المهدد به .

لهذا التحليل معنيان واضحان يتعارض كل منهما مع الآخر احيانا . الاول أنه حتى فى مواقف التهديد والردع يحتفظ الجانبان بقدر من المصلحة المشتركة التى تزيد اذا أنفذ التهديد . فاذا كان المتباريان متعادلين تقريبا واذا كانت هذه التكلفة المشتركة أكبر من المسألة التى يتعاركان بشأنها فعندئذ يصبح الردع شبيها بمباراة « الكتكوت » ، واذا كانت كبيرة ولكنها أصغر من الجزاء الذى يتباريان من أجله ، أصبح الردع شبيها بمباراة « ورطة السجناء » . ولهذا ظل الغريمان متساويين بوجه عام فى المباراة ، ولكن يصبح التهديد بينهما اشد (أما بسبب قسوة اكبر او

اسلحة اشـــد فتكـــا) بينما لا تزيـــد المكافـــآت التي تترتب على الفـــوز . فعندئذ تميل مســـابقة الردع الى أن تتحول من نمط « ورطـــة السجنـــاء الى نمط « الكتكوت » . كلما عظمت حـــدة التهديدات المتبادلة قـــل الحافز المعقول الذى يـــدفع المتباريين على تنفيذها .

وعلى ذلك يكون الردع اكثر معقولية اذا كان موجهـــا الى الطرف الاعزل نســـبيا . ان تهـــديدا عنيفا ضـــد خصم لا يستطيع أن يوقع نفس المستوى من الخســـارة أذا عمـــد الى الثـــأر . هـــذا معنـــاه التهديـــد بتكاليف كبيرة لـــه مقابل تكلفة صغيرة بالنســـبة الى المهـــدد (بالكسر) . وهـــــــذا ما يبـــدو أنـــه يغرى مثلا . بالتهديـــد بتوجيه ضربات من البحر أو الجـــو الى بلـــد عنيـــد : صغير أو فقير لا يملك بحرية أو قوة جوية مشـــــابهة لتسديد ضربة مضادة . كلما زادت شـــدة التهديد (مثلا بالتهديـــد باســـتخدام اسلحة اشـــد فتكا أو توجيـــه هجمات ضـــد أهـــداف هى موضع الاعتزاز بهـــا كثيرا . مثـــل المـــدن الاطفال أو حكـــام البلـــد) تراءى انـــه اقـــدر على تحقيق النجاح اذا استخدم كمـــا تقول النظرية . ضـــد خصم أضعف ولكنـــه مـــا يزال عاقلا .

لـــكن حتى طبقا لنظرية الردع التقليدية تســـفر التهديدات الاشـــــد عنفـــا (أى بأسلحة أشـــد فتكا أو ضـــد أهـــداف أكبر قيمة) عن التأثير المضـــاد تماما عندما تطلق ضـــد خصم قادر على الثـــأر بنفس المستوى من الرعب أو معـــه حلفاء حازمون يحتمل أن يثأروا له . ولذلك عنـــدما حلت محـــل الرؤوس الذرية فى صواريخها البعيـــدة المـــدى رؤوس أشـــــــد قـــوة تحملها قنابل هيدروجينية فى الخمسينات لم يزد هـــذا الاحلال من فعالية تهديدات السوفييت ضـــد ألمـــانيا الغربية أو بريطانيا لان كـــلا البلدين ظـــلا يعتمد أن على قـــوة الولايات المتحـــدة الثأرية بالقنبلة الهيدروجينية . وفضـــلا عن هذا صنعت بريطانيـــا بعض القنابـــل الهيدروجينية . وبالمثـــل بالطبـــع لـــم تكن البلاد الشيوعية ليملأهـــا الرعب بسبب الترســـانة النووية الامريكية الآخـــذه فى النمو فى الخمسينات والستينات لو كانت لديهـــا قـــوة تقليدية كبيرة (وسرعان ما ستكون لهـــا قـــوة نووية) خاصة بها كمـــــا كان الحـــال بالنسبة الى الاتحـــاد السوفييتى ولو تلقت تأكيدات سوفييتية بالحماية النووية بمثـــل ما تلقت كوبا فى عـــام ١٩٦٢ . كذلك لم تكن لتشعر بالخوف اذا كان لديهـــا جيوش برية ضخمة وعلى الاقـــل بعض حمـــــاية سوفييتية ؛ ولا حتى لو كانت قـــد حصلت على بعض قـــدرات من الاسلحة النووية كمـــا فعلت الصين فى عـــام ١٩٦٤ . وليس ثمـــة سبب كبير يـــدعو الى الشك فى أن ازدياد التهـــديدات بالحرب الكيماوية أو البيولوجية بين القوى العظمى ، لا يفيـــد بالمثـــل فى انتزاع تنـــازلات سياســـية . فطالمـــــا

بظل كلا الجانبين يتذرعان بالعقل وقادرين على أن يلحق كل منهما خسارة كبيرة بالآخر ، فان اى تشديد للتهديدات سوف يقلل فحسب من دوافعهما على تنفيذ التهديد . ونظرا لان كل جانب يعرف هذا عن الآخر ، فان التهديدات الاشد عنفا فى ظل هذه الظروف ، سوف يقل تصديقها وتصبح أقل مفعولا .

والمعنى الثانى الذى ينطوى عليه نموذج شيلنج ، يتناول هذه النقطة فقط ، فعنده أن فعالية تهديد ما لا تتوقف على حدته فحسب ولكن على معقوليته أيضا ، وهذه المعقولية التى تجعله موضع التصديق ، ناحية متميزة من التهديد الذى يمكن ان يتلاعب به على انفصال ، مهدد بارع . فيقول شيلنج أن مثل هذا المهدد يستطيع أن يجعل تهديده أدنى الى أن يكون موضع التصديق بأن يظهر أنه غير معقول من جهة ، وبأن يتصرف بطريقة غير معقولة من جهة أخرى . وهو يفعل هذا بأن يبدى حركات اكثر تهورا ، وبأن يلزم نفسه بمزيد من الافعال المتهورة التى لا تسمح بها المعقولية الدقيقة . وفى احد الامثلة التى ضربها شيلفج انه اذا تقابلت سيارتان عند تقاطع وارادت كل منهما أن يكون لها حق المرور ، فمن المحتمل أن يكون النجاح من نصيب السائق الذى يبدأ بالاسراع بسيارته بحيث لا يتمكن من وقفها فى الوقت المناسب كى يتفادى تصادما لو حاول ذلك . ويقول شيلنج ان هذا المسلك غير العقلانى يجب أن يرغم السائق الآخر على أن يهدىء من سرعته ليتفادى تصادما — الا اذا كان السائق الآخر بالطبع (وربما قرأ كلام شيلنج أو على الاقل اتبع المبرر الذى ذكره الاخير) التزم هو أيضا بأن يسرع بحيث لا يتمكن من التوقف قبل أن يكون الفوز من نصيب اللاعب الذى ينزع عجلة ويلقى بها أو يضع قماشا أسود فوق زجاج السيارة الامامى وهو يقود سيارته الى الامام — الا اذا لجأ خصمه الى نفس التكتيك .

ان التكتيك الذى درسه شيلنج يعتمد فى جوهره على تعمد الخصمين خلق خطر يشاركان فيه . فكلما عظم الخطر الذى يتقاسمانه والذى تولد من تكتيك متهور أو من وسيلة تدع بعض التهديد للصدفة (كاطلاق قمر صناعى فى المدار ومسلح بأسلحة نووية ، وتحركة عجلة روليت ، أو بالاشتباك فى حرب محدودة ولكنها تتصاعد ، وهى حرب يعلم الكل ان من المكن أن يفلت زمامها ، أصبح التهديد اقرب الى أن يكون قابلا للتصديق وعظمت مصلحة الطرفين العاقلة فى الهروب من هذا الموقف الخطر . ونظرا لان المهدد (بالكسر) التزم على نحو يفتقر الى جادة العقل ، بأن يواصل السير فى طريقه ، عظمت الآن على ما يرى شيلنج ، المصلحة العاقلة التى تجعل الطرف الموجه اليه التهديد ، يستسلم .

لا تتضمن نظريـــــة الردع ما يبين حجم المســـــائل التى هى موضـــــع التسابق ؛ فقــد تكون خطيرة أو تافهة ، وقــد يكون خطرها مبـــاشرا أو بعيــدا . وبقــدر مــا تصدق النظرية فهى تنطبق على مواجهات الردع بين القوى التى تتصـــارع حول مصالح هامشــية ، وكذلك بين القوى المتصارعة من اجــل وجــود مراكزها ومؤسساتها الرئيسية . وهى تنطبق أيضـــا على الصراعات الدوليـــة التى تتعلق بأهــداف صفوات معينـــة أو مجموعات مصالح معينـــة فحسب . وتنطبق كذلك على الصراعات التى تنطوى على بقـــاء نظم أو دول أو شعوب بأسرها . الواقع أن النظرية اذ تشــدد على الفائدة المحتملة من الســلوك غير المعقول باعتباره عامــلا يساعد على جعل التهديدات موضع التصـــديق . فانها تقامر على قــدرة حكومة أو شـــعب فى مثل المســـابقة أن تبالغ فى تمثيل أو تقــدير مصالحها التى هى موضـــع النزاع . فكلما عظمت معقولية افراطهـــا فى تمثيل هـــذه المصالح وعظـــم خـــداع النفس بصـــدد هــذه المصالح . أصبحت تهـديداتها أشـــــد فعالية . عنـــا تقرب نظرية الردع من أن تصبح نظرية فى خـــداع الذات .

ونظرية الردع تثير الاهتمــــام ومهمـــة . ولكن فيها ثغرات خطيرة ويحتمل أن تكون قاتلـــة . ويبــدو انهـــا موضع تصـــديق واسع الانتشـــار من جانب ساســـة لهم نفوذهم وقادة عسكريين وقطاعات من الراى العـــام فى البـــلاد كثيرة . وهى تلخص وتوفق بطريقة بـــديعة وذكيـــة بين كثير من المعتقدات الشعبية التى تعتنقها هـــــذه المجموعات من النـــاس . وعلى أى حـــال ؛ عملت الكثير فى تحسين التفكير فى هـــذه المسائل . فقــد احلت روح اللعبـــة والحساب محل روح الحرب الصليبية . وعلمت النـــــاس أن ينظروا دائما الى كلا جانبى لوحـــة اللعب وأن يأخـــذوا فى الاعتبـــار قـــدرات خصـــمهم الحقيقية والاستراتيجيات التى يمكن أن يأخـــذ بهـــا . وابدلت الحماس المؤمن بأنه على حق . بالعقل الناقــد . وعلمت الخصوم أن يوجهوا الاهتمام الى المصـــالح التى يمكن أن يشـــاركوا فيهـــا وكذلك المصالح المتعارضة .

وفى الوقت نفســـه خلقت نظرية الردع أخطارها هى ؛ العاطفية وكذلك المتصـــلة بالأدراك الحسى . لقــد شـــجعت بعض الناس على أن يلعبـــوا فى خيالهم بحياة وموت الملايين ، وان « يفكروا فيما لا يمكن التفكيـــر فيـــــه » (على حـــد تعبير هرمان كاهن) ، وان يفكروا فى موت مليون من الانفس بنفس السهولة التى يفكرون بهـــا فى انفـــاق مليون من الدولارات . وفى صـــفوف اناس مختلفين شجعت بعض القساوة . وقـــدرا من تصلب المشـــــاعر ، وبعض اعتقاد بأن الغـــاية تبرر جميع الوســـائط ؛ وبعض اســــتعداد لخفض الحواجز العاطفية بمـــا يسمح بالقتل والتعذيب الجماعى كوســـيلة

محتملة من وسائل السياسة العامة . ومن كل هذه النواحى شكلا تحديا خطيرا لاهم تقاليدها الدينية والاخلاقية .

بل ان اخطارها المتعلقة بالادراك الحسى أعظم اذ انها فى حالتها الراهنة تطلق فتنفذ من خلال نقاط الضعف الفكرى ، ويبدو أن ثمانيا من نقاط الضعف هذه تستأهل ان نوردها هنا . يمكن علاج ثلاث منها بطريقة سهلة نسبيا بأن نحسن استخدام الامكانات الذهنية التى تتيحها نظرية المباريات حتى فى حالتها الراهنة ، أما العيوب الخمسة التى تتسم بها نظريات الردع الحالية فيبدو من المحتمل انها تتطلب تغييرات أبعد مدى فى تفكيرنا .

تميل النظرية الراهنة فى الردع الى جانب التفكير قصير الاجل . فأولا تميل الى معاملة قدرات المتبارين على أنها ثابتة ؛ والى اهمال فرص الصراع المضاعة بالنسبة الى كل منهم . وتوجه اهتماما الى ما يستطيع كل منهم ان يأخذه من الآخر فى حالة الاتصال والصراع ، هو أكثر بكثير منه الى ما يستطيع كل منهم أن يحصل عليه بنفس ما يملك من الموارد ، لو انهم تفادوا الصراع او حدوا منه كثيرا وبصفة مؤقته ، وجرى استثمار الموارد التى ادخرت استثمارا منتجا فى نواح أخرى . وثانيا ، كثيرا ما تميل الى النظر الى المخاطر العاجلة التى تنطوى عليها معظم الصراعات الدولية الرئيسية ؛ على أنها اكبر من تكاليف الحرب النووية ، وبهذا تميل الى معاملة هذه الصراعات على أنها اشبه « بورطة السجناء » (التى توحى بدوافع قوية للشك والعداء) منها بمباراة « الكتكوت » وان كان النموذج الاخير قد يكون أكثر واقعية فى بعض الحالات .

ثالثا : يشدد الكثير من نظرية الردع الراهنة على اللقاءات او المواجهات الواحدة بأكثر مما يشدد على المتكررة ، حتى وان كانت تكتيكات العاب الضربة الواحدة أو العاب « نهاية العالم » مختلفة عن التكتيكات اللازمة لمباريات البقاء . مثال ذلك أن التفاوض بعد ان يكون خصم قد بدأ القاء القنابل على أرض طرف ، قد يبدو معقولا فى تلك اللحظة ولكن هذا قد يغرى الخصم بتكرار هذه التكتيكات فى وقت النزاع التالى وبهذا يفتح الباب أمام سلسلة من اعمال التخويف والاستسلام المتعاقبة وبذلك ، قد يكون رفض سافر للتفاوض تحت الاكراه اكثر تكتيك اتفاقا مع العقل ، يتبعه شعب لم يهزم بعد . والحقيقة ، أن هذا كان فى الواقع التكتيك المضاد الذى استخدمته طيلة أكثر من قرن ، معظم الشعوب التى لم تكن قد هزمت فعلا أو عزلت على نحو لارجاء فيه ، أو تعرضت للارهاب الذى يحملها على الرضوخ .

والنقائص الباقية التى تنطوى عليهـا نظرية الردع أشـد خطورة . أولا ، تفترض النظرية الجـارية أن لكل من المهـدد والمهـدد سيطرة كاملة على سـلوكهما . ولكن هـذا الغرض كثيرا مـا يكون باطلا تماما ، فبقـدر ما يتصرف الـذى يطلق التهديد تصرفا بعيـدا عن المعقولية ليزيـد امكانية تصـديق تهـديدا وبـذا يقلـل بطريقة تكاد أن تكون حتمية ، من امكانيـة تصـديق محاولة اشـاعة الاطمئنان بانه لن ينفـذ بالتأكيد تهديده اذ نزل الطرف الآخر على مطالبه . واذا استخدم تكتيكات متهورة ، فـلا يستطيع المهـدد (بالكسر) التحكم فى تهديداته ومـا يحـاول أن يبعث بـه الطمأنينة فى الوقت نفسـه . ولـكن اذا استخلص المهـدد (بالفتح) أن المهـدد (بالكسر) المتهور بصـورة رهيبـة والبعيـد عن جـادة العقل سـوف يصيبه بأشـد مـا يقـدر عليـه فى أى حـال ، فعندئـذ يفقـد المهـدد (بالفتح) الدافـع له على الرضـوخ فكأنه كالذى يشـنق بسبب شـاة كما يشنق من أجـل حمل ، واذ ليس هنـاك ما يخسره ، فقـد يتحـدى المهـدد الآن . بحلول عـام ١٩٣٩ كان هتلر قـد أصبح موضع التصـديق بأكثر مما كان فى عـام ١٩٢٦ . ولكن الآن اخفقت تهديداته فى الحيلولة دون دخـول فرنسا وبريطانيا الحرب ضـده ــ لا لأن حكوماتهما لـم تأخـذها مأخـذ الجـد (أخذاها بالفعل) وانما لانهـا الثقة فى تأكيداته .

لكن قـد يكون المهـدد (بالفتح) أقـل سـيطرة على سلوكه . ان نظرية الردع التقليدية تغفل عن أن تأخـذ فى الحسبان احتمال تصرف مستقل من جانب السـلوك الذى يراد ردعـه ــ اى الذى يريـد المهـدد (بالكسر) أن يمنعه . فاذا كان من غير المحتمل أى يقع على أى حـال هكذا المسلك من جانب المهـدد (بالفتح) والـذى يراد منعه ، فعندئذ قـد ينجح الردع بسهولة أو على الاتـل يبـدو كذلك . ولكن اذا كان السلوك المراد منعـه محتملا جـدا فى العـادة ومتكررا ، أو تسانده دوافع قوية كمـا فى حـالة حركة دينيـة أو ثورة اجتماعية . فعندئذ يجب أن يكون قويا للغـاية بحيث يحـول دونه تماما ، وأعظم الاحتمال أن تفشـل أمثـال محـاولات الردع هـذه .

ثانيا : كثيرا ما تغفـل نظرية الردع أن تحسب **الخطر التجميعى** . من المحتمل أن السـارق المتهور الـذى يتحدث عنـه تشيلنج ، يتخـذ الطريق الصحيح عنـد أول تقاطع وبـذا يجتازه بسرعة حيـا . لنفرض أن فرصة فى البقـاء على قيـد الحياة ٩ر. أو ٩٠ فى المـائة . ولنفرض فى هـذه الحالة أنـه يواصل تكتيكاته المتهورة وأن فرص البقـاء والنجاح أمـامه فى كل لقـاء عنـد التقاطعات هى ٩٠ فى المـائة من ٩٠ فى المـائة ، أو ٩ر٢. وهى ٨١ فى المـائة . وفرص بقائه حيـا بعـد لقاءات ثلاثة هى ٩ر. اى ٩ر٧٢ فى المـائة ، وانهـا حوالى ٥٩ فى المـائة فى لقـاءات اربعـة ، وأقـل من ٥٤

فى المـــائة بالنسبة الى لقـــاءات خمسة ، وأقل من ٥٠ فى المـــائة فى حـــالة لقـــاءات ســـبعة ، وانهـــا ســـوف تقل بنسبة النصف فى كل ســـــبعة لقـــاءات اضافية . ومن ثـــم لا يتيح ٢١ لقـــاء متتالية للاعب الـــذى يتعرض لمثـــل هـــذا الخطر الكبير ، سوى فرصـــة واحـــدة من بين ثمـــان فرص للبقاء حيـــا ، فاذا كان عـــدد اللقاءات ٤٩ كانت فرصـــة واحـــدة من بين ثمان فرص للبقـــاء حيـــا ، فاذا كان عـــدد اللقاءات ٤٩ كانت فرصـــة البقـــاء حيـــا من واحد فى ١٠٠ ، وتهبط الى أقـــل من فرصة فى كل ١٠٠٠ اذا كانت اللقاءات ٧٠ . أمـــا أن كل لقـــاء مفرد يتيح لـــه تسع فرص من ١٠ فيكاد ألا تكون لـــه أهمية بالقياس الى الاثر القاتل المترتب على المخاطر التجميعية . ان الشئون الخارجيـــة للشـــــعوب والدول التى تعتزم ان تعيش فترات طويلة من الزمن ، يجب أن تحكمهـــا أســـاليب يحتمل ان تتيح لهـــا البقـــاء على قيـــد الحياة أجيالا وقرونا ، ومن ثم عن طريق عشرات من لقاءات السياســـة الخارجية ، مليئة ببعض خطر الحرب .

لا تزال نظرية الردع التقليدية أشـــد خطورة فى فرضـــها الاســـاسى الثالث وهـــو أن يظل المهـــدد والمهـــدد اى حكومات وصفوات كلا البلدين فى مواجهة من الردع . يلتزمان جـــادة العقل تمـــاما تحت الاكراه (كمـــا فى أزمـــة تشمل التهديدات والخوف والقلق والتعب وعبء الاتصال) . أن التجربة فضـــلا عن قـــدر طيب من البحث فى عـــلم النفس ، يوحيان بالعكس ، ذلك أن الرجـــال الذين يعانون من التوتر ويتملكهم الخوف ويشـعرون بالاعيـــاء — بمـــا فيهم الساسة والعسكريون — يميلون الى أن يفقدوا ضـــبط النفس وان ينزعوا الى العـــدوان ، بينما تصبح مدركاتهم أقـــل دقـــة واحكامهم أقـــل سدادا . وباختصار نقول انهم يصبحون أقـــل اهتداء بمقتضيات العقل — حتى ولو كانت نظرية الردع تشير على المهـــدد (بالكسر) أن يجعل حيـــاته شـأنها شـــأن حياتهم . متوقفة على استجاباتهم العاقلة لتهديداته .

ورابع الفروض الأساسية ولكنه موضع الشك ، التى تقوم عليهـــا نظرية الردع ، فرض خفى . انه الفرض الضمنى عن بعض عدم تماثل هام بين المهدد والمهدد وخاصة عندما يكون بلد الكاتب مشتبكا فى النزاع . يفترض القادة السياســـيون والعسكريون الامريكان أن الأجانب يمكن تخويفهم بالتهديدات أو بمظاهر قـــوة لا يمكن أن تغضب سوى الامريكيين ، وكثيرا ما يجرى الافتراض بصورة تـــكاد ان تكون آلية . بأن الاجنبى أضعف من حيث قدراته أو فى دافعه على استمرار النزاع أو فى ثباته وقوة احتماله للخطر . فى عصر القومية الذى نعيش فيه ، فان هـــذا وهم مشهور ودولى بدرجة أكبر أو أصغر ، تشجعه كثيرا كل حكومة تقريبا على ان يشيع فى صفوف مواطنيها . ولكنه وهم يمكن أن يكون قاتلا فى سياســـــة ى الردع النووى .

ربما يكون الفرض الخامس الأساسى من الفروض التى تقوم عليها نظرية الردع ، هو أهمها جميعا ، وهو فرض يمتد الى الطبقة الأكبر بأسرها من طبقات نماذج المباريات • انه ذلك الفرض عن **دوافع** اللاعبين **التى لا تتغير** من أول المباراة حتى آخرها • وطبقا لهذا الفرض يجب ان تكون رغبة اللاعبين المعقولين هى الفوز ، وألا يريدا شيئا سواء من بداية المباراة حتى نهايتها • ولكن هذا الفرض لا يصلح بالنسبة الى شئون البشر وخاصة بالنسبة الى السياسة ، ذلك أننا نعلم أن الافراد والمجموعات والأحزاب والحكومات والشعوب كلها تغير رأيها ، وكثيرا ما تفعل هذا خلال صراع ما تشتبك فيه ، كما ان سير الصراع نفسه قد يستدعى بعض هذه التغيرات •

هذا الفرض عن الدوافع التى لا تتغير هام بوجه خاص بالنسبة الى حساب النجاح الذى يحتمل ان يحققه ابردع عن طريق التهور المحسوب او اللامعقولية الجزئية — التهديدات التى تترك شيئا للصدفة — مما درسه شيلنج • فاذا ظلت أفكار المهدد (بالفتح) وتصوراته وقيمه بدون تغيير بينما هو واقع تحت امثال هذه التكتيكات ، فعندئذ يكون من المعقول فى الواقع أن يستسلم لها • ولكن هذا الفرض ليس مقبولا فى الظاهر • فقد تتغير تصورات المهدد (بالفتح) عن المهدد (بالكسر) • فاذا حاول الأخير أن يظهر بمظهر الذى يتسم ببعض اللامعقولية — بأن يزيد من سرعة سيارته عند نقاط التقاطع ، بعدم اصاخة السمع خلال المفاوضات ، أو بالتظاهر بأنه يترنح أو ثمل بينما يحمل متفجرات قوية وهو يمر أمام خصمه ، أو ربما فى حالة زعيم أمة ، بأن يتعمد اشعال الرأى العام الداخلى — فعندئذ يحتمل ان يرى فيه خصمه طرفا غير معقول الى حد كبير أو كلية ، وبذا يرى فيه تهديدا أعمى يجب القضاء عليه بأسرع ما يمكن مهما كان الخطر الذى ينطوى عليه هذا الموقف • فأعظم الاحتمال أن التهديدات بالأسلحة النووية والتى تبدو غير معقولة أو لا يتحكم فيها صاحبها تماما ، قد تستدعى هجوما نوويا « وقائيا » من أى طرف معرض للتهديد اذا كانت لديه القدرة على شن **هجوم كهذا** •

وقد يعمل فى الاتجاه نفسه تحول فى قيم الطرف الذى تلقى التهديد المتهور • فالتهديدات من « النوع الذى وصفه شيلنج » تحقق أكبر قدر من الأثر فى المواقف الشبيهة بلعبة « الكتكوت » أى المواقف التى تكون فيها العقوبات المترتبة على عدم تعاون الطرفين ، اكبر من العقوبات التى تحل بأى من الجانبين نتيجة استسلامه ، وهذا بالضبط السبب الذى من أجله نجد المهدد (بالكسر) الأشد تهورا الذى اسرع بسيارته ، أو التزم مبكرا بشىء لا يمكن الرجوع فيه ، قد يتوقع ان تحمل المصلحة الذاتية خصمه على التسليم له بصدد المسألة الأقل قيمة التى هى موضع الخلاف فى هذا اللقاء • لكن فى الحقيقة قد تتغير الآن قيم المهدد (بالفتح) تغييرا حاسما • لم يُعد ما يهمه الآن ذلك الموضوع التافه نسبيا الذى دار حوله النزاع الأصلى — مثل حق المرور عند التقاطع الأصلى ، أو شقه غير ذات قيمة

نسبيا من أرض تتنازع بشأنها الحكومات فى صراع على الحدود ــ ولكنه قد يضفى الآن قيمة عالية للغاية على **عدم التعرض لتكتيكات أمثال هذه الضغوط الشـــديدة** ٠ فقد يقول راكب سيارة ثارت مشاعره : « سوف أمر فى هذا الطريق أولا حتى ولو كان آخر شئ اعمله » حتى ولو لم يكن فى عجلة خاصة عند ذلك التقاطع ، وقد تفضـــل الحكومة والرأى العام فى بلد واقع تحت التهديد ، أن يتعرض لأكبر المخاطر بدلا من الرضوخ للتهديدات حتى فى نزاع تافه أصلا ٠ بالمصطلحات الرياضية يكون التغيير فى حجم منافع المهدد (بالفتح) قد حول الصراع الأصلى وكان من نوع « لعبـــــة الكتكوت » الى ورطة سجناء حقيقية ، على الاقل بالنسبة الى لاعب واحد ، وفيها اصبحت عقوبة ما أقدم عليه من استسلام CD اكبر بشكل حاسم من نصيبه من العقوبة المشتركة المترتبة على الصراع المتبـــادل DD ٠ وعنـــــدما يحدث هذا فان التهديدات من « الطراز الذى يصفه شيلنج » عن طريق التزامات لا رجـــوع فيها أو فقدان جزئى للسيطرة ، نقول أن من المحتمل ان ـــذه التهديدات لا تحقق الأغراض المتوخاة منها او تنطوى على امكانية تحطيم نفسها ، ولا يمكن لمن ســـبق أن أطلق تهديداته بروح من التهور ، أن ينقذ نفسه الآن الا بعودة سريعة الى تكتيك الاعتدال والتعاون المتبادل ٠

وعلى ذلك ففى مراحل صراع قائم على الردع يستطيع كل من المهدد والمعرض للتهديد ، ان يغيرا بمسلكهما والى حد ما ، قيم وتصورات كل منهما فضـــــلا عن قيمهما وتصوراتهما ، ويمكنهما ان يزيدا أو يقللا من نسبة المصالح المشـــــتركة بينهما ٠ وبقدر ما يغير كل منهما دوافع الآخر ، يصبح النزاع بينهما جدلا حقيقيا أكثر مما هو مباراة ألعاب ٠

المجادلات : النزاعات التى تسمح بتغيرات فى الصور والدوافع

يمكن أن يطلق اصطلاح « مجادلات » بالمعنى الدقيـــق على الصراعات التى فيها يغير الخصوم دوافع بعضهم بعضا وقيمهم والصور التى يرسمونها للواقع ٠ ليست جميع مبادلات الالفاظ أو الرسائل ، ولا جميع الاحداث التى توصف بأنهـــا « مجادلات » هى مجادلات حقيقية بهذا المعنى ٠ عادة لا يحاول فريقان من طلبـــة المدارس الثانوية يشتركان فى مناظرة ، أن يغيرا افـــكار كل منهما حول موضـوع المناظرة الذى يتصادف تخصيصه لهما ، وبدلا من هذا فانهما مشتبكان فى مبـــاراة يتنافسان فيها من أجل التأثير على حكام المناظرة ، وربما على جمهور الحاضرين ٠ فى هذه يلعب الفريقان من أجل الفوز ، فاذا أعلن فريق فى وسط « المنـــاظرة » أن خصومه كسبوها بفضل حججهم ، يكون قد تعلم شيئا عن الموضوع محل النقاش ولكنه يكون قد خسر المباراة ٠ واجراءات الخصوم فى المحاكم تتسم فى العـــادة بمثل هذا الطابع الذى يميز مباريات الالعاب ٠ فممثل الادعاء ومحـــــامى الدفاع لا يحاولان أن يقنع كل منهما الآخر ، كما لا يحاول مثل هذا الأمر محامو الاطـــراف

المتنازعة فى قضايا القانون المدنى • فهم فى كل قضية يحاولون أن يكسبوها ، وعادة بالتأثير فى قاض أو هيئة محلفين ، وبقدر ما يظفر جانب يحكم لصالحه بخسر الجانب الآخر • القاضى أو المحلفون هم وحدهم الذين يتوقع منهم أن يغيروا رايهم نتيجة لمرافعات الخصوم ، والمفروض (وعموما لسبب طيب) أن الطرفين المتنازعين اذ يكشفان للقاضى عن جميع الحقائق المتصلة بالموضوع ، انما يحسنان صنعا بأكثر مما يفعل موظف محايد يتولى البحث والتحقيق •

أمام المناقشات فى الهيئات التشريعيه فرصة افضل كى تصبح مجادلات حقيقية ، وينطبق هذا على المفاوضات بين الدبلوماسيين الذين يمثلون الحكومات ، وعلى محاولات ممثلى الحكومات فى المنظمات الدولية • فى كل من هذه الحالات بالطبع ، يحاول المشرعون والدبلوماسيون أو مندوبو الحكومات أن يظفروا بشىء للمصالح أو الأطراف أو المجموعات أو الحكومات والشعوب التى يمثلونها • وكثيرا ما يجب عليهم أن يظفروا بشىء للمصالح التى يمثلونها على حساب أية مصالح معارضة لها ومن ثم على حساب مجموعات أو حكومات اخرى • ولكن غالبا ما لا يكون معروفا تماما أية نتائج أو حلول تحقق فى الحقيقة أعظم فائدة لكل طرف يمثله المفاوض ، وقد يظل من المتعين اكتشاف النتائج الانسب لكل طرف وربما التى تكون موانية لعدة من الأطراف المعنية سويا أو لهم جميعا . واذا جرى الكشف عنها فلا بد من تقديمها لتظفر بالقبول والموافقة •

وبناء على ذلك تكون المفاوضات الحقيقية مزيجا من مباراة تنافسية تصحبها رحلة كشف مشتركة وحملة متبادلة تهدف الى اجراء تقييم وتصحيح متبادلين لمدركات وتفضيلات عدة من الأطراف المعنية او كلهم • ففى المفاوضات الطويلة التى ادت الى معاهدة الحظر الجزئى للتجارب النووية والتى وقعتها الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى فى عام ١٩٦٣ — وانضمت اليها بعد ذلك معظم شعوب العالم باستثناء فرنسا والصين الشيوعية ، هذه المفاوضات مثال عن جدل حقيقى من هذا القبيل • فبروح من الرزانة والتعقل فى اثنائها ، بالاضافة الى ما للدول المختلفة من مصالح تنافسية ملحة ، نشأت ايضا مجموعة من مدركات ومصالح مشتركة ، كانت من القوة بحيث أدت الى قرار تقبلته جميع البلاد تقريبا باعتبار أنه يتفق مع مصالحها •

وبرغم ما يبدو من ان المجادلات الحقيقية ، من قومية أو دولية ، لا يمكن أن تحسن نماذج مباريات الألعاب تمثيلها ، بل ولا أن تمثلها فى الواقع أى من عمليات « القتال » الصماء شبه الآلية التى سلفت مناقشتها ، فلسنا نفهم جيدا الطبيعة الدقيقة لأمثال هذه المجادلات • ومع كل ، هناك قدر طيب من الخبرة العملية عن المجادلات ، استمدت منه عناصر من الفراسة والحكمة العملية ، منها ما يمكن أن يدعى مبدا **اعادة تحديد المواقف على نحو يلقى القبول من الاطراف المعنية سويا** • فطبقا لهذا المبدأ يعظم الاحتمال بأن يؤدى الجدل الى اكتشاف حل يكون مقبولا من

كلا الطرفين ويعود عليهما بالنفع ، اذا اكتشف كل جانب ما يقول الآخر فعلا — أى اذا عرف أن يبين لنفسه قضية خصومه فى صورة هى من الوضوح والجاذبية بحيث تلقى القبول من هؤلاء الخصوم انفسهم ·

وثمة خطوة جوهرية أخرى هى ان يكتشف كل جانب على أية اسس يمكن اقناع الجانب الآخر بصدق أفكاره هو · وبعد أن يكتشف جانب ما فى أذهان خصومه من أفكار أو صور للواقع ، يتعين عليهم أن يكتشفوا **مجال صحة** كل فكرة من هذا القبيل · ففى نزاع بين بلد خرج حديثا من تحت السيطرة الاستعمارية وبين « البلد الأم » التى كانت تسيطر عليه من قبل ، فمن المحتمل أن يشكو المتحدثون باسم الشعب الجديد مما كانوا يتعرضون له من ظلم أو استغلال على ايدى سادتهم من المستعمرين ، بينما يميل المتحدثون باسم البلد الاستعمارى السابق الى التأكيد على الفقر الأصلى الذى كانت تعانيه المستعمرة السابقة وعلى التحسينات والمنافع التى جاء بها الحكم الاستعمارى لأهل المستعمرة · كل فكرة من هذه الأفكار يحتمل أن تكون صحيحة بالنسبة الى عدد محدود من الحقائق ، وغير صحيحة بالنسبة الى حقائق أخرى · فاذا تعلم كل جانب أن يكتشف مجال صحة افكار خصومه التى تبدو بعيدة عن الصواب ، ومهما كان هذا المجال صغيرا ، واذا اكتشفا أيضا حدود صحة أفكارهم (والتى تبدو معقولة) فعندئذ يزيد الاحتمال وان لم يكن التأكد ، بقيام نقاش صحيح يسفر فى النهاية عن نتيجة مثمرة وتعود بالنفع على كلا الجانبين ·

على نحو ما توحى به هذه الأمثلة ، فان الكثير من المواجهات الفعلية بين المجموعات ذوات المصالح أو المصالح أو الأطراف أو الشعوب أو الايديولوجيات المتنازعة ، قد تتصف بالكثير من خصائص المجادلات · فاذا كان الامر كذلك فقد نتوقع فى هذه الحالة أن الزمن والأحداث ونتائج سلوكهم لن تغير فى نهاية الامر حظوظ المتنازعين وحدها فحسب ، بل وتغير أيضا نظرتهم وأهدافهم وقيمهم · ويمثل هذا المعنى نوعا سبق أن لاحظ جون ديوى أن الناس لا يقررون الكثير من الخلافات الناشبة بينهم ولكنهم يتغلبون عليها · لكن بصرف النظر عن أمثال هذه الأقوال الحكيمة هذه ، لا يزال علينا أن نرسم نماذج صورية مناسبة للمجادلات الحقيقية ·

كثيرا ما تكون الصراعات الفعلية بين الدول شبيهة بمزيج من المعارك ومباريات الألعاب والمجادلات ، التى تكون فيها الغلبة لهذا العنصر أو ذاك فى المزيج فى أوقات وأماكن مختلفة ، وعندئذ ينحصر فى الساسة والحكومات والمواطنين المسئولين فى معالجة هذه الصراعات الدولية بحيث يبقيها داخل حدود يمكن احتمالها ، اى أن تحمى بقدر ما يسمح به التيار ، المصالح الوطنية بينما تواصل هذه المصالح نفسها التطور والتغير ، وأن يكسب الوقت والقوة ، ويضمن البقاء القومى ·

الفصل الثانى عشر

الدبلوماسية والمحالفات الائتلافية

تجد اى دولتين مشتبكتين فى صراع ان كلا منهما تعتمد على الاخرى دائما وبصورة غريبة حتى ولو كانت مصالحهما متعارضة . وينحقق عذا لأن حكومة أى من الدولتين لا تستطيع الحصول على كل ما تريده بغير قدر من التعاون (الطوعى أو الاجبارى) من جانب الاخرى ، أعنى ان الدولة الواحدة لا تستطيع ان تحقق كسبا (وتطالب بطريقة مشروعة) ضد الأخرى الا اذا سمحت الأخيرة بخسارة تقابله (وسلمت بها بشكل سافر) . فى ظل ظروف صراع من هذا القبيل ، يحاول حكام كل دولة بالطبع ان يجعلوا الاخرى تعمل ما يريدون (وتوافق عليه) وذلك بأية وسيلة يبدو أنها تناسب الموقف القائم فى حينه ـ وكلما كانت الوسيلة اقل ارباكا وتكلفة ، كانت افضل .

الدبلوماسية :

اولا وقبل كل شىء ، تستطيع الدول بالطبع ان تتفاوض وتساوم عن طريق المسالك الدبلوماسية العادية . ان سفراءها ووزراء خارجيتها وكبار الموظفين الدبلوماسيين ، هم فى العادة مفاوضون من أهل الخبرة ، ويعرفون انه اذا أريد الحصول على معروف فقد يتعين على المرء أن يعد بمثله بالمقابل ، ويعرفون أن فى امكانهم احيانا ان يضعوا فى كفتى المساومة مقترحات مهذبة مؤداها ان الافضال التى سبق منحها للبلد الآخر يحتمل ان تظل قائمة اذا جرت الموافقة على الرغبات الحالية التى تبديها حكومتهم .

والمساومة من هذا النوع كثيرا ما تشبه مباراة فى الدبلوماسية طبقا للقواعد التى تعامل بها تصورات ومصالح كلا الطرفين . فأولا يجب على الدبلوماسيين من كلا الجانبين أن يرسموا استراتيجيتهم التى تبشر بأكبر قدر من النجاح ، وذلك فى تقديرهم للاستراتيجية التى يحتمل ان يتبعها الجانب الآخر ، ثم يمارسون لعبة المساومة من حركة الى حركة ، ومن اقتراح الى اقتراح مضاد ، بأفضل ما يقدرون عليه . الى ان يتم الوصول الى نتيجة يقبلها الجانبان ، أو تفشل المفاوضات وتؤجل أو تتقطع . بل واحيانا كما راينا فى الفصل المتقدم ، قد تتخذ امثال هذه المفاوضات طابع أو بعض طابع جدل أو حوار حقيقى بين الحكومتين والشعبين . وفى هذه الحالة يتعلم كل بلد وحكومة شيئا فى خلال عملية التفاوض . وبناء على ذلك يمكن ان تتغير الصور التى يرسمها كل طرف للآخر أو للواقع الخارجى ، بل وقد تتغير بعض الأشياء التى يفضلونها وقيمهم . واذا كانت هذه التغيرات تميل الى ان تجعل المصالح الجارية لكل بلد اكثر اتفاقا مع مصالح الآخر

فعندئذ يمكن أن تغطيها مواقف التفاوض ، ويزداد الاحتمال فى الوصول الى اتفاق يرضى عنه الجانبان • لكن فى السياسة الدولية يتصرف كل شعب فى العادة كما لو كانت له مصلحة فى التأثير فى هذه العملية بطريقة تحمل الآخر على أن يغير بقدر الامكان فى أفكاره بينما يقبل أقل تغيير ممكن فى أفكاره • وجرت العادة أن يفضل كل شعب أن يتحدث بدلا من أن يستمع ، وأن يعلم بدلا من أن يتعلم • وهكذا يحاول كل شعب أن يحقق الكثير من التغيير فى خصومه أو شركائه بينما لا يقبل بالنسبة الى نفسه الا القليل من التغيير • (فى بند سابق من هذا الكتاب وصفنا هذا النوع من السلوك بأنه ممارسة القوة — وصافى القوة بوجه خاص) •

وأرق الادوات نسبيا لممارسة السلطة على بلد او عدة بلدان أخرى هما النفوذ والدعاية • ويتمثل النفوذ فى استخدام بعض قيم ومصالح الاشخاص والجماعات داخل البلد المعين لتأييد السياسات التى تسعى بلد تخص ما تأييدها هناك • وتتمثل الدعاية أساسا فى الجهود المبذولة لتغيير صورة الواقع العاطفية والادراكية التى يتصورها بعض أفراد أو جميع سكان البلد المستهدف لاغرائهم بالتصرف كقادة حسب رغبة البلد صاحبة الدعاية •

ان أعضاء الصفوة الأجنبية يمكن جعلهم أكثر تقبلا لرغبات بلد ما اذا هم تلقوا تعليمهم هناك وخاصة فى مدارسها وجامعاتها الراقية • وقد يقدم البلد صاحب النفوذ مثل هذا الطعم أوسمة تكريم وجوائز لأعضاء الصفوة فى البلد المستهدف • والمنح الدراسية للطلاب الموهوبين والاعانات المالية لبعض المؤسسات الثقافية الفقيرة • وقد يجرى كذلك تبادل البرامج الثقافية والمكتبات والمستشفيات وزيارات الشعراء البارزين أو العلماء لخدمة الغرض نفسه •

وبخلاف هذا يمكن أن توجه جهود جماعية بهدف التأثير . الى وسائل الاعلام بالجماهير فى البلد الذى يراد التأثير فيه ، بأن تزود بفيض من الاخبار المناسبة والمقالات أو الصور ، بالمجان او بأثمان مخفضة ، أو أن تلتزم باستيقاء معظم أنبائها الدولية من احدى وكالات الأنباء ذات الصبغة الاحتكارية بوجه عام ، فى احدى القوى العظمى ، مثل رويتر فى بريطانيا ووكالة فرانس — برس بفرنسا ، ووكالة كيودو فى اليابان . DNB بألمانيا ، وتاس فى الاتحاد السوفييتى . وأسوشييتدبرس (أ ب) والصحافة المتحدة الدولية (ى ب) فى الولايات المتحدة • ان نظرة سريعة الى الحروف الاولى الدالة على وكالة أنباء ذات نطاق عالمى وتقدم معظم الانباء الدولية للصحف الرئيسية فى أحد البلاد النامية ، هذه النظرة غالبا ما تكفى للايحاء بالدولة الكبرى التى تمارس اكبر التأثير على البلد •

ويمكن استخدام وسائل اعلام جماعية اخرى بنفس الطريقة • فمثلا انه عن طريق عرض افلام كثيرة فى بلد ما (وهى عادة تتم على اساس اتفاق ثقافى أو

تجارى محدد) ، أو عن طريق نصيب كبير من برامجها التليفزيونية ، تستطيع دولة كبرى أن تزيد من نفوذها غير المباشر ٠

وبعض اساليب التأثير مباشرة بدرجة أكبر ٠ مثال ذلك انه يمكن تحقيق سيطرة جزئية على وسائل اعلام أجنبية عن طريق توجيه الاعلانات او شراء الملكية أو الأسهم ٠ ويمكن دعوة رؤساء تحرير للصحف لزيارات رسمية تمتد وقتا وتصحبها دعاية واسعة ، أو تقدم الاعانات الى المحررين كما تقدم الى الصحف ، سرا وبطرق متنوعة ٠ ويمكن عمل شىء من هذا القبيل فى بعض البلاد بالنسبة الى بعض السياسيين والجماعات ذوات المصالح او الفرق أو الاحزاب السياسية ، بل وبعض موظفى الحكومة المدنيين ، والعسكريين والبوليس أو الحكومة نفسها ٠ اذا كان أى من هؤلاء يقبل أن يباع فهناك الكثير من طرق شرائهم فى هدوء ، أو على الاقل مساندة اطماعهم ، أو اذا كانوا يقدمون خدماتهم مجانا فلا يزال فى الامكان تقديم الاعانات لهم حتى يكونوا أشد تأثيرا ٠ عند هذه النقاط بالطبع يحمل التأثير والدعاية ظلالا توحى بالرشوة والتسرب والتخريب وغير ذلك من صور شائنة للحرب السياسية — ولكن نادرا ما حال هذا دون التجاء الحكومات الى أمثال هذه الأساليب واستخدامها ضد البلاد التى تبدو فى مركز غير منيع ، وحيث تبدو المصالح الرئيسية معرضة للخطر ٠ غير أن جميع المحاولات التى من هذا القبيل قد ترتد على أصحابها اذا اكتشفتها فى الوقت المناسب الحكومة المعرضة لها ، واذا كان شعبها وقد ثارت مشاعره ، قادرا على المقاومة القوية ٠

مثل هذه الجهود التى تبذل من أجل التأثير فى بلد من الداخل تكملها طرق لاخضاعه للدعاية ومختلف صور الضغط من الخارج ٠ يمكن لوسائل الاعلام فى البلد الذى يمارس التأثير ، أن تشن سيلا أو حملة متصلة من الدعاية ضد الحكومة المتحدة هدفا بقصد محاولة حملها على الاستسلام بصدد مسألة هى موضع النزاع ٠ فتطلق الاذاعات من الخارج ضد أهلها ، بل وقد تضاف مكبرات الصوت عند نقاط على الحدود ٠ ويمكن ارسال كتيبات أو نشرات بالبريد ، أو يجرى تهريبها ، أو يلقى بها من الطائرات أو البالونات ، أو تنظم حملات تدعو الأفراد الى كتابة رسائل ، وهى حملات توجه الى تلك المجموعات من أهل البلد المستهدفة (بفتح الفاء) والتى ربما يمكن أن تتأثر بها ٠

نادرا ما تحقق مثل أساليب الدعاية هذه الكثير جدا من غرضها الا اذا كانت حكومة بلد الهدف على حافة التغيير ٠ وعادة يتمثل الأسلوب الأشد فعالية فى كسب مراكز رئيسية للسيطرة أو النفوذ فى داخل البلد الهدف ، أو الحصول على أدوات رئيسية حقا للضغط عليه من الخارج ٠ ولهذا الغرض قد يكون من المفيد أحيانا والى حد كبير ، السيطرة على الصناعات أو المشروعات الاقتصادية الكبرى فى البلد المستهدف ، مع ما يصحبها من كافة الاتصالات ومسالك التأثير الاقتصادى

والسياسى والاجتماعى • وقد يكسب البلد الذى يحاول التأثير ، مركز قوة فى داخل البلد الهدف عن طريق تقديم اسلحة أساسية أو معدات المواصلات الى العسكريين المحليين او البوليس المحلى ، الذى يبعثون فى هذه الحالة ببعض ضباطهم ممن سيشغلون مراكز رئيسية فى المستقبل ، للتدريب على استخدام هذه الاسلحة والمعدات والذين يظلون بعد ذلك معتمدين على البلد الذى ارسلها لتزويدهم بقطع الغيار وتقديم المساعدة فى المشكلات الأشد تعقيدا المتصلة بالصيانة المنتظمة وبالتجديد حتى لا تتقادم هذه الأسلحة والمعدات •

ويمكن أن يكون الوعد بمثل هذه الامدادات والمساعدة ولكن مع الابطاء فى ارسالها أو منعها ، أداة قوية للضغط وخاصة فى حالة أزمة • ويمكن أن يكون كذلك عرض أو رفض (وهذا متوقف على الظروف) شراء بعض صادرات البلد الهدف والتى بغير هذا يكون من الصعب بيعها ، أو منح أو منع قرض تشتد الحاجة اليه فى وقت ضائقة مالية ، أو الاسراع أو الابطاء بارسال شحنات من الغلال بعد أن يكون عجز المحصول فى بلد الهدف قد جعل فريقا من السكان على شفا المجاعة •

ولكن هناك وسائل اشد للضغط • فيمكن لطائرات البلد المؤثر الحربية أن تكثر من اختراق حدود البلد المستهدف كأنها ضلت طريقها ، أو تقوم بالطيران على ارتفاع كبير فوق البلد الأخير واذ تفعل الطائرات هذا فانها لا تقف عند حد جمع معلومات مفيدة بتصوير الأهداف العسكرية ولكنها يمكن أن تظهر وجودها وتثبت بسالتها (وبسالة بلدها) وجبن البلد المستهدف أو عجزه عن وقفها ، وتشجع أنصار المؤثر المحليين بينما تحطم روح خصومهم المعنوية • ويمكن تحقيق امثال هذه الآثار باستخدام السفن الحربية ، فكثيرا ما استخدمت لاظهار قوة صاحبها وفى مظاهرات بحرية شتى على مقربة من ساحل بلد معاد بقصد القاء الرغب فى قلبه أو لتقوية حليف فى موقف حرج •

ربما يمكن لسوء الحظ التأثير على بلد اجنبى ، والى حد معين ، بمجرد الوعود والتهديدات • وفيما يتجاوز تلك النقطة يكون من المستحيل عمليا تحقيق الغرض المتوخى بغير الالتجاء الى صورة ودرجة من الحرب • لكن قبل أن نستعرض هذه الصور والدرجات قد يستأهل الأمر أن نلخص فى الجدول (١٢) • مختلف المواقف التى يمكن أن تخلق فى داخل حكومة شعب يحتمل أن يمارس التأثير طلبا يتصل بالتأثير على افعال حكومة بلد يحتمل أن يكون هدفا للشعب الأول •

فى جميع هذه المواقف المبينة فى الجدول ١٢ يمكن استخدام الوعود بما يحقق الفائدة منها اذا أمكن جعلها مهمة ومعقولة فى نظر (ب) أى البلد الذى يراد

التأثير فى اعماله • قد تساعد التهديدات فى ست من الحالات الثمان و « ربمـــا » ايضا فى الحـــالتين الآخريين ، اذا بدا استســـلام (ب) فى المستقبل مشـــكوكا فيه او بطيئا • وتصدق قيود مشابهة على مكافآت أو عقوبات فعلية ، لأن هـــــذه ايضا تقوم بين الشعوب بدور رسائل مفهومة ضمنا ومن ثم كوعود او تهديدات بأفعال مستقبلة •

المحالفات الائتلافيـــة :

كثيرا ما تستطيع دولة ان تجعل وعودها وتهديداتها أدعى الى التصـــديق ، وترسانتها من المكافآت والعقوبات الفعلية اكبر ، وذلك بالانضمام الى ائتلاف أو بتنظيم ائتلاف • ونقول بعبارة اعم ، ان المحالفات أدوات أساسية لممارسة التأثير والقوة ، فى السياسة الدولية على نحو لا يقل عنه فى السياسة الداخلية • فالأغلب انه ما من شخص او مجموعة أو شعب بمفرده هو من القوة بحيث يسود وحـــــده فى قرار رئيسى ، اذ الأغلب أنه لا يستطيع التغلب الا بمساعدة ائتلاف أو لا يتغلب على الاطلاق •

الجدول (١٢)

مناســبات يمارس

فيها البلد «أ» التأثير على البلد «ب»

أ يفضل من ب أن	ينفذ (س) مواقف الاقناع				يتجنب (س) («ينفذ»و؟) مواقف الثنى عن			
	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨
أ يفضـــل	س	س	س	س	و	و	و	و
أ يتصور ان ب يفعل الآن	و	و	س	س	س	س	و	و
أ يتوقع من ب أو يعمل فيما بعد	و	س	و	س	س	و	س	و
أو يريد تعزيزا أو تعديل مسلك ب الحالى	م	م	ر	ر	م	م	ر	ر(١)
أ ينبغى أن يعاقب	نعم	ربما	لا	لا	نعم	ربما	لا	لا
يكافىء	لا	لا	نعم	نعم	لا	لا	نعم	نعم
يهدد	نعم	نعم	نعم	ربما	نعم	نعم	نعم	ربما
يعـد	نعم	نعم	نعم	نعم	نعم	نعم	نعم	نعم

X لا ينبغى من أ ان يعاقب أو يهدد الا اذا كان يشـــك فى تصرف ب فى المستقبل ، أوشك فى أن التغيير الذى سيجريه ب من تلقاء ذاته لن يتــم بالسرعة الكافية :ـ

(١) م = تعديل ، ر = تعزيز

المصدر : معد من

المجلة الامريكية للعلوم السياسية ، المجلد ٥٧ ، العدد ٢ (يونيه ١٩٦٣) ، ص ٤٢٧ ٠

ولقد وضع العالم السياسى وليام هـ • رايكر نظريات مهمة فى امثال هـذه الائتلافات • فعنده ان السياسة والانتخابات والتصويت فى الهيئات التشريعية والحرب هى جميعا مواقف يتخذ فيها قرار ، تسفر على الاقل عن نتيجتين بديلتين تختلف قيمتهما بالنسبة الى كل شريك يقول • رايكر ان كل شريك **عاقل من الناحية السياسية** يفضل افضل نتيجة بالنسبة اليه ــ بمعنى انه يريد ان يكسب • ويضيف أنه حيث يوجد رابحون فلا بد أن يكون هناك خاسرون ، وعلى ذلك فأفضل نموذج للسياسة والحرب هو مباراة المجموع الصغرى (التى نوقشت فى الفصل السابق) • ولكن بينما يمكن فى علم الاقتصاد تقسيم المال والمنافع فى مباراة المجموع الصغرى ، لا يمكن أن يحدث هذا فى المنازعات الحاسمة فى السياسة والحـــرب ، ذلك أن « النصر » فى نظر رايكر « وحدة لا تقبل التجزئة » (١) • اذن فالرجل العاقل هو الذى يختار دائما النتيجة التى تحقق له اكبر كسب والذى تعظم رغبته فى الفوز •

كيف يستطيع امثال هؤلاء الانانيين المتعصبين ان يقيموا محالفات ؟ سـوف يفعلون عندما يعود عليهم الائتلاف بكسب يزيد عما يحققونه بالبقاء فى عزلة ، ذلك أنه برغم أن النصر لا يمكن تجزئته على حد قول رايكر ، فكثيرا ما يمكن تقسيم الغنائم التى يأتى بها • فى تلك الحالة يتنبأ مبدأ المعقولية بأن كل ممثل سياسى سوف ينضم الى ــ أو يحاول أن ينشىء ــ ذلك الائتلاف الذى يبشر بأعظم الكسب له • واضح أن هذا يجب أولا وقبل كل شيء أن يكون ائتلافا رابحا اذ بغير النصر لن تكون هناك غنائم • لـكن من بين عـدة من الائتلافات التى يحتمل أن تـكون رابحة ، يفضل الائتلاف الذى يمكن أن يوزع أكبر قدر من الأسلاب ويوزعها على أقل عدد من الشركاء •

وعلى ذلك فالمعقولية السياسية كما يفهمها رايكر ، تؤدى بالممثلين السياسيين الى مبدأ الحجم ، فيكونون ويعيدون تكوين على سبيل التجربة ، « ائتلافات وقتية » خلال عملية المساومة ويواصلون البحث الى أن ينجح بعضهم فى النهاية فى تكوين **أقل ائتلاف رابح** ، يكون من الكبر بحيث يكسب ولكنه من الصغر بحيث لا يسمح لحلفاء لا لزوم لهم بأن يطالبوا بأى جزء من الغنائم •

ولما كان يمكن ان يكون هناك اكثر من واحد من مثل هذا النوع من الائتلاف . لهذا يحتمل ان تكون عملية المساومة والبحث طويلة ومعقدة • فكثيرا ما يمضى الأفراد السياسيون العقلاء كالسياسيين أو الدبلوماسيين المحترفين ، وقتا اضـافيا فى المفاوضات والمناورة اذا كان لديهم سبب يجعلهم يتوقعون أن هـذا يتيح لهم فرصة افضل للوصول الى ائتلاف أنسب لهم • واتجاه مناوراتهم يتنبأ به **المبدأ**

(نيوهافن : مطبعة جامعة ييل : ١٩٦٧) ، ص ٢٩ ــ ٣١ ، ١٧٤ •

الاستراتيجى الذى يطالعنا به رايكر ومؤداه انه **فى المراحل النهائية من عملية تكوين ائتلاف يسير الشركاء فى اتجاه اصغر ائتلاف رابح** · وعلى ذلك عندما يكون هناك ائتلافان مؤقتان من الحجم الرابح تقريبا فى المرحلة « قبل الأخيرة » من المساومة ، فالأرجح انهم لن ينضموا الى بعضهم بعضا لأن الائتلاف الذى ينتج عن هذا سوف يكون من الكبر بحيث لن يتيح لأعضائه مكاسب جذابة بالدرجة الكافية · وبدلا من هذا وكما يقول رايكر ، فقد يكفى أحد المحالفات الوقتية الأصغر او حتى شريك واحد ، لكى يحول أحد الحلفين الوقتيين الكبيرين الى ائتلاف رابح صغير · وهذا الحليف الصغير ولكنه رئيسى قد يحصل على نصيب من المكاسب التى يحققها الائتلاف ، لا يتناسب تماما مع حجمه أو وزنه ، ولكنه نصيب يناسب قيمة مركزه الاستراتيجى فى هذه النتيجة المعينة التى تسفر عنها عملية تكوين الائتلاف ·

وعندما لا يكون من السهل تقسيم ثمار نصر ، فكثيرا ما قد يعرض احد الشركاء ممن تكون هذه الثمار ذات قيمة له بوجه خاص ، **مدفوعات جانبية شتى** بغرض شراء تأييدهم · وقد تأتى بعض هذه المدفوعات الجانبية من ارباح النصر المتوقع ، فيمكن أن تتكون من تغييرات فى قانون أو اتفاقية يراد التصديق عليه ، او فى التزامات السياسات مستقبلة أو تعيينات أو عقود أو امتيازات فى اقاليم معينة سرعان ما سوف يحصل عليها الائتلاف · وثمة مدفوعات أخرى قد يكون مصدرها ما يدعوه رايكر « رأس مال » الزعيم « العامل » ، مثل جهوده الحالية وموارده أو التزاماته التى تنطوى عليها قرارات أخرى يتخذها ، وتتجاوز ما يهدف اليه الآن النصر الفورى ، كما لا تزال هناك مدفوعات أخرى تأتى مما يشبهه رايكر « بالأصول الثابتة » التى يملكها الزعيم ، مثل معقولية تهديداته أو مكانته الايجابية أو سحره (١) ·

جميع أمثال هذه المدفوعات الجانبية تنطوى بمعنى ما ، على تكاليف بالنسبة الى الزعيم ، فعليه ان يتنازل عن اشياء أو محاولات لها بعض قيمة بالنسبة اليه ، وعلى ذلك اذ ترتفع المدفوعات الجانبية التى يؤديها الى من يحتمل ان يكونوا حلفاء له ، فقد تصبح القيمة التجميعية لهذه المدفوعات أعلى من قيمة مضمون النصر بالنسبة اليه · فى تلك الحالة ينبغى للزعيم العاقل أن يتوقف لولا الاحتمال على ما يذهب اليه رايكر ، بأن الكسب فى حد ذاته اكتسب قيمة بالنسبة الى الزعيم بغض النظر تقريبا عن مضمون أو موضع النصر · الواقع كما يقول رايكر ، أن

---

(١) سحر الزعيم عبارة عن قدرته على انتزاع الاعجاب والموافقة من جانب جمهور مهم أو دائرة انتخابية ، تعود افراده أو كانوا مستعدين مسبقا ، للاستجابة بهذه الطريقة الى وجوده امامهم او المثل الذى يضربه والى رسائله التى يوجهها اليهم ·

السياسة التنافسية تختار هذا النوع من الزعيم او رجل الدولة الانتهازى الذى تتملكه هذه القرية والرغبة فى الفوز ، لا بناء على مبدأ أو ايويولوجية ولكن من اجل الفوز ·

والنتيجة يميل زعماء الائتلافات بصورة تكاد ان تكون حتمية ، الى الافراط فى الانفاق · فهم يقدمون فى المدفوعات الجانبية اكثر مما تساويه غنائم النصر بالنسبة اليهم ، وبذا يضعفون انفسهم فى نهاية الامر ويقوون حلفاءهم الذين حصلوا على مدفوعات تزيد عما هو لازم · وفى النهاية كما يراها رايكر ، يدمر كل زعيم أئتلاف نفسه لأن ما يأتى به الفوز من القيمة غير المادية اليه لا يمكن أن يعوض النضوب التدريجى الذى يصيب الأصول المادية التى يبددها على بناء ، او المحافظة على امبراطورية أو ائتلاف غير مجز · هذا يفسر سببا من أجله فى راى رايكر نصاب الامبراطوريات بالانحلال ، وان الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى سوف يخسران فى النهاية جزءا كبيرا من القوة التى يمسكان بها الآن فى السياسة العالمية · فسوف يضعفهما عاجلا أو آجلا ، هذا الميل القاتل من جانب زعماء الاحلاف الى الاسراف فى الانفاق على الحلفاء ·

قد يلاحظ هنا ان الميل الى الاسراف فى الانفاق ، هو ايضا على ما يرى رايكر . من أسباب الاضطراب الأساسى الذى يتسم به النظام الدولى القائم على وجود دول ذوات سيادة · وثمة سبب ثان لهذا الاضطراب هو ميل مثل هذا النظام القائم على المنافسة التى لا يمكن اشباعها ، الى القضاء على بعض ممثليه الرئيسيين ·

نظرة الائتلاف واضطراب ميزان القوى :

طبقا لما تراه **النظرية** التقليدية فى **ميزان القوى** (كما اعاد صياغتها بمصطلحات عصرية ، العالم السياسى مورتون (أ كبلان) ينبغى ان تكون هناك على الأقل خمس قوى عظمى او خمسة « ممثلين رئيسيين » فى العالم (اذ لو قل العدد لما كانت هناك احلاف مختلفة تكفى للابقاء على مرونة النظام) ، وسوف يتعين على كل من هذه القوى ان تنزل على قواعد جوهرية معينة · وقد يقدم البيان التالى صورة معدلة ومبسطة نوعا من هذه القواعد :

(أ) المعقولية :

١ ـ اعمل دائما على زيادة القدرات ·

٢ ـ تفاوض بدلا من ان تحارب ، ولكن حارب بدلا من أن تتجاوز عن زيادة فى القدرات ·

(ب) المحافظة على الممثلين :

٣ ــ اوقف القتال بدلا من القضاء على ممثل رئيسى •

٤ ــ اسمح لاى ممثل مهزوم رئيسى بالدخول ثانية كشريك ممكن ، أو عوضه بأن ترفع من شأن ممثل لم يكن رئيسيا من قبل (اى قوة صغرى) ليحل محله ، وعامل جميع الممثلين الرئيسيين على انهم حلفاء يحتمل ان ترضى عنهم •

(ج) المحافظة على النظام :

٥ ــ اعمل على معارضة اى ممثل أو ائتلاف بميل الى أن تصبح له الغلبة فى داخل النظام (ومن هنا اذا اقترب ائتلاف وقتى من النصر ، وجب على الممثلين المحايدين أن ينضموا الى أقوى خصومهم الضعفاء) •

٧ ــ اعمل على اجبار الممثلين الذين ينضمون ، على الاسهام فى مبادىء التنظيم الذى يعلو فوق المستويات القومية •

يقول كبلان أن مثل هذا النظام يستطيع أن يحافظ على نفسه زمنا طويلا اذا عمل وفق هذه القواعد ، ولكن يقول رايكر ان مثل هذا النظام لا يمكن ان ينجح • فالممثلون العاقلون يريدون أن يكسبوا ، ولن يقفوا الى جانب نظام التوازن القوى عندما تتاح لهم بدلا من هذا ، فرصة الانضمام الى ائتلاف رابح ، وسوف تتوافر أمثال هذه الفرص بين القوى الخمس ، عاجلا وآجلا • وعلاوة على هذا ، فمن المؤكد ان الممثل العاقل سوف يعمل على زيادة قدراته • لن يتوقف ليرحم ممثلا رئيسيا مهزوما اذا لم يكن ثمة طريق آخر يحقق به الكسب لنفسه • ومن هنا اذ تصبح المكاسب فى المنازعات أندر ، تفقد القيود فعاليتها • ويصدق الشىء نفسه على جميع القيود المتضمنة فى القواعد ٣ ــ ٦ : انها مبنية على اخلاقية دولية أو مصلحة ذاتية فى الأجل الطويل ، ولكن كليهما يحتمل أن تضعف أو تذوى عندما تتصاعد الضغوط من أجل اتخاذ قرار فورى • يقول رايكر ان نظام السياسة التنافسى يكافىء ويختار الزعماء الذين يتجاوزون حدودهم ويغالون فى الانفاق ، والذين يهتمون بالفوز بأكثر مما يهتمون بالمبادىء • مثل هؤلاء القادة لا يمكن ان نتوقع منهم أن يعبأوا كثيرا بأية مبادىء يتعين بها المحافظة على نظام من توازن القوى •

وينتهى رايكر الى ان امثال هذه السياسات كلها يميزها مبدا اختلال التوازن • ان النظم السياسية التى يتصرف اعضاؤها وفقا لمبادىء الحجم والاستراتيجية لا بد وان تكون غير مستقرة او ثابتة ، فهى تضم قوى تضغط من أجل اتخاذ القرارات

بغض النظر عن مخاطر القرار او فحواه . ومن ثم من اجل القضاء على الشركاء ، بل ويحتمل ان يكون القضاء على النظام كله ٠

ان تحليل رايكر تحليل نفاذ ولكنه متحيز ٠ فلكي يضع التاكيد على بعض نواحي السياسة اختار ان يمثل جميع ساسة الائتلاف بمباراة المجموع الصغرى بدلا من أن يمثلها بنموذج المجموع المتغير وهو نموذج أكثر واقعية ٠ واكد على النصر القصير الأجل وعلى « الفوز » باعتبار انهما قيم مفردة فى ذاتها . تتجاوز كثيرا مضمونها الحقيقى وبعيدة عن السياق الفعلى لجميع القيم الأساسية الأخرى التى لا تقل اهمية فى سلوك الانسان الاجتماعى والسياسى ٠ ولقد دفع ثمنا فادحا عن هذه الدرجة المتطرفة من التجريد ٠ فطبقا لنظريته كل نصر هو نهائى بالنسبة الى ما يحققه من الغنائم ٠ وهذه الغنائم يستولى عليها المنتصرون ولكن دون اهتمام بالطريقة التى تحققت بها اولا أو التى تتحقق بها ثانية فى المستقبل بالنسبة الى الجولة الثانية من العملية ٠ وحيث تتناول علوم الاقتصاد والاجتماع الحديثة والكثير من العلم السياسى ، تدفقات دائرية او عمليات من اعادة تغذية الرسائل او الخدمات او القيم ، فانتقالات الغنائم فى العالم الذى يصوره رايكر ، نهائية وتسير فى اتجاه واحد : نحو المنتصرين ٠ وهكذا كتب نظرية فى سياسة الاستيلاء ، وليس فى سياسة الانتاج والتعاون والنمو وكلها لا تقل حيوية ٠

ولكن برغم القيود التى تحد من نظرية رايكر فى الاحلاف ، فهى تمثل انجازا فكريا كبيرا ٠ انها تقدم نموذجا للعملية التى يمكن ان تتكون بها الأحلاف ، وتكشف عن مصادر بعيدة الغور للاضطراب فى مسلك الساسة ، وزعماء الائتلاف الوطنيين ، والحكومات والشعوب الرئيسية فى الساحة الدولية ٠

الفصل الثالث عشر

اخفاقات القيود واشكال الحرب

اذا كانت وسيلة التأثير القومية ، وليس التأثير المضاف اليها والمتولد من تحالف دولي ، غير كافيين لتغيير مسلك البلد الذي يستهدفانه ، فعندئذ قد تضطر الدولة التي تحاول التأثير ، الى ان تلجأ الى القـــوة ٠ واقل استخدام للقوة عنفا هو الحصار — اما برا كالذي فرضه الاتحاد الســـوفييتي على برلين الغربية في عام ١٩٤٨ ، او بطريق البحر كالذي استخدمته الولايات المتحدة لفترة وجيزة ضد كوبا في عام ١٩٦٢ ٠

العنف المحدود كوسيلة للضغط :

اذا لم يتعرض حصار للتحدى من جانب قوة اخرى امكن ان يحقق تنفيـــذه الغرض منه بدون اراقة دماء ٠ ولكن اذا قوبل بالتحدى او اخفق تنفيذه ، او اذا اخفق برغم تنفيذه في تغيير مسلك البلد الذى يستهدفه ، فعندئذ اما ان يتخـــلى الشعب الذى يحاول التأثير ، عن محاولته الضـــغط على هذا البلد ، او ان يواصل تصعيد الصراع ٠ ومن هذا المستوى من تصعيد الصراع ، يحتمل ان يقتـــل بعض الناس ٠

هناك طريقة واضحة للاسراع بالضغط على البلد المســـتهدف ، هي تسلل المخربين ورجال العصابات الذين يلغمون الطرق ، وينسفون منشئات حراســـتها ضعيفة ، ويهاجمون موظفين منعزلين او وكالات محلية او مراكز ثانوية للحـــكم ٠ وحتى اذا لم يلق امثال هؤلاء المتسللين تأييدا له شأنه في صفوف السكان ، كمـــا حدث عندما كان العرب قبل عام ١٩٦٧ يتسللون الى اسرائيل من سوريا والجمهورية العربية المتحدة ، الا ان في امكانهم الابقاء على جو من القلق والمضايقة ، على الأقل في المناطق القريبـــة من الحـــدود ٠ واذا كان المتسللون يحملون اسلحة اشـــد قـــوة ولقـــوا بعض التأييد من جانب السكان المحليين ، امكنهم توجيـــه الضربات في العمق على نحـــو ما فعل بعض المغيرين من الكوماندوز البريطانيين ضد فرنســـا التي احتلهـــا النازى في الحرب العالمية الثانية ، وكما يســـتطيع ان يفعله المغيرون في ذلك الجزء من الاردن والذى احتلـــه الاسرائيليون بعد حرب عـــام ١٩٦٧ ٠

لكن تتحقق [illegible] انار التسلل في المواقف التي يقتصر فيهـــا دون المتسللين على [illegible] او تشجيع قـــوات العصابات المحليـــة التي يجرى تجنيدهـــا — وميادتهـــا اذا امكن ، بصورة كلية او جزئيـــة — من داخل بلـــد الهدف واهلـــه ٠ هنـــا يستطيع الاستعمار الأجنبي الممثل في الراديو والدعايـــة والعمـــلاء المسلحين

والمعدات الخاصة والخبرة الفنية و (ربما) القوات ، ان توسع من نطاق حرب اهلية حقيقية فى الداخل او ان تبقى عليها او حتى تشعل نارها .

التدخل الخارجي والحروب الداخلية :

يمكن ان يكون لاضغط أو التدخل الخارجي اغراض مختلفة عدة . فيمكن أن يهدف الى حمل البلد المستهدف على عمل شيء لولا هذا ما عملته . أو يمكن أن يحاول منع حكومة الأخير من عمل شيء لولا هذا لعملته . (اول هذه الأهداف كان يدعى « س » و الثانى « و » فى الجدول (١٢) . ولكن البلد الذى يمارس التأثير . قد تكون له أهداف أبعد مدي . فقد يرغب فى تغيير تركيب حكومة شيوعية فى الضغط على بلد مجاور تتخذ منه هدفا لها ، ليدخل الشيوعيين المحليين فى حكومته الائتلافية الجديدة . وهو ما يضع وحده حدا (هكذا يوحى الى هذا البلد) للعنف الذى يساعده الأجانب . فى بلد . وقد يهدف ضغطها الى اقامة نظام حكم شيوعى كامل يكون القائمون به اما من اهل البلد أو يجرى استيراد بعضهم من الخارج . وبالعكس . وقد تضغط قوة معادية للشيوعية على بلد خاضع لحكم الشيوعيين . حتى يخفف من قيوده الدكتاتورية ويمنح مزيدا من الحرية قدرا كبيرا من من الاستقلال الداخلى لاقاليم الحدود حيث يمكن أن تسود المشاعر غير الشيوعية أو المعادية ، أو تقلب كلية حكومة البلد المستهدف الشيوعية وتحل محلها نظم حكم معاد للشيوعية ، وربما يكون مواليا للغرب . فالدعم الروسى السوفييتى والبلغارى واليوغسلافى للعصابات الشيوعية اليونانية فى منتصف الاربعينات . وضغط فيتنام الشمالية على لاوس وفيتنام الجنوبية فى الخمسينات والستينات ، امثلة على النوع الأول . وتأييد الولايات المتحدة للعصابات الكوبية المعادية للشيوعية فى زمن غزو خليج الخنازير فى عام ١٩٦١ ، اثار مشكلات من النوع الثانى .

ونتيجة امثال هذه الجهود فى الاغلب على أمور ثلاثة :

١ ــ تعاطف ونشاط وقوة أهل البلد المستهدف ، فى تأييد أو معارضة حكومتهم .

٢ ــ مجرد حجم ونوع واستمرار الاستثمار والضغط الخارجى على البلد او نظام الحكم المستهدف .

٣ ــ تدخل او عدم تدخل بلاد اخرى مع اى من جانبى الصراع .

والوزن النسبى لكل من هذه العوامل الثلاثة يتفاوت بصفة جزئية تبعا لحجم البلد الهدف . فكلما كان عدد سكانه كبيرا زادت تكلفة التدخل

وقـل أثـره • ففى البلاد الكبيرة (كالتى يزيد عـدد سـكان الواحد منها على ٣٠ مليونـا) يكـون التدخل الأجنبى غاليـا بوجه خاص ولا يبشر بنفـع ، وتكون مواقف السـكان المحليين واعمالهم حاسـمة بالنسبة الى نتيجة النزاعات السياسية • وفى البلاد الصغيرة (كالتى يقـل عـدد سـكان الواحد منها عـن ١٠ ملايين) فالأكثر احتمالا أن ينجح التدخل الخارجى المستتر او السـافر ، على نحـو ما نجح فى جواتيمالا فى عـام ١٩٥٤ وفى لبنـان عـام ١٩٥٨ وجمهورية الدومينكان عـام ١٩٦٥ • ان احتفـاظ بلـد صغير بنوع الحكم الذى يخلـق عـداء بينه وبين جـار قـوى ، نقـول ان هذا يحتـاج الى حكومة ثابتة الدعائم بصورة غير عاديـة ، او الى دوافـع قويـة عند جـزء كبير من السـكان ، ولكن سويسرا واسرائيـل وفنلندا وافغانستان وكوبـا كلهـا اظهرت فى اوقـات مختلفة وبطرق شتى ان هذا ممكن ، خاصـة اذا كان البلد الصغير الذى ينعـم بدفـاع قـوى ، لا يستأهل (من ناحيـة جـاره الأكبر) التكاليف المحتملة التى ينطـوى عليهـا تدخل على نطـاق من الكبر بحيث يسـقط حكومته أو يضـع نهايـة لاستقلاله •

أكبر الاحتمال ان تنشـأ مشـكلات دولية خطيرة فى حالة البلاد متوسطة الحجم (ربما البلاد التى يتراوح عـدد سكانها بين ٢٠ ، ٣٠ مليونـا) كالجزائر ويوغوسلافيا وتشيكوسلوفاكيا ومصر ، التى قـد تبدو من الصغـر بحيث تظهر كأهـداف سـهلة للتدخل ، لكنها من الكبر بحيث لا تبدو مجزيـة • فاذا اصبـح بلـد من هذا الحجم المتوسـط المغرى ، منقسـما على نفسـه بسبب صراع داخلى بين الجماعات او ثـورة بدات أو حرب اهلية ، فقد تجـر قـوة أو عـدة قـوى خارجيـة بشـدة الى التدخل ، سرا او علانيـة ، أمـلا فى كسب سريـع فى صراع القوى الدولى • لكن من المحتمل أن تصاب مثل هذه الآمـال بالخيبة وخاصة اذا كان لـدى جزء كبير من اهـل البلـد ، دافـع قـوى على الاشتراك فى نضالاته السياسـية • ويحتمل فى أمثال هذه الحالات أن يقـدم ميزان القـوى السياسـية الداخلية اكبر اسـهام فى تقرير النتيجـة • ويمكن ان يكون نطـاق الصراع من الكبر بحيث يجعل التدخل الخارجى طويلا جدا وغاليا ، وفى النهـاية غير مجـز • وحتى اذا قـدر لحلفـاء الدول المتدخلة المحليين ان يتغلبـوا فى بلـد من هذا الحجم المتوسـط المغرى ولكن يصعب التحكم فيـه ، فمن المحتمـل أن يسـتنتجوا بسرعة تماما وغالبـا ما يكـون الاستنتاج صحيحا ، انهم كسـبوا اساسا بفضـل جهودهم وقـد ينتهى الأمـر بان يثيروا بانكارهم الجميـل دهشة حماتهم السـابقين •

فى البلاد ذات الحجم الذى لـه وزنـه ، فان القـوة النسـبية للعوامـل الأساسـية الثلاثة ـــ اعـداد ونشـاط السـكان المحليين ، وحجم ومهـارة

التدخل من جانب القـوة الخارجية ، وامتناع او تدخل قـوى اجنبيـة اخرى ـ نقـول ان هذه تولـد أحـد أنـواع رئيسية ثلاثة من الصراع :

(١) حرب اهليـة تشـتبك فيها وتواصلهـا بوجـه خاص قـوات من داخل البلـد الهدف ، ولا تلعب فيهـا الاستثمارات والضغوط الاجنبيـة سـوى دور هامشي (كمـا فعلت فى الحرب الاهليـة الروسـية فى السـنوات ١٩١٧ ـ ١٩٢١) ٠

(٢) هجوم خارجى تقـوم بـه أصـلا قـوات خارجيـة تعبر حـدا قوميـا أو الخط الذى يحـد جزءا من بلـد مقسم ، ولا تحصل الا على تاييد قصير الامد وهامش من جانب المتعاطفين ورجال العصابات المحليين (كما فى حالة قيام كوريا الشمالية بغزو كوريا الجنوبيـة فى ١٩٥٠) ٠

(٣) نـوع مختلط من الحرب تقـوم فيه قـوات كبيرة من ثـوار محليين بمقاتلة حكومة البلـد المسـتهدف ، وبطريقـة حرب اهليـة حقيقيـة ، بينما تتلقى فى الوقت نفسـه تاييدا كبيرا ومفصـلا من جانب قـوة خارجيـة واحـدة على الاقـل (كمـا كان الشـان بالنسـبة الى عصابات فييت كونج فى فيتنـام الجنوبيـة الذين قـدرت وزارة الدفـاع الامريكيـه فى عـام ١٩٦٧ انهم يتكونون مـن حوالى ٢٣٠٫٠٠٠ من الفييتناميين الجنوبيين ، ٥٠٫٠٠٠ من الافراد والقوات من فيتنـام الشـمالية) ٠

خـلال معظم الوقت الذى انقضى منذ عـام ١٩٤٥ كانت سياسة الولايات المتحدة ازاء نوعى الصراع الاوليين واضحـة وبسـيطة نسـبيا ٠ كانت قائمة على تجنب أى تورط شـديد فى الحـروب الأهلية الحقيقيـة فى الخـارج كالحرب الأهلية الصينية ، ولـكنها تعارض بشـدة وحتى لو كلفهـا الأمـر كثيرا ، أى عدوان ضخم عبر حـد دولى أو خط يفصـل بين جزئى بلـد كمـا فى كوريـا فى سنة ١٩٥٠ ٠ كلتـا هاتين السياسـتين كانتـا موضع الرضـاء بدرجة معقولة فى داخل الولايات المتحـدة وكذلك فى معظم العالم غير الشيوعى ، حيث ظلـت المعارضـة لها ثانويـة ٠

ولـكن لا توجـد سياسـة بسـيطة لمعالجـة النوع الثالث (المختلط) من الصراع ، مـثل حرب فييتنـام فى الستينات ٠ عندمـا جربت السياسـات البسـيطة فى تلك الحالة ، فسرعان ما أصبح واضحـا انها لـم تحرز تقدمـا طيبـا بوجه خاص ٠

لقـد مالت الادارات المتعاقبـة فى الولايات المتحـدة ، وخاصـة ادارة الرئيس جونسـون اعتبارا من عـام ١٩٦٤ الى وصف هذا الصراع بانه أصـلا مسـألة عدوان من جانب فييتنـام الشمالية على فييتنام الجنوبيـة ٠ على العكس من ذلك مال النقـاد المحليـون والأجانب وهم يشيرون الى ان أربعـة اخماس

الفيت كونج كانــوا من الفيتناميين الجنوبيين نقــول ان هؤلاء النقاد مالوا الى أن يــروا النزاع على انه أساســا حــرب اهليــة ، مغفلين ان خمس قوات فييت كونج من فيتنــام الشــمالية وان الجــزء الاكبر من قــوة نيران ومعــدات فييت كونج من البلــد الأخير أو من بــلاد شيوعية اخــرى • وسرعــان ما عمــدت الحكومات المتعاقبــة فى فييتنام الجنوبية وكلها كانت تعتمد على الدعم الامريكى ، الى طلب اعــداد متزايدة باستمرار من القوات لمســاعدتها ضــد اعدائها الأجانب والمحليين • واذ حــل مايو ١٩٦٧ كان حــوالى ٤٥٠٠٠٠ من القــوات الامريكية مشتبكين فى الولايات المتحدة ، ويزيدون عن عــدد المتسللين آنذاك من الفييتناميين الشماليين بنسبة ٩ : ١ تقريبــا • وفى ذلك الوقت أيضا كانت القوات الجويــة والبحريــة الامريكيــة تضرب باستمرار الكثير من فييتنام الشــمالية لاكثر من عامين (منذ فبراير ١٩٦٥) • ولكن لــم تظهر حكومة فييتنام الشــمالية أيــــة عــلامات تدل على الاستســلام ، ولم تظهر الحرب فى فييتنام الجنوبيــة أية علامات تدل على انهــا تخف حــدة ــ فالواقــع ان الصراع الشــامل فى المنطقة كان يواصل التصاعــد • كان ظاهــرا ان حربــا من هذا النــوع لا يمكن ان ينضهــا تعريف مذهبى واضــح أو نصر عسكرى واضــح ، وانما يفضهــا بــدلا من ذلك سلسلة من التعب وانهاك القــوى ثــم التفاهم فى نهاية الأمــر ــ الا اذا ابلعتهــا جائحة تثيرها حرب أكبر منها بكثير بين القــوى الكبرى •

ســــلم التصاعــد :

ان حربــا محــدودة من النوع الذى دار فى فيتنــام فى أوائــل عــام ١٩٦٧ ، أى حربــا لا تصل الى حــد الضرب الشــامل واعمــال الغــزو البرى الضخــم واســتخدام الأسلحة النووية ، هذه الحرب كما صورهــا هرمان كاهن (ويبينها الجــدول ١٣) لا تهىء ســوى وقفــة مؤقتــة على ســلم التصاعــد الطويــــل •

فى كل حــرب محدود تقريبــا فى زمننا هذا ، تكــون القوى الكبرى متورطة بطريق مباشر و غير مباشر • فاذا قبلوا جميعــا نتيجــة الصراع المحــدود المحلى ــ المكســب او الخســارة أو الانسحاب ــ فعندئذ تصبح هذه الحــرب بالنسبة اليهم « معركة متفقا عليها » • وفى هذه الحــالة وفى نطــاق حــــدود قواعدها المقبــولة ضــمنا أو علنــا ، تــكون القــوى الــكبرى حــرة فى أن تجــرب سياساتها وأســلحتها (التقليديــة) وكذلك قــدرات ودوافع نتيجتها المحليــة ثم تواصــل بعد ذلك سياساتها هنــاك وفى بــلاد أخــرى ، فى ضوء هذه الحــرب •

لكن اذا رفضت قوة كبرى واحدة على الاقل هذه النتيجة المحلية ، نعندئذ تخرق بعض القواعد المقيدة لها بدلا من أن تتقبل على نفسها ضياع ماء وجهها او تقودها . او هزيمة حلفائها . وفى تلك الحالة تعمل على تصعيد الحرب • واذا لم تكن كل قوة كبرى فى الجانب المعارض اضعف بكثير أو اشد جنبا بكثير او اكبر مبيلا الى السلام بكثير ، فان الجانب الآخر سوف يفعل الشيء نفسه . ويسير التصعيد قدما متجاوزا نقطة التوقف الرئيسية هذه •

ابتداء من هنا تقل نقط التوقف . ويقل الاحتمال بأن يكون لها تاثير كثير • فالآن تميل الحرب التقليدية المحدودة الى ان تخلى الطريق للحرب التقليدية الشاملة التى لا قيود فيها على الاهداف العسكرية فى الميدان • ولكن الحرب التقليدية الشاملة تناسب قيام سيكولوجية حرب تقليدية ، من النوع المألوف من الحربين العالميتين الأولى والثانية • بل سوف تبدو الاسلحة الاكثر تطرفا ، ذات جاذبية بالنسبة الى الصفوة والراى العام فى البلاد المتنازعة الرئيسية ، وذلك مع التبرير القديم الذى مؤداه أن المتوقع الآن ان تكون أكثر التكتيكات قوة هى اكثر رحمة وشفقة نظرا لانها تقضى على العدو بسرعة وبهذا تنقذ الارواح • ولكن يميل هذا المنطق الى أن يلقى القبول من كلا الجانبين . او ان الجانب الذى كان اقل قسوة فى أول الأمر سرعان ما يلجأ الى الثأر • هكذا تصبح الحرب اشد تدميرا ، ويزداد الشعور بالمرارة من ناحية الذين يبقون على قيد الحياة بعدها • قد يبدو الآن ان الالتجاء الى الأسلحة النووية مسألة وقت فقط . وقد يصبح كل جانب مصمما على انتزاع كل ميزة ممكنة بأن يسرع بعمل ما يظنونه فى اى حال امرا محتوما •

فى اول الأمر ، فحتى الحرب النووية يمكن أن تظل محلية • يمكن استخدام الأسلحة النووية التكتيكية فقط ، وفى ساحة القتال فقط ، لكن سرعان ما قد تستخدم أسلحة نووية متوسطة المدى تحملها الصواريخ لمهاجمة الموانى ومراكز الخطوط الحديدية والمطارات عند كل جانب وراء الجبهة المحلية ، فتدمر خلال العملية الكثير من السكان المدنيين الموجودين على مقربة منها • (قد تكون الصدمة التى يصاب بها الراى العام فى هذه المرحلة اقل عنفا وقد يكون الناس قد أصبحوا متعودين فى المراحل المبكرة من الحرب ، على هجمات جوية تقليدية على نطاق كبير ، على المدنيين ، وقد لا يكونون على بينة تماما من قدرات الجانب الآخر على الثأر) •

لكن اذ يصاب جانب بأفدح الاضرار فى النزاع النووى المحلى فثمة ملا

يغرى قادته بمهاجمة « الحرم الرئيسى » لقوة العدو (المتحالف) ـ اى اقليمه الوطنى الرئيسى باقاليمه المركزية ومدنه الرئيسية • قد تكون الهجمات الأولى التى يشنها اى من الجانبين مجرد مظاهرات ، أو هجمات « تأديبية » يراد بها تدمير اهداف عسكرية مخصوصة او منشئات صناعية أو مراكز سكانية بقصد اظهار قوة اسلحته • من وجهة نظر الشخص الفنى كان تدمير مدينتى هيروشيما ونجازاكى فى اغسطس ١٩٤٥ من امثال هذه الهجمات « التأديبية » التى لم يملك اليابانيون آنذاك قدرة على الانتقام لها • ولكن فى عالم اليوم سوف يملك كلا الجانبين فى أى حرب كبرى اسلحة نووية ، واذ الهجمات التى تشن من قبيل المظاهرات او الهجمات « التأديبية » يمكن الرد عليها بالثأر بدلا من الاستسلام ، فمن المحتمل جدا ان يستمر التصاعد •

والآن وقد اظهر كل جانب الرعب الذى تسببه اسلحته ، واستعداده لاستخدامها بقسوة لا ترحم ، يكون لديه دافع قوى جدا على أن يدمر اكبر قدر ممكن من اسلحة الآخر قبل ان يتمكن من استخدامها • عندئذ قد تدخل الحرب المتصاعدة مرحلة « الحروب المركزية العسكرية » بشن هجمات نووية على اهداف عسكرية فى الأراضى الرئيسية التابعة للقوتين المتنازعتين • قد تكون هذه « قوة مضادة » أو « ضربة اولى » تهدف الى الى أن تدمر بسرعة الكثير من قاذفات الخصم وصواريخه وهى رابضة على الأرض قبل اطلاقها ، وعندئذ قد تحاول كل قوة ان تضرب الأخرى فتجبرها على الاستسلام • ولكن ليس من المحتمل ان تقضى « ضربة اولى » على جميع الأسلحة النووية التى تملكها قوة كبرى ، وقد تكون القوة تتبقى لديها لتوجيه « ضربة ثانية » ثأرية ضد المهاجم ، مدمرة •

فى هذه المرحلة قد تخلى حرب « القوة المضادة » الموجهة ضد المطارات ومواقع الصواريخ ، الطرق أمام الحرب « ضد المدن » الموجهة ضد الأهالى • طبقا لحسابات بعض الاستراتيجيين فان افضل ما يمكن أن يعمله كل جانب هو أن لا يدمر فى أول الأمر سوى مدينة واحدة أو عدد قليل من المدن عند خصمه ، لكى يقنعه بان مدنه الباقية الآن عبارة عن رهائن • ولكن قد توحى له نفس الحسابات الاستراتيجية المعقولة بأن عليه أن يفعل الشىء نفسه أى يدمر مدينة أو عددا قليلا من مدن الشعب العدو ، لكى يحتفظ بالمدن الباقية كرهائن : قد تكون النتائج حربا « ضد المدن » تسير ببطء وفيها تدمر كل من القوتين الكبيرتين مدن الأخرى ، واحدة بعد الأخرى ، فى تعاقب من الموت ، الى أن تقرر احداهما أن تزيد من تصعيد الحرب •

ذلك انه مايزال هناك مجال للتصعيد • هناك مدن قد يعتز بها شعب بأكثر مما يعتز بغيرها ، لأنها تضم مقدسات دينية ، أو آثارا قومية تعتبر كنزا ، او كنوزا فنية لا يمكن تعويضها . او الكثير من افراد أسرات الصفوة الحاكمة • واهم من هذا فى عصر السياسة الجماهيرية الذى نعيش فيه ، هنا التركزات السكانية الكبيرة التى تضم الملايين الكثيرة من ابناء الشعب • اى من هذه او كلها يمكن ان تصبح فى هذه المرحلة اهدافا لهجمات « القيمة المضادة » أو الأعمال الانتقامية اذا هوجم معظمها او كلها أمكن ان تتحدث عن « هجوم للقضاء على الأهداف المدنية » . واذا توقفت جميع القيود بل وكذلك كل جهود اخرى من أجل رقابة سياسية معقولة ، واطلق بلد كل اسلحته الباقية على عدوه . لكان هناك ما يتحدث عنه بعض الكتاب بانه « حرب تشنجية أو جنونية » •

بعد هذا ، اى بعد اطلاق آخر سلاح ونفاذ آخر مورد عسكرى . فلن يتبقى شىء سوى احتمال موت بطىء فى ارض خراب شاسعة ومسممة ليعيش فيها معظم ان لم يكن كل من قد يظل على قيد البقاء •

صلاحيات جوهرية فى العمليات : اخفاقات الادراك الحسى وبعد النظر والرقابة :

بدا العرض الذى قدمناه بمحاولة دولة الضغط على أخرى • ثم استعرض اتساع نطاق الصراع الدولى الى أن تم الوصول الى مستوى الحرب المحدودة ، وتتبع امكان تصعيدها الى درجة حرب شاملة ودمار المتصارعين الكبيرين هما وقدر كبير من بيئتهما • ان العمليات التى يمكن ان تربط بين هذه المراحل المتعاقبة من تصاعد الصراع الى سلسلة قاتلة من الاحداث . هذه العمليات هى اخفاقات •

الادراك وبعد النظر والرقابة : واخفاقات الادراك معروفة لنا من المناقشة التى أجريناها عن الصور الجماهيرية ووسائل الاعلام ودور الحكومات التى تدعم هذه الصور اولا ثم تصبح هى نفسها متأثرة بها وهى تتخذ قراراتها • ان التعلق بصور راسخة من شعب امرىء وعن البلاد الأجنبية ، والرغبة فى توافق ادراكى . ورفض وانكار المعلومات التى لا تتفق مع المدركات المقبولة — هذه جميعا يمكن ان تصل الى ما يعادل النوم او العمى بالنسبة الى الحكومات والشعوب • فقد تعجز عن ان ترى بطريقة واقعية مواقف وقدرات الشعوب الأجنبية ، ومصالح الحكومات الأجنبية وسياساتها وقدراتها والتزاماتها ، الى ان تجد نفسها على الطريق المؤدى الى صدام كامل ، وعلى الطريق الى التصعيد •

وعندما تسير حكومة فى طريقهـا نحـو الصـدام فقد يظن فيها انهـا تجاوزت نقطة المفاجـأة والنقطة التى لا مهرب عندها ، وهـذا شبيه بموقـف تبطـان مركب أو سـادق • ونقطـة المفاجأة فى حادثـة سـيارة ، طبقـا لمشروع وضع من أجـل الابحـاث المتعلقـة بشركـات التأمين على السيارات ، هى النقطـة فى سـير سيارة والتى عندهـا يصبح سـائقها على بينـة فى اول الأمـر من انـه يتحرك نحـو تصـادم او حادثة كبيرة أخـرى • **والنقطـة التى لا مهرب عدهـا** هى تلك النقطـة فى سيرة نحـو الحدث عندما لا يسـتطيع ان يفعـل شـيئا آخـر لمنـع التصـادم • فاذا جاءت نقطـة المفاجـأة قبـل النقطـة التى لا مهرب عندهـا فلا يزال فى امكـان السـائق أن يمنـع الصدام وينقـذ نفسـه وعربتـه ، اما اذا جـاءت بعدهـا فان الادراك بالأمـر يأتى متأخـرا جـدا وتكون الكارثة قـد أصبحت محتومة •

نفس الاحداث المتعاقبة جرى تتبعها فى الصدامات الخطيرة بالسياسـة العالمية ، مثل بدء الحرب العالمية الاولى • فقد اكتشفت بعض الحكومات فى عـام ١٩١٤ انها كانت تتحرك نحو حرب كبيرة وليست صغيرة ، فى وقت كان ما يزال فى امكانها جميعا ان تتفاداها (برغم أنها لم تفعل ما فيه الكفاية ، وهو ما حدث) • ولكن حكومات اخرى مثل المانيا الامبراطورية ، والروسيا ، والنمسا والمجـر ، لم تكتشف الا فى وقت متأخر جدا الى أين كانت الاحداث تسوقهم وعجزوا عن وقف رحلة بلادهم الى الهلاك •

اذا كانت عملية التصعيد ابطأ ويطول أمدها فى المراحل الأقرب ، فان النقطة التى لا مهرب عندها تأتى بعد ذلك • فاذا حدث ان حكام بلد واحـد على الأقل ، اكتشفوا فى الوقت المناسب أن « نظام الصراع » بأسره بين البلدين المتنـازعين يسير نحو الكارثة ، فقد لا يزال فى وسعهما النجاح فى وقت التصاعد • ولـكن حتى لو أدركوا خطرهم فى الوقت المناسب ، فان عملية التصعيد نفسها يمكن أن تسىء الى قدرتهم على اتخاذ قرارات معقولة أو أن تقضى على هذه القدرة جزئيا • والآن يتعرض القادة الذين يتخذون القرارات للتوتر الذى يسببه الخوف والاستياء من الخصم الأجنبى . وللتأثير الناجم من تصرفاته المنطوية على التهديد والاستفزاز أو العداء ، وللتأثير المترتب على الرأى العام المحلى وعنايتهم الوطنية والتى تلهب المشاعر بصورة تكاد ان تكون محتومة • فى ظل هذه الضغوط قد تتغير قيم ومدركات صانعى القرارات أنفسهم ، فتسير فى اتجاه صراع أشد ، أو قد يحل محلهم آخرون الآن تقل الدوافع التى تحملهم على مواصلة الصراع بقوة وزيادة حدته •

وفى نهاية الامر ، وكما فى حالة حرب محدودة ، فان الشعور المؤيد للحـرب أو المؤيد للصراع ، فى صفوف الصفوة وكذلك فى صفوف الجماهير ، قد يصل الى مستوى عال يمكن ان يستقر عنده لفترة من الزمن بينما يجرى دفع الحرب المحدودة

تدما . هناك ثلاثة مخارج من مستوى القمة هذا . يمكن كسب الحرب المحدودة فينتهى الشعور المؤيد للصراع بالنصر ، او يتصاعد الصراع فيتحول الى دمار نووى شامل ، او ان يطول الصراع دون ان يحرز أى من الاطراف نصرا ، وفى النهاية تعقبه مرحلة من الاعياء او انهاك القوى أو اعادة توجيه الرغبات فى الجبهة الداخلية . وبعد ان يكون الكثير من الشبان قد قتلوا فغالبا ما بحت حياة الذين ظلوا على قيد البقاء ، اكثر قيمة وأثمن . واحيانا بدت اهداف أو مطالب المرحلة الافتتاحية فى صراع ما ، غير ذات اهمية بشكل غريب بالنسبة الى اولئك الذين كانوا ما يزالون يعيشون على قرب من نهايته .

عند هذه المرحلة قد يتحطم اجماع الرأى السياسى الداخلى . فبينما يحتمل ان تواصل بعض الجماعات الضغط من اجل الحرب ، فقد تقوم جماعات اخرى بمعارضتها وبالضغط من اجل السلم . وبدلا من هذا فان الراى المحلى فى صفوف كافة الجماعات والمستويات قد يتحرك ببطء بوجه عام بحيث يجرى تجنب الصراع الداخلى اذ يقل بالتدريج التأييد للحرب الخارجية . فى أى الحالتين قد يتحول رأى الصفوة ورأى الجماهير نحو التفاهم والتسوية .

لقد كتبت الفقرتان الاخيرتان فى عام ١٩٦٧ . وللقراء أن يحكموا بأنفسهم الى اى مدى تشبه التطورات السياسية الحقيقية التى جرت فى الولايات المتحدة اثناء الحرب الفيتنامية (١٩٦٥ ــ ١٩٧٣) وما بعدها ، الانماط التى شرحت فى اسكتشات هنا . وعلى أية حال ، فان الولايات المتحدة بدت بحلول عام ١٩٧٧ ، دولة متحدة الى حد معقول .

وفى حالة بلد أنهكت قواه بدرجة خطيرة واصيب بالهزيمة ، فقد يزداد تحول رأى الصفوة والجماهير ، فيمكن ان يقبلا الآن تقديم تنازلات كبيرة للخصم على غرار ما كان عليه حال الكثير من الروس فى أوائل عام ١٩١٨ عند عقد صلح برست / ليتوفسك مع المانيا . بل وقد يرون فى الحالات المتطرفة التسليم المباشر اذا ظهر ان مواصلة المقاومة ضد عدو متفوق الى حد كبير أمر لا أمل فيه ، واذا ظهرت الحياة افضل فى ظل الظروف التى يمكن التنبؤ بها بعد الاستسلام ، على نحو ما بدت بالنسبة الى القادة العسكريين الألمان واليابانيين الذين سلموا للولايات المتحدة وللحلفاء الآخرين فى عام ١٩٤٥ .

ومع كل ، كان مثل هذا التسليم صفقة مفهومة ضمنا . فقد استخدم البلد المهزوم ما تبقى من طاقته لالحاق الخسارة بالمنتصر من أجل الحصول على شروط كان يتوقع ان تكون خيرا مما يحتمل ان يحصل عليه بطريق آخر . غير أن مثل هذا الاستسلام يتطلب منتصرا مؤثرا وقادرا على فرض الشروط ، ويبدو من غير المحتمل ان يبقى أى منتصر من هذا النوع بعد أى حرب نووية شاملة بين القوى العظمى .

ولما كان يبدو من غير المحتمل ايضا ان تسلم اية قوة عظمى الا فى حالة الدمار البـــالغ الشدة ـــ والمتبادل ـــ لهذا يحتمل ان تظل المناقشـــات حول « استسلام استراتيجى » اكاديمية تماما • فالمناقشات حول العدول عن التصعيد ، وتقييـــد الصراع فى المراحل المبكرة من صراع بين القوى العظمى ، تقول ان هذا ينبغى ان يكون اجراء عمليا بدرجة اكبر •

الفصل الرابع عشر

بعض البدائل عن التصعيد والحرب

حتى حيث لم تنجح دولة فى السيطرة على سلوك اخرى ، فلا يزال من الممكن اما الابطاء بالتصاعد نحو صراع شامل أو وقفه — بل وربما قلبه . ويمكن فى الحقيقة تجنبه كلية فى ظل ظروف معينة (نناقشها فيما بعد) . فى الامكان ان نجعل الصراعات نادرة وضعيفة حتى بين بلاد أو شعوب يعتمد بعضها على بعض اعتمادا وثيقا ، وان نجعل التعاون اكثر حدوثا وجزاء بحيث يستهل سلسلة من الاحداث المؤدية الى صورة ما من التكامل السياسى المستقر والدائم .

لقد اقترح اثنان من رجال علم النفس الاجتماعى وهما تشارلز ا . أوسجو (ومورتون دويتش) والعالم الاجتماعى اميتاى اتزيونى نوعا من الاستراتيجية لاعادة مواقف الصراع الحادة عن طريق التصاعد . ففى رايهم أن على اية حكومة ترغب فى التخفيف من صراع ما أن تقدم تنازلا من طرف واحد ، محدودا ولكنه واضح لا تخطئه العين ، أو تقوم بحركة تنم عن التوفيق ، أو تقوم حتى بعدد صغير من امثال هذه الافعال او الحركات . فاذا عاملها الشعب المعادى بالمثل بتقديم تنازل مضاد أو اجراء حركة تنم عن التوفيق ، فعلى البلد الأول أن يخطو خطوة اخرى ولكنها واضحة ، نحو تحسين العلاقات ، واذا قوبلت بخطوة من نوعها وجب اتخاذ خطوة اخرى الى ان يهبط الصراع بأسره الى مستوى آمن ، أو الى ان تحل محله درجة من التسامح المتبادل والتعاون وفى النهاية من الود والصداقة .

اذا تعرضت اول مبادرة نحو الغاء التصاعد او مزيد من الود ، للرفض فان هذه النظرية تقترح الا يعمد البلد الأكثر استعدادا للتفاهم ، الى تصعيد الصراع مهما كانت الظروف ، وانما ينتظر بعض الوقت فحسب . اذا هوجم وجب ان يدافع عن مصالحه عند المستوى القائم من النزاع أو العداء ، ولكن ينبغى أن يسارع بمبادرة محدودة أخرى من جانبه نحو التفاهم . والفكرة الأساسية شبيهة بالتى توحى بها البيانات التجريبية التى قدمها أناتول رابوبورت بشأن مباراة ورطة السجناء . ان المراد بها تجنب كل من الاستشهاد والأنانية . ان تقاوم الهجوم ولكن تواصل اتاحة فرص واضحة ومتكررة أمام الخصوم حتى ينتقل الى سلسلة من الحركات التعاونية التى يقوم بها كلا الجانبين .

وبرغم ان هذه الاستراتيجية قد تنجح احيانا فى العلاقات الدولية ، بمثل ما نجحت فى العلاقات العمالية وفى بعض مواقف صراع صغير نسبيا ، الا أنه

نجاحها فى المرحلة الحالية من السياسة الدولية ، مما لا يمكن الاعتماد عليه ، فغالبا ما وجدت الدوافع على الصراع فى كلتا الدولتين • وعادة ما كانت متجسدة فى الكثير من بنيانهما الاجتماعى والسياسى ، وفى قراراتهما واستثماراتهما السابقة ، وفيما ارتبط به القادة واهل الصفوة السياسيون والعسكريون من التزامات ، وفى الصور المرسومة فى أذهان الصفوة والجماهير فيهما ، وفى التوقعات وسلاسل الأفعال التى سببتها هذه جميعا • فلوقف هذه السلاسل من الأفعال ، ورفض الالتزامات ، وقلب اوامر معينة وسياسات كبرى ، والغاء العقود الحكومية ، والرجوع عن وعود سياسية ، وتطهير سمعة احزابهما وزعمائهما ، واحباط التوقعات والمصالح ، وقلب عناصر التفاهم الداخلى والدولى والاتفاقات المتعلقة بالسياسة — نقول أن هذا كله اليم وكثير التكلفة وكثيرا ما يكون مليئا بالخطر الشديد • والبلد الذى يحاول فجأة قلب تصاعد صراع خارجى ، قد يجد نفسه واقعا تحت ضغوط وصراعات داخلية عنيفة ، وقد يشعر حكامه واهل الصفوة فيه بالخوف من التكاليف الداخلية التى ينطوى عليها « التسليم » أو حتى الرجوع عن التصعيد فى صراع خارجى ، بأكثر مما يخشون التكاليف السياسية والعسكرية التى تنطوى عيلها مواجهة خارجية متصاعدة •

وتزداد هذه الاخطار المحلية اذا كانت التنازلات من طرف واحد لخصم كبيرة او مفاجئة ، وتزداد خطورتها اذا كانت لا تقابلها سريعا تنازلات ظاهرة من جانبه ، ان المبادرات التدريجية المحدودة والمتكررة ، والتى يخفف منها انتظار مبادرات مضادة ومقاومة اية هجمات جديدة يقوم بها الخصم والرد الثأرى المحدود عليها ، تقول ان هذه المبادرات قد تذهب الى حد التقليل من المخاطر التى تترتب على احداث أزمة داخلية ، ولكنها قد لا تقضى عليها كلية • ففى سبيل تحقيق النجاح يجب ان يكون حسن النية الحقيقى فى الرجوع عن التصاعد فى الخارج مصحوبا بمهارة وكفاءة فى الزعامة فى الداخل •

التحول الداخلى بطرف أو كلا الطرفين الى الصراع :

لما كانت الصراعات كثيرا ما تسببها عمليات كامنة ضمنا فى الصروح الداخلية لأحد البلدين المتصادمين او كليهما ، لهذا فان تغييرا يطرا على هذه الصروح ربما يضع حدا لأمثال هذه الصراعات ويضع جدا ايضا لتكرارها • ولذلك كثيرا ما كانت تصدر الدعوة من أجل اجراء تحويل داخلى جذرى فى البلاد المتنافسة . باعتباره افضل طريق — والطريق الوحيد كما يرى البعض — لالغاء الحرب • فقد كان فى اعتقاد جان جاك روسو ان حكم الامراء المطلق فى دول اوروبا فى القرن الثامن عشر ، كان السبب الأساسى فى نشوب الحروب ، وعلى ذلك رفض مشروع معاصره الأب سان بيير لانشاء عصبة من الأمراء للمحافظة على السلام باعتبار انه مشروع لا يمكن تنفيذه ، اذ كان من رأى روسو انه لا يمكن تحقيق السلام الا بالغاء نظم الحكم المطلق الملكية (ما كان اسكندر هاميلتون ليعتقد فى هذا ، اذ أبان فى

كتابه « الاتحادى » ان التاريخ يظهر ان « الجمهوريات التجارية » من قبيل قرطاجه والبندقية اثبتت انها لا تقل ميلا الى الحروب عن الملكيات الارستقراطية (ان لم تزد عنها) • بمرور الوقت زالت الملكيات المطلقة من معظم اوروبا وبقية العالم ، ولكن اثبتت الدول القومية التى اعقبتها انها لم تكن اكثر منها ميلا الى السلام •

بينما كان روسو يأمل أن يلغى الحرب عن طريق الغاء الملكيات المطلقة ، كان ماركس ولينين يأملان فى انهاء جميع الحروب عن طريق الغاء النظام الاقتصادى الراسمالى ومعه فى النهاية وكما توقعا ، كل الحكم الطبقى • كان فى اعتقاد ماركس انه بانتهاء الصراعات بين الطبقات تنتهى الصراعات بين الشعوب • منذ عام ١٩٤٥ ظهرت مجموعة من الدول الشيوعية ، وبدا هذا الأمل ايضا يتعرض للاختيار عن طريق التجربة • تزعم الحكومات الشيوعية عادة ان الصراعات الطبقية فى داخل بلادها قد انتهت الى حد كبير ، وان علاقتها بالبلاد الشيوعية الاخرى اخوية ، وان جهاز الدولة الدكتاتورى فى كل من البلاد لم « يذبل » بعد كما انه لا يظهر اية علامات على انه سوف يذوى سريعا ، وكانت العلاقات الدولية ايضا بين البلاد الشيوعية وخاصة منها ما تتسم بظلال مختلفة من المذهب الشيوعى ، غنية بالصراعات السياسية والاقتصادية برغم أنه لم تنشب حروب بينها حتى منتصف عام ١٩٦٧ • وهكذا كان الاحباط مصير الامل الشيوعى فى تجنب الصراعات بين الدول الشيوعية والتى تقتصر عن الحرب ـــ كما حدث فى عام ١٩٦٨ عندما احتل السوفييت تشيكوسلوفاكيا ، ولكن الحكم على آمالها فى ان تتجنب البلاد الشيوعية بصفة دائما نشوب حرب كبرى بينها ، هذا الحكم لم يصدر بعد •

وهكذا اذا لم يكن التحويل الداخلى الجذرى حتى الآن قد الغى خطر الحرب ، فغالبا ما جعل الخوف من امثال هذه التحولات الجذرية الخطر اسوا • فالصفوات المعرضة للتهديد والاقليات التى كانت موضع المحاباة (من قبيل امثالها فى المانيا وايطاليا واليابان فى الثلاثينات) كانت احيانا وعن عمد ، تفضل الصراع فى الخارج على احتمال تغيير لا يطاق فى الداخل • فما كان يساورها من ضروب الخوف والاستياء من التغييرات المحلية التى تهددها ، نقول ان هذا جعلها تلتزم الدفاع وتعمد الى العدوان بشكل يجافى العقل ، اذ رأت فى كل مكان حولها مؤامرات وتهديدات ، فتضرب فى النهاية وقد تملكها الذعر والغضب الاعمى ، منافسا او هدفا خارجيا •

من وجهة نظر المحافظة على السلام قد تكون تغييرات اقل جذرية وشمولا فى النظم الاجتماعية الداخلية وسياسة الدول ، اكثر امانا واشد فعالية ، وخاصة اذا امكن اجراء مثل هذه التغييرات المحدودة بصورة لا تنقطع • سوف يتعين ان تسير امثال هذه التغييرات المحدودة وبوجه عام فى اتجاه زيادة قدرات كل شعب

على احتمال الصراع ومعالجة أمره ، وأن يكون هدفها فى كل بلد زيادة قدرة نظامه السياسى على التكيف والتماسك ، وقدرته على التكامل واحداث تغيير فعال فى بعض أهداف الشعب على الأقل ، بل وربما قدرته على تحقيق مزيد من التحول الذاتى الوطنى والتطوير .

مثل هذه التطورات المحدودة والجزئية فى الدول والشعوب (نحو ادارة أكثر فعالية للصراع والسعى وراء أهداف اقل خطرا وأكثر جزاء) تكرر حدوثها فى التاريخ باكثر مما قد يظن . فلقد اشتبكت انجلترا فى حروب برية بالقارة الاوروبية من القرن الثالث عشر الى الخامس عشر . وخلال الكثير من هذه الفترة كانت تحتفظ بموان مثل بوردو وكاليه ، واحرزت انتصارات مدوية فى كريس واجلكورت ، واحرقت جان دارك واحدثت دمارا فى فرنسا . وبذلت الكثير من القوة البشرية والثروة فى هذه العملية . ربما كان التزام انجلترا العسكرى والسياسى بالنسبة الى القارة ، يبدو شيئا لا يمكن الرجوع عنه فى نظر الكثير من قادتها . فيقال ان الملكة مارى الكاثوليكية ماتت وعلى شفتيها كلمة « كاليه » . لكن فى الحقيقة كان الالتزام قد انتهى تقريبا آنذاك . فسرعان ما تخلت انجلترا عن كاليه ومعها آخر معقل انجليزى فى فرنسا . وتحولت من السعى وراء القوة البرية فى القارة الى السعى الاكثر جزاء وراء القوة البحرية فى جميع أرجاء العالم .

هذا التحول عاد بفوائد ضخمة على انجلترا اذ جاء لها باربعة قرون من النمو والقوة والرخاء بشكل لم يسبق له مثيل . ولكن التحول لم يكن ممكنا او على الأقل أسهل الا باعتلاء العرش فى انجلترا أسرة مالكة جديدة فى عام ١٤٨٥ هى أسرة التيودور وكانت أكثر اهتماما بالسفن والشئون البحرية . ومعها ائتلاف جديد من الانصار (مبنى على ويلز وبعض جماعات وعائلات الصفوة ممن كانوا قبلا أقل نفوذا) وفكرة جديدة عن الادارة والحكم . بعد ذلك بوقت . وبعد عام ١٥٣٦ نجد ان التحول ساعد عليه أيضا قيام مشكلة جديدة هى الاصلاح الدينى البروتستنتى التى غطت على الصور القديمة لالتزام انجليزى تجاه القارة . واصبح التحول كاملا حين انتصرت البروتستنتية الانجليزية نهائيا فى عام ١٥٥٥ باعتلاء الملكة اليزابث الاولى العرش .

لا يمكن تتبع امثلة اخرى بالتفصيل . ولكن تحول الاتحاد السويسرى فى عام ١٥١٥ من سعى منهك وراء السيطرة على لمبارديا الى سياسة اقل كلفة وأوفر جزاء ، تتمثل فى الحياد والتوسع المحدود نحو الغرب والتطور الداخلى ، هذا التحول يبين نمطا مشابها . هنا ايضا سهل من التحول تحول نسبى لصالح أولئك الاعضاء القدامى والجدد من الاتحاد (مثل برنى ، فريبورج ، سولوثيرن ، بازل ، شافهاوزن وابنسل) ممن كانوا قليلى الاهتمام بلومبارديا .

كما سهل منه تضاؤل نسبى فى نفوذ الكانتونات (مثل يورى وشفيز) على الاتحاد ككل وكانوا اشد اهتماما بشئون لمبارديا • وعنا ايضا جاء الاصلاح الدينى فى النهاية بطائفة جديدة من المشكلات والصراعات جعلت الالتزام السويسرى السابق تجاه سياسة القوة فى لمبارديا ، سرعان ما بدأ غير ذى أهمية بل وغير ذى موضوع •

وتخلى السويد فى القرن الثامن عشر عن سياسات القوة الكبرى التى سبق ان اتبعتها فى منطقة بحر البلطيق وعلى حافة الكتلة البرية التى تمثلها الروسيا . عجل به بالمثل تصاعد تكاليف حروب برية لا تنتهى ضد الروسيا • والجهود التى بذلتها الولايات المتحدة فى سبيل انضمام كندا الى الاتحاد . بصورة متقلبة منذ الثورة الامريكية ومواد دستور الاتحاد حتى حرب ١٨١٢ . هذه الجهود تخلت عنها بعد تلك الحرب والحملة غير الناجحة ضد كندا • ونزع سلاح الحدود الفاصلة بين الولايات المتحدة وكندا فى عام ١٨١٩ وظل لا يتعرض لأى تحد جوهرى بعد ذلك ، بينما تحولت السياسة الامريكية تماما الى التوسع نحو الغرب ، وهو سعى أكثر جزاء •

وبعملية مشابهة كان يمكن فض تصاعد الصراع بين فرنسا والوطنيين العرب بالجزائر • فتحولت فرنسا من حرب برية فى الجزائر استطال امدها وبغير نتيجة ، الى سعى اشد فعالية وراء مصالحها فى الكثير من بقية افريقيا وفى أوربا ، فضلا عن تطوير فرنسا ذاتها الاقتصادى والتكنولوجى وتزويد القوات الفرنسيه المسلحة بالعتاد النووى • هذا التحول كان اسهل بسبب استبدال جزئى للمؤسسات ومجموعات الزعامة فى عهد الجمهورية الرابعة بمؤسسات ومجموعات الجمهورية الخامسة بما فيها بوجه خاص الرئيس ديجول وحزبه ، واحلال قادة عسكريين جدد من ذوى الاتجاه الفنى محل بعض قدامى القواد من دعاة الحرب الاستعمارية •

وفى أواخر الستينات كانت الولايات المتحدة قد بدات تواجه مشكلة الاختيار بين سعى متزايد وراء القوة البرية فى آسيا من جهة وسعى أقوى وأنشط وراء التكامل الاوربى والأطلنطى ، وتقديم المزيد من المعونة الاقتصادية للبلاد النامية والتوسع فى الفضاء الخارجى ، مع ما صاحبه من نمو فى قدراتها ومواردها العلمية والتكنولوجية الشاملة • فى ظل دستورها ونظامها القائم على وجود حزبين ، امكن ان يتم مثل هذا التحول فى سهولة ويسر ، بمجرد ان راح الرأى العام فى مستويات الجماهير والصفوة تطالب به ، وبحلول منتصف السبعينات كانت التزامات الولايات المتحدة ازاء الاراضى الاسيوية قد صفيت بالسياسات التى انتهجها الرئيسان نكسون وفورد باستثناء رئيس واحد ، وهو كوريا الجنوبية حيث استمر وجود القوات الامريكية • ان الانسحاب من فيتنام ولاوس وكمبوديا

(م — ١٤ العلاقات الدولية)

قد حظى بتأييد غالبية الحزبين فى الكونجرس وكذلك بتأييد الغالبية العظمى من الراى العام الأمريكى • وفى اثناء الأشهر القليلة الأولى من عمر حكومة كارتر فى عام ١٩٧٧ ، اتخذت استعدادات لسحب القوات البرية الأمريكية تدريجيا من كوريا الجنوبية • ويبدو أن هذا القرار الكبير الذى سينفذ « خطوة خطوة » قد اتخذ وانه لن يحدث تراجع فيه فى القريب • ولكن الشىء الغامض هو الى اى اهداف وأنشطة جديدة سيحول الشعب الأمريكى تصوره وموارده •

خفض الاتصالات المتبادلة :

تميل الصراعات على ما يوحى به العرض الموجود فى الشكل رقم (٤) ، الى ان تنشأ بين البلاد التى بينها درجة عالية من الترابط والتعامل المتبادل ولكن مصالحها متعارضة بحيث يكون هناك تغاير سالب فى المكافآت التى تؤول اليها . فكثير من النتائج التى تعود بالفائدة على بلد قد تنطوى على احباط وعقوبة للاخر • والصراعات بين امثال هذه البلاد يمكن التقليل منها بخفض مساحة ترابطها المتبادل وبالتقليل من سير المعاملات فيما بينها • واذ تقل الاتصالات المتبادلة ، كذلك تقل مناسبات نشوء المنازعات •

ويبدو أن السياسات التقليدية التى انتهجتها الصين القديمة كانت تسير وفقا لبعض مبادىء من هذا القبيل عندما بنى حكامها « السور العظيم » وقللوا معظم الاتصالات مع العالم الخارجى حتى اوائل القرن التاسع عشر • واتبع حكام اليابان فى عهد اسرة توكوجاوا Tokagawa من القرن السادس عشر حتى التاسع عشر سياسة مشابهة من العزلة عن العالم الخارجى • وخلال القرن التاسع عشر اضطرت كل من الصين واليابان الى التخلى عن سياسات العزلة هذه ، ولكنها سياسات مكنت كلا البلدين حتى ذلك الوقت من أن يتجنبا طيلة قرون عدة الحروب الخارجية الكبرى ، وهو ما يختلف اختلافا يلفت النظر عن تاريخ بلاد اوروبا المعاصرة لهما والذى كان ذا نزعة حربية اكثر •

فى العالم الغربى ندر استخدام امثال هذه السياسات من خفض الصراع عن طريق خفض المستوى المطلق (أو على الاقل الاهمية النسبية) للاتصالات بين بلاد يحتمل أن تصبح أعداء • يمكن أن تكون بعض مشاعر من هذا النوع قد أسهمت فى تكوين مزاج خطاب الوداع الذى القاه جورج وشنطن فى عام ١٧٩٧ عندما نصح مواطنيه بطريقة واقعية أن يبتعدوا عن المنازعات والتورطات السياسية المعاصرة بالعالم القديم ، وهى مشاعر عادت مرة ثانية فى ظل ظروف مختلفة جدا . فتمثلت فى النزعة الانعزالية التى تملكت الكثير من الامريكيين بين عامى ١٩٣٢ ، ١٩٤١ وان كانت نتائجها اقل توفيقا • وكانت الحكومات الشيوعية اكثر ميلا الى التقليل من الاتصالات عبر حدود بلادها — ومن الامثلة المثيرة بوجه خاص بناء حائط برلين فى اغسطس ١٩٤١ — ولكنها لم تفعل هذا للتقليل من الصراعات

الخارجية بقدر ما فعلته من اجل احكام سيطرتها الداخلية فى كل بلد من بلادها ٠ لكن من الممكن (وان لم يكن من المؤكد) ان هذه السياسة ربما منعت على الأقل بعض احتكاكات وصدامات دولية لولا هذا لوقعت ٠ فبرلين المقسمة على الأقل فى منتصف السبعينات ، بدت مدينة أهدأ مما كانت عليه فى السنوات العشر السابقة على هذا العقد ، ولكن شروط الحصول على تأشيرات دخول لزيارة برلين الشرقية التى فرضتها جمهورية المانيا الديموقراطية من جانب واحد ٠ قد اقامت الدليل على ان متاعب المدينة المقسمة لم تنته ٠

التقليل من المصالح المتعارضة وتقوية المصالح المتوافقة :

اذا كان لا يمكن أو لا ينبغى التقليل من الاتصالات المتبادلة ، ففى الامكان ان نقلل من احتمال وقوع الصراعات وذلك بأن نخفض بعض او كل المصالح المتعارضة بين البلاد المعنية ٠ أما كيف يتم هذا وبأى ثمن فيتوقف على طبيعة كل مصلحة ٠ فتستطيع البلاد التى تشتبك فى منافسة اقتصادية حادة أن يتحول كل منها الى خط مختلف من التخصص أو الى أسواق مختلفة او مناطق جغرافية ذات أهمية اساسية ٠ ويمكن اعادة تصحيح الاهداف السياسية ، وخلق مراكز بديلة واقل تأثرا بالصراع يركز عليها الرأى العام فى كل جاد اهتمامه ٠

ويمكن ازالة التهديدات والمظالم على نحو ما أزيلت الصواريخ السوفيتية المتوسطة المدى من كوبا فى عام ١٩٦٢ بناء على اصرار الولايات المتحدة ٠ وتهدئة المخاوف الحقيقية او المزعومة بمثل ما عملت الولايات المتحدة على تهدئة مخاوف السوفييت والكوبيين عندما قدمت التأكيدات فى الوقت نفسه بأنه لن تتكرر محاولة غزو لكوبا تؤيدها الولايات المتحدة ، وذلك بعد الغزو الفاشل فى خليج الخنازير فى عام ١٩٦١ : بعد هذه التدابير المؤدية الى فض التصعيد (ومع استمرار وجود مستوى منخفض من الاتصالات الامريكية ــ الكوبية) قل التوتر على مقربة من كوريا فى ١٩٦٢ ــ ١٩٦٧ بشكل ظاهر ٠

وحتى اذا لم يمكن التقليل بصورة لها شأنها ، من الاتصالات أو من المصالح المتصادمة ، فلا يزال فى الامكان التقليل من الصراعات عن طريق زيادة اهمية ووزن المصالح المتوازية او المتداخلة بين البلاد المعنية ٠ ففى داخل كل بلد كثيرا ما يمكن ان تجعل امثال هذه الروابط الايجابية ذات الأهمية للبلد الآخر تفوق المصالح السلبية والمتعارضة بين البلدين والتى تؤدى الى الانفصال أو العداء ٠ وحيث يمكن ايجاد مثل هذه المصالح المشتركة وجعلها تسود العلاقة بين البلدين ، يكون البلدان على استعداد للتحرك صوب علاقات متبادلة وودية ، بل وربما نحو مرحلة او درجة أعلى من التكامل السياسى ٠

وافضل امل فى التحرك فى هذا الاتجاه ، قد يكون فى استراتيجية مشتركة

فى كل من التغيير الداخلى والخارجى بالنسبة الى البلاد التى قد تبقى محصـــورة فى الصراع او تتحرك نحو علاقات صحيحة او حتى نحو التكامل · مثل هـــــذا الأسلوب قد يعنى أن تصبح المصالح المتنافرة بين الأطراف المعنيـــة أقل وزنا · بينما تجعل المصـــالح المتوافقة اســـهل فى الرؤية واقوى · وســـوف يتطلب هذا الأسلوب نقل المراكز التى ينصب عليها اهتمام الراى العام ، بعيدا عن الصراع ، بل ونحو التعاون ان أمكن · سوف يكون معناه فى داخل كل بلد عزل واضــعاف جميع الجماعات والصفوات والمؤسسات والمصالح التى تعمل على زيادة حـــدة الصراعات ، بينما تدعم وتؤلف بين جميع تلك الجماعات والمصالح التى تعمل من اجل التصحيح والتعاون السلمى الدولى ·

كل هذا يمكن ان يعنى بصورة ضمنية تغييرا سياسيا مى داخل معظم او كل البلاد المعنية ، وقد يتعين فى بعضها ان تصل هذه التغييرات الى اعماق البنيـــان السياسى · الا ان هذه التغييرات يمكن أن تـــكون أكثر فعالية بالنســـبة الى السلام اذا لم تصل الى درجة الثورة الكلية ، واذا تجنبت اثارة المخاوف وضروب الاستياء المتطرفة والتى يكمن فيها احتمال توليد الحرب ، وذلك فى جماعات الصفوة وذوات المصالح ظلت حتى ذلك الوقت موضع الرعاية ·

وأكثر من هذا كله ، سوف يتعين على مثل هذه الاستراتيجية القائمة على خفض الصراع وامكانية التكامل ، أن تهدف الى زيادة قدرات كل دولة قومية على ادارة الصراع ، والصبر على التهديدات والغموض ، وعلى تغيير الأهداف والتحول الذاتى مع فقدان الذاتية والقيم والتقاليد الأساسية · وهذا يتطلب اعادة تعـريف دور الشعب فى السياسة الدولية ، وكذلك اعادة تعريف الكثير من الأدوار السياسية فى داخل كل بلد · والأغلب انه يتطلب أيضا اعادة وصف صورة العالم فى نظـر الشعب أو قادته أو فئاته ذات الأهمية من الناحية السياسية ويتطلب فى العـادة بعض التغيير فى نظرة الشعب الى نفسه ، اى فى الصورة التى تلقى القبول مـن الناحيتين السياسية والثقـــافية وهى الصـــورة التى يكونهـــا عن نفســه وقيمه وأهدافه ·

لقد نجحت شعوب قلائل على امتداد التاريخ كما راينـــا ، فى التعرض لمثل هذا التحول الجزئى وفى اخضاع التهديد المثل فى بعض (وان لم يـــكن كل) الصراعات الدولية لحياتها أو رخائها · ولكن أمثال هذه النجاحات لازمة اليـوم لشعوب كثيرة ، وبمزيد من الاطمئنان والسرعة · ان ادوات جديدة أو متحســنة قد تـــكون متـــاحة الآن للوصول الى هذه النتائج وتستحق أن تـــكون محـــل الدراســـة ، واكثر هذه الأدوات المحتملة مدعاة الى الأمـــل هى القانون الدولى والمنظمات الدولية ومختلف صـــور النظام الاتحادى والتكامل الذى يتجـــاوز الحدود القومية ·

الفصل الخامس عشر

التكامل الدولى وفوق القومى

يعنى التكامل بوجه عام خلق كل واحد من عدة أجزاء — أى تحويل وحدات كانت من قبل منفصلة عن بعضها البعض الى مكونات نظام متماسك ، ولنا ان نتذكر أن خصيصة أى نظام الأساسية عبارة عن درجة مهمة من الترابط بين الأجزاء التى يتكون منها ، وينحصر الترابط بين اى مكونين او وحدتين فى الاحتمال بأن تغييرا يحدث فى احدهما — او اجراء يتم على احدهما — سوف يولد تغييرا فى الآخر يمكن التنبؤ به • وبهذا المعنى يشكل القفل والمفتاح الذى يتفق معه ، نظاما متكاملا ، فادارة المفتاح « تحير القفل » • وفى العادة ، للنظام ككل خواص ليست موجودة فى اى جزء فقط من الأجزاء التى يتكون منها • فالجهاز الصحيح المكون من قفل ومفتاح ، يمكن ان يستخدم للتحكم فى فتح وغلق باب ، وهذا ما لا يستطيع أن يفعله قفل بنفسه أو مفتاح بنفسه •

فالتكامل اذن عبارة عن علاقة بين وحدات ، وفيها تعتمد هذه الوحدات بعضها على بعض وتخلق سويا خواص للنظام تفتقر اليها كل وحدة بمفردها • غير انه احيانا تستخدم كلمة « تكامل » أيضا لوصف عملية **التكميل اى الربط** التى يتم بها الوصول الى مثل هذه العلاقة أو هذا الوضع بين وحدات كانت من قبل منفصلة ، بعضها عن بعض •

والتكامل السياسى : هو ضم ممثلين سياسيين أو وحدات سياسية من قبيل الافراد أو الجماعات أو الهيئات البلدية أو الاقاليم أو البلاد ، وذلك من ناحية سلوكها السياسى • وفى السياسة يكون التكامل علاقة يتبدل فيها سلوك أمثال هؤلاء الممثلين السياسيين أو الوحدات او المكونات ، عما يمكن أن يكون عليه لولا هذا (اى اذا لم يكن ثمة ترابط وتكامل بين هذه المكونات ، ومن هذه الناحية يمكن مقارنة التكامل **بالسلطة** ، اذ يمكن النظر الى السلطة على انها علاقة يجبر فيها ممثل واحد على الاقل ، على ان يتصرف بطريقة مختلفة عن التى يتصرف بها لولا هذه العلاقة (اى اذا لم يكن لهذه السلطة وجود) •

ويتكون مجال التكامل ، شأنه شأن مجال السلطة ، من شعوب المناطق الجغرافية التى تتم هذه العملية بينها ، وعلى غرار السلطة ، فللتكامل ايضا **نطاق** هو مجموع نواحى السلوك المختلفة التى تنطبق عليها هذه العلاقة المتكاملة ، وهكذا فانجلترا وويلز متكاملتان ليس فقط من الناحية السياسية عن طريق جميع السياسات الكثيرة التى تنتهجها دولة رفاهية عصرية ، ولكنهما مترابطتان ايضا

بالنسبة الى الدين عن طريق كنيسة انجلترا التى تساندها دولتهما المشــــتركة ويراسها ملك هذه الدولة • ولكن لا وجود فى الولايات المتحدة (المترابطة من نواح أخرى كثيرة جدا) لمثل هذا التكامل الدينى الرسمى بين الولايات التى يمــكن ان تكون لها تقاليد مختلفة على نحو ما نلقاه فى ماساشوستس وماريـــلاند وبوتاه ونيفادا ونيويورك • واعضــــاء الأمم المتحدة متــكاملون بالنسبة الى طائفـــة صغيرة من المهام •

ويمكن ايضا مقارنة التكامل السياسى بالسلطة من ناحية **مداه** • ونستطيع أن نرى مجال التكامل هذا يتكون من مدى المكافآت ونواحى الحرمان بالنســـبة الى الوحدات المكونة له ، والتى يجرى بها المحافظ على علاقة ترابط بين هـــذه الوحدات ، وهذا المدى قد يكون متوسطا فى حالة منظمة دولية ثانوية ذات اهميـــة هامشية بالنسبة الى اعضائها ، بحيث يأتى لهم نجاحها بالقليـــل من الكسب ، ولا يعود عليهم حلها الا بالقليل من الخسارة • او يمكن أن يكون مدى العقـــوبات الايجابية والسلبية التى تعمل على التكامل كبيرة ، بما فى ذلك المكافآت والآمال المشتركة الضخمة فى حالة النجاح والعقوبات الشديدة جــزاء الاخفـــاض أو الانفصال • وكان هذا هو الحال من عام ١٧٧٦ فصاعدا عندما واجهت الشــعوب وجماعات الصفوة بالولايات المتحدة ، وظفرت بالمكافآت المترتبة على التـــكامل والتى تمثلت فى الاستغلال والمشاركة فى استيطان الأراضى الغربية وأخيـــرا استيطان قارة • هذا من جهة ، ومن جهة اخرى لو ان هذا التكامل فشل لهـــددهم جميعا بفقدان الاستقلال ، وباقامة واستمرار نظم من الحكم الاستعمارى الأوربى فى مختلف اجزاء القارة المقسمة وبأهوال كل من الحروب الأهلية والدولية التى تشن فى داخل بلادهم •

اما ان يسود بالفعل مدى معلوم من المكافآت والجزاءات فى بيئة سياســية معلومة ، فمسألة اخرى بالطبع ، ففى حالة القوة على ما تذكر ، تحــدثنا عن **وزن** قوة ممثل باعتبار انها احتمال تغلبه على المقاومة ، وقدرته على نقل احتمال النتائج المهمة فى بيئته • وحالة التكامل ـــ اى الفكرة عن وزن القوة ـــ توازيها فـــكرة **التماسك او خاصية التماسك** •

والنظام المتكامل قادر **على التماسك** الى الحد الذى يمكنه من مقاومة الضغط والشدائد ، ويدعم اختلال التوازن ، ويقاوم عمليات التفكك والانشقاق ، ويمــكن ايضا ان يقاس تماسكه او قدرته على التماسك ، بالتنقل المستمر الذى يحـــدثه النظام فى احتمالات سلوك الاجزاء المكونة له ضد الطريقة التى يحتمل أن يتصرفوا وفقا لها لو لم يكونوا مترابطين فى النظام ، فكلما عظمت الشدائد والضـــغوط التى يستطيع نظام احتمالها ، عظم تقدير تماسكه ، وبهذا فحالة التماســـك او الاندماج التى حققتها كل من المانيا وايطاليا على التوالى ، بعد توحيد كل منهمـــا

القومى فى القرن التاسع عشر . تدل عليها حقيقة ان ايا من الاقاليم المكونة لها ، لم يحاول الانفصال بعد الآلام الرهيبة التى سببتها الحرب العالمية الأولى أو الثانية ، بينما شدائد مماثلة اسهمت فى عام ١٩١٨ فى تفكك كل من النمسا والمجر وفى الاتحاد بين بريطانيا وارلندا ٠

والفوارق فى هذه الأبعاد الأربعة من التكامل . وهى : المجال والنطاق والمدى والوزن ، تساعدنا على ان نميز انواعا مختلفة من المجتمعات السياسية المتكاملة :

فنحن نطلق اصطلاح **عالمى** على مجتمع ذى مجال عام ، كالاتحاد العالمى للبريد من حيث المبدأ ، ويقرب من ان يكون ذلك من الناحية العملية ، وهذا على خلاف مجتمع **خاص** تقتصر العضوية فيه على بلاد مخصوصة (مثل الجامعة العربية أو اتحاد البنلوكس الجمركى المكون من بلجيكا والأراضى الواطئة ولوكسمبرج ٠ ومن حيث **النطاق** نميز مجتمعات **نوعية** اى مجتمعات تقتصر على موضوع معين أو خدمة معينة ، وذلك على نقيض المجتمعات **الموسعة** التى يتوقع من كل منها ان تعمل اكثر او اقل مما يحتاج اليه أو يطلبه أعضاؤه — وعادة تفرض قدرات التنظيم الدولى المحدودة ، الاختيار ، فيستطيع تنظيم أن يؤدى خدمة معينة لعملاء على مستوى العالم ، وذلك من قبيل الاتحاد الدولى للاتصالات السلكية واللاسلكية الذى ينسق الخدمات التلغرافية الدولية بين عدد كبير من البلاد ، وباب الانضمام اليه مفتوح أمام الشعوب التى لها الحق فى هذا ، او يمكن لتنظيم او مجتمع أن يضطلع بمسئولية واسعة عن مجموعة متنوعة كبيرة من خدمات مقسورة على مجموعة معينة من الاقاليم أو الدول أو البلاد ، فطبقا لمواد الاتحاد (١٧٨١ — ١٧٩١) كانت الولايات المتحدة مجتمعا من النوع الأخير . وزاد هذا الوضع طبقا لدستورها الاتحادى (المصدق عليه فى عام ١٧٩١) ٠

وقبل ان نستعرض بعض الانواع المختلفة من المنظمات أو المجتمعات الدولية التى تولدها امثال هذه الاختلافات فى المجال والنطاق ، يجب أولا أن نكون واضحين بالنسبة الى معنى مفهوم « مجتمع سياسى » ٠ **المجتمع السياسى :** عبارة مجموعة من ممثلين سياسيين يكفى ترابطهم لاحداث تغيير جوهرى فى نتيجة بعض القرارات المهمة التى يتخذها كل منهم ٠ فطبقا لهذا الحد الادنى من التعريف يكون المجتمع عبارة عن درجة مهمة من الترابط فحسب ، ومن ثم فهو حقيقة موضوعية بغض النظر عما اذا كانت الحكومات او الشعوب المعنية على بينة منها ام لا ٠ فلاعبان فى مباراة ، أو دولتان فى منافسة أو صراع ، اعضاء فى مجتمع سياسى بهذا المعنى القليل ولكنه حقيقى ، وسواء احبوه أو لم يحبوه ، فان نتيجة ما يعمله كل منهم سوف تتوقف الى مدى مهم على تصرفات الآخر وافعاله ٠

اذا كانت وحدتان أو مجموعتـــان أو دونتان معينتان على بينة من ترابطهما وربما أيضا من حدوده ، فقد يغيران سلوكهما تبعا لذلك ، وعندئذ قد يتصرفان كأعضاء فى مجتمع ويلعبان الأدوار التنافسية أو التعاونية التى تناسب ذلك النـــوع المخصوص من الترابط الاقتصادى أو الاستراتيجى أو الســياسى الذى تجدان أنفسهما فيه ، فاذا ــ كان **مجتمع صراع** بوجه خاص ، بحيث أن النتائج التى تفيد البلد (أ) تنطوى على احباط أو عقوبة بالنسبة الى البلد (ب) فقد يتصرفان على أساس أنهما متنافسان أو خصمان ، واذا تعادلت مكاسبهما وكانت متوقفة عـلى التنسيق بين أفعالها ، فعندئذ يكونان فى **مجتمع مصالح ايجابى** ، وقد يحـــاولان التعاون • لكن سواء كانا فى حالة تعاون أو فى موقف صراع ، فسوف يتصرفان الآن باعتبارهما أعضاء فى مجتمع ــ تصرفا يختلف عن الطريقة التى اولا هـــذا لكانا يتصرفان بها •

ومجتمعات الصراع تحبس أعضاءها (سواء كانوا افرادا أو جمـــاعات أو شعوبا) فى علاقة يسودها كلية او الى حد كبير ، الصراع المتبادل • لكن مما يلفت النظر انه برغم انها تحقق القليل من التكامل أو لا تحقق شيئا منه ، بين الخصوم « التقليديين » أو « الوراثيين » فى داخلها ، فالذى يحدث (على ما لاحظ الكثيرون ممن درسوا التاريخ وعلم النفس) أن الناس والشعوب يميلون الى ان يحـــاكوا بطرق كثيرة ، نفس الأشياء التى يكرهونها • فقد أوضح الوطنى الارلندى جــورج رسل (الذى كان يوقع باسم A E) أن أعظم الارلنديين تشــبعا بالنزعــة الانجليزية ، كانوا أولئك الذين يكنون أشد الكراهية لانجلترا •

والأغلب ان تشتبك الشعوب فيما بينها فى مجتمع يتميز بنزاع تختلط به الدوافع • وعندئذ تكون مصالحهم متعارضة من بعض نواح هامة ، ولكنهم مـــن نواح أخرى يستفيدون من تنسيق اعمالهم • وفى مثل هذه الحالات يكون من صالح الطرفين وجود « حل بارز » ظاهر يلقى القبول منهما ، وعلى ضوئه ينســـقان توقعاتهما وأفعالهما • وكثيرا ما يزودنا العرف الدولى والقانون الدولى بصـــورة بسيطة من مثل هذا التنسيق •

القانون الدولى :

القانون عبارة عن قاعدة عامة تغطى فئة معينة من الحالات ، وتساندها موافقة محتملة مقررة سلفا وتلقى القبول الواسع من الاهالى المعينين باعتبارها مشروعة وعادة يستمد **القانون الوطنى** التصديق عليه من جهاز التنفيذ فى الدولة القومية ، كما يستمد شرعيته من وحدة الاتصالات والذكريات والثقافة السياسية التى يقوم عليها قبول الشعب وتاييده فى كل دولة قومية • وفى داخل الدولة القومية تـــكون اداة التنفيذ ومشاعر الشرعية متاحة **للأغراض العامة** (اى لاى غرض أو حاجـــة

تنشـــأ) ، وبهذا فمجـــالهما واســـع ، ولـــكنها غير ذلك فى داخـــل النظـــــام الدولى ٠

وعلى ذلك يمكن النظر الى القانون الدولى على انه اشمل واخص صورة من التنظيم الدولى ٠ فعلى غرار جميع القوانين ، لا ينطبق الا على حالات معينة ٠ ولكن كقاعدة ، لا يقف وراءه جهاز دائم يمكن الاعتماد عليه ٠ واقل من هذا ايضـــا (فى العادة) وجود ثقافة سياسية دولية مشتركة الا فى صفوف فئة عليا صـــغيرة من الدبلوماسيين والمحامين الدوليين وبعض أفراد الصفوة ممن يعنون بوجه خـــاص بالشئون الدولية ، ان الرسائل والرموز القومية والمصالح المرئية اكثر اهميــــة بكثير فى نظر الجماهير فى كل بلد ، والنتيجة أن تميل المدركات عن شرعية القانون الدولى الى أن تكون ضعيفة نسبيا ، والمدركات عن القانون ومصـــالح الوطنيين قوية نسبيا ٠ ومع ذلك ، لم يبق القانون الدولى على قيد الحياة فحسب ولـــكنه زاد عبر قرون عدة ، وعموما لا يمكن خرقه دون ان تترتب على هذا عواقب خطيرة ، ان القانون الدولى يستمد الموافقة عليه ، أعنى ما يعادل احتمالا مهما بتنفيذه ، من التكلفة الخطيرة التى يحتمل ان ينطوى عليها خرقه ٠

وعلى ذلك فالحد بين القانون الدولى والعرف الدولى مطموس ، على خـــلاف الحد بين العرف القانونى والسياسى والقانون الدستورى داخـــــل كل شعب ، ولكنه لا يزال شبيها نوعا بالحد المطموس قديما بين القانون العرفى غير المكتوب والقانون المكتوب او الســـابقة الموجودة فى أوائل مراحل نشوء الكثير من النظم القانونية (كالقـــانون الرومانى والقـــانون العام الانجليزى) وفى قانون البلاد النامية المعارضة التى تجتاز مرحلة انتقال من القانون التقليدى الى القـــانون الحديث الكامل الأركان ٠

العرف يوفر الوقت والمشقة وعدم التأكد ، فهو يصنع الكثير من القرارات مقدما ، ويخفف من أعباء الاتصال وصنع القرار ، وينسق بين توقعـــات المثلين الذين يقومون بأدوار مختلفة ، ويساعد على جعل المستقبل اكثر قابلية للتنبؤ به ٠ والقانون عبارة عن عرف يراه الكثيرون مشروعا وتسانده عقوبات محتملة تنـــزل بعدد قليل ممن يخرجون عليه ، والقانون يفعل ما يفعله العرف ، ولكنه يفعل هـــذا بمزيد من الدقة والشدة والاطمئنان وعلاوة عن ذلك فالقانون واضح ومعقول فى العادة (اى يمكن تتبع عملياته خطوة بخطوة) ٠ وعلى ذلك يخضع فى العـــادة للمنطق ، وكثيرا ما يستجيب لعملية ربط تسمح بضم عناصره او قواعده الى بعضها البعض بطرق جديدة حتى تكشف عن مشكلات جديدة ٠ ومنذ البداية يخلق فئـــات من الحالات تتضمنها او تستبعدها نصوصه ، وعلى ذلك يمكن استخدامه ليشـــمل حالات جديدة فى ظل مقولات قديمة ، أو يمكن مد حدوده بطريق القياس كى يشمل

فئات جديدة من الحالات ، وعلى ذلك ليس القانون اقوى وادق فحسب من العرف ولكنه أيضا أكثر مرونة واقدر على التطور ٠

ويملك القانون الدولى جميع هذه الخواص والامكانيات ٠ فسواء نشأ من العرف أو المعاهدات ، فهو يخدم الشعوب حتى تنسق توقعاتها المتبادلة وسلوكها المتبادل بما فيه صالحها هى ٠ واول سند له وراءه ، ليس ضبط النفس فحسب من جانب المثلين ، ولكنه ايضا ادراك ما كان يتحمله جميع الأطراف من تكاليف او مشقة اذا لم يكن له وجود أو كان موضع الاغفال بوجه عام ٠ الموقف شبيه بمثله من مسألة قواعد المرور كالقيادة على الجانب الأيمن من الطريق ، وهى قواعد تنطوى مخالفتها على مشاق وأخطار اكثر منها فى طاعتها ، وثمة مثال طيب عن هذا تقدمه قاعدة قديمة تضمنها القانون الدولى وتنص على أن اشخاص السفراء يجب أن تكون مصونة ٠ فقد كان الطغاة القدماء يقتلون أحيانا السفراء الأجانب اذا غضبوا من الرسائل التى ينقلونها اليهم ، فى العادة لم يكن الحكم ليمتد طويلا بأمثال هؤلاء الطغاة ، واى شعب حديث يتجاسر على اعدام السفراء عليه أن لا يتوقع من اى شعب اجنبى أن يبعث اليه بسفراء فى المستقبل ، وان سفراء ، قد يتوقعون ايضا معاملة فى الخارج (وهذا سوف يجعل العمل فى السلك الدبلوماسى غير جذاب ، بغير شك) ٠ وباختصار يؤدى سوء معاملة السفراء الأجانب وغيرهم من الدبلوماسيين الى متاعب تربو على ما يساويه (وهو ما كانت الصين الشيوعية والهند بصدد اكتشافه فى عام ١٩٦٥) ، وهكذا عاشت قاعدة احترام السفراء الأجانب اكثر من الف سنة مع استثناءات قليلة ، حتى برغم عدم وجود حكومة عالمية أو محكمة عالمية او بوليس عالمى لتنفيذها لقد اثبتت نواحى التنفيذ الذاتى لهذه القاعدة انها كافية (حتى الهند والصين استأنفتا العلاقات الدبلوماسية العادية بحلول عام ١٩٧٧) ٠

لكن كقاعدة ، فان ما يتصف به القانون الدولى من انه ينفذ نفسه بنفسه ، هذا الطابع يتطلب اما مساواة تقريبية فى مراكز قوى الاطراف (بما يسمح باتباع تكتيك واحدة بواحدة بينهم) أو امكان توقع ان تنقلب ادوارهم فى المستقبل (بما يسمح بتكتيك واحدة بواحدة فى المستقبل المحتمل) ، فاذا أوشك الجانبان فى قضية دولية أن يتساويا فى القوة ، ففى امكان كل منهما أن يثأر بطريقة فعالة مما قد يفعله الآخر ٠ وفى اللقاءات المتكررة فى ظل أمثال ظروف التماثل التقريبى هذه ، فان المصلحة الذاتية البسيطة سوف تكافىء المثلين اللذين يتطمان تنسيق سلوكهما وتجنب اللقاءات التى تسىء الى كل منهما ٠

وحتى اذا لم يكن الجانبان متماثلين تقريبا فى القوة والمركز ، فقد

يتعين عليهما أن يتوقعنا أن تنقلب ادوارهما راسا على عقب في المستقبل ، كان لألمانيا النازية التفوق في الجو في عامي ١٩٣٩ ، ١٩٤٠ واستغلت هذا التفوق في ضرب وارسو وروتردام بسكانهما من المدنيين ، متجاهلة القانون الدولي الذي سائدا آنذاك ، وفي ظرف وقت قصير من عام ١٩٤٢ فصاعدا فقدت المانيا تفوقها الجوي ، واستخدمت ضدها بقوة سابقة قصف المدن وهي السابقة التي كانت قد وضعتها قبل ذلك بوقت قريب ، والآن تقبل الرأي العام الامريكي والبريطاني والكثير من الرأي العام العالمي قصفت همبورج وغيرها من المدن الالمانية (وهو قصف كان تأثيره العسكري قليلا ولكن راح ضحيته حوالي نصف المليون من المدنيين الالمان) • وثمة سؤال عما اذا كان هذا العمل الانتقامي محتملا وسؤال آخر عما اذا كان عملا صحيحا من الناحية الأدبية •

وعلى العموم ، تحسن معظم الشعوب اذ تأخذ في الاعتبار انقلاب الادوار في المستقبل واحتماله في الواقع • فالشعب الذي يؤكد على ماله من حقوق السيادة في وقف او تفتيش جميع السفن في مياهه الساحلية ويجد ما يغريه بمد نطاق تعريفه لاصطلاح « المياه الساحلية » بحيث يتجاوز حد الاميال الثلاثة التقليدي ليصل الى ١٢ ميلا (كما فعلت في الولايات ايام تحريم الخمور في العشرينات) ، هذا الشعب قد يجد فيما بعد ان هذا المبدأ يمكن ان يتعارض مع مصالح صناعة صيد الأسماك عنده ، اذا اخذت به البلاد الاخرى • وثمة امثلة اشد خطورة تنطبق على القيود القانونية الدولية المفروضة على الحرب ، ومن ذلك معاملة الأسرى او مناطق سكنى المدنيين ، او استخدام الأسلحة الكيماوية او البكتريولوجية •• وايا كانت الأسلحة او أساليب الحرب التي يستخدمها شعب وخاصة اذا كثر استخدامها ، فمن المحتمل أن تستخدم يوما ضد شعبه هو ، ان المزايا الطويلة الأجل المترتبة على البدء بتجاهل القيود القانونية الدولية ، هذه المزايا يتضح في العادة انها اقل مما كانت تبدو به في أول الأمر ، ويجري الاكتشاف بعد الأوان أن التكاليف والمساوئ في الأجل الطويل اكبر وافدح بكثير ، ان القواعد الواردة في الكتاب المقدس محذرة من انه لابد ان يأتي الذنب وويل لمن يأتي عن طريقه ، وبانه كما يدين المرء يدان ، هذه القواعد وراءها الف سنة من التجربة السياسية عند ما كتبت ، وان تجارب الامبراطوريات والممالك الكثيرة التي قامت وسقطت في آلاف السنين منذ ذلك الحين ، انما افادت في اثبات صحتها في الاجل الطويل •

ربما يكون أصعب على الامريكيين منه على غيرهم ، ان يقدروا الوزن الكامل للفكرة الواردة بالكتاب المقدس وان كان التاريخ قد اثبتها ، لأن تجربتهم التاريخية حتى الآن مختلفة ، وفي الواقع استثنائية الى حد

كبير ، كان الكثير من التجربة الامريكية المبكرة ضد الهنود الذين كانوا في العادة دون الامريكيين قوة ، وضد بريطانيا (١٧٧٦ ـ ١٧٨٣ ، ١٨١٢ ـ ١٨١٥) التي كانت بعيدة جدا ومشغولة جدا بحيث لم تستطيع استخدام قوتها الكاملة . وكانت الحروب ضد المكسيك في عام ١٨٤٨ وضد اسبانيا في عام ١٨٩٨ حروبا شنت ضد بلاد أضعف بشكل ظاهر ، بينما شنت الحربان العالميتان الاولى والثانية ضد المانيا بالتحالف مع الغير بحيث انه في كل حالة تقابلت فيها القوات الامريكية مع الالمانية في البر في وقت متأخر نسبيا في الحرب وعندما كان الكثير من قوة المانيا قد اصابه الضعف او مشغولا في اماكن اخرى ، واستطاع الدفع الامريكي ان يفرض قرارا مبكرا بخسائر في الأرواح قليلة نسبيا ، ربما كان القتال ضد اليابان في الحرب العالمية الثانية أشد حرب مرارة اشتبكت فيها امريكا في السنوات المائة الأخيرة . وهنا ايضا هزمت الولايات المتحدة بلدا لم يكن لديه سوى حوالى نصف أهله وأقل من جزء من عشرين من قدرته على انتاج الصلب . ولم يحدث في اى حرب خارجية منذ عام ١٨١٢ أن غزا أحد الارض الامريكية او تقصف مدنهما بالقنابل . ليس لدى أغلبية الامريكيين التجربة الشخصية اذ يرون مدنهم ودورهم اصبحت ساحة قتال ، وهي تجربة كانت لسوء الحظ شيئا مألوفا في البلاد الأخرى .

وعلى ذلك يبدو من الطبيعي في نظر الكثيرين من الامريكيين أن ينظروا الى الحرب الشاملة على انها تعني النصر ولا تعني النكبة ، وان يدعوا الى حرب اكبر والى استخدام أسلحة اشد فتكا عندما يشعرون بالاحباط في حرب محدودة بعيدة عن شواطئهم ، وبالضجر من جميع القيود القانونية والدبلوماسية المفروضة على ما يعتقدون انه سلطات بلدهم ، بينما يهتمون قليلا بالتكاليف في الأجل الطويلة أو لا يولونها اهتماما واقعيا . هذه حقا استجابة طبيعية لتجارب ماضينا الفريدة ، وتبدو اكثر قربا الى تلك المجموعات في الكونجرس وفي صفوف الناخبين شديدى التعلق بالماضي . ولكن في العقود الاخيرة من القرن العشرين يمكن ان تكون هذه الاستجابة انتحارية ، ذلك انه في عصر الصواريخ العابرة يمكن ان تكون أرض الولايات المتحدة بأسرها في نطاق الرؤوس الذرية ، ومقابل كل نكبة يمكن ان نلحقها بالاتحاد السوفيتي يمكن أن تصب علينا كارثة ليست أقل احتمالا . لقد كان الكثير من علاقاتنا الدولية الماضية مع القوى الأخرى يتسم بانعدام التناسق وخلقنا بذكريات جعلت الكثيرين منا يضيقون بالقانون الدولي والسياسات القومية التي تدعو الى كبح جماح الذات . اما اليوم فاهم علاقة لنا وهي علاقاتنا بالاتحاد السوفيتي ، علاقة متناسقة متماثلة من أجل اغراض عملية كثيرة ، واذ يمر الوقت وتحصل الشعوب الأخرى على اعداد اكبر من الاسلحة النووية ووسائل اطلاقها ، فسوف يصبح القانون الدولي والسياسات القومية من ضبط

النفس ، ذات اهمية متزايدة بالنسبة الى بقاء كل واحد على قيد الحياة ٠ غير أن التنفيذ الذاتي عن طريق التجوبة المرة ، وكبح جماع النفس عن طريق اصطناع بعد النظر ، ليس بالقوى الوحيدة التي تساند القانون الدولي . فثمة قوى مساندة اقل ولكنها ليست بالحكم المهمل ، هي ضغط للرأى العالمي (الذي تجاهلته الحكومات الالمانية في حربين عالميتين فعاد عليها بالاذى) وتفور الرأى العام الداخلي من افعال تقوم بها حكومته يراها غير مشروعة ويمكن ان تؤدى الى سحب التأييد الشعبي ، وهو سحب هادىء ولكنه مؤثر . وسحب تأييد قطاعات مهمة من صفوات البلد الاجتماعية والثقافية والسياسة والتكنولوجية وبالاضافة الى هذا ٠ قد يترتب على المخالفات الصارخة للقانون الدولي اعمال مضادة من جانب بلاد ثالثة ومساوىء شتى في المنظمات الدولية ولا يسع اية حكومة مسئولة أن تتجاهل طويلا التأثير التجميعي لجميع هذه العمليات ٠

جهاز القانون الدولي :

غير ان هذا لا يعني أن من السهل دائما تحديد الحالة التي يطبق فيها القنون الدولي بأكثر مما يستطيع المرء ان يقرر بسهولة محتوى القانون الوطني (أو « القانون البلدى » كما يدعوه رجال القانون الدولي) بصدد نقطة هي موضع نزاع ٠ ان الكثير من القانون الدولي يتقرر في المعاهدات والاتفاقات الدولية ، وهذه بالطبع لا تلزم بشكل مباشر سوى الشعوب التي وقعت حكوماتها وصدقت على كل وثيقة ، ولكن اذا لقى القبول الواسع وخاصة من جانب جميع الدول الكبرى ، فانه يحل ايضا على اجماع المجتمع الدولي ٠ وبخلاف هذا هناك شرائح ومجموعات من القانون الدولي واجماع الخبراء ، والسوابق التي قررتها احكام دولية سابقة أو حالات من التحكيم ٠

يمكن تسوية النقاط المتنازع عليها بطريق **الدبلوماسية المباشرة** — اى طريق المفاوضة والمساومة بين الاطراف المعنية مباشرة ٠ فاذا اخفقت هذه العملية وادت الى مأزق وخطر تصعيد النزاع ، امكن اشراك بلاد ثالثة قد يقتصر اشتراكها على **المساعي الحميدة** كتوفير الضيافة وملتقى محايد للجولة التالية من المفاوضات ، او قد تقوم بدور **الوساطة** فتقدم آراء أو مقترحات يمكن ان تؤدى الى حل وسط ، وهذه الأخيرة يستمع اليها الاطراف المتنازعة لا بسبب ما ترى فيها من ميزة حقيقية ولكن ايضا بنسبة قوة الشعب الذي تقترح حكومته ٠

فاذا التزم طرفان في نزاع ، مقدما بقبول قرار طرف ثالث ، حل **التحكيم** محل الوساطة ٠ قد يكون الحكم حكومة أو هيئة من محكمين بصفاتهم الفردية ، وغالبا ما يختار الطرفان ثلاثة او خمسة محكمين

من بين قائمة موجـودة تتكون من خبراء موثوق بهم . ومثل هذه القائمة موجودة كالمحكمة الدائمة للتحكيم الدولى بلاهاى (وهى على ذلك ليسـت محكمة قضائية . وتتقرر سلطات المحكمين وحـدود القضيـة التى يراد اصـدار قـرار بشأنها . فى كل حالة ، عن طريق إتفـاق بين الأطـراف بأن يرفعـا هذه القضيـة أو هذه الفئـة من القضايا احيانا الى المحكمين، ويقرر الاتفـاق بنفسـه المبادىء التى يصدرون قرارهم طبقا لهـا ـ كالقانـون بالمعنى الدقيق او اعتبارات العدل .

فاذا كان المراد اصـدار قرار فى القضيـة طبقـا للقـانـون بالمعنى الدقيق فالأغلب أن ترفـع الى محكمة العدل الدوليـة التى هى « الجهاز القضائى الرئيسى بالأمم المتحـدة » على ما جـاء فى ميثاق الأمم المتحـدة . إنهـا خلف المحكمـة الدائمة للعـدل الدولى السـابقة بدون تغيير تقريبـا ، وبهذا فهى تؤدى عملهـا فى الواقـع منذ عـام ١٩٢٠ . واعضـاء الأمم المتحدة يلتزمون بقوانين المحكمة . ولكن ولايـة المحكمة تتوقف فى الكثير من الحـالات على رضـا الطرفين ، كمـا تحـد منها ايضـا تحفظـات كثيرة من جانب الشعوب الأعضـاء . ولا تملك المحكمة وسـيلة لغرض تنفيذ احكامها ، ولكن بمجرد أن تخضـع الدول لولايتها ، فأنهم فى العـادة يطيعون هذه الأحكـام برغم وجـود بعض استثناءات كما فى الحـالات التى تتصـل بالحرب الباردة أو باتحـاد جنوب افريقيا .

ولقـد بذلت جهـود لتوسـيع نطـاق ولايـة المحكمة الاجباريـة توسيعا جاسـما ، ولكن هذه الجهود قاومتهـا الولايات المتحدة وكذلك الاتحاد السوفييتى وبلاد أخرى كثيرة ، وهكذا اخفقت حتى الآن . فاذا نجحت امثـال هذه الجهود فى وقت مـا فى المستقبل ، لحولت المحكمة العالميـة الى أداة للرقابـة ذات اغراض أعـم ، وبـذا توسـع من نطاقهـا . واذا احتفظت المحكمة فى الوقت نفسـه بعالمية ميدانها أو وسعت من نطاقـه لتطلب هذا قدرات اعظـم بكثير حتى يتسنى لهـا معالجـة مهامها المتوسـطة من ناحيتى الاختصاص والنطـاق ، ولا يـزال من المتعين ابتـداع قـدرات سياسـية أكبر على المستوى الدولى .

مبـدا الاختصاصات : المنظمات الدولية لاغراض معينة :

تختلف المنظمـات الدولية النوعيـة من حيث وظائفها والمفتوحـة ابوابهـا أمـام جميـع الشـعوب أو جميعها تقريبـا ، عن القانون الدولى من حيث جهازها الدائـم الأقـوى ، وتأكيدها الأكبر على وضـع قواعـد وأحكـام جديدة . وعلى تنفيذ وادارة السياسـات ، وبعض هذه المنظمـات غير حكومية مثل الصليب الأحمر الدولى (المنبثق من مؤتمر الصليب الأحمر الدولى بجنيف فى عـام ١٨٦٣) الذى يهتم من بين اشـياء اخـرى بتقديـم الغـوث فى حـالات الكوارث ، وبتقديم امدادات طبية فى حالات الطوارىء ورعاية اسرى الحرب .

لكن تتكون معظم المنظمـات الدولية الهامة من هذا النـوع من حكومـات وتضـم امثـال هذه المنظمات الحكومية : اتحـاد البريد العالمى (١٨٧٤) ــ الاتحـاد الدولى للمواصـلات اللاسلكية (١٩٣٢ وهو خلف اتحـاد التلغـراف الدولى الذى تكون فى عـام ١٨٦٥) ، والمنظمة الدوليـة للطيران المدنى ، وغير ذلك ، وثمـة وظائف اوسـع نطاقـا نوعـا تضطلـع بهـا منظمـات مثـل منظمة العمل الدولية (١٩١٩) ــ منظمة الغذاء والزراعـة) ١٩٤٥) ، منظمـة الصحـة العالميـة (١٩٤٨) ، ومنظمة الامم المتحـدة للتربية والعلوم والثقافة (اليونسـكو ١٩٤٦) ٠

هذه المنظمـات وغيرهـا من الوكالات « المتخصصـة » التابعة للام المتحدة ينسـق بينها وبربـاط غير وثيـق بالتأكيـد ، المجلس الاقتصـادى والاجتماعى التابـع للامم المتحدة ٠ هذا المجلس الذى يضطلـع ايضـا بمهمة مناقشة المشكلات السياسـية والاجتماعية الأساسـية وتبنى بعض اتجاهات مهمة نحو وضـع مستويات جديدة للسـلوك القومى عن طريـق الاتفاق ضـد القتـل الجماعى واتفـاق حقوق الانسان ، وكلاهما لا يـزال على بـلاد كثيرة أن تصدق عليهما ٠

ونظريـة **تخصص الوظائف** او **الاختصاصات** فى العلاقات الدولية مبنيـة على الأمل فى أن تفويض المزيـد من المهـام المشتركـة الى امثـال هذه المنظمات ذات الوظائف المعنيـة ، سـوف يؤدى الى أن ترتبط شـعوب العالم بالتدريج فى مجتمع واحـد تكون الحرب فيـه مسـتحيلة ٠ ولكن هذا الأمـل يبدو الى حد ما ، غير مؤكـد ، فجميـع هذه المنظمات مقصورة اساسـا على تبـادل الآراء والمعرفة ، واجـراء الدراسـات ، ووضع مشروعات التوصيات وتقديم المعونـة الفنية الى الحكومات التى تطلبهـا ، ولكنها لا تسـتطيع التشريـع ٠ وبرغم أن المبـدا القديـم عن الاجمـاع قـد حـل محله فى العـادة فى هذه المنظمـات التصويـت بالأغلبيـة ، الا ان قراراتها لا تلزم ايـة حكومة الا بعد أن تصـدق عليهـا ، (لبعض وكالات فنيـة فقط سـلطة محـدودة لوضع القواعد ، وهكذا فالمستويات التى وضعتها منظمة الطيران المدنى للامن فى الجـو ، واللوائح التى صاغتهـا منظمة الصحة العالميـة لمنـع انتشـار الأوبئـة ، تصبح ملزمـة للشـعوب الأعضـاء فيهما الا اذا اخطرتهما بالعكس فى ظرف وقت محـدد) ٠

كذلك لا تملك هذه الوكـالات سـلطة فرض الضرائب ، كما لا يملك معظمهـا ايـة سـلطة فعالة لتوقيـع عقوبات ٠ وتتكون هيئاتها الحاكمة من مندوبين عن الحكومات مزودين بالتعليمات ويجب أن يقولوا ما أمرتهم حكوماتهم بـه ٠ فعلى خـلاف اعضـاء هيئة تشريعيـة قومية ، لا يسـتطيع هـؤلاء المندوبيون حتى لو توصلوا الى اجماع فى الرأى ، ان يصـوتوا على قـرار ويلزموا بـه مـن بعثوا بهم ، فهم ان صح القـول ، ممثلون يسيرون فى اتجـاه واحـد ٠ انهم

يمثلـــون حكوماتهم لـــدى المنظمة الدولية ولكن لايمكنهم ان يمثلوا ايضا وبصورة فعالة ارادة هذه المنظمـــة لـــدى الناخبين فى دوائرهم الانتخابيـــة على نحـــو ما يمكن أن يفعله أعضـــاء الهيئـــات التشريعية أحيانا وما يفعلونـــه ٠

وربما الأهم أن مبـــدأ الاختصاصات التقليـــدى كما وضعه دافيد ميترانى كان يتصور ان تعامل هذه الوظائف والخدمات الدولية أو التى تعلـــو السـيادة القومية كأنهـــا مســـائل فنيـــة ، ذات طبيعـــة غير سياســـية ، وبعيدة عن صـــخب وضغوط الجماعات الممثلة للمصـــالح والشــــعوب وجماهير السكان . ولكن الأكثـــر احتمالا ان تثبت هذه الفكـــرة انهـــا مصـــدر ضعف أكثر منهـــا مصدر قـــوة ، فخلال معظم الوقت لا تســـتطيع المنظمـــات الدوليـــة الحاليـــة أن تفعـــل أكثر من الاتصـــال بالحكومات التى تظـــل حـــرة فى منـــع الموظفين الدولية من دخـــول أراضيهـــا فى أى وقت ، واذا استثنيا بعثـــات المعونـــة الفنية الميدانيـــة ، لا يســـتطيع موظفو الهيئـــات الدولية أن يتصلوا اتصـــالا مباشرا بالناس الذين يتـــزاد من هؤلاء الموظفين أن يخدموهم ، وتتقـــام العقبـــات فى طريق تلقى رســـائل مباشرة من الجمهور والـــرد عليهـــا . بـــل فى عمل أى شىء يتعلق بهـــا ٠ فى ظـــل هذه الظروف لا يحتمل ان تنمو ضروب ولاء الناس للوكـــالات والرموز الدولية ، ولا يحتمل أن تضعف جاذبيـــة الصور والرموز القومية ٠

وتفضـــل معظم الصـــــفوات القومية ان تســـــير الأمور على هذا النحو ، فليست بأعضائهـــا رغبـــة فى اضعاف قوتهـــا على مجتمعاتها القومية عن طريق منـــح التشجيع الجـــاد لأيـــة ولاءات دوليـــة منافســـة يمكن أن تضعف قوتهـــا المحلية فاليونسكو سرعـــان ما ثبطت عن متابعـــة مهمتهـــا الاصليـــة فى خلـــق ايديولوجية ومجموعة من الرموز ، دوليـــة جديدة ، كذلك لـــم يتبين القادة السوفييت ولا الحكومات الغربيـــة الرئيسية فكـــرة تشجع أية منافسة محتملة ٠

وبالمثـــل رفضت البلاد الغربيـــة بصـــفة خاصة فى عـــام ١٩٤٧ منـــح الغذاء والزراعـــة ســـلطات فعالة على اثمـــان وامـــدادات الغذاء الدوليـــة . وبقيت منظمة منصرفة الى اجـــــزاء الدراســـــات واعداد التوصيات وتقـــديم قـــدر متواضـــع من المعونـــة الفنيـــة ، بينما بقيت فى ايـــدى الحكومات الرئيسية المصـــدرة للغذاء مثل الولايات المتحـــدة القرارات المتعلقـــة بتوزيـــع الغـــلال والمواد الغذائيـــة الأخرى فى العالم وما يصحب هذه من قوة سياسية محتملة ٠

وغالبـــا ما تتعارض نظريـــة تخصص الوظائف أيضـــا مع نمو التكنولوجيـــا الحديثة ٠ وكمـــا زاد عـــدد الموارد التقنيـــة التى يبـــدأ تشـــغيلها بقـــرار تقنى كلمـــا ازداد احتمـــال تجـــاوز نتائجها حـــدود اى تخصص تقنى واحـــد ؛ حينمـــا كانت الطائـــــرات صـــــغيرة نسبيا ٠

كانت القرارات الخاصة بحقوق الهبوط ومواقع المطارات تترك لاخصائيي الملاحة الجوية . ولكن مع قدوم الطائرات النفاثة الضخمة ذات المحركات النفاثة والطائرات الضخمة التى تفوق سرعتها سرعة الصوت مثل طائرة الكونكورد الانجلو ــ فرنسية ، فان قرارات من هذا القبيل تشمل أيضا مشاكل صوت الطائرات وقيمة الأراضى الحقيقية وتخطيط المدن والاحتجاجات الاهلية والسياسة البلدية بل والسياسة على المستوى الوطنى والدولى ، مثلما حدث بين فرنسا والولايات المتحدة فى عام ١٩٧٧ حول حقوق الهبوط لطائرة الكونكورد بالقرب من نيويورك . ان قرارات شاملة من هذا القبيل تتجاوز حتما اختصاص اى مجموعة واحدة من الاخصائيين التقنيين ، ولذلك يجب معالجتها على المستوى السياسى . وهنا يمكن ان تعزز العقبات السياسية والتقنية لنظرية الاختصاصات الدولية بعضهما البعض .

كلما كبرت القوة الكامنة المحتملة لمنظمة دولية أصبح نفوذها المحتمل أوسع واكثر انتشار من ناحية وظائفها ، وزادت فى العادة مقاومة المجتمعات والصفوات القومية حتى لا تدع هذه القوة الدولية الكامنة تنمو . وكلما تقترب وكالة دولية من أن تمس جوهر سيادة شعب ، فقد تصبح هذه المشكلة اكثر حدة ، فصندوق النقد الدولى والبنك الدولى للتعمير والتنمية يمسان حرية كل شعب فى التصرف فى عملته الوطنية حسبما تراه كل حكومة وطنية مناسبا ، بل وللصندوق بعض سلطة فرض العقوبات ، اذ يستطيع بشروط معينة ، أن يرفض تقديم الدعم المالى للحكومات غير المتعاونة . وللولايات المتحدة ٥٠ فى المائة من الاصوات فى الصندوق باعتبارها اكبر مساهم مالى فيه ، وتستطيع فى العادة أن تعتمد على اصوات عدة شعوب أخرى تفكير قادتهم المصرفيين مثلها . ولكن لهذه الأسباب فحسب فمن الصعب تماما اجراء أية توسعات أخرى فى سلطات صندوق النقد الدولى وظيفة متكاملة معينة الى طلب متزايد على خلق مؤسسات دولية اضافية ، والربط بين وظائف وخدمات اضافية ، هذا الأمل لم يتحقق الى أى حد كبير فى المنظمات التى من هذا النوع .

كان لمبدا الاختصاصات مثل أعلى مختلف بالتأكيد ، فقد كان مترانى يساوره الامل فى أن تتصل وكالات وظيفية معينة اتصالا مباشرا بالناس الذين تخدمهم فى كل بلد ، سوف تبقى وظائفها غير سياسية ، ولكنها سوف تظفر عن طريق أدائها ، بالقبول المتزايد من جانب الصفوات وبالتأييد الشعبى . لكن من بين الوكالات الدولية الخاصة من حيث وظائفها ، لم تسر بعيدا جدا فى هذا الاتجاه حتى الآن على ما رأينا غير عدد قليل جدا ان كانت اى منها قد سارت ــ ربما باستثناء منظمة الصحة العالمية .

الفصل السادس عشر

الهيئات العالمية من اجل الاغراض العامة

من بين الأهــداف الكثيرة التي يسعى الى تحقيقها الافراد والحكومات هدف الأمن وهو الأســلوب الأساسي الذى يجرى فيــه التمتــع بمعظم القيم الأخرى مثــل الثروة والرفاهيــة والمحبــة و « القيم الباقيــة » مــع توقــع دوامهــا بعض الوقت على الأقــل ولكن نظــرا لأنــه اســلوب وشرط للتمتع بكثير مــن القيــم الأخرى ، فغالبــا ما يكــون معناه غامضا ٠

ويعنى الامن لاكثر النــاس . وهذا هو الاغلب والاوضح ، أمن الحيــــاة والجســد لهم ولاغرائهم ،وبهذا فهو يعنى الســلام والمحافظــة عليه ٠ ولكن يمكن ان يكــون مفهومه أيضــا تأمين الثروة والملكيــة وحتى لو كانت هــذه الثروة مبنيــة على صراع جزئى ولكنــه حقيقى بين مصالح دائن ومدين ، ومالك ارض ومســتأجر ، ومستخدم وصاحب عمــل ــ وهذا صراع قــد يصــل الى حــدة الحرب الكامنة ، فى بعض البلاد الناميــة ٠ ومن ناحيــة اخــرى يمكن ان يعنى الأمن أمن الرموز والأنظمة ، ومراكز الطبقــات وأدوارهــا ، والصــور والعادات ، والأيديولجية الثقافــة والحقوق فى نيــل ألاحترام وفى احتــرام النفس ، بالنسبة الى معظم الناس قد تبدو بعض او كل هذه الأمور تستحق الدفاع عنها ، ونظــرا لأن الدولة القومية غالبــا ما تظهر عــدم قدرتهــا على حمايــة هذه الأمــور ، اتجــه الناس بآمالهم الى المنظمات الدولية لحمايتها ٠

وتتطلب المحافظــة على الســلم القــدرة على استياق القــوة او التغلب عليها ، كما تحتــاج حماية أمــن القيم الأخــرى نفس المقــدرة عــادة ٠ وهكذا تعنى المحافظــة على الأمــن الســيطرة على القــوة وتنظيمها ، ومن ثــم القدرة على التأثير فى توزيــع كثير من القيــم والسعى وراء كثير من الاغراض ٠ وعلى ذلك تبــدو المنظمة الاتحاديــة او الدوليــة القائمة « فقط » على حفظ الســلام والأمن كمنظمة ذات غرض خاص من ناحيــة شــكلها ولكنها قــد تكون فى جوهرهــا هيئة ذات اغراض عامة . وقــد يعــد ميثاقها والعاملون فيها بعــدم التدخل فى شــئون دول اعضائهــا (الداخلية) ولكن قــد تــكون نواياهــا فى المــدى الطويــل اقــل اهميــة من قدراتهــا ٠ فاذا كانت اضعف من دولــة او من عــدة دول اعضــاء فيها فلن تســتطيع المحافظة على الســلام أو استعادته فى وجــه الذين يتحدونها . ولكن اذا كانت المنظمة اقــوى من اعضائهــا فقــد تكون فى موقف يمكنها من التدخل من وقت الى آخــر فى بعض او كــل شــئون وكما تــراه مناسبا لها ٠ واذا كان هنــاك خــلاف حــول ما يعتبر مســائل

(داخليـــة) فان المنظمة الاتحاديـــة او الدوليـــة القوميـــة تصبح أصلح كي تجعل رأيهـــا يســـود ، وقـــد تحدد قوتهـــا المتفوقـــة في النهاية كيف تفسر الثغـــرات أو الفقـــرات التي هي موضـــع خلاف ، في ميثاقها او دستورها ٠

وهكذا نجـــد ان المشـــكلة الرئيسية لكل هيئـــة دولية تهدف الى المحافظـــة على الســـلام والأمـــن ـــ كانت في ضعفهـــا بـــدلا من قوتهـــا ٠ في كل حالـــة كانت المنظمة فيها ضعيفـــة فذلك يرجـــع الى ان اكثر اعضائهـــا يخشـــون قوتها . ولأن هذه الهيئـــة الدوليـــة او الاتحاديـــة قـــد تصبح اداة للســـلطة ، والسيطرة في ايـــدي دولة واحدة قويـــة او عـــدد قليل من الدول القويـــة للاعضـــاء في الهيئـــة ، وذلك كما هو الحـــال بصـــورة ما في الشركـــة القابضـــة التي غالبـــا ما تعمل كجهـــاز يزيد ويضاعف من ســـلطة اقليـــة منظمة من أصحـــاب الاســـهم ضـــد باقي المســـاهمين ٠

في الهيئـــات الدولية التي تهدف الى ضم اعضاء كثيرين من دول العـــالم فقد تتســـع وتكبر الاختلافـــات بين الاعضـــاء وكذلك بالنسبة لمخاوفهم المتبادلة ٠ ولهذا وبرغـــم المشروعـــات التي تدعـــو الى المحافظـــة على السلام فان الهيئات أو الاحلاف التي تضـــم أكثر أو كل الدول ، قـــد تعدلت اكثر من مـــرة منذ أن اقترح بييرديبوا Pierre Dubois مثل هذا المشروع في عـــام ١٣١٠ . ومنذ دعـــوة المؤتمرات الدولية لهذه الافكـــار في اربعينات القرن الماضي ، ولـــم تتحقق هذه الدعـــوة الا بعد الحرب العالمية الأولى عندما تكونت عصبة الأمم ، ومنذ ذلك الحين فقط بدأت الحكومات والامم تشعر بخوف من الحرب والاضطراب الدولي يزيد عن خوفها من بعضها البعض ، ولم تظل كذلك منذ تأسيس العصبة الا بصـــورة منقطعة ومتقبلة ٠

الأمـــن الجماعي وعصبة الأمم :

تكونت عصبة الامم بعد الحرب العالميـــة الأولى كي تحمي الســـلام والتوزيع الدولي الجديد للحقوق والأراضي الذى ترتب على الانتفاضة الدولية ٠ وتنص المادة العاشرة من عهـــد العصبة على الزام الاعضـــاء بالدفـــاع عن اســـتقلال وسيادة كل دولة في اراضيهـــا ولكنها تركت في النهايـــة كل أمـــة تقرر كيفية تحقيـــق هذا الالتزام ، وطبقـــا لمبـــدأ الأمن الجماعي كان على كل أعضـــاء عصبة الامم ان يعملوا معـــا في مقاومة اى دولة تحـــاول خـــرق الســـلام وذلك بفرض عقوبات اقتصـــادية وعسكرية على الدولة المعتديـــة اذا لـــزم الأمـــر ، وقـــد كـــان على هذه الدول ان تفعل هذا بصرف النظر عمن يكون حليف هذه الدول المخالفة . وكان الأمـــل في الدفاع عن الحالة الجديدة القائمة أن يكـــون من خـــلال الأمـــن الجماعي واحلالـــه محـــل النظـــام القديـــم للاحـــلاف وتوازن القـــوى الذى ادى الى الحـــرب العالمية الأولى ٠ ولقـــد أنضمت الى عصبة الامم في الســـنوات

العشر التالية لانشائها كل أمة ذات سيادة ، وكانت القلة المستثناه تضم « افغانستان » وبوتان ونيبال واليمن والولايات المتحدة ، وكانت الولايات المتحدة بالفعل بقيادة الرئيس وودر ويلسون منذ أول ١٩١٧ من الدول الرقيبة الرئيسية على عصبة الأمم وعهدها الذى نشرت مسودته الاولى فى فبراير ١٩١٩ فى مؤتمر السلام بباريس ، ولقد تغير الشعور القومى فى الولايات المتحدة وخاصة فى مجلس الشيوخ ، تجاه عصبة الامم ، وترتب على الاقتراحات التى قدمها الرئيس السابق للولايات المتحدة « وليام هواردتافت » تعديل مشروع ميثاق عصبة الأمم ليحمى الأوضاع القانونية الداخلية لدول الأعضاء ولتصبح كل القرارات السياسية بالاجماع لتأكيد حق كل أمة فى الانسحاب ، فضلا عن الابقاء على مبدأ مونرو وبالتالى ابتعاد المنظمة الدولية والاعضاء غير الامريكيين بعيدا عن تسوية أية خلافات داخل نصف الكرة الغربى · وكان الهدف من كل هذه التعديلات تقليل السلطات القانونية لعصبة الأمم ، والمحافظة على شعوب الدول التى تتكون منها ، وبرغم هذا فشل الرئيس « ويلسون » فى الحصول على اقرار الميثاق فى مجلس الشيوخ · ومع هزيمة « ويلسون » والحزب الديمقراطى برئاسة « وارين » والجمهوريين فى عام ١٩٢٠ مات المشروع ، ولم تصبح ابدا الولايات المتحدة عضوا فى عصبة الامم ·

وكان يحكم عصبة الامم مجلس سيطرت عليه الدول الكبرى وكانت « فرنسا وانجلترا » أول هذه الدول ثم انضمت اليهما » بعض الدول « الأعضاء الدائمين » مثل « ايطاليا واليابان » ، ثم انضم الى المجلس تسعة أعضاء غير دائمين عن طريق انتخابهم من قبل جمعية عصبة الامم لكى تمثل فيها كل المناطق الجغرافية الرئيسية فى العالم · وكان هناك سكرتارية تضم موظفين وصل عددهم الى نحو ٧٥٠ فردا بدون سكرتير عام ، وفى خلال اجتماعات عصبة الامم عرض عليها ٦٦ خلافا سياسيا نجحت فى حل ٣٥ مشكلة منها . ولكنها فشلت فى أكثر المشاكل أهمية ، ولقد ساد النجاح نشاط عصبة الأمم فى السنوات الأولى من قيامها (١٩٢٠ ـ ١٩٢٥) وفى فترات ازدهارها (١٩٢٥ ـ ١٩٣٢) ·

وبرغم بقاء الولايات المتحدة بعيدا عن عصبة الأمم الا انها اقتربت منها على نحو ما فى عام ١٩٢٧ · وبعد ذلك عندما وقعت مع فرنسا اتفاقية « بريان ـ كيلوج » Briand - Kellog التى اعلنت فيها الدولتان نبذهما للحروب كأداة للسياسة القومية · وقد انضمت اليها أمم كثيرة أخرى وشملت الاتفاقية حدا ادنى جديدا للحالة الاخلاقية المتدهورة للحرب ، ولكنها لم يكن نقطة تحول فى استمرار ما كان يحدث بالفعل ·

وقد بقى اعضاء عصـــــبة الأمم فى خلافات عميقة بسبب مصــــالحهم وايديولوجياتهم المختلفة ، فقد رغبت كل من فرنسا وبريطانيا فى الاحتفـــاظ بالمناطق والامتيازات التى حصلوا عليها فى الحرب العالمية الاولى ، وأرادت فرنسا التى وضعت يدها على الالزاس واللورين ومؤقتا على حوض السار فى القـــارة الأوروبية ــ ان تكون ترتيبات الآمن الجماعى جامدة ومحكمة ۰ وفضلت بريطانيا التى كانت مكاسبها فيما وراء البحار ، ان تكون مثل هذه الترتيبات مرنة ، وفى مجال تنافس الدولتين نجحت كل منهما فى خلال فترة الحربين العالميتين فى القضاء على معظم نفوذ الأخرى فى القارة الأوروبية ــ أما فى المانيا فقد أراد صفوة القوم فيها وكذلك غالبية الناخبين ، تحقيق مكاسب اكيدة لها ۰ وبعد استيلاء هتلر على السلطة فى عام ۱۹۳۳ اتجهت السياسة العسكرية الالمانية الى تحقيق هـــذه الاهداف ، وفى ايطاليا كان يهدف القادة هناك وخاصة بعد استيلاء الفاشيست على السلطة بزعامة « بنيتو موسولينى » فى عام ۱۹۲۲ ، وكذلك قادة اليـــابان فى الحصول على مكاسب اقليمية وهى مكاسب فشلت بلادهما فى تحقيقه فى الحرب العالمية الأولى ، ولقد اتجهت (دول المحور) الثلاث مع بعض الدول الصغيرة الى قلب الأوضاع الراهنة التى كانت عصبة الأمم تدافع عنها ضـــد كل التهديدات الموجهة من (الاعتداءات الخارجية) ۰

وكان موقف الاتحاد السوفييتى اكثر غموضا ــ فقد كان حكامه يرغبون مؤقتا فى قبول حدود بلادهم المنكمشة كما وضحت بعد الحرب العالمية الأولى ۰ وكانـــوا يأملون فى الحصول على مكاسب اكبر فى المستقبل من خلال تزايد قوتهم العسكرية والاقتصادية ، ومن خلال الاستجابة السريعة من جانب الجموع الفقيرة لعقيـدتهم الثورية المضطربة فى الصين وفى باقى آسيا وبعض المناطق الأخرى النـامية . وكانوا يأملون فى هذا أيضا وفى يوم ما بالنسبة للعمال الذين يعانون المشـاكل فى العالم الغربى ۰ ولهذا لم يكن للحكومة السوفيتية صالح فى الدفاع عن الأوضاع الراهنـــة ولـــكنها لم تكن فى عجلة للمخاطرة بهجوم عام عليها ، غير انها أحست بتهديد سريع من العسكرية الجديدة فى المانيا واليابان ورأت الدخول فى تحـــالف مع الدو لالقائمة فى ذلك الوقت بعد انضمامها الى عصبة الأمم فى عام ۱۹۳٤ ۰

ولكن سرعان ما خفت بعد ذلك فكرة النظرية الأصلية (الأمن الجماعى) كبديل عن نظام التحالف السياسى القديم ، كهدف فى حد ذاته لم يكن الأمن الجمـــاعى واضحا بدرجة كافية للحكومات والشعوب حتى يمكن الغاء المصالح القوميـــة واعتبارات كل دولة ، ولقد ظهرت التحالفات كوسائل لتحقيق أهداف أخرى بصورة اكثر قبولا واصبح (الأمن الجماعى) بعد ذلك عنوانا فقط يلصق باى نظام للتحالف يتعارض مع اى نظام آخر ، ولكن بقيت كل التحالفات غير مستقرة ــ فقد أصرت كل من المانيا وايطاليا واليابان على تصحيح الوضع القائم للمنـــاطق الاقليميـــة ، أما موقف كل من فرنسا وبريطانيا فقد تراوح بين المحاولات والمقاومة والتحـــرك

تجاه (الترضية) من خلال رشوة الدول الثورية عن طريق التنازلات او من خلال تحويل ضغوطهم التوسعية الى اتجاه بلاد أخرى ٠ وبالنسبة للولايات المتحدة فقد بقيت بمعزل عن الآخرين ودون ان يكون لها مصالح اقليمية ، واستمرت فجوة قائمة من العداء الايديولوجي والشكوك المتبادلة بين الاتحاد السوفييتي وبين الدول الغربية ، ولم تستطع عصبة الأمم ان تصبح أكثر قوة من قوة وحدة الدول العظمى التي برزت قوتها من خلال هذه الوحدة ، ولقد بدأ الانهيار في عصبة الأمم من عام ١٩٣١ وما بعدها ، وفي تلك السنة فشلت في اتخاذ اجراء فعال ضد هجوم اليابان على الصين في منشوريا ٠

وفي عام ١٩٣٥ فرضت عصبة الأمم عقوبات اقتصادية على ايطاليا الفاشية التي كانت جيوشها تغزو الحبشة ، ولكنها لم تستطع حتى التصويت على محاولة ايقاف تدفق البترول الى مصانع الحرب الايطالية ، وانتهت العقوبات الضعيفة بالفشل في عام ١٩٣٦ ٠ وبرغم عدم وضوح موقف عصبة الأمم في ذلك الوقت لبعض المراقبين ، الا أن الفترة ما بين عام ١٩٣٥ وعام ١٩٣٧ كانت نقطة تحول في حياة العصبة ، فقد تركزت انظار العالم كله عليها في تلك السنوات ، وكان يمكن ان تصبح نقطة التقاء ورمزا لوحدة الرأي العالمي والعمل المنسق لكثير من الحكومات القوية ضد التهديد وممارسة الاعتداءات من جانب الدول الثورية (مثل المانيا وايطاليا واليابان) ٠ وكان الاتحاد السوفييتي في ذلك الوقت ولأسباب خاصة به ، في موقف يهدف الى التعاون مع الدول الغربية ــ وكانت قوة الدول المعتدية في ذلك الوقت اقل بكثير من قوة الدول الغربية (وكذلك بالنسبة لروسيا) وعما أصبحت عليه من قوة فيما بعد في الفترة ١٩٣٨ ــ ١٩٤١ ٠ وكان يمكن تجنب قيام الحرب العالمية الثانية او على الأقل ايقافها بهزيمة المعتدين في فترة قصيرة وتحقيق خسائر اقل في الأرواح مما حدث بالفعل لو ان عصبة الأمم نجحت في تلك السنوات الحاسمة ١٩٣٥ ــ ١٩٣٧ ٠

ولكن لأسباب خاصة بكل دولة ترددت الحكومات وكذلك تردد الرأي العام في كل البلاد الغربية الكبيرة ، في اتخاذ مواقف حاسمة خلال الفترة من ١٩٣٥ الى ١٩٣٨ حتى ضاعت سنوات فرصتها ، ولقد طالب الرئيس « فرانكلين روزفلت » في خطاب شهير له في شيكاغو عام ١٩٣٧ ، بعزل المعتدين ولكن لم يحصل على تأييد من الرأي العام او من رأي نخبة القوم على السواء ، وانتظر اربع سنوات أخرى لتقترب الى آرائه اغلبية الرأي العام ٠

وهكذا فشلت عصبة الأمم واتجه العالم الى الحرب العالمية الثانية خطوة بخطوة وهي الحرب الطاحنة التي ذهب ضحيتها نحو ٥٠ مليون من البشر ٠ ولم تفعل عصبة الأمم شيئا نحو ايقاف التدخل الواسع من جانب ايطاليا والمانيا في محاولتها قلب الجمهورية الاسبانية في الحرب الاهلية الاسبانية خلال الفترة

(١٩٣٦ ــ ١٩٣٨) ، كما لم تفعل شيئا ازاء هجوم اليابان على « شنغهاى » فى عام ١٩٣٧ ، أو ازاء استيلاء هتلر بالقوة على النمسا فى عامى ١٩٣٨ و ١٩٣٩ او ضد هجوم هتلر الشامل على بولندا فى عام ١٩٣٩ الذى بدات فيه الحرب العالمية الثانية • ومن ناحية أخرى لم يتم الاتحاد السوفييتى بحالة الشكل التى اصابت عصبة الأمم ، ففى اغسطس من عام ١٩٣٩ وبعد ان ترك « ستالين » محاولة البحث عن تحالف مع الغرب ، عقد فجأة مع هتلر (معاهدة عدم اعتداء) وفى نهاية شتاء عام ١٩٣٩ ــ ١٩٤٠ احتلت جيوشه اجزاء من بولندا الشرقية ومناطق فى استونيا ولا تفيا ولتوانيا فى البلطيق . واخيرا احتلت جيوشه شرق فنلندا وكل هذا على اساس (تحرير) شعوب هذه المناطق او تأمين الأمن القومى السوفييتى . وقد قاوم الفنلنديون وقامت عصبة الأمم هذه المرة (بطرد) روسيا من عضويتها . ولكن تصرفها فى هذا الصدد كان بدون فاعلية اذ كانت قد فقدت من قوتها المعنوية قبل ذلك ازاء موقفها السلبى من دول المحور واعتداءاتها المتكررة •

ولقد فقدت عصبة الامم بعد ذلك مغزاها السياسى واصبح التحالف بين الدول الغربية والاتحاد السوفييتى أمرا غير حيوى لكل من الطرفين ، واستمر الوضع على هذا الحال حتى هوجمت فرنسا وسقطت القنابل الالمانية على لندن وزحفت الدبابات الالمانية على روسيا ووصلت الى مشارف لينجراد وموسكو ، وفى نهاية عام ١٩٤١ كانت الولايات المتحدة تتحرك نحو زيادة مساعدتها للحلفاء ثم اصبحت الحليف القائد للحلفاء بعد ضرب اليابان ميناء « بيرل هاربر » واعلان المانيا الحرب عليها فى اليوم التالى ، الأمر الذى دفع الولايات المتحدة مع حلفائها من الدول الأخرى فى نهاية الحرب الى التفكير فى انشاء هيئة الامم •

الأمم المتحدة : جمعية عالية أم حكومة عالية ؟

عند قيام التنظيم الرسمى للامم المتحدة فى يونيه ١٩٤٥ ، وردت فى ديباجة ميثاقها اهدافها العامة ، فقد جاء فى اعلان انشاء هيئة الأمم « نحن شعوب الأمم المتحدة نعلن عن اصرارنا على تحقيق اربعة أهداف رئيسية » :

١ ــ « انقاذ الأجيال القادمة من ويلات الحرب » •

٢ ــ « تاكيد الايمان بالحقوق الانسانية الأساسية وبكرامة وقيمة الانسان وبحق المساواة للرجال والنساء والدول الكبيرة والصغيرة » •

٣ ــ « المحافظة على العدل واحترام الالتزامات الناشئة عن المعاهدات ومصادر القانون الدولى الأخرى » •

٤ ــ « تحقيق التقدم الاجتماعى ومستويات افضل للمعيشة من خلال حريات أكبر » ٠

ونتيجة لنشوب الحرب فى كل البلاد تقريبا بحث الرغبة فى تحقيق الهدفين الأولين : وهما السلام والحقوق الانسانية ، أما الهدف الثالث وهو (العدل واحترام الالتزامات) فانه يمكن ادراكه على أنه حماية للأوضاع الجديدة التى يتم اقرارها بمعاهدات السلام وربما حقوق الملكية أيضا فى البلاد الأخرى بالنسبة للدول والمنشئات التجارية والأفراد ــ وغير ذلك من الحقوق التى كانت تخضع للقانون الدولى (ولكن الكلمات الفعلية لمقدمة الميثاق أشارت فقط الى أن الموقعين عليه مصرون على « قيام ظروف » يمكن من خلالها المحافظة على العدل واحترام الالتزامات الدولية) ٠

أما الهدف الأخير وهو « التقدم الاجتماعى ومستويات المعيشة المرتفعة التى أكد عليها الاتحاد السوفييتى وبعض الدول الفقيرة ــ فقد أرتبط تحقيقه من خلال « حريات اكبر » والتى ركزت عليها الدول الغربية ٠ وعلى خلاف عصبة الأمم اوضحت هيئة الأمم المتحدة بصورة افضل ، خصائص الايدولوجيات المتقاربة فى عصر الرفاهية الدولية الحديثة ٠

لم تكن الأمم المتحدة بطبيعة الحال دولة تعلو فوق الدول ــ وكما كان موقف عصبة الأمم لم تتعرض الأمم المتحدة ايضا لسيادة اعضائها ، وقد وصفت المادة الثانية من ميثاقها التنظيم على أنه « قائم على مبدأ المساواة فى سيادة كل اعضائها ــ كما رفضت بوضوح أى سلطة « تتدخل فى مسائل تعتبر بالضرورة أمورا داخلية لأى دولة » ولكن لم تحدد ماهيه هذه المسائل الضرورية التى تخضع للسلطة الداخلية ، ومن الناحية العملية اصرت كل حكومة من دول الأعضاء على تعريف هذه الأمور بمفهومها وفى أى وقت تجد فيه انها مرتبطة بموقف تعتبره أمرا هاما بالنسبة لها ٠

الجمعية العامة :

للجمعية العامة التابعة للامم المتحدة ــ وعلى خلاف عصبة الأمم ــ سلطة اصدار القرارات بالاغلبية (مشاكل هامة مثل قبول أو طرد دول الاعضاء وايقاف حقوقها وامتيازاتها وانتخاب أعضاء الدول المرشحين للانضمام الى الهيئة واعداد « التوصيات » لدول الاعضاء أو لمجلس الأمن مع مراعاة المحافظة على السلام والأمن الدولى وتحتاج هذه التوصيات الى ثلثى اغلبية الأعضاء الحاضرين والذين يصوتون (المادة ١٨ ، ف ٢) ٠ أما المسائل الأخرى « بما فيها تحديد مجموعات اضافية من المشاكل والتى تحتاج الى قرار من ثلثى الأغلبية » فهى خاضعة لأغلبية بسيطة من الأعضاء الحاضرين والذين يشتركون فى التصويت (م ١٨ ،

ف ٣) ٠ أما المسائل الحاسمة المتعلقة بالحرب والسلام فان الجمعية العامة لا تستطيع التصرف وهى تختص بالنظر والمناقشة والتوصية ، وقد لا تستطيع حتى اعـداد التوصيات المتعلقة بمشاكل السلام والأمن ، ويختص مجلس الأمن بهذه النواحى ٠ وفى نهاية عام ١٩٥٠ وخلال الحرب الكورية أصدرت الجمعية العامة قرارا ساندته الولايات المتحدة « لتوحيد السلام المقترح حتى تتمكن الجمعية العامة من اتخـاذ قرار عن طريق اعضائها وذلك اذا ما انتهى الأمر فى مجلس الأمن الى خلاف بين الدول الكبرى » ، وبدخول اعضاء جدد على التوالى فى الأمم المتحدة فان الاغلبية فى الجمعية العامة على اية حال كان ينتزعها فى اكثر الأحيان البلاد غير المرتبطـة بالولايات المتحدة أو الاتحاد السوفييتى ، وكان تصويت هذه الدول بالأغلبية ضد بعض الامور مثل مخلفات الاستعمار وسياسة التفرقة العنصرية التى تمارسـها جنوب افريقيا وروديسيا من المسائل التى اصبحت غير مقبولة غالبا من جانب الدول الغربية التى اتجهت من حين لآخر وبصورة محدودة الى الوقوف امام قراراتها ، وبصفة عامة أعلنت الدول الكبرى عن حماسها الكبير فى تنفيذ قرارات او توصيات الجمعية العامة عندما تتفق هذه القرارات مع سياستها القومية ، ولكن لم يكن هناك حماس عندما كانت هذه القرارات تتعارض مع مصالحها الخاصة ، وحتى منتصف عام ١٩٦٨ لم تكن الجمعية العامة قد تحركت كثيرا لتصبح اداة اكثر فاعلية عمـا كانت عليه قبل ذلك بعشرين عاما ، هذا ولم يحدث أن سلطة الجمعية العـامة فى « نظر واعتماد ميزانية الهيئة » وفى توزيع « مصاريف الهيئة » بين الاعضـاء ، تطورت الى سلطة فرض أو تخصيص ضريبة على الأعضاء ، فعندما صوتت الجمعية العامة على تدخل قوات الأمم المتحدة فى اضطرابات الكنغو (ليبولدفيل) عـام ٦١ ــ ١٩٦٢ اقرت الولايات المتحدة هذا التصرف ومارست ضغوطا كبيـرة فى تنفيذه ، واعدت مشاركة كل عضو فى هيئة الأمم مع تحميل كل دولة بنصيب نسبى فى التكاليف ، ولقد رفضت فرنسا والاتحاد السوفييتى السداد تأسيسا عـلى أن هذا العمل (الذى عارضته كل من الدولتين) كان يمكن تنفيذه قانونا من خـلال مجلس الأمن (حيث كان يمكن ايقافه بتصويتهما ضده فضلا عن أنه قـرار سلب حقهما فى الفيتو بمجلس الأمن) ٠ ولقد حاولت الولايات المتحدة لفترة ما الحصول على تصويت الجمعية العامة بايقاف حق التصويت للدول التى لا تدفع التزاماتهـا باعتبار ان هذه الدول قد فشلت فى سداد ما عليها من مستحقات عادية ٠ وعلى اية حال تردد عدد كثير من اعضاء الجمعية العامة فى قبول هذا التفسير الجديد للميثاق وكان على الولايات المتحدة ان تبحث عما يكون رد فعلها اذا ما تمت يوما ما ، اغلبية فى الجمعية العامة او ائتلاف من الدول النامية والكتلة السوفيتية حول الموافقـة على الترخيص لبعض الحكومات بالارتباط ببعض التعهدات الواسعة باسم الأمم المتحدة وبالتالى تحميل الولايات المتحدة بنسبة كبيرة من المصاريف ٠ وعلى كل ٠ لم تنجح الجمعية العامة فى عام ١٩٦٧ فى توريط الدول الكبرى فى مشروعاتها ومع وجود سلطة فعالة فى فرض الضرائب (مما سيحمل الدول الغنية أعباء أكبر) فان الهيئة الدولية سوف لا تغير من طبيعتها فى المستقبل ٠

مجلس الأمن :

يعتبر مجلس الأمن القلب النابض النشط للأمم المتحدة . وكما جاء فى المادة ٢٤ من الميثاق فان اعضاء الأمم المتحدة « يبحثون فى مجلس الأمن المسئوليات الأولى فى الحفاظ على السلام والأمن العالمى ويتفقون على انه لكى يقوم المجلس بتنفيذ واجباته ٠٠٠٠٠٠ فان مجلس الأمن يعمل لصالحهم » ٠ واذا استطاع المجلس ممارسة عمله فان الأمم المتحدة تستطيع ايضا أن تفعل شيئا ، وان لم يتمكن المجلس عن العمل فان اعضاء الأمم المتحدة لا يقدرون على القيام بأى عمل سوى التعليق باشارات غير مجدية ٠ وقد لوحظ هذا منذ البداية . فبينما كانت تجرى المناقشات فى الجمعية العامة كان على المجلس ان يعمل ، ويتحدث الميثاق عن اصدار الجمعية العامة ((للتوصيات)) التى تقوى المجلس فى اصدار « قراراته » ٠

وتتضمن هذه القرارات فى ظل الميثاق قرارات عن الحياة والموت ، وللمجلس سلطة « تحديد وجود اى تهديد للسلام او مخالفة السلام او توافر العمل العدائى » . كما له الحق فى « اقرار ما يجب أن يتخذ من اجراءات ٠٠٠٠ للمحافظة على او اعادة السلام والأمن العالميين » وتتضمن مثل هذه الاجراءات كما يصدرها الميثاق « المقاطعة الكلية او الجزئية للعلاقات الاقتصادية والنقل البرى والبحرى والجوى والمقاطعة السلكية واللاسلكية ووسائل الاتصالات الأخرى . فضلا عن قطع العلاقات الدبلوماسية ، وينفذ هذه الاجراءات دول الأعضاء عندما يطلب هذا منهم مجلس الامن » ٠ واذا راى مجلس الأمن كما يقول الميثاق . ان هذه الاجراءات « غير كافية » فله الحق فى التصرف مباشرة « وقد يتخذ مثل هذه الخطوة بطريق الجو او البحر وبقوات ارضية » وذلك فى حالة ضرورة المحافظة او اعادة السلام والأمن الدوليين ٠ « وباختصار فان لمجلس الأمن السلطة القانونية فى تنفيذ قراراته بطريق الحرب اذا لزم الأمر . ولهذا السبب فان كل الاعضاء » يتعهدون بتوفير قوات مسلحة مناسبة عندما يطلبها مجلس الأمن وطبقا للاتفاقيات الخاصة ٠ ثم « من اجل تمكين هيئة الأمم من اتخاذ اجراءات عسكرية عاجلة تقوم الدول الأعضاء باعداد قوات طوارىء وطنية جوية عاجلة للاشتراك فى عمل تنفيذى دولى » ٠

ويمكن تحريك كل هذه الاجراءات القانونية فضلا عن تنفيذ اية ترتيبات سياسية أو اى قرار يراه مجلس الأمن مهددا للسلام ، ولكى يتأكد مجلس الأمن « فسوف يعمل وفقا لاهداف ومبادىء الأمم المتحدة » وقد يكون هذا القرار من اختصاص مجلس الامن ذاته ، ولا توجد اجهزة اخرى خارج او داخل الأمم المتحدة تلغى قرارات المجلس ، وحقيقة الأمر نجد ان الجمعية العامة التابعة للأمم المتحدة مجردة تماما حتى من اصدار توصيات فى اى موقف (سياسى أو عسكرى) بينما يدخل هذا فى اختصاص مجلس الأمن و « ما لم يطلب المجلس ذلك » (المادة ١/١٢) ٠ ومع تركيز هذه السلطات معا فهى قوة ساحقة لمجلس الأمن غير خاضعة

لمراجعة خارجية ولكنها تراجع داخل المجلس والى الحد الذى يؤدى الى شلل المجلس بسبب قصور اعضائه عن الاتفاق حول كثير من القرارات الهامة ·

وتنعكس المشاكل الحاسمة للسياسة العالمية على اجراءات التصويت فى المجلس ، فهو يضم خمسة اعضاء دائمين (الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى والمملكة المتحدة وفرنسا والصين) وبعد التوسع فى عضويته فى عام ١٩٦٣ انتخبت ١٠ اعضاء من الجمعية العامة لفترة سنتين ، وكان الأعضاء الدائمون او الدول الكبرى القوة الفعلية حتى عام ١٩٤٥ ، واصبحت هذه الدول الخمس فى عام ١٩٦٥ تمتلك الأسلحة النووية ، ووضح الاختلاف الكبير فيما تمتلكه كل دولة من هذه الاسلحة ، ويمكن العمل الفعلى لمجلس الأمن — وكما يصوره الميثاق — فى اجماع تصويت الدول الاعضاء الخمس الدائمين معا ، وتعتبر « الأصوات المطابقة » لكل الأعضاء الخمس الدائمين ، مسألة ضرورية فى كل قرارات مجلس الأمن باستثناء ما يتعلق منها بالاجراءات التى قد تنفذ بموافقة تسعة من الاعضاء (المادة ٢٧) ·

ونظرا الى وجود « مبدأ الاجماع » بين الدول الكبرى اصبح لكل عضو دائم حق الفيتو الذى جاء فى مواد الميثاق · ويؤدى استخدام الفيتو أو حتى بدون استخدامه ، الى عدم اتخاذ اى اجراء ، وقد لجأ الاتحاد السوفييتى وغالبا ما يعتبر من اصوات الاقلية — الى الفيتو كثيرا ، ولكن الدول الغربية لجأت اليه فى بعض المناسبات ايضا ·

ويعكس هذا النظام فى التصويت حقيقة اساسية للعالم فى اواخر الستينات ولا يعكس الموقف العالمى فى عام ١٩٤٥ ، فلم يكن هناك — وكما هو الحال الآن — التزام على الولايات المتحدة أو الاتحاد السوفييتى بعمل اى شىء هام ضد رغبات كل منهما ، وكان واضحا ان بريطانيا وفرنسا والصين غير ملزمين ايضا ، ولكن اذا ما اتفقت هذه الدول الخمس وابدوا اهتماما كافيا فان مخططى هيئة الأمم يستطيعون السيطرة بقوة وبسرعة على ايقاف اى حرب او تهديد بالحرب فى أى مكان فى العالم ، وقد حل محل المشكلة القديمة لوقف أو السيطرة على اتجاهات الحرب من جانب كل الافراد وكل الدول ، المشكلة الصغيرة التى تبحث عن وسائل تحقق التنسيق بين الدول الخمس فقط — وهى مشكلة بدت اخيرا اكثر تيسيرا برغم انها لا تزال صعبة للغاية ·

الصراعات بين الشرق والغرب فى سياسات الأمم المتحدة :

ان امكانيات التعاون بين الدول الكبرى كما تم تخطيطه فى ميثاق الأمم المتحدة ، لم يتحقق منها حتى اليوم غير القدر الضئيل ، وقد ابقت الحرب الباردة كلا من الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى فى جانبين مضادين فى كثير من المشاكل

ولجأت كل دولة الى الأمم المتحدة فى بداية الأمر باعتبارها الاداة التى تخدم مصالحها الشخصية فى ذلك النزاع على ان نهاية الحرب الباردة فى أوائل السبعينات قد خففت من حدة تنافسهما ، ولكنها لم تقس عليها ، ولذلك فانها تحتمل ان تشتد بينهما من جديد فى المستقبل ·

ولم تظهر اى من هاتين الدولتين العظميين ــ أو حتى اكثر أعضاء الأمم المتحدة التزامها الوثيق نحو تدخل المنظمة أو سلطة عليا لها كأهداف فى حد ذاتها ، ولقد فضلت الدول الغربية تدخل الأمم المتحدة فى البلاد وفى المواقف التى يتوقع فيها اضعاف النفوذ الشيوعى أو وقف امتداده مثل ما حدث فى شمال ايران (١٩٤٦) واليونان (١٩٤٦ ــ ١٩٤٨) وكوريا (١٩٤٧ ــ ١٩٥٣) والمجر (١٩٥٦) ولبنان (١٩٥٨) والكونغو ليبولدفيل (١٩٦٠ ــ ١٩٦٣) ، ولكن عندما طالبت اغلبية الجمعية العامة باسراع الأمم المتحدة فى اتخاذ الاجراءات اللازمة ضد سياسات الاستعمار فى بعض البلاد الموالية للغرب مثل البرتغال ، أو ضد الانظمة القائمة على التفرقة العنصرية المرتبطة اقتصادياتها تقريبا بالانظمة المالية والاقتصادية الغربية ، مثل روديسيا واتحاد جنوب افريقيا (فى الستينات) ، كان موقف الدول الغربية من هذه المطالب يشوبه التردد ، ولا شك ان الاتحاد السوفييتى اتجه عموما الى اتخاذ مواقف معارضة فى كل مشكلة وضد السلطات العليا للمؤسسات التى تخضع تقريبا لسيطرة الاغلبية غير الشيوعية · وفضلا عن هذا ، ففى الحالات التى تجد فيها كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى انهما على اتفاق محدود فى الأمم المتحدة كما حدث فى بعض الحالات مثل فلسطين واسرائيل (١٩٤٧ ــ ١٩٤٩) واستقلال اندونيسيا (١٩٤٧ ــ ١٩٤٩) وحرب السويس (١٩٥٦) ، فانه يلاحظ ان عداء الشرق تجاه الغرب قد عاد من جديد فى هذه المناطق فى نهاية الأمر ومن أحدث الصراعات الأخيرة مثل حرب السويس فى عام ١٩٧٣ بين اسرائيل ومصر والحرب الأهلية اللبنانية الدامية فى عام ١٩٧٦ قد ظلت خارج هيئات الأمم المتحدة بموافقة الدول الكبرى فيما يبدو ·

كما يلاحظ أيضا ان الصراعات بين الشرق والغرب قد كثر التصويت عليها فى الأمم المتحدة فى كل الأمور التى كانت موضع نقاش وبحث ، وهناك دراسة حديثة توضح ان هذه المنازعات سيطرت فى عام ١٩٤٧ على نحو ٤٥٪ من الأصوات فى الجمعية العامة ، وارتفعت هذه النسبة الى نحو ٦٥٪ فى عام ١٩٦١ ، وكان المنتظر ان تصل الى أكثر من ٧٠٪ فى عام ١٩٦٧ ، وخلال نفس الفترة فان ما أطلق عليها مشكلات « الشمال والجنوب » بين البلاد المتقدمة والبلاد المتخلفة ، هبطت الى نحو ٢٠٪ من اصوات الجمعية العامة فى عام ١٩٤٧ ثم الى نحو ١٢٪ فى عام ١٩٦١ ، وكان المتوقع وصول هذه النسبة الى اقل من ١٠٪ فى عام ١٩٦٧ ·

لكن صاحب هذا الاستقطاب المتزايد فى مجال المنازعات الشرقية الغربية ،

اتجاهات كثيرة من المصالح وتصويت ناجح من جانب كل الكتل المختلفة . وتجد الدول الكبرى انه من المناسب الآن عقد محالفات مع الكتل الأخرى ذات المصالح الخاصة ، وذلك بتكييف هذه الكتل على ممارسة بعض المسائل الخاصة والواضحة لها ، ونتيجة لذلك نجحت مجموعات العرب وافريقيا والسوفييت فى السنوات الأخيرة بالجمعية العامة وربما أيضا فى بعض المنظمات الأخرى التابعة للأمم المتحدة . وقد تتحرك الأمم المتحدة نتيجة لهذا أيضا نحو نوع من الأنظمة ذات نظام الحزبين الذى تتنافس فيه الدول المتزعمة للغرب والشرق عن طريق تقديم امتيازات للدول الصغرى فى كل من الكتلتين بهدف الابقاء على اتحادها وبهدف الحصول على مؤيدين آخرين ، وتستطيع الدول الكبرى فى ظل ظروف كهذه القضاء على الأمم المتحدة عن طريق فرض سياسات جامدة محدودة أو انقاذ الهيئة وتطويرها بعد ادراك ومرونة وتفهم أكبر للامور والمشاكل العالمية .

ولكن حدث فى السبعينات ان بدات الكتلتان فى الشرق والغرب فى التفكك وربما فى التفتت . ففى الشرق ، هناك انقسام مرير بين الصين والاتحاد السوفيتى . وفى عام ١٩٧٦ حاولت دول تحكمها نظم شيوعية مثل رومانيا وكوريا الشمالية وفيتنام الموحدة أن تصف نفسها بانها « دول غير منحازة » . وفى الغرب وضعت كل من اليونان وتركيا فى صراعهما على قبرص وحقوق البترول تحت قاع بحر ايجه ، مصالحهما فوق التزاماتهما المشتركة نحو الكتلة الغربية .

وفى الوقت نفسه شكلت زهاء ١٠٠ من البلدان النامية المنتمية (للعالم الثالث) أغلبية نشطة متزايدة فى الجمعية العامة للامم المتحدة وفى هيئات أخرى مثل مؤتمر الأمم المتحدة للتجارة والتنمية ، وراحت تضغط من أجل اقامة « نظام اقتصادى عالمى جديد » بغية تحسين مركزها التجارى والمالى ازاء البلدان الغربية . وتلقى هذه البلدان فى تصويتها ومشروعات قراراتها تأييد الكتلة السوفيتية . ولكن بحلول أوائل عام ١٩٧٧ لم تتغير الظروف التجارية سوى بالنسبة للزيت .

المنصب الهام لامين عام الأمم المتحدة :

سوف يكون تغيير موقف سكرتير عام الأمم المتحدة أحد المؤشرات الدالة على اتجاه تحرك المنظمة العالمية ، كما قد تكون العضوية العالمية والتمثيل فى الهيئة أيضا من هذه المؤشرات . وقد ترتب على تعيين تريجفى لى اول سكرتير عام للامم المتحدة أن اتخذ الاتحاد السوفييتى موقفا معارضا فى عام ١٩٥٠ من تفسير ما لميثاق الهيئة ، كان هذا التفسير مقبولا تماما ولكن لم يكن واضحا من الناحية القانونية وكذلك الموقف الذى قبله السكرتير العام (وقف هجوم كوريا الشمالية على كوريا الجنوبية) وهو تصويت مجلس الأمن الحاسم بتفويض الولايات المتحدة فى مقاومة الهجوم نيابة عن الأمم المتحدة ، ولكن هذا التصويت كان قد جاء فى غياب المندوب السوفييتى (الذى كان آنذاك مقاطعا الاجتماعات ، احتجاجا على عدم

الاعتراف بالصين الشيوعية) · وهكذا يؤدى عدم توافر « التصويت السابق » من العنصر الدائم فى المجلس كما جاء فى الميثاق الى اعتبار الأمر غير قانونى ، ولم يصدر هذا التفسير من جانب الاتحاد السوفييتى فقط بل جاء ايضا من كثير من القانونيين بما فيهم كبار المحامين الدوليين المعروفين فى الولايات المتحدة وساد الرأى آنذاك وجهة النظر هذه كما ساد أغلبية مجلس الامن ، وانتهت الحرب الكورية التى قادتها الأمم المتحدة بوقف هجوم كوريا الشمالية ، وترتب على وقف اطلاق النار والهدنة فى ١٩٥٣ ـ ١٩٥٤ ترك مناطق كوريا الجنوبية والشمالية دون أى تعديل جوهرى ، ومنذ ذلك الحين لم يتغيب المندوب السوفييتى عن اجتماعات مجلس الأمن ، وفى نهاية محنته لم يعد تريجفى لى موضع التبول من جانب الاتحاد السوفييتى لاعادة انتخابه ·

جاء من بعده داج همرشلد وكان مقبولا من كل الدول الكبرى ، وخلال فترة خدمته توسعت عضوية الأمم المتحدة وبرزت مشاكل الاستعمار ومناهضته ، وكثرت حالات استخدام قوات طوارىء الأمم المتحدة من أجل المحافظة على السلام فى المنازعات المحلية ـ وقد استخدمت هذه القوات لأول مرة فى قطاع غزة بين مصر واسرائيل من عام ١٩٥٦ الى عام ١٩٦٧ ، كما تم سحب قوات كبيرة تابعة للامم المتحدة من الهند وايرلندا والسويد ويوغوسلافيا وعدد من دول افريقيا ، لاستخدامها فى الكونغو حيث فقد همرشولد حياته هناك فى حادث طائرة ·

ومن بورما جاء يوثانت السكرتير العام الثالث وكان اول رئيس تنفيذى للهيئة الدولية غير غربى ، وكما كان الحال بالنسبة لزميليه السابقين كانت درجة تأييده فى توصياته عن الخلافات الدولية من جانب الدول الكبرى تشير الى مدى ما ترغبه هذه الدول فى جعل الأمم المتحدة منظمة عالمية حقيقية مع قيادة وارادة عامة تفوق كل أمة ساهمت فى انشائها ، ولقد بدت هذه الدوافع فى منتصف عام ١٩٦٨ بصورة غير طيبه ، فقد عارضت الولايات المتحدة نداءات يوثانت المتكررة بوقف قصف فيتنام الشمالية ، وكان يوثانت يأمل من هذا الوقف فتح الطريق الى ايقاف القتال مبكرا وعقد مفاوضات لتسوية المشكلة · ومن ناحية أخرى لم تبذل حكومة فيتنام الشمالية اية جهود تشجع الأمم المتحدة على تسوية المشكلة ، واعرب يوثانت صراحة عن مخاوفه من احتمال جر العالم الى طريق الحرب العالمية الثالثة ·

موضوعات للمستقبل : عضوية الأمم المتحدة ووظائفها :

فى منتصف السبعينات كانت فيتنام الموحدة تسير قدما نحو ان تصبح عضوا فى الأمم المتحدة · ولكن هذا لم يكن منطبقا على كوريا الشمالية والجنوبية ، اما عضوية الصين فالمعترف منها فقط الحكومة المناهضة للشيوعية فى جزيرة تايوان ، وهى الحكومة المعترف بها فى الأمم المتحدة بينما رفضت المنظمة العالمية

الاعتراف بالحكومة الشيوعية التى تمثل اكثر من ٧٠٠ مليون نسمة فى الصين ٠ وامتد عدم اعترافها بالصين الشيوعية نحو ٢٠ سنة تقريبا (١) ٠ وكان كل سكرتير عام للأمم المتحدة يوصى بقبول مبدأ العالمية الذى يترتب عليه دخول كل دولة فى عضوية الهيئة طالما ان حكومتها تسيطر بالفعل على امورها الداخلية ، ولكن الدول الغربية رفضت هذا المبدأ وخاصة الرأى العام الداخلى المؤتمر فى الولايات المتحدة وهو عدم الاعتراف بأى نظم شيوعية قامت بعد الحرب العالمية الثانية ٠ غير ان كثيرا من الحكومات الشيوعية مثل البانيا وبلغاريا ورومانيا والمجر قبلت عضويتها فى هيئة الأمم فى عام ١٩٥٥ مع قبول النظم الدكتاتورية المناهضة للشيوعية او الممثلة فى أسبانيا والبرتغال ، ولكن بقيت مشكلة تمثيل البلاد المقسمة دون حل ، مثل الصين والمانيا وكوريا وفيتنام ٠

ومن خلال تاريخ الأمم المتحدة يمكن متابعة طريقين سارت فيهما : البحث عن تركيز السلطة ثم البحث عن تعدد الاتصالات والتيسيرات ٠ قد تكون هناك حاجة الى سلطة مركزة أكبر لتقوية حكم الأغلبية للوقوف امام فيتو الدول الكبرى ولكى تزيد سلطة السكرتير العام وتوسيع القرارات الالزامية لمحكمة العدل الدولية الدائمة ٠ كما قد تكون هناك حاجة الى تطوير قوة الهيئة العسكرية وسلطاتها فى فرض الضرائب ٠ وعلى أية حال فطالما هناك اختلاف بين أمة واخرى كما هو الحال الآن فان الأمة التى تمارس النفوذ الأكبر فى الأمم المتحدة سواء كانت الولايات المتحدة أو اى امة اخرى ، قد تحكم العالم بالفعل ٠

ولكن من غير المتوقع ان يحدث شىء كهذا فى المستقبل القريب ٠ لكن هناك طريق آخر اقترحه عضو الشيوخ الراحل ارثر فانحنبرج فى عام ١٩٤٥ ، ويشير الاقتراح الى جعل الأمم المتحدة مدينة لاجتماع العالم حيث تعرض فيها كل المسائل بوضوح للجميع وحيث تستطيع الحكومات معرفة التصرف فى المشاكل التى تحدث نتيجة المصالح والمذاهب وفى كيفية معالجة الاضطرابات والأزمات ، وهنا تستطيع الأمم المتحدة ايضا مساعدة الأمم الناشئة حديثا فى التعريف بأدوارها الجديدة فى السياسات العالمية ولكى تصبح اذا حاز القول « ذات طابع اجتماعى » داخل النظام الدولى ٠ وقد حققت الأمم المتحدة فى هذه النواحى نجاحا كبيرا منذ عام ١٩٤٥ ، واذا ما عادت الذاكرة الى التحولات الدموية لدول البلقان فى القرن التاسع عشر ونقارنها بالفترة التى مرت بها الأمم المتحدة منذ عام ١٩٤٥ ادركنا بوضوح الاختلاف بين الفترتين ، ولم يحدث فى التاريخ من قبل ان ظهرت أمم جديدة كما حدث الآن وبخسائر فى الأرواح قليلة (كانت الحرب الأهلية فى نيجيريا فى عام ١٩٦٨ استثناءا محزنا للغاية) ٠

---

(١) طرأت تعديلات على هذه المواقف فى السنوات الأخيرة ، فمثلا تم احلال الصين الشعبية محل الصين الوطنية ، ممثلة لشعب الصين : — المترجم ٠

ولكن فى الوقت نفسه كان منبر الأمم المتحدة ومنظماتها التابعة لها تزداد اتجاها نحو أن تصبح أداة لحرب سياسية وسيكولوجية ٠ ولقد وجدت الدول العربية تأييد الأغلبيات النشطة الجديدة لبلدان العالم الثالث التى تساعدها الكتلة السوفيتية ، لتحرير قرارات من جانب واحد باستنكار اسرائيل فى الصراعات المستمرة الناجمة عن حربى ١٩٦٧ و ١٩٧٣ والنتيجة هى حلقة مفرغة ٠ فاسرائيل محجمة عن اعادة الأراضى العربية التى احتلتها فى عام ١٩٦٧ ٠ وقد زاد احجامها نتيجة لازدياد مخاوفها التى اثارتها هذه القرارات على وجودها ٠

لم تكن سياسة الولايات المتحدة ازاء هذه المسائل ثابتة تماماً ٠ فقد حاول هنرى كيسنجر وزير الخارجية ايجاد حلول وسط مقبولة للطرفين ٠ كما حاول حرمان الاتحاد السوفيتى من أى نصيب او نفوذ فى أى تسوية فى الشرق الادنى ، وان كانت موافقته ضرورية ٠ وقد امتنعت الولايات المتحدة عن دفع انصبتها المالية فى منظمة التعليم والعلوم والثقافة (اليونسكو) احتجاجا منها على القرارات المعادية لاسرائيل التى اقرتها هذه المنظمة ، فى الوقت الذى راحت تسدى معونة اكبر ، من المال والسلاح ، الى دول عربية مثل سوريا ومصر ٠ التى نشطت فى تشجيع تلك القرارات ٠ اما ما اذا كانت هذه الاساليب المعقدة ، وغالبا ما تكون سرية ، ستفضى فى النهاية الى تسوية سلمية ومستقرة بين اسرائيل وجاراتها ، أو ما اذا كانت حكومة الرئيس كارتر وسايروس فانس ستجد سياسة أكثر فعالية ، فهذا امر لم يكن واضحا بحلول منتصف عام ١٩٧٧ ٠

كل هذه الاعتبارات توضح ان اقامة هيئة عالمية واسعة تهدف للصالح العام ، أمر لا يزال بعيد التحقيق — كما أن الأمم المتحدة ليست تماما بالهيئة العالمية ولا هى أداة لخدمة الأهداف بالصورة المطلوبة ٠ فهى لا تضم سوى نحو ٣/٤ الجنس البشرى ، واعمالها الفعلية محدودة للغاية وكذلك فى مصادرها وسلطاتها وتأييدها والى الحد الذى لا يمكن تسميتها بالدولة أو بالأمة العليا ، لا تخرج عن كونها هيئة دولية فقط ، وتعتبر الأمم المتحدة فى أفضل الأحوال الخادم المشترك لأكثر الحكومات الوطنية الكبيرة فى العالم ولا سيطرة لها على أى من دول هذه الحكومات ، فضلا عن انها لم تعد وضع كل هذه الدول تماما فيما يجب عليها أن تفعله من أعمال سياسية كبيرة ٠ ولكى نجد حكومة دولية عليا (مسئولة عن كثير من واجبات الحكومة الكبيرة أو كلها وتستطيع التغلب على الأقل على الحكومات المنافسة فى بعض المسائل الهامة) او ان نجد وفدا كاملا لدى منظمة دولية وله على الاقل مهمة او وظيفة تتصل بالحكم — فعلينا ان نتجه الى المنظمات الدولية المتخصصة ٠

الفصل السابع عشر

المنظمات الاقليمية

كطريــــق

نحـــو التــــكامل

ينتصر مجال المنظمات الدولية المتخصصة عادة على ما يسمى « بالمنطقة » وهو تعبير غامض . والمنطقة عبارة عن عدد قليل من الدول يجمع بينها بعض الروابط الجغرافية والثقافية والتاريخية . أو تربطها بعض العلاقات الاقتصادية والمالية ، او تجمعها مبادىء الحرية السياسية وما اشبه ذلك من الانظمة الاجتماعية ، أو مزيج من كل هذا .

وقد كان الامل ان تساهم الخبرة المكتسبة من تكوين وتطوير هذه التجمعات الاقليمية و / او المتخصصة فى تبصير الحكومات والشعوب بالفوائد التى تعود عليها من الاندماج الدولى ، كذلك تنمية العادات السياسية الاندماجية والخبرات اللازمة لممارستها بنجاح على نطاق أوسع وفى اعمال أكثر شمولا .

فى الوقت الحالى عدد محدود من هذه المنظمات الاقليمية تباشر كل منها عددا محدودا من الاختصاصات لعدد محدود من الدول ، وعادة لا يزيد عدد هذه الدول أو هذه التخصصات عما كان عليه أصلا عند بدء نشاطها ، وفى المراحل الاولى لعمل هذه المنظمات ربما قد اضيف اليها بعض الدول و / او بعض التخصصات .ولقد كان من المنتظر بصفة مؤكدة ان يستمر نمو هذه المنظمات ، الا انه فى الواقع غالبا ما توقف النمو او سار ببطء شديد ، وفى النهاية توصلت على وضع معين استمرت فيه على قيد الحياة واداء مهمتها (فيما عدا عدد قليل من المنظمات الاقليمية التى تدهور نشاطها او اندثرت كلية مثل حلف البلقان فى الثلاثينات من هذا القرن) . وفيما بعد ، ومن وقت لآخر ، توصلت بعض المنظمات الاقليمية الى مراحل اخرى من النمو سواء من حيث عدد الدول الاعضاء او من حيث مجال النشاط او كلاهما معا ، والبعض الآخر قد يصل الى مراحل جديدة من النمو مرة أخرى فى المستقبل . وقد تكون المنظمات التى تكونت فى اوربا الغربية بعد الحرب العالمية الثانية من اهم واكبر المنظمات الاقليمية ، وفى عام ١٩٤٧ تم انشاء منظمة التعاون الاقتصادى الاوروبى للتنسيق بين الخطط الخاصة باستخدام مساعدات مشروع مارشال وكذلك خطط التنمية الاقتصادية واعادة تعمير ست عشر دولة اوروبية . وقد خلفت هذه المنظمة منظمة اخرى اكبر وهى منظمة التعاون الاقتصادى والتنمية وتضم الولايات المتحدة وكندا ، الا ان سلطاتها مقصورة على اعداد الدراسات وتقديم التوصيات . وتعتبر منظمة التعاون الاقتصادى الاوروبى ومنظمة التعاون

الاقتصادى والتنمية من المنظمات ذات الاهداف الخاصة ويقتصر نشاطها على المسائل الاقتصادية ، الا انه بالرغم من ذلك فقد ساعدتنا — بالاشتراك مع المنظمات الدولية الاخرى — فى التمهيد لاجراء تخفيضات متتالية فى الرسوم الجمركية بين الولايات المتحدة ودول اوروبا الغربية • وفى عام ١٩٦٧ تمخضت المفاوضات الخاصة « بدورة كنيدى » عن بعض الاتفاقيات التى لم يتم التصديق عليها حتى الآن ، لتخفيض هذه الرسوم بحوالى ربع الفئات الاصلية •

ولكن كانت هناك فى السبعينات نزاعات متقطعة حول مسائل تجارية بين الولايات المتحدة وشريكاتها من الدول الاوروبية • وهكذا ، حدث فى عام ١٩٧٦ ان ارغمت الضغوط الامريكية صناعة السيارات الاوروبية على زيادة اسعار سياراتها الصغيرة فى السوق الامريكية ، اما ايطاليا فقد لجأت الى فرض قيود تجارية مؤقتة لحماية قيمة عملتها • واظهر الفشل فى التوصل الى سياسة نقدية مشتركة لجميع البلدان الأعضاء فى منظمة التعاون الاقتصادى والتنمية أو حتى لاوروبا الغربية ، انه ما زالت هناك قومية اقتصادية نشطة •

منظمة حلف شمال الأطلنطى :

تعتبر منظمة حلف شمال الاطلنطى من الهيئات الدولية ذات المجال المحدود ولكنها تتمتع بسلطات كبيرة الى حد ما ، وهى تضم الولايات المتحدة وكندا وبريطانيا وثلاث عشرة دولة اوربية بما فى ذلك بعض الدول التى لا تطل على الاطلنطى مثل اليونان وتركيا • والاهمية الاساسية لمنظمة حلف شمال الاطلنطى تتركز فى النفوذ العسكرى للدول الاعضاء ومن ثم فى ادارة القوة ، وعلى هذا فانها يمكن — الى حد ما — ان تصبح من المنظمات التى تخدم اغراضا عامة • وعند انشائها فى عام ١٩٤٨ كانت مهمتها الرئيسية تنحصر فى ايجاد التنسيق اللازم بين القوات المسلحة التابعة للدول الاعضاء تفاديا لاى هجوم سوفيتى محتمل على اوروبا الغربية سواء فى شكل غزو عسكرى ، او فى شكل تصعيد الخلافات الخاصة بالحدود ، أو فى شكل ثورات دولية بتأييد الاتحاد السوفيتى ، وكان صميم عملها هو نوع من تبادل الالتزامات العسكرية • وقد وعدت الولايات المتحدة الامريكية باستخدام اسلحتها النووية لحماية حلفائها الاوروبيين (كانت الولايات المتحدة تحتكر السلاح النووى فى ذلك الوقت) وقد التزم الحلفاء بتوفير معظم الافراد العسكريين المطلوبين والمعدات العسكرية التقليدية وكذلك القواعد والتسهيلات الاقليمية اللازمة للدفاع المشترك تحت قيادة مشتركة • ومن الناحية العملية ، كانت القيادة المشتركة اكثر استجابة لسياسة الولايات المتحدة التى استمرت فى الاشراف على الجزء الرئيسى من « السيف » النووى للتحالف ، الا انه ، فى الوقت نفسه ، قامت منظمة حلف شمال الاطلنطى بتوفير الاطار السياسى والقانونى لاعادة تسليح المانيا الغربية ، وفى اواخر الخمسينات استطاعت جمهورية المانيا الاتحادية توفير العنصر الاساسى « لدرع » منظمة حلف شمال الاطلنطى المكون من القوات

البرية المسلحة بالاسلحة التقليدية • وكانت مساهمة بريطانيا فى ((السيف)) و ((الدرع)) جوهرية ولكن بدرجة أقل . وأخذت فرنسا تنسحب تدريجيا الى الحد الذى اضطرت فيه المنظمة فى عام ١٩٦٨ الى سحب قواتها ومنشئاتها من الاراضى الفرنسية ونقل قيادتها من باريس الى بلد صغير يقع بالقرب من بروكسل فى بلجيكا • وبحلول عام ١٩٧٧ ، تحسن تعاون فرنسا غير الرسمى مع منظمة حلف شمال الأطلنطى من جديد ، ولكن فرنسا لم تستعد عضويتها فى المنظمة •

وفى البداية كان المنظمة حلف شمال الاطلنطى سلطات واسعة فى التخطيط والتنسيق وعقد الاتفاقيات مع الحكومات الاعضاء حول توزيع القوات والسفن والطائرات واجراء المناورات وتوفير قيادة موحدة للقوات التى الحكومات الاعضاء تحت تصرفها وكذلك تقديم الاقتراحات لهذه الحكومات بشأن عقد الاتفاقيات الخاصة بتعبئة هذه القوات والمحافظة عليها . غير ان المنظمة ليس لديها السلطة لارغام أى من الدول الاعضاء على مدها بالقوات التى تطلبها • وان المستوى المستهدف للتسليح ٣٠ فرقة عسكرية فى أوروبا تحت قيادة المنظمة — الذى تم الاتفاق عليه فى أوائل الخمسينات — لم يتم التوصل اليه حتى هذا التاريخ . والامل ضئيل فيما يبدو فى امكان تحقيق هذا الهدف فى المستقبل القريب • وخلال السنوات منذ انشاء المنظمة فى عام ١٩٤٨ لم تقع اية دولة أوروبية تحت الحكم الشيوعى او تعرضت لهجوم شيوعى رئيسى أو لثورات داخلية بتأييد الشيوعيون •

واذا كانت كل هذه الامور لم يكن من المنتظر ان تحدث فى اى حال من الاحوال . فان الجهود التى اعطيت لمنظمة حلف شمال الاطلنطى كان يمكن الاستفادة بها استفادة أحسن فى نواحى اخرى • اما اذا كان هناك اعتقاد باحتمال فرص ضغط سوفيتى شديد على احدى دول غرب اوروبا التى لا تتمتع بحماية المنظمة وذلك خلال السنوات ١٩٤٨ — ١٩٦٨ ، فان المنظمة فى هذه الحالة يرجع اليها بعض الفضل فى منع هذا الضغط •

وعلى اية حال فان وقوع هجوم سوفيتى مباشر على اوروبا الغربية كان يبدو امرا بعيد الاحتمال فى اواخر الستينات ، فحين وصل كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى الى الحد الذى يستطيع اى منهما الحاق ضرر جسيم بالآخر ، لم يكن من المحتمل ان تلجأ الحكومتان الى اتخاذ اى اجراء يؤدى الى الانتحار الوطنى . مما اضعف الثقة فى تهديدات ووعود كل منهما باثارة حرب ذرية • وفى الواقع فان الدول الاوروبية الاعضاء فى منظمة حلف شمال الاطلنطى — عقب أزمة كوبا عام ١٩٦٢ — اصبحت اقل خوفا من التهديدات السوفيتية ، ان احتلال الاتحاد السوفيتى لتشكوسلوفاكيا عام ١٩٦٨ زعزع موقفهم الا أنه لم ينقضه ، فقد استمرت هذه الدول فى الاعتماد على الحماية النووية التى توفرها لها الولايات المتحدة ، ولكنها كانت تتوقع ان تكون اساس هذه الحماية هى المصالح الذاتية للولايات المتحدة الامريكية وليس مجرد عضويتها فى الحلف فى حد ذاته •

ولكن بعد نهاية الحرب الفيتنامية تحسنت روابط الولايات المتحدة منظمة حلف شمال الأطلنطي . ومع ازدياد قوة الاتحاد السوفييتي البحرية والعسكرية في السبعينات ، أصبح كثير من الأوربيين أشد ميلا لاعتبار عضويتهم في الحلف كتأكيد لاستقلالهم الوطني • وفي عام ١٩٧٦ اعلن انريكو بيرلنجوير ، زعيم الحزب الشيوعي الايطالي انه اذا انضم حزبه الى حكومة ائتلافية في ايطاليا ، فانه سيؤيد استمرار عضوية البلاد في حلف الأطلنطي ، ولكي كان لهذا التصريح ردود فعل سلبية لدى معظم الأحزاب الايطالية ومن حكومتي جمهورية المانيا الاتحادية والولايات المتحدة •

وازاء هذه الظروف كان من المحتمل ان تفقد منظمة حلف شمال الاطلنطي بعض اهميتها كنظام مبدئي للتحالف العسكري الا اذا امكن توسيع مجال نشاطها بحيث يشمل المسائل السياسية والاقتصادية • وبالاضافة الى ذلك فان الولايات المتحدة كان يمكن لها في كل هذه النواحي ان تصبح حليفا يقف تقريبا على قدم المساواة مع الاخرين بالسماح برفض اقتراحاتها في بعض المواقف باغلبية الاصوات وباخضاع قراراتها الوطنية للقرارات الجماعية لمجتمع الدول • وخلال السنوات ١٩٦٥ — ١٩٦٨ فان القرار المنفرد الذي اتخذته الولايات المتحدة بتصعيد الحرب في فيتنام دون ان تحصل على اغلبية الاصوات سواء في الامم المتحدة أو في منظمة حلف شمال الاطلنطي ، وما ينطوي عليه هذا القرار من مخاطر عالمية ، قد اظهر مدى بعد الولايات المتحدة عن الاندماج الكامل سواء داخل الامم المتحدة أو داخل

ان ما تنبأ العالم النفساني Jerome Burner في عام ١٩٤٤ من ان الشعب الامريكي لن ينضم انضماما كاملا الى اية منظمة لا تخضع لسيطرته لازال في حاجة الى من ينقضه بعدانقضاء حوالي ربع قرن من الزمان • فالامريكيون كانوا اعضاء اوفياء في منظمة حلف شمال الاطلنطي بوضعها في ذلك الوقت (كما كانوا اعضاء اوفياء في الامم المتحدة) ، الا انهم توقعوا ان تسيطر ارادتهم على هذه المنظمات • ولقد كان ميلهم الى التساؤل عما تستطيع الولايات المتحدة ان تفعله من اجل هاتين المنظمتين • وفي النهاية اذا ما اريد لمنظمة حلف شمال الاطلنطي ان تحتفظ باهميتها فان هناك شيء اكثر مطلوب من الولايات المتحدة وكذلك من اعضاء المنظمة الآخرين ، وبحلول عام ١٩٦٧ لم يكن واضحا على الاطلاق ما اذا كان هذا الشيء آتيا في الطريق ، ولكن اذا كانت الولايات المتحدة تبدو كبيرة جدا او مشغولة بنفسها للغاية او مختلفة جدا عن شركائها في حلف الاطلنطي بحيث لا تستطيع ان تدفع شخصيتها في اتحاد اطلنطي من أي نوع ، الم تكن دول اوروبا الاصغر شأنا في حاجة اكبر الى الاتحاد ، أو لم تكن لدى هذه الدول الامكانيات لتتشابه ميولها وافكارها فيما يتعلق بنوع الاندماج المرغوب وكيفية تحقيقه •

الجهود الخاصة بتوحيد أوروبا الغربية :

شهدت السنوات من ١٩٤٦ الى ١٩٤٩ عملية تكوين الأفكار السياسية لتوحيد أوروبا والتى اثرت فى السياسة الأوروبية فى العشرين سنة التالية • وفى الخطاب المشهور الذى القاه المستر ونستون تشرشل فى مدينة زيورخ فى سبتمبر سنة ١٩٤٦ اقترح « علاجا » لامراض اوروبا قال عنه « انه لو طبق تلقائيا وبصفة عامة لتغيرت صورة أوروبا كلها كما لو كان هذا العلاج معجزة من المعجزات ولامكن لكل اوروبا أو الجزء الاكبر منها فى خلال سنوات قليلة ان تحيا حرة وسعيدة مثل سويسرا اليوم » • وفى نظر ونستون تشرشل فان طبيعة هذا « العلاج الناجح » كانت واضحة ••• « يجب ان نقيم نوعا من الولايات المتحدة الاوروبية » • ويبدو ان الوسيلة كانت واضحة امامه على حد سواء اذ قال « ان الطريقة بسيطة وكل ما هو مطلوب هو عزيمة مئات الملايين من الرجال النساء » وكان من المتوقع ان تجد العبارات البليغة والخادعة التى رددها المستر تشرشل ببساطة استحسانا من جانب اربع فئات من اصحاب الخبرات والمطامع التى كانت منتشرة فى اوروبا : الفئة الاولى وهى التى كانت تتطلع الى الامن . فقد فشلت الدول فى حماية شعوبها من اهوال الحرب العالمية الثانية . وكان الامل فى ان اوروبا الموحدة قد تنجح فى هذا المجال كما انها قد توفر لهم سبل الامان ضد أى توسع سوفيتى مرتقب • والفئة الثانية وهى التى كانت تتطلع الى الرخاء . فان اقتصاديات أوروبا قد اضيرت بسبب الحرب كما نفذت ثرواتها • وقد سبق لها ان تعرضت لظروف الكساد الكبير الذى اجتاح العالم فى الثلاثينات . وكان الرأى ان اوروبا الموحدة قد تكون أكثر استقرارا من الناحية الاقتصادية وكذلك أكثر رخاء . وربما يصل حجم السوق ومعدل دخل الفرد بها الى المستويات السائدة فى الولايات المتحدة الامريكية • والفئة الثالثة فهى التى كانت تتطلع الى حرية الحركة والتنقل . فقد عانت الشعوب كثيرا ولعدة سنوات بسبب نظام توزيع السلع بالبطاقات وبسبب القيود المفروضة على حركة انتقال الاشخاص والبضائع وراس المال . هذه القيود التى ازدادت حدة خلال سنوات الكساد والحرب • فكثير من الناس يرغبون الآن فى ان تسترد « أوروبا الموحدة » حريتها بحيث يمكن للاشخاص والأفكار والبضائع ان تنتقل فى كل انحائها دون آية قيود • والفئة الرابعة وهى التى كانت تتطلع الى القمة . فمن الواضح ان دول أوروبا الغربية قد فقدت كثيرا من قوتها • فالدول التى كانت تمتلك المستعمرات قد فقدت بعضها ومن المتوقع ان تفقد الباقى قريبا ، وخلال السنوات ١٩٤٦ ــ ١٩٤٨ لم يكن لاية دولة من دول أوروبا الغربية ــ باستثناء انجلترا ــ وزن كبير فى السياسة العالمية • ان أوروبا الموحدة قد تعيد الى شعوبها مجتمعة كثيرا من القوة ، وربما بعض الممتلكات ، التى فقدتها وهى منفصلة •

وبالرغم من ان هذه الاعتبارات الأربعة : الامن — الرخاء — الحرية والتنقل — القوة قد لاقت استحسانا شديدا من جانب القلة وبدرجة أقل من جانب الكثرة فى كل انحاء أوروبا الغربية ، فانها لم تصبح ابدا محل اهتمام الجماهير ، ولم تحظ حتى بتأييد الاغلبية فى اية دولة من الدول • ففى حالة وقوع هجوم ، فان معاهدات التحالف من حيث المبدأ والولايات المتحدة من الناحية العملية ، تضمن المحافظة على امن اوروبا الغربية • وقد استعادت اوروبا رخاؤها الاقتصادى بعد اعادة تعمير كل دولة من دولها بمقتضى مشروع مارشال (١٩٤٨ — ١٩٥٢) ، وايضا عن طريق المساعدات الجوهرية التى حصلت عليها من الولايات المتحدة الامريكية • كما لم تتوفر حرية انتقال الاشخاص والسلع اذ ان ذلك يحول دون اشراف كل دولة من الدول على مستويات الأسعار بها وكذلك اسعار الفائدة وفئات الضرائب ومستوى العمالة ومستويات المعيشة ومعدل واتجاه النمو الاقتصادى ، كما لم يتم انشاء هيئات ذات صفة دولية لتتولى هذه مهام الاشراف هذه او لتقوم على الاقل بتنفيذها بطريقة تتجاوب مع الرغبات الشعبية المختلفة فى كل دولة ، وفى النهاية فان دول اوروبا الغربية مجتمعة أو منفردة لم تسترد قوتها خلال العشرين سنة التالية • وبرغم انها فقدت معظم ما تبقى لها من مستعمرات الا انها وجدت نفسها اكثر رخاء ولم يظهر بين شعوبها سوى ميول ضئيلة لمواصلة بذل تضحيات جديدة لانشاء الامبراطوريات أو للاستيلاء على السلطة سواء تحت حماية قومية أو اوروبية •

ومع هذا فقد حدث تقدم متواضع فى كل هذه الاتجاهات الأربعة . وساعد على ذلك قيام عدد صغير من الهيئات الأوروبية التى اثبتت قدرتها على النمو والحياة برغم فشل الهيئات الأخرى المخطط لها ، وبالرغم من ان جميع الهيئات الأوروبية قد قدرت لها اصلا اهدافا اكثر طموحا • ومن البداية كان الغرض من قيام هذه الهيئات ان تكون هيئات مرحلية ، وبالرغم من ان نشاط كل هيئة كان مقصورا على مهمة أو عمل معين وفى أغلب الأحيان على مجموعة معينة من الدول الأوروبية ، فقد كان الهدف من وراء انشاء كل هيئة جديدة هو ايجاد احتياجات جديدة لمزيد من التكامل وتكوين اتجاهات سياسية جديدة وخلق مصالح وعادات تعمل على تسهيل اتخاذ خطوات أخرى نحو التكامل •• واخيرا كان امل رجال السياسة الأوربيين فى دول اوروبا الغربية ان يخدم هذا التكامل اغراضا عامة وان يكون شبيها بالاندماج أو الاتحاد الفيدرالى بين دولتين ، وان يشمل فى النهاية كل اوروبا غير الشيوعية ، وربما استطاع ايضا — كان هذا هو الامل — ان يغرى بعض دول أوروبا الغربية • ولقد بدأت الجهود الرئيسية نحو الاندماج الاوروبى بتوقيع معاهدة دنكرك (مارس

سنة ١٩٤٧ بين فرنسا وانجلترا ، وقد كانت معاهدة تحالف وتبادل المعونة ضد اى احتمال لتجدد الاعتداء الالمانى ، غير انها قد تضمنت تعهدا بتبادل التعاون لتوفير الرخاء والاستقرار الاقتصادى فى البلدين . ولقد اعقب توقيع هذه المعاهدة أول اعلان عن مشروع مارشال فى يونية عام ١٩٤٨ ، وتكوين هيئة التعاون الاقتصادى الأوروبى بواسطة انجلترا وفرنسا واربعة عشر دولة أوروبية أخرى فى يولية سنة ١٩٤٧ وكذلك توقيع اتفاقية التعاون الاقتصادى الأوروبى فى ابريل عام ١٩٤٨ ٠

فى الوقت نفسه ، انتاب حكومات دول أوروبا الغربية حالة من الذعر بسبب تكوين هيئة شيوعية دولية فى سبتمبر سنة ١٩٤٧ اطلق عليها « الكومنفورم » بواسطة الاحزاب الشيوعية الموجودة فى الاتحاد السوفيتى وفى دول شرق أوروبا الواقعة تحت الحكم الشيوعى . وقد نبع ذلك الاعلان عن قيام « الحكومة الديموقراطية المؤقتة لليونان الحرة » بتأييد من الشيوعية (التى ثبت فشلها فى النهاية) وذلك فى ديسمبر سنة ١٩٤٧ ، ثم الانقلاب الشيوعى الذى اجتاح تشكيوسلوفاكيا فى فبراير سنة ١٩٤٨ والذى عمل على احكام قبضة الشيوعيين على هذه الدولة ٠ وجاء رد الفعل الغربى لكل هذه الاحداث فى صورة اتفاقيتين عسكريتين : معاهدة بروكسل وهى عبارة عن تحالف عسكرى بين انجلترا وفرنسا ودول البنلوكس (بلجيكا وهولندا واكسمبرج) معاهدة شمال الأطلنطى التى تم التوقيع عليها فى ابريل عام ١٩٤٩ والتى مهدت لانشاء منظمة حلف شمال الاطلنطى ٠

خطوات نحو الفيدرالية الأوروبية :

فى مايو عام ١٩٤٩ م تم التوقيع على النظام الأساسى لمجلس أوروبا الذى ينص على انشاء مجلس استشارى ويعقد اجتماعاته علانية فى مدينة ستراسبورج (البرلمان الأوربى) ومجلس الوزراء ويعقد اجتماعات خاصة ٠ ويتكون المجلس الاستشارى من ممثلين يتم انتخابهم بواسطة البرلمانات الوطنية أو تعينهم الدول الاعضاء . ولكن تؤخذ اصواتهم كأفراد وهو كثيرا ما يعنى من الناحية العملية ٠ ان أخذ الاصوات يتم على غرار النظم المتبعة فى الاحزاب ٠ وكان الهدف من انشاء المجلس الاستشارى ان يكون بمثابة هيئة لقياس الرأى الأوروبى الذى كان من المنتظر ان يساعد فى التوجيه ورسم الخطط ، ان سلطة هذا المجلس كانت قاصرة على التقدم للتوصيات (بأغلبية الاصوات) الى مجلس الوزراء . ويقوم مجلس الوزراء بدوره بالتقدم بهذه التوصيات الى الحكومات الاعضاء (ولكن فقط باجماع أصوات الوزراء أو نوابهم طبقا لما يتلقونه من تعليمات فى كل حالة بصفتهم ممثلين لحكوماتهم) ٠ وهذه الحكومات الوطنية لها وحدها سلطة اتخاذ اى اجراء . وعلى ذلك

فان مهمة الـــراى « الأوروبى » على احسن الفروض قاصرة على مجــرد تقديــم الاقتراحات . أما اتخاذ القرار فأمـــره متروك لكل حكومة من الحكومات الاعضاء .

وفى عـــام ١٩٥٠ تـــم انشـــاء اتحاد المدفوعات الأوروبى داخـــل اطـــار منظمة التعاون الاقتصـــادى الأوروبى لتســـهيل التجـــارة المتعددة الاطـــراف والمعاملات الماليـــة داخل منطقـــة التجـــارة الخاصـــة بأوروبـــا الغربيـــة ومنطقة الاسترلينى ، وذلك حتى يحين الوقت الذى تصبح فيه العمـــلات الخاصة بعدد كاف من الدول الأعضـــاء فى هذا الاتحـــاد قابلة للتحويـــل بالكامل وبـــذا يمكن الاستغناء عن اتحاد المدفوعات الأوروبى .

وقـــد باشر اتحاد المدفوعات الأوروبى نشـــاطه طبقـــا للخطـــة التى وضعت لـــه ، فقـــام بتســـهيل التجـــارة الأوروبيـــة المتعددة الاطـــراف فى الخمســـينات وتوقف عن النشـــاط فى النهاية تلك الفترة بعض ان أصبحت العملات الأوروبيـــة الرئيسية قابلة للتحويـــل فى الأســـواق العالميـــة الى حـــد مـــا . أمـــا استخدام اتحـــاد المدفوعات الاوروبى للتمهيد لقيـــام عملة اوروبيـــة موحدة فهذه مســـألة اخـــرى ، وعلى ايـــة حـــال كانت الحكومات الرئيسية (ومن المحتمل ان تكون شـــعوبها ايضـــا) تفضـــل الاحتفـــاظ بالاشراف على عملتها الوطنيـــة (ومن ثـــم على معظم حياتها الاقتصـــادية) كلما امكن ذلك . وقـــد تـــم حـــل اتحـــاد المدفوعـــات الأوروبى .

وفى ربيـــع عـــام ١٩٥٠ قـــام وزير خارجية فرنســـا ، مســـيو روبرت شومان ، بالدعـــوة الى انشـــاء مشروع شـــومان لتوحيد الاشراف على كـــل انتـــاج فرنســـا والمانيـــا من الفحم والصلب فى ســـوق مشتركة تحت اشراف هيئة عليـــا مشتركة ذات ســـلطات تنفيذية ، وذلك على اساس ان تتعهـــد كل دولة من الدول المشتركة فى المشروع بالتخلى عن سيادتها ، وفتح بـــاب الاشـــتراك فى هذا المشروع للدول الأوروبيـــة الاخرى . وتعتبر الهيئـــة العليـــا مســـئولة امـــام مجلس تشريعى . أمـــا المســـائل القانونية فتفصـــل فيها محكمة للعدل . ويمثل الحـــكومات الوطنيـــة مجلس الوزراء . وفى مجـــال اختصاصها فان هذه الهيئـــة الجديدة لهـــا ســـلطات تعلـــو ســـلطات الحكومـــات الاعضـــاء وهدفها السياسى المباشر هو حمـــاية فرنســـا من احتمـــال احيـــاء القومية والعسكرية الالمانيـــة خـــلال عمليـــة اعـــادة تســـليح المانيـــا التى كان يخطط لهـــا منـــذ انشـــاء منظمة حلف شـــمال الأطلنطى ، والتى برزت بصـــورة واضحـــة تحت ضغط الحرب الكوريـــة .

وفى مايـــو عـــام ١٩٥٠ وصف مسيو شـــومان مشروعـــه « بانه يعتبـــر الخطـــوة الأولى فى اتجـــاه الوحدة الاوروبيـــة » ، وفى اغسطس من نفس العام

أعرب عن ثقته بأن مشروعه « سوف يقودنا بسرعة نحو الوحدة الكاملة لاوروبا سياسيا واقتصاديا » وفى شهر ابريل عام ١٩٥١ تم التوقيع على معاهدة لانشاء هيئة الفحم والصلب الاوروبية بواسطة الدول الست : فرنسا ، المانيا الفيدرالية ، ايطاليا ، بلجيكا ، هولندا ، ولوكسمبرج ، وبعد التصديق النهائى عليها من كل هذه الدول بدا سريانها اعتبارا من شهر يوليو عام ١٩٥٢ .

وقبل ذلك بشهرين ، أى فى مايو عام ١٩٥٢ قام وزراء خارجية الدول الست بالتوقيع على معاهدة ذات آثار بعيدة المدى (بناء على اقتراح من فرنسا ايضا) لادماج قواتهم المسلحة تحت قيادة مجلس الدفاع للدفاع الاوروبى تشرف عليه هيئة عليا لها سلطات تعلو سلطات الحكومات الاعضاء . وكانت هذه المعاهدة تهدف الى السماح باعادة تسليح المانيا ولكن داخل اطار جيش اوروبى ، كما كانت تهدف الى استبدال القوات المسلحة الفرنسية بأخرى اوروبية ، ولذلك يحول بين القوات المسلحة الغربية وبين ان تصبح قوة مؤثرة على مجرى السياسة الداخلية فى فرنسا ، وهو ما ادى الى قيام قطاعات كبيرة من اليمين واليسار الفرنسى بمعارضة هذه المعاهدة . وبالرغم من ان هذه المعاهدة تم التصديق عليها من الدول الخمس الأخرى ، الا انها لم يكتب لها النجاح ، وقبر مشروع مجلس الدفاع الأوروبى بواسطة البرلمان الفرنسى فى اغسطس عام ١٩٥٤ .

وثمة مشروع معاهدة أخرى اكثر طموحا لانشاء هيئة أوروبية سبق ان اطلق عليها الهيئة السياسية الأوروبية وتم وضع هذا المشروع فى عام ١٩٥٣ بواسطة مجلس أوروبى شكل لهذا الغرض من هيئة الفحم والصلب الأوروبية بالاضافة الى بعض المندوبين الفرنسيين والالمان والايطاليين ، الا ان المشروع لم يوقع عليه بمعرفة حكومات الدول الستة ومات وهو ما زال فى المهد .

لو ان الدعوة لتوحيد أوروبا قد توقفت منذ عام ١٩٥٣ ــ ١٩٥٤ ، فان انشاء المنظمات المتخصصة على الأقل احرز بعض التقدم ، ففى عام ١٩٥٣ تم تكوين وكالة الكفاءة الانتاجية الأوروبية ، ومجلس التعاون الجمركى لوزراء المواصلات والمجلس الاوروبى لبحوث الطاقة النووية والمؤتمر الاربى للطيران المدنى فى عام ١٩٥٥ .

وفى محاولة للتعويض عن النكسات التى اصابت الدعوة لاقامة الوحدة الأوروبية عسكريا وسياسيا ، فقد بذلت جهود كبيرة لدفع الوحدة

الأوروبيـــة الى الامـــام فى المجـــال الاقتصـــادى بين الدول الست على الأقل .
وفى شـــهر مارس عـــام ١٩٥٧ قام وزراء خارجيـــة الدول الست بتوقيـــع
معاهـــدة رومـــا التى تنص على انشـــاء هيئة اقتصادية اوروبيـــة مهـــدت
تدريجيـــا لانشـــاء السوق الأوروبيـــة المشتركة التى تهدف الى التوصـــل الى
حريـــة انتقـــال الســـلع والخدمات ورأس المـــال خطـــوة بخطـــوة على مـــدى
١٢ ـــ ١٥ عاما . وفى الوقت نفســـه تـــم التوقيع على معاهدة اخـــرى تنص على
انشاء لجنـــة الطاقة الذرية الاوروبيـــة بين الدول الست وعن ذات مجـــال
ابعـــد أثـــرا من مجال المجلس الأوروبى لبحـــوث الطاقـــة الذريـــة . وقـــد
تـــم التصديق على هاتين المعاهدتين بسرعـــة ، وفى أول يناير سنة ١٩٥٨ تكونت
الســـوق الأوربية المشتركـــة وكذلك لجنـــة الطاقـــة الذريـــة الأوروبيـــة .
وبحلول عـــام ١٩٦٧ كانت الســـوق الأوروبية المشتركـــة قـــد تجـــاوزت ـــ
من الناحيـــة القانونية ـــ الجدول الزمنى الموضـــوع لها اصـــلا ، الى حد مـــا .
فتم الغـــاء الرســـوم الجمركيـــة بين الدول الســـتة على الســـلع المصنعـــة .
كمـــا أمكن التوصـــل الى اتفاقيات بشأن تشكيلة عامة من المنتجـــات الزراعية ،
وبذلك نجحت المنظمـــات المتخصصة فى الحـــدود المرسومة لهـــا .

وتستحق طبيعة وحدود هذا النجاح الاهتمام . فلاول مـــرة فى التاريخ
تعتبر الحرب داخل أوروبـــا الغربيـــة من وجهـــة نظـــر شـــعوبها وحكوماتها
عمـــلا غير مشروع وبعيد الاحتمـــال ولا يســـتحق الاعـــداد لـــه اعـــدادا
رئيســـيا . وفى هذا المعنى فان أوروبا الغربية اصبحت مجتمعـــا توفـــرت لـــه
اسباب الامن . وبالرغـــم من انهـــا لا زالت مهددة من الخـــارج فان شـــعوبها
لا تستشعر اى تهديد من الداخـــل من ناحية اى من جيرانها الأوروبيين .

وفى الوقت نفســـه احتفظت كـــل من دول أوروبـــا الغربيـــة باســـتقلالها
وسيادتها فى المســـائل السياســـية والعسكرية . واظهر الرئيس ديجول هـــذه
الحقيقـــة فى عـــام ١٩٦٣ عندما استعمل حـــق الفيتو لمنـــع المحاولة التى قامت
بهـــا انجلترا لدخـــول الســـوق الأوروبيـــة المشتركة ، ومـــرة أخرى فى عـــام
١٩٦٥ عندما رفض عزيمة فرنســـا فى بعض الأمـــور الهامة داخـــل الســـوق .
وايضـــا فى عـــام ١٩٦٧ عندما عمل على عرقلة الجهـــود المتجددة التى بذلتهـــا
بريطانيا لدخـــول الســـوق ولـــم تدخل بريطانيا السوق الا بعد اعتزال الخميس
ديجـــول . ان عمـــلات دول أوروبـــا واقتصادياتها الوطنيـــة واسواق العمـــل
وكذلك اســـواق رأس المـــال لـــم يتـــم ادماجها حتى الآن . ما يؤكـــد ذلك انـــه
فى خـــلال الفترة منذ عـــام ١٩١٣ وحتى عـــام ١٩٥٧ تقريبـــا كان هنـــاك اتجاه
نحـــو ادمـــاج البنيـــان الاقتصادى والاجتماعى لاوروبـــا الغربيـــة والدليـــل
على ذلك هـــو ازدياد حركـــة التجـــارة عبر الحـــدود وتبـــادل الرسائل البريدية
والســـفر والالتحـــاق بالجامعات داخل المنطقة . غير ان هذا الاتجـــاه قـــد توقف

منذ عــام ١٩٥٧ ــ ١٩٥٨ • ان توحيــد الهياكل الأساســية فى اوروبــا الغربية قــد وصل الى انبعــد الذى يتوقف عنده لعقد قــادم من الزمــان ، وايــة زيادات اخــرى فى الانــواع المتعددة من المعاملات الرئيسية بين دول الســوق الاوروبية المشتركــة منذ عــام ١٩٥٨ لــن تكون اكبر من الزيــادات التى تبررهــا حالــة الرخــاء • فاذا ما اريــد التوصــل الى نــوع اكبر من الاندمــاج فان جيــلا جديدا يجب ان يستحوذ على النفوذ السياسى وقــديكــون هذا الجيــل من الذين بلغــوا ســن الالتحــاق بالجامعة فى عــام ١٩٤٨ ــ ١٩٥٠ ، اى فى الوقــت الذى اطلقت فيه الحملة لتوحيد اوروبــا واصبحت الوحدة أمــرا مسلما بــه •

الجهــود الأخــرى نحــو التكامل الاقليمي :

استمرت حركــة التكامل الدولى فى المناطق الآخرى ضعيفة بالقياس الى أوروبــا الغربيــة ، فمنظمة الدول الامريكية التى خلفت اتحــاد كل امريكا ووريثة تقاليــد من التعاطف الامريكى المشترك (ولكن بعض دول امريــكا اللاتينيــة ســاورتها الشــكوك والمخاوف كما ابــدت اســتياءها من التفوق الســياسى للولايات المتحــدة) تعتبر الى حــد بعيــد اقــل شــأنا من المنظمــات المماثلــة فى اوروبــا الغربيــة وذلك من حيث حركــة التبــادل التجــارى والولاءات الشعبية والمنظمــات الناجحــة •

والجامعة العربية قــد وحــدت بين دولها من حيث التراث المشــترك مــن اللغــة والثقافــة والدين (الى حــد كبير) وكذلك من حيث عــدم الثقــة فى القــوى الخارجيــة الغربيــة والشــيوعية والعــداء المشترك لاسرائيل ، الا ان هذه الروابــط لــم تكف للقيــام بأيــة مشروعــات رئيســية فى المجال السياسى أو الاقتصــادى او بضمان توزيــع عــادل لعائــدات البترول بين الدول العربية الغنيــة والفقيرة . كما لــم تمكن هذه الدول من الحيلولة دون وقــوع النكســات العســكرية الكبيرة ى ١٩٤٨ ــ ١٩٥٦ ، ١٩٦٧ • وهنــا ايضــا فان الاندمــاج مازال على احســن الفروض فى مراحله الاولى • ان كثيرا من الايجابيــات بيــن الدول العربية لا زالت فى حاجــة الى تدعيــم فى المســتقبل • ولــم يكتمــل الاندمــاج حتى الآن بين الدول المختلفــة داخــل الكتلة الســوفيتية • تعتبــر الحــرب داخل العالــم الشيوعى عملا غير مشروع . ولكن حدثت خلافــات حــادة بين هذه الدول استعملت فيها عبــارات شــديدة اللهجــة ومثــال ذلك الخلافــات التى حدثت بين الاتجــاه الســوفيتى ويوغوسلافيا فى ١٩٤٨ ــ ١٩٥٣ ، وبينه وبين الصين الشــيوعية فى الستينات ، وكذلك بينــه وبين تشيكوسلوفاكيا فى عــام ١٩٦٨ قبــل احتلالهــا بواســطة قــوات من كل من رومانيا وبولنــدا والمجــر وبلغاريــا وألمانيــا الديمقراطية باســم حلف وارســو •

ان نشــاط كل من المنظمة الشيوعية للتعاون الاقتصــادى « الكوميكون »

ومنظمة التعاون العسكرى « حلف وارسو » (ويقابلهما فى الغرب منظمة التعاون الاقتصادى والتنمية ومنظمة حلف شمال الاطلنطى على التوالى) ظل مقصورا على الاتحاد السوفيتى وحلفائه فى اوروبا الشرقية ، وكان يبدو فى وقت من الأوقات ان المنظمتين أصبحتا أكثر مرونة عندما ازدادت قوة النظم الشيوعية فى يوغوسلافيا وبولندا وتشيكوسلوفاكيا ورومانيا وأصبحت أكثر ثقة بنفسها بالرغم من قلة البيانات التى يعول عليها عن المعاملات بين الدول الشيوعية بالمقارنة الى البيانات الخاصة بأوروبا الغربية ، فان هذه البيانات تدل على ان تعدد الكيانات السياسية المستقلة ما زال متفشيا فى العالم الشيوعى ، وبظهور جيل جديد من رجال السياسة فى هذه الدول فان الليبرالية والوطنية قد يرتفع شأنها ، وعلى الحكومات حينئذ ان تختار بين سياسة التكيف وسياسة القمع ، وبالتالى فعندما قام الاتحاد السوفيتى بتخفيف القيود السياسية المفروضة على تشيكوسلوفاكيا لجأ فى اغسطس عام ١٩٦٨ الى احتلالها عسكريا ، الا أن ضغط التغيير لابد وان يستمر فى معظم دول الكتلة السوفيتية وفى داخل الاتحاد السوفيتى نفسه .

ولقد قدمت حكومة الاتحاد السوفيتى بعض التنازلات الرمزية نحو ليبرالية محدودة وذلك بتوقيعها اتفاقيات ، هلسنكى عام ١٩٧٥ التى تشير الى حقوق الانسان ونشرها فى شهر يونيو من عام ١٩٧٧ مشروع دستور جديد لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية للمناقشة العامة . ولكن بقى الكثير لمعرفة الى أى مدى ستتحقق الليبرالية فى اعقاب هذا الخطوات . وعلى احسن الفروض ، يبدو محتملا ان تكون هذه عملية بطيئة داخل الاتحاد السوفيتى ، ويحتمل أن تشتق من تطورات داخلية لا من ضغوط خارجية . وما الذى ستفعله ليبرالية من هذا القبيل ، اذا حدثت . لتحقيق تماسك المنظمة الشيوعية للتعاون الاقتصادى وحلف وارسو ... ان هذا سؤال يصعب الاجابة عليه .

الفصل الثامن عشر

الانـــدماج

تحقيقه والمحافظة عليه

كثيرا ما كان التصور أن المنظمات الدولية تشـــكل احسن وسيلة لتخليص الجنس البشرى من عصر الدولة القومية . وفيما عـدا المنظمات الدولية الفعلية الموجودة حاليا . أو التى كانت قائمة فى المـاضى ، هنـــاك مشاريع كبيرة لتكوين اتحـــاد الأطلنطي أو الحكومة العاليـــة الإتحادية ، وهـــذه المشروعات لا تـــزال تبشر بالكثير بالنسبة الى الاندماج الـــذى يتخطى الحـــدود القومية اذا أمكن فقط البـــدء فى هـــذه المشروعات . ومقابل هـــذه الرؤى عن المستقبل جدير بنــــا أن نضع خبرات المـــاضى . ماذا كان الحـــال بالنسبة الى بعض حـــالات الانـــدماج السياسى الفعلية ، ومـــا الـــدروس المستفادة منها ؟ ربما هنـــاك ٤٨ حالة من حالات الاندماج السياسى) العالم يمكن أن نتعلم منهـــا شـــيئا قـــد يساعدنا على توفير علاج افضل للمشاكل المماثلة التى تواجهنا حاليا ، ولقـــد تمت دراسة ١٤ من هـــذه الحالات ، عشر منهـــا يرجع العهـــد بها الى التاريخ البعيد واربع حـــالات حديثة العهـــد نسبيا ، وكان الهـــدف الواضح من اجراء هـــذه الـــدراسة عقـــد مقارنة بين مشاكل المـــاضى والمشاكل المعاصرة ، ويستأهـــل بعض ماكشفت عنـــه هـــذه الدراسات ن نلخصه هنـــا .

ان المهام الرئيسية للانـــدماج يمكن ادراجها بسهولة تحت عناوين هى :

١ ـــ المحافظة على السلام ذات أغراض متعددة .

٢ ـــ التوصل إلى قدرات أكبر .

٣ ـــ انجاز بعض المهام المحددة .

٤ ـــ اكتساب صورة ذاتية جـــديدة وشخصية تلعب دورا جـــديدا .

كل هـــذه المهـــام يمكن اختبارها من الناحية العملية ، فتوقعات السلام الـــدائم داخل اى مجتمع يمكن اختبارها بانتفاء او قلـــة الاستعدادات الخاصة بالحرب داخل الوحـــدات السياسية وشعوبها ، ويمكن الاستدلال على ذلك من البيانات الخاصـــة بتوزيع القوات المسلحة والمنشئات العسكرية ، ومن الوثائق الدبلوماسية والبيانات الخاصة بالميزانية ، وقياسات الرأى العـــام على مستوى الخاصة والجماهير ، وتوصل أى مجتمع من المجتمعـــات الى طاقات أكبر ذات أغراض متعـــددة يمكن التعرف عليـــه بصورة تقريبية على الاقل ، من البيانات

الخاصة بالمنتج القومي الاجمالي ونصيب الفرد منه ، وكذلك من مجال نشاط مؤسساته القائمة وتنوعها ، ما قيام المجتمع بانجاز مهام محددة فيمكن التعرف عليه من وجود او ، ربما ، نمو الاعمال والمؤسسات المشتركة المخصصة لانجاز هذه المهام المحددة • واخيرا اذا كان افراد المجتمع قد توصلوا الى القيام بدور شخصية جديدة او فى طريقهم الى ذلك . فيمكن التعرف عليه من تكرار استخدام الشعارات العامة وكذلك من ابتكار شعارات جديدة واستعمالها على نطاق واسع ، ومن البيانات الخاصة باتجاهات الراى العام على المستويين الشعبى والخاص ، ومن البيانات الاجمالية المتعلقة بالسلوك الفعلى للشعب بما فى ذلك الموافقة الشعبية على انتقالات الثروة او اية مزايا اخرى داخل المجتمع ، وقدر من المشاركة فى المزايا الأعباء داخل المجتمع •

فهل يمكن فى الواقع انجاز المهام المتوخاة من الاندماج . وهل سينجح الاندماج أم يفشل . نقول ان ذلك يتوقف جزئيا على الخلفيات السائدة داخل الوحدات السياسية المطلوب ادماجها وبينها البعض . وشروط الاندماج يمكن ادراجها مرة اخرى تحت اربعة عناوين :

١ ــ الصلات المتبادلة بين كل من وحدة سياسية واخرى •

٢ ــ التوافق بين القيم وبعض المنافع الفعلية المشتركة •

٣ ــ التجارب المتبادل •

٤ ــ درجة معينة من الشخصية العامة أو الولاء العام •

وهذه الشروط الاربعة تتفاعل مع بعضها البعض وتقوى بعضها البعض الا انه يمكن من حيث المبدأ ، التحقق من كل شرط على حدة •

يمكن التعرف على الصلات المتبادلة بين الوحدات السياسية من حجم ووزن المعاملات بين هذه الوحدات . من قبيل التجارة والسفر والبريد ووسائل الاتصال الاخرى . وكذلك من مدى تجاوز هذه المعاملات للمستويات المتوقع الوصول اليها بمحض الصدفة ، وايضا من حجم الوحدات المشتركة فى الاندماج ، وكذلك من مدى الاختلاف المشترك بين كل هذه الصلات وتأثيره على أن وحدتين سياسيتين مختلفتين من الوحدات المشتركة •

ان وجود المنفعة المشتركة للشركاء فى المجتمع الاكبر المرتقب ومدى هذه المنفعة يمكن التحقق منه من مدى الاختلاف الايجابى المشترك بين المنافع التى تعود على شريكين منهم او اكثر بحيث تكون المنفعة التى تعود على احد منهم مصاحبة لاحتمال حصول الاخر عليها ؛

وتشتمل الشروط الخاصة بالتجاوب المشترك على وجود طاقات كبيرة وامكانيات للاتصال والفهم المتبادل والتوجيه الذاتى . وينحصر مصدر مستقل من مصادر الادلة ، فى الاداء الفعلى على أساس الكفاية واحتمال السلوك المتجاوب .

واخيرا ، فالولاء العام المشترك يمكن التعرف عليه من تكرار ووضوح المدركات عن المصالح المشتركة ، وذلك على أساس توزيعات الاهتمام والتوقعات الموازية عن الجزء، كما تظهرها بيانات المسح الميدانى وتحليلات اجهزة الاعلام ووسائل الاتصال الحكومية . والدليل الاخر يمكن فى تطابق أو توافق القيم الاساسية للشعوب المشتركة فى الاندماج بما يسمح بقيام تعاون بينهم والنظر اليه كعمل مشروع . ويمكن ان يضاف الى ذلك الشواهد الدالة على وجود شعور موضوعى مشترك يعترف بشرعية المجتمع المندمج مما يجعل الولاء له ايضا مسألة شعور نفسى لا مفر منه .

وتسير اهداف التكامل وشروطه الى حد تعبير العمليات والادوات التى يمكن بواسطتها التوصل اليه، ومن ناحية اخرى نستطيع ادراج هذه الادوات تحت اربعة عناوين :

١ ــ قيمة الانتاج المتميزة .
٢ ــ توزيع القيم .
٣ ــ الاكراه .
٤ ــ الشخصية المتميزة .

ان قيمة الانتاج وتوزيع القيم يشيران على التوالى الى إنتاج أو الحصول على السلع والخدمات او العلاقات التى تقدرها الشعوب المعنية . ويعنى الاكراه اولا وقبل كل شئ ، الاجبار العسكرى او غير العسكرى ، والشخصية المتميزة تعنى تنمية الشعور بالهوية المشتركة والولاء وروح الفريق .

انواع المجتمعات : الاندماج فى مواجهة التعدد :

عملية اقامة مجتمع الامن المندمج

اذا كان الهدف الاساسى من الاندماج ليس المحافظة على السلام فحسب بين الوحدات السياسية المندمجة ولكنه الحصول ايضا على قوة اكبر لتحقيق اغراض عامة محددة او الحصول على شخصية عامة او مزيج من كل هذا فقد يكون ما يدعى المجتمع السياسى المندمج تحت عاية حكومة عامة هو

الوضع المفضل ، امـــا اذا كان الهدف الاساسى هـــو السلام فقـــد يكتفى بمجتمع الامن التعـــددى وهو هـــدف قـــد يكون من السهل تحقيقه فى الواقع .

وقـــد يكون المجتمع المنـــدمج ايضـــا عبارة عن مجتمع امن منـــدمج تسوده توقعـــات يعول عليها نحو التحول الى السلام ، ويمكن التحليل على ذلك من عـــدم وجـــود استعدادات جوهرية معينـــة لشن حرب واسعة النطاق داخل هذا المجتمع ان ايـــه دولة مستقلة ومنـــدمجة على اسس قوية كما كانت كل من بريطانيـــا والولايات المتحـــدة عـــام ١٩٦٨ ، يعتبر مجتمع من منـــدمج (بصرف النظر عن زيـــادة حـــدة العنف بين الطوائف العنصرية فى المدن الامريكية فى الستينات واتخاذ الاستعدادات لمواجهة احتمـــال عودة مثـــل هـــذا العنف مرة اخرى فى المستقبل ، وهـــذه التطورات لم تصـــل فى ذلك الوقت الى حـــد قيـــام الحرب الاهليـــة) ولـــكن لا الحكومة العـــامة ولا القوانين العامة ولا المؤسسات العامة يمكن أن تضمن السـلام والامن الداخلى لدولة على حافة الحرب الاهليـــة كما كان الحال فى الولايات المتحـــدة الامريكية فى عـــام ١٨٦٠ ـــ ١٨٦١ وفى الهنـــد والباكستان فى عـــام ١٩٤٦ ـــ ١٩٤٧ ونيجيريا فى عـــام ١٩٦٧ ، والحقيقة ان نفس الجهود التى تبـــذل من اجـــل المحافظة على المجتمع المنـــدمج او الوحدة السياسية قـــد تؤدى الى قيـــام حرب واسعة النطاق عند مجتمع الامن النيـــة على منعها ، ويوضح الجدول رقم (١٥) العلاقات التى يمكن ان تقوم بين المجتمعـــات المندمجة ومجتمعات الامن .

الانـــدماج السياسى والتعـــدد والامن لبعض النماذج المختلفة للمجتمع السياسى :

	انـــدماج	لا اندماج
أمن	مجتمع الامن المنـــدمج مثـــال (الولايات المتحدة اليوم) ـــــــــ مـــدخل	مجتمع الامن المتعـــدد مثـــال (النرويج والسويـــد اليوم) الانـــدماج ـــــــــ
لا أمن	منـــدمج ولـــكن ليس مجتمع أمن مثـــال (امبراطورية هبسبرج ١٩١٤)	غـــير منـــدمج وليس مجتمع أمن مثـــال (الولايات المتحـــدة والاتحاد السوفييتى اليوم)

ان اهمية هـــذه العلاقات من حيث دلالتها أخـــذة فى التغيير . بينمـــا كانت اغلبية الشعوب المتجاربة تستطيع تحمل الحروب الاهلية واراقة الـــدماء فى المـــاضى لان قـــدرة اسلحة الحرب على التدمير والتخريب كانت محـــدودة . فالشوب المشتركة فى الحرب اليوم (وربما البشرية بأسرها) يمكـــن أن تمحى من الوجود فى حرب ذرية تثـــار على نطاق ضيق الى حـــد ما ، وتبعـــا لذلك ومع زيادة قـــدرة الاسلحة على التخريب والـــدمار ، فان مهمة المحافظة على الســـلام والتحول نحو الســـلام وكذلك تسوية الخلافات تصبح أكبر أهمية . أما الوحدة التى تتطلع الى السيطرة بهـــدف تحقيق اغراض عامة او تتطلع الى زيادة نفوذها الجماعى وشخصيتها الجماعية ، فقـــد اصبحت اقـــل اهمية ، أصبحت التفرقه بين الحرب الدولية والحرب الاهلية من الناحية القانونية أصبحت أقل أهمية ، كما أصبحت المجتمعات الموحـــدة وليست المندمجة سياسيا ، أكثر خطورة .

وبرغم ان مجتمع الامن المندمج اكثر خطورة الان) حالة فشله الا انـــه لازال يبـــدو مسحبا بـــدرجة اكبر بالمقارنة مع البدائل لانه — فى حالة نجاحه — لن يعمل على المحافظة على الســـلام فحسب ولكن سيعمل ايضـــا على توفير أكبر لانجـــاز خـــدمات واغراض حكومية عـــامة محـــددة وربما تحقيق احساس اكبر بالذاتية واستعادة الثقة بالنفس ، وذلك بالنسخبة لعامة الشعب وخاصته ، وبرغم أن مجتمع الامن المندمج مرغوب فيه بدرجـــة أكبر بالمقارنة مع غيره مـــن المجتمعات ، الا انـــه سيكون من الصعب التوصل اليـــه والمحافظة عليه . شأنه شـــأن جميع الاشياء الافضل .

الظروف الجوهرية الخاصة بالخلفية :

تضمنت احـــدى الدراسات ١٢ حالة اجتماعية واقتصادية داخل الوحدات المشتركة وفيما بينها ، تبـــدو (ولو انهـــا قـــد تكون غير كافية) لازمة لنجـــاح مجتمع الامن المنـــدمج وهـــذه الشروط هى :

١ — التوازن المشترك بين القيم الاساسية للسلوك السياسى .

٢ — طريقة مميزة وجـــذابة للحياة .

٣ — توقعات لعلاقات اقتصادية اقوى ومجزية او منافع مشتركة .

٤ — زيادة ملحوظة فى القدرات السياسية والادارية لبعض الوحـــــدات المشتركة على الاقل .

٥ — نمو اقتصادى متفوق لبعض الوحدات المشتركة على الاقل (بالمقارنة مـــع الـــدول المجاورة خارج منطقة الاندماج المنتظر) .

٦ ــ بعض العقات الاجتماعية الجوهرية المتصلة عبر الحــدود المشتركة للــدول المطلوب ادماجها ، وكذلك عبر الحواجز التى تفصل بين بعض الطبقــات الاجتماعية الرئيسية داخل هــذه الدول ٠

٧ ــ توسيع قاعــدة فئــة السياسيين داخل بعض الوحدات السياسية على الاقل ، وكذلك بالنسبة ايضا للمجتمع الاكبر الناشىء .

٨ ــ مستوى مرتفع نسبيا من حرية الحركة جغرافيا واجتماعيا بالنســبة للافراد وعلى الاقل بالنسبة للطبقة السياسية ٠

٩ ــ تنوع مجال الاقتصاديات والعمليات التجارية المشتركة ٠

١٠ ــ بعض المنــافع الاجمالية التى تعــود على الوحدات المطلوب ادماجها من تدفق الاتصالات والعمليات التجارية المشتركة بيها .

١١ ــ تكرار حــدوث تبادل للواقف الجماعية بين الوحــدات السياســية

١٢ ــ التنبؤات السلوكية الهامة .

(كأن تكون الوحــدة ضمن الاغلبية أو ضمن الاقلية) ٠

وهــذه الشروط فى مجموعها توفر البيئــة الاجتماعية والاقتصـــــادية والسيكولوجية الملائمة للظروف السياسية السائدة فى مجتمع الامن المندمج والتى تتكون بصــفة أساسية من استعداد أغلبية الطبقة السياسية وقــدرتها فى كل الوحــدات السياسية المشتركة على :

١ ــ قبــول وتأييد المؤسسات الحكومية العامة ٠

٢ ــ تقييم الولاء السياسى العام لهــذه المؤسسات والمحافظــة عــلى المجتمع المنــدمج ٠

٣ ــ ادارة هذه المؤسسات بعناية كافية مشتركة بما فى ذلك الاستجابة الى طلبــات واحتياجات كل الوحــدات المشتركة ٠

وحتى اذا مــا اقيم مجتمع الامن المندمج فهو معرض للغــاية فى كثير من الاحيــان لقيــام نزاع مــدنى فيــه أو لانسحاب الوحــدات المشتركة فى هذا الاندماج شــأنه فى ذلك شــأن اى وحــدة اتحادية أو امبراطورية ٠ وقــد يؤدى أى شرط من الشروط الستة الواردة فيما بعد الى انهيار مثــل هــذا المجتمع وهــــذه الشروط هى :

١ ــ أية زيادة مفرطة فى الاعبــاء الاقتصادية والعسكرية والسياســية الملقــاة على المجتمع أو على اى من الوحــدات السياسية المشتركة فيــه (وخاصة

اذا جاءت هذه الزيادة فى الاعباء فى مرحلة متقدمة) اى قبل تدعيم الاندماج بتعميق مفاهيم الولاء السياسى والعادات السياسية .

٢ — زيادة سريعة فى التعبئة الاجتماعية والسياسية تزيد سرعتها عن سرعة الثقافة السياسية والمشتركة للمجتمع .

٣ — زيادة فى الفوارق الاقليمية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية واللغوية أو الفوارق بين الاجناس البشرية التى تزيد سرعتها وقوتها عن سرعة وقوة اى عملية اندماجية تعويضية .

٤ — انخفاض خطير فى القدرات السياسية والادارية للحكومة والطبقة السياسية بالنسبة الى الاعمال الجارية والاعباء المطلوب من هذه الجهات الاضطلاع بها .

٥ — انغلاق الطبقة السياسية على نفسها نسبيا وما يترتب على ذلك من بطء شديد فى دخول جدد وافكار جديدة ، مما يؤدى الى ظهور طبقة سياسية معادية من بين من يملكون القدرة على الانضمام الى طبقة السياسيين وخابت امالهم .

٦ — فشل الحكومة ورجال الساسة فى القيام فى الوقت المناسب بالاصلاحات والتسويات التى ينتظرها الشعب ويطالب بها (التى ربما تكون تمت تجربتها فى بعض المناطق البارزة فى الخارج) أو الفشل فى التكيف مع التدهور أو الخسارة فى الوقت المناسب ، والتى توشك ان تصيب المركز الممتاز الذى تتمتع به أقلية متحكمة (مثل موقف الاقلية البيضاء فى روديسيا ونياسالاند) .

مجتمعات الامن ذات الطابع التعددى :

ان اقامة هذه المجتمعات والمحافظة عليها اكثر سهولة وبالتالى فهى تعتبر فى كثير من الاحيان وسيلة أكثر فاعلية فى المحافظة على السلام بين أعضائها ، وهى فى حاجة الى ثلاثة شروط اساسية لاستمرار وجودها وهى :

١ — التوافق بين القيم السياسية الرئيسية .

٢ — قدرة الحكومة والطبقة السياسية فى الدول الاعضاء على الاستجابة الى طلبات واحتياجات بعضها البعض بسرعة وكفاية دون الالتجاء الى استخدام العنف .

٣ — التنبوء المشترك بنواحى السلوك السياسى والاقتصادى والاجتماعى للدول المشتركة بعضها البعض (ولكن هذه النواحى تقل كثيرا فى حالة مجتمعات الامن التعددية بالقياس الى المجتمعات المندمجة اندماجا كليا .

عملية الاندماج :

ليست مجتمعات الامن المندمجة مثـــل الكائنات الحيـــة شأنها فى ذلك شأن الدول المستقلة أو الفيدراليات ، فهى لا تبعث الى الحياة عن طريق عملية نمو تتم على مراحل متعاقبة محـــددة مثـــل العملية التى يتطور فيهـــا الطائر ابو دنيبه ليصبح ضفدعا أو تتطور فيها القطيعة لتصبح قطعة الاندماج يشبه خط التجميع ، فالمجتمعات المندمجة تتجمع كل عناصرها ونواحيها الهامة عبر التاريخ ، وهى أيضـــا الى حـــد ما عملية تجميع السيارة ، ولا يهم على الاطلاق بالنسبة لاداء السيار ةالتامة الصنع الترتيب الـــذى اتبع فى اضافة كل جزء من اجزائها طالمـــا تشتمل السيارة فى النهاية على جميع الاجزاء اللازمة . الا أنـــه لوحظ فى حالات سابقة كثيرة أن لعملية الاندماج بعض خصائص معينة يجب ملاحظتها فى الحالات القائمة والمستقبلة .

تبـــدا عملية الاندماج فى كثير من الاحيان حول قلب منطقة من المنـــــاطق تتكون من وحـــدة أو عـــدد قليل من الوحـــدات السياسية الاقوى والاكثر تطورا والاكثر تقدما وجاذبية فى بعض النواحى الجوهرية ، وقد لعبت انجلترا هـــــذا الـــدور فى الجزر البريطانية ، كما قامت بـــه أيضـــا « بيدمونت Piedmont عنـــد توحيد ايطاليا ، وبروسيا بالنسبة لتوحيد المـــانيا ، وكذلك قامت بهـــذا الـــدور ولايات ماساشوستش ، فرجينيـــا ، بنسلفانيا ونيويورك بالنســـبة الندماج ١٣ مستعمرة امريكية فى الولايات المتحدة .

وفى المراحل الاولى لعملية الاندماج ، وفـــى كثير من الاحيان ، بـــدا نمو مجتمعات « اللاحرب » من النـــاحية السيكولوجية ، فقـــد اعتبرت الحرب بين الـــدول المزمع انضامها الى هـــذه المجتمعات عملا غير مشروع وان الاعـــداد لهـــا بصـــفة جدية لـــم يعـــد يلقى تأييدا عـــاما ، وحتى فى حالة قيام بعض الدول المزمع انضمامها الى الاندماج باتخـــاذ مواقف متعارضة بالنســـبة الى اى نزاع دولى كبير فانها تقوم بتوجيه سياستها بحيث يمكـــن حصر الحـــرب والاضرار الناجمة عنهـــا فى أضيق حـــدود أو تمتنع كليـــة عن الدخول فى حرب ضـــــد بعضها البعض .

وقـــد ظهر بالفعل مجتمع من هـــذا القبيل « اللاحرب الجـــدية » بين المقاطعات السويسرية فى القرن السادس عشر ، وبين الولايات الايطالية فى القرن الثامن عشر ، وبين الولايات الامريكية منـــذ عـــام ١٧٧٥ ، وبين الولايـــــات الالمـــانة منـــذ منتصف القرن التاسع عشر ، وربما قـــد ظهر ايضـــا منـــذ عـــام ١٩٥٠ بين دول منظمة التعاون الاقتصادى الاوربى برغم الذكريات الكثيرة من الحروب المـــاضية بينهم .

وفى كثير من الاحيان ايضا تصاب الاجزاء السياسية البارزة داخل المجتمع المندمج الناشىء ، بضعف ، والاهم من ذلك فانها تبتعد عن حدود الوحدات المشتركة فى هذا المجتمع ، وتبدا الانقسامات فى السيطرة على الحياة السياسية والفصل بين الوحدات والاقاليم السياسية الاصلية ، وكلما ازدادت هذه الاجزاء السياسية تنوعا وبروزا وكان هذا أفضل من حيث قبول الوحدة الناشئة ، هذا وان تاريخ مثل هذا التنسيق بين الاحزاب السياسية والاديان والمصالح الاقتصادية (وجميعها تكمل وتعدل الروابط القديمة للوحدات والاقاليم الاصلية وتسيطر عليها) يمكن ان يستدل عليه من تاريخ توحيد بريطانيا وسويسرا وايطاليا والولايات المتحدة .

وعلى العكس من ذلك عندما تتدعم الانقسامات بين الاقاليم والوحددات السياسية وتتوازى مع الانقسامات القديمة والجديدة المتعلقة باللغة والعقيدة والايديولوجية والمصلحة الاقتصادية والطبقة الاجتماعية ، وفى كل حالة من هذه الحالات تداعى مجتمع الامن المندمج (بصفة مؤقتة فى حالة الولايات المتحدة ولكن بصفة دائمة (حتى الان) فى الحالات الاخرى .

وفى النهاية ففى حالات الاندماج الناجحة التى تمت عن طريق الوحدة السياسية فان الفئات السياسية الرئيسية-المتصارعة وكذلك الاحزاب عبر الاقاليم السياسية أصبحت تتمسك بأشياء جديدة وتناضل فى سبيلها ، فقد اشتركت فى واحد أو اكثر من الابتكارات الرئيسية عبر الاقاليم والتى استحدثت وكانت مهمة وجذابة معا فى ذلك المكان والزمان ، ولقد لعب الاصلاح الدينى وكذلك الاصلاحات التى قام بها ملوك التيودور دورا رئيسيا فى اندماج انجلترا وويلز ، وكذلك لعبت الاصلاحات التى قام بها حزب الاحرار (والتى وافق على اغلبها حزب المحافظين ، دورا رئيسيا فى توحيد انجلترا واسكتلندا ، ولعب الاحرار والمذهب الحر (الليبرالى) دورا مماثلا فى توحيد سويسرا وايطاليا والمانيا فى القرن التاسع عشر ، وساعد على ذلك قبول وتبنى بعض المحافظين المستنيرين مثل كافور وبسمرك للاصلاحات والابتكارات الهامة ، وتم توحيد الولايات المتحدة بمساعدة الثورة الامريكية ، وقد تمسك ايضا انصار هاملتون من الفيدراليين وكذلك ايضا جفرسون من الجمهوريين بالابتكارات الرئيسية (وبعضها لم يسبق له مثيل) ، وعلى العكس كان عنصر الابتكار هذا ضعيفا نسبيا فى حالة الاتحاد الانجليزى — الايرلندى عام ١٨٠١ وفى ملكية هيسبرج بعد عام ١٨١٠ ، وفى الاتحاد النرويجى — السويدى بعد عام ١٨١٤ ، ولقد قضت جميع هذه الاتحادات فى النهاية .

التكيف كطريق نحو الاندماج :

على خلاف هذه النواحى الرئيسية لعملية الاندماج فان نظرية التكيف

التى كثر الجدل بشأنها (انظر ص ١٦٦ ــ ١٦٨) تبدو اقل اهمية ، و « التكيف » يعنى الاندماج الجزئى وطريقة عمله كالاتى : تقوم الحكومات المشتركة فى الاندماج بتسليم بعض المهام المحددة الى هيئة عامة ولكن هذه المهام ليست على درجة كبيرة من الاهمية ، ولذلك لا يترتب عليها عادة نقل سلطة كافية ذات غرض عام الى الهيئة الجديدة بحيث تتمكن « فى الواقع » من القيام بأى عمل يتطلب اندماجا شاملا ، وبالتالى فانها تكتفى فى معظم الاوقات بالاندماج الجائى ــ وفى بعض الاحيان أدى مثل هذا الاندماج الجائى الى الاندماج الشامل خطوة بخطوة ، وقد حدث هذا فى حالات كثيرة مثل الاتحاد الجمركى الالمانى فى القرن التاسع عشر ، الادارة المشتركة للاراضى الغربية بواسطة الولايات المتحدة بمقتضى حكام الاتحاد (١٧٨١ ــ ١٧٩١) والاقاليم السويسرية منذ اواخر القرن الرابع عشر واوائل القرن الخامس عشر ، وبين انجلترا وويلز وانجلترا واسكتلندا قبل الاندماج الشامل فى كل من الحالتين ٠

ومن ناحية أخرى تم توحيد ايطاليا دون أن يسبق ذلك اى اندماج جزئى جوهرى ، ولم يحل قيام الاندماج الجزئى دون حل الاتحاد النرويجى السويدى ، وبجانب هذا وبرغم أن فترة الاندماج الجزئى كانت سابقة على الاندماج الشامل فى حالة انجلترا وايرلندا ، والنمسا وبوهيميا والمجر ، فان هذه المجتمعات المندمجة فشلت فى النهاية ٠

واخيرا ليس للترتيبات الخاصة بالاندماج الجزئى فى حد ذاتها غير تأثير ضئيل على نجاح أو فشل الجهود الخاصة باقامة مجتمعات الأمن المندمجة ٠ وغالبا ما تتوقف النتيجة فى كل حالة على شروط وعمليات اخرى ، وخاصة على ما اذا كانت التجارب المصاحبة لهذه الترتيبات مجزية أو غير مجزية والى اى مدى ، وكل ما يمكن أن يقال عن الاندماج الجزئى انه يتجنب مخاطر الاندماج الشامل السابق لادانة ، ويمنح الحكومات المشتركة وصفوة وعامة الشعب وقتا أطول للالمام تدريجيا بالعادات والخبرات الخاصة باندماج اكثر شمولا واستقرارا ونفعا ٠

سياسات الاندماج : القادة والمشكلات :

للاندماج كعملية سياسية نقطة انطلاق عندما لا يعود مسألة انبياء قلائل أو بعض المؤيدين المنتشرين هنا وهناك ممن لا حول ولا قوة لهم ، بل عندما يتحول الى حركة كبيرة منسقة تساندها بعض القوى الرئيسية ، وقبل الانطلاق لا يعدو اى اقتراح خاص بالاندماج ان يكون مجرد نظرية ، أما بعده فانه يتحول الى قوة ٠

مثل هذه الحركات الوحدوية قد تهدف الى السلام وبالتالى الى اندماج على

اساس قبول التحول نحو السلام وادارة الصراع ، او قد تهدف بصفة اساسية الى القوة لغايات محددة او لتحقيق اغراض عامة ، وبالتالى فقد يتحقق الاندماج عن طريق الغزو او الاكراه ٠

والواقع كانت الحركات الوحدوية السياسية فى كثير من الاحيان عبارة عن ائتلافات واسعة اهتم بعض مؤيديها بالسلام الداخلى بينما كان كل ما طالب به البعض الآخر هو القوة الجماعية ، وطلب غيرهم السلام والقوة معا ٠

يجب ان تكون المسائل الاساسية الخاصة بالاندماج واضحة للجماعات الممثلة للمصالح ، وكذلك لعدد كبير من الناس حتى تصبح قاطعة ٠ ومن الحالات التاريخية التى تمت دراستها يتضح ان ذلك قد حدث دائما فى سياق عملية ذات ثلاثة اوجه لتحطيم العادات : الاول والأكثر اهمية انه يجب ان تظهر وسيلة جديدة وجذابة للحياة وما يصاحب ذلك من توقعات مشتركة لأشياء اكثر وافضل قادمة . وتجارب كافية عن التقدم الذى حدث أخيرا وذلك بالنسبة الى الماضى أو عن المستويات السائدة فى المناطق المجاورة حتى يمكن تصديق هذه التوقعات المشتركة واعطاء الشعوب والفئات السياسية المعنية بعض الاحساس بوحدة الرأى والمصلحة : ثانيا ، هذا الاحساس الكامن بالوحدة يجب ايقاظه عن طريق التحدى الخارجى . والواضح ان ذلك يتطلب استجابة جديدة مشتركة ٠ وثالثا : يجب أن يعتلى جيل جديد المسرح السياسى ويكون على استعداد لاعتبار النظرة المشتركة والمصلحة المشتركة أمرا مسلما به واعتبار هذه المصلحة بمثابة نقطة بداية لاعمال سياسية جديدة ٠

ان ثالث الاحداث المشار اليها وهو اعتلاء جيل جديد للمسرح السياسى أمر بعيد الاحتمال للغاية اذ يحدث مرة واحدة على وجه التقريب كل ١٥ سنة ، أما الحدث الثانى وهو تأثير بعض التحدى الخارجى فانه يبدو أمرا محتملا اذ من المحتمل ان يحدث عدد لا بأس به من التحديات السياسية والاقتصادية فى العالم المتغير كل ٢٠ ــ ٢٥ سنة على الأقل ، وفى كثير من الأحيان تطول المدة عن ذلك ٠ الحدث الأول بعيد الاحتمال ، وهو يتعلق بظهور طريقة جديدة للحياة وما يصاحب ذلك من احساس دفين بالوحدة والمصلحة المشتركة فى العمل على اتساعها والدفاع عنها ، وفى معظم انحاء العالم يحدث هذا مرة واحدة على الأكثر فى عدة أجيال ٠

ومتى وقعت هذه المجموعة من الاحداث البعيدة الاحتمال فان القيادة السياسية التى تتجه نحو الوحدة لا توفرها فى العادة طبقة اجتماعية واحدة محسب . ولكن يوفرها قطاع من الائتلاف ، وكنموذج فان هذا الائتلاف قد ربط بين الأعضاء والجماعات الهامشية او الغرباء جزئيا من بين طبقة الصفوة وبين بعض اقوى الجماعات واكثرها نشاطا التى بدات تمارس الضغط من اجل الحصول على نصيب اكبر من القوة السياسية ٠

منذ البداية كان الأمر يحتاج الى تسويات سياسية رئيسية لتتماسك هـذه الحركات الاندماجية والائتلافات الواسعة بين الطبقات التى يختلف اعضاؤها اختلافا واضحا من حيث النظرة والخلفية والمصالح ، ولكن من المحتمل ان تكون هذه التسويات من نوع خاص الغرض منها ليس انقضاء على آمال كل الاطراف باعطاء كل طرف القليل من الكثير المطلوب ، بل بالعكس تأييد كل طرف بالتسليم له بمعظم أو كل الطلبات الظاهرة امامه مقابل الحصول على تنازلاته فى المسائل الأخرى التى تقل حاجته اليها ولكنها تبدو اكثر ظهورا للشركاء الآخرين فى الائتلاف . وهذه التسويات تعنى « الدحرجة السياسية » ٠

بدلا من تبادل اثارة العقبات ٠ وبدلا من القضاء على آمال الشركاء بعضهم لبعض فان على الشركاء البحث عن طريقة لتبادل المصالح السياسية وتسخير المستويات الحقيقية الجوهرية لخدمة المصالح الخاصة لكل منهم ٠

ان العمل الخاص باكتشاف واقرار انماط لها مقومات النمو والحياة للتكيف السياسى المشترك ، يستغرق وقتا طويلا فى كثير من الاحيان ٠ وتبعا لذلك فان الكثير من الحركات الاندماجية كشفت عن ثلاث مراحل متتالية : أولا : هناك مرحلة قيادة المثقفين وخلالها تلقى الحركة التأييد بوجه خاص من جانب المثقفين (وليس من اغلبيتهم بالضرورة) مع مجموعات صغيرة محدودة نسبيا من الطبقات الأخرى ٠ تلى ذلك مرحلة « السياسيين الكبار » عندما تبدأ الجماعات الممثلة للمصالح تتحرك بنشاط خلف حركة الاندماج ويتم خلالها اجراء تسويات سياسية مجزية لاطراف المعنية ، وفى النهاية تلقى هذه المرحلة الاخيرة بظلالها على مرحلة الحركات الجماهيرية وسياسة الصفوة الواسعة النطاق عندما تصبح مسألة الوحدة موضوعا عمليا بصورة مركزة ، وحتى مع هذا فمن المحتمل ان تصاب الوحدة بالنكسات أو الفشل ٠

وكما جاء فى الدراسة التى قام بها ريتشارد ميريت عن توحيد المستعمرات الامريكية فان الحركات الاندماجية والتأييد الشعبى لها من المحتمل أن تشتد ثم تتدهور مرة أخرى ٠

الرغبات والوسائل :

يجب أن تتعلم الصفوة الممتازة فى كل شعب وكذلك الشعوب بصفة عامة كيف تربط بين كل او معظم اهتماماتها وامورها السياسية الهامة وبين مسألة الوحدة ، كما يجب عليها أن تنظر الى هذا الموضوع بوضوح باعتبار انه قرار مستقل وبسيط نسبيا ولا يشوبه عدد كبير من الاقتراحات البديلة والمتعارضة ٠

ومن اهم الرغبات والمصالح السياسية ذات الفاعلية التى يجب تسخيرها

لخدمة الاندماج ، ما يتعلق بمنح الافراد حقوقا وحريات جديدة أو اكبر من ذى قبل ٠ اما الرغبات الخاصة بمنحهم قدرا أكبر من المساواة سياسيا واجتماعيا و / او اقتصاديا فتحتمل المرتبة الثانية من حيث فاعليتها ، ثم تجيء فى المرتبة الثالثة الرغبة الخاصة بالاستمتاع بطريقة مجزية بالحياة ، تشمل فى كثير من الأحيان بعض الخبرات و / أو وعدا بتحقيق الرفاهية والرخاء المادى ، وعلى العكس من هذه الرغبات الفعالة فان الرغبات الخاصة بالحصول على قوة جماعية لذاتها أو للدفاع والمحافظة على بعض الامتيازات الخاصة التى تتمتع بها بعض الاقليات أو الجماعات او الطبقات فيبدو أن تأثيرها ضئيل أو لا تأثير لها على الاطلاق على نتيجة عملية الاندماج ، وقد دلت احدى الدراسات التاريخية على ان الرغبتين الاخيرتين قد حدثتا فى كثير من حالات فشل الاندماج كما فى حالات نجاحه ٠

ولتنشيط حركة الاندماج السياسى استخدمت كل الوسائل السياسية ولكنها لم تكن جميعها فعالة بدرجة متساوية ٠ ومن أكثر الوسائل فاعلية الى حد كبير الوسيلة الخاصة بالاستعانة بالمساهمة والتأييد الشعبى على أوسع نطاق ، ومن بين الحالات التى تمت دراستها فان كل حركة اندماجية فازت بهذا التأييد الشعبى ، كتب لها النجاح فى نهاية الأمر ، والوسيلة الثانية من حيث فاعليتها كانت تتمثل فى قبول التعدد Pluralism وبالتالى الاعتراف باستقلالها وسيادة الوحدات السياسية المشتركة فى الاندماج لفترات انتقالية جوهرية ٠ اما استخدام الدعاية على نطاق واسع فيحتل المرتبة الثانية من حيث الفاعلية وكذلك الوعد الخاص بالغاء بعض التشريعات غير المرغوب فيها وتدعيم الاستقلال السياسى والادارى للوحدات المشتركة فى الاندماج . على خلاف هذا لم يكن لبعض الوسائل المستخدمة الا تأثير ضئيل على قيام الاندماج أو لا تأثير لها على الاطلاق اذ انها استخدمت فى كثير من حالات الفشل مثلما استخدمت فى كثير من حالات النجاح ٠ وتشمل هذه الوسائل الفاشلة دفع النشاط فى بعض الهيئات السياسية واستعمال الشعارات وبسط الرعاية على بعض الأفراد المختارين بغرض الحاقهم بالمناصب الادارية والسياسية ٠ قد تكون كل هذه الوسائل ضرورية فى حد ذاتها ولكنها اسهمت فيما يبدو بقدر ضئيل أو لم تسهم على الاطلاق فى جعل نجاح الاندماج أكثر احتمالا .

ولقد اتضح أن هذه الوسائل الثلاث كان لها تأثير مضاد ، بمعنى انها كانت فى كثير من الأحيان أكثر ارتباطا بفشل الاندماج منها بنجاحه ، كما كانت تلح فى مرحلة مبكرة على الاندماج الشامل وعلى الجهود المبكرة لانشاء احتكار العنف وكذلك على الغزو العسكرى السافر ٠

وفى كثير من الاحيان جاءت المعارضة فى الاندماج أولا من جانب الفلاحين

والمزارعين والجماعات الريفية الأخرى ، وثانيا من جانب الجماعات أو الاقاليم التى كانت تتمتع ببعض الامتيازات وتخشى أن تفقده فى حالة الاندماج ، ويبدو انمعارضة الفلاحين لم يكن لها تأثيرجوهرى على نجاح أو فشل حركات الاندماج . ولكن تأييد الفلاحين الايجابى ــ ولو أنه نادر ــ كان دائما مرتبطا بنجاح الاندماج ، كما يبدو ان الطبقات الثرية لم يكن لها أى تأثير على نجاح أو فشل الاندماج سواء قامت بمعارضته أو تأييده ، الا ان هذه الطبقات كانت تحصل دائما على امتيازات لصالحها ، وفيما يتعلق بحركة الاندماج ، وفى كل حالة على حدة ، فان منح هذه الامتيازات للطبقات الثرية كان له فيما يبدو تأثير ضئيل ولكنه واضح فى صالح نجاح الاندماج ٠

وأخيرا حققت حركات الاندماج نجاحا فى كثير من الأحيان عن طريق مزيج من الانغلاق على نفسها والابداع ، وهى عادة تنجح بواسطة عزل كل الاقتراحات والبدائل المتنافسة بحيث يوجه فى النهاية كل الاهتمام والعمل السياسى نحو هدف اسمى واحد وسياسية وحدوية ، ولكنها فى كثير من الأحيان تنجح فى تحقيق ذلك وأيضا فى المحافظة على الائتلاف السياسى وتوسيع قاعدته فقط باستخدامها فى قوة الابداع وسعة الحيلة التى لجأ اليها انصار حركة الاندماج لابتكار ورسم *خطط معينة وانشاء مؤسسات معينة بهدف انجاح الوحدة وتحقيقها للنتيجة المرجوة .* ان عنصر الابتكار والتجديد كان يبدو فى كثير من الأحيان حاسما فكثير من المؤسسات المركزية الخاصة بالمجتمعات المندمجة بنجاح كانت الأولى من نوعها وكان قيامها بعيد الاحتمال نسبيا فى الزمان والمكان الذى قامت فيه ٠ وعلى العكس من ذلك فان عددا كبيرا من مجتمعات الأمن المندمجة قد انهارت بسبب السياسات ووجهات النظر الروتينية ، وكذلك بسبب القرارات الواضحة التى كانت كلها متحملة للغاية ولكنها لم تكن كافية فى الزمان والمكان التى اتخذت فيه ، وفى السياسة الخاصة بالاندماج ايضا فان النبوغ يتكون فى كثير من الأحيان من خلال اكتشاف حل بعيد الاحتمال ولكن وثيق الصلة بالموضوع ، أو من خلال اكتشاف عدد من الحلول من هذا النوع وتحويلها الى حقائق واقعية ٠

عملية انشاء مجتمع الأمن التعددى :

كما يحتاج مجتمع الأمن التعددى الى عدد أقل من الشروط الخاصة بالخلفية المناسبة واللازمة لنجاحه ، فانه يحتاج أيضا الى عمليات أبسط ولكنها قد تكون أكثر دقة لاخراج مثل هذا المجتمع الى حيز الوجود ٠

ان العملية الأساسية المطلوبة تبدو فى زيادة عدم الميل الى الحرب وزيادة عدم احتمال وقوعها بين الوحدات السياسية داخل مجتمعات الأمن التعددية الناشئة ، وهذا ما ادركته الحكومات لهذه الوحدات وفئاتها الثرية و (فى النهاية) شعوبها ٠ والعملية الثانية تشبه العملية التى تساند قيام مجتمعات الأمن المندمجة

وهى انتشار الحركات الثقافية والتقاليد الداعية الى الاندماج ، وكذلك اعـــداد الجو السياسى المناسب له ، والعملية الثالثة ربما تعنى تطوير وممارسة العادات والخبرات الخاصـــة بالاهتمام والاتصـــالات والتجارب المتبادلة حتى يمـــكن المحافظة على استقلال وسيادة الوحدات المشتركة وكذلك المحافظة على فـــرص السلام الدائم والتغيير السلمى بينها ٠

ليست المصاعب القائمة فى طريق هذه العمليات الثلاث قليلة الشأن عـــلى الاطلاق ، ولكنها أقل من المصاعب الموجودة فى طريق الاندماج الشـــامل يبين اية مجموعة من الدول المستقلة فى عالم اليوم تقريبا ٠

بعض المسائل المنبثقة عن الاندماج والسياسة العالمية :

من العرض السابق نخرج بثلاث مسائل فلسفية ذات طابع عام تنطق بشروط الاندماج ووسائل تحقيقه ٠

المسألة الأولى : تتعلق بالهدف الأساسى المطلوب تحقيقه ، وهل هو السلام داخل المنطقة ام هو نوع من القوة العامة ـــ ربما للدفاع ضد قوة خارجية ـــ ام ان الهدف يتمثل فى تحقيق بعض الاغراض المتنوعة الاخرى ؟ فـــاذا كان التركيز على السلام والقوة معا كهدفين فى الامد البعيد فأى منهما ننشده أولا وما هو الطريق الواجب اتباعه لبلوغ هذين الهدفين ٠

وتتعلق المسألة الثانية باحتمال سيطرة احدى الوحدات السياسية (اقـــوى وحدة مثلا) داخل مجتمع الأمن الناشىء على احد اعضاء هذا المجتمع من الذيـــن يتمتعون بنوع ما من السيادة ويرتبط بهذا موضوع اغلبية الأصوات ضد المفاوضات والتنازلات الخاصة ، ولو ان اغلبية الأصوات تبدو وكانها وسيلة لتحقيق المساواة ، وهى فعلا كذلك فى بعض الأحيان ، الا انه يمكن استخدامها ايضا لاقرار ســـيطرة احدى القوى الكبرى ، أو عدد من هذه القوى وذلك لمساعدة القوى الأقل شأنا والتى يمكن التأثير او السيطرة على أصواتها بسهولة ٠

وترتبط المسألة الثالثة بالثانية وهى كالآتى : ـــ هل يمكن تكوين المنظمات الكبرى على أحسن وجه بالتقليل من شأن العناصر المكونة بحيث يمكن الســـيطرة عليها بسهولة أو استبدالها بغيرها ، وعلى وجه التحديد هل تنشأ النظم الفيدرالية عن طريق اضعاف سلطة الدول الأعضاء ، وهل تقوم مؤسسات الدولة عن طريـــق اضعاف سلطة الدول المشتركة فيها ؟

وبالنسبة الى المستقبل القريب يمكن توضيح بعض الاجابات المبدئية على هذه التساؤلات . أن الاحتفاظ بسلام مضطرب ولكنه محتمل . يبدو أكثر أهمية

لمعظم الحكومات من انشاء مؤسسات دولية تتمتع بسلطات واسعة نوعا ما لتحقيق أهداف عامة ، كذلك تبدو السيادة مع بعض القيود الطفيفة أكثر جاذبية لمعظم الحكومات من الخضوع لسيطرة أى من القوى العظمى أو أى ائتلاف جزئى بين القوى العظمى • ان زيادة قدرات ونفوذ الوحدات المندمجة يبدو أمرا عمليا ومرغوبا فيه ادرجة أكبر ، من جانب حكومات وشعوب هذه الوحدات •

والنتيجة يمكن ان تكون عبارة عن نموذج يشبه هرما من الشركات القابضة • فأى قوة لها موارد كبيرة ولكنها محدودة يمكن أن تؤدى دورا فى غاية الأهمية من الناحية العملية فيما يتعلق بالقرارات التى تتخذها مجموعة صغيرة من الدول وهذه المجموعة ودعنا نطلق عليها التحالف (أ) يمكن أن يكون لها نفوذ قوى داخل تحالف أكبر ، ودعنا نطلق عليه التحالف (ب) والتحالف (ب) يمكن أن يستخدم للسيطرة على التحالف (ج) وهكذا حتى يتمكن أى تحالف فى النهاية من السيطرة الكاملة على الأمم المتحدة بصفة رسمية ، وكذلك السيطرة الفعلية على معظم دول العالم . لم يحدث شىء من هذا على الاطلاق ، ولكن احتمال حدوثه قائم • ان المقاومة التقليدية من جانب كثير من الدول لموضوع أغلبية الأصوات المتبع فى الهيئات الدولية وشبه الدولية ، وتفضيلها للمفاوضات بين الأطراف المعنية والتجارب بين الوحدات المستقلة ، كل ذلك يمكن ان ينسب الى هذه الاعتبارات •

ان عهد التعدد ، وعلى احسن الفروض ، عهد مجتمعات الأمن التعددية سيكون طابع المستقبل القريب ، لكن من المحتمل فى المدى الطويل ان يستمر البحث عن مجتمعات سياسية مندمجة تجمع بين السلام والقوة . وهذا بدوره يتطلب قدرا اكبر من الاندماج حتى يتحقق النجاح المنشود ، ان الادارة الحسنة والجهود المتواصلة لا تكفى فى حد ذاتها لتحقيق هذا النجاح ، ولكن لا بد ان يكون هناك ايضا التميز والابتكار فى المجال السياسى ، مع ثقافة سياسية تهدف الى مزيد من الانفتاح والتفاهم والتعاطف الدولى •

بدون مثل هذا الجو السياسى الجديد وهذه الجهود السياسية الجديدة فليس من المحتمل ان تحيا البشرية لزمن طويل • ولكن بما ان المشكلة والحاجة الى زيادة الجهد لمواجهتها اصبحت أمرا معروفا لعدد كبير من الناس فى كثير من الدول فمن المحتمل الاهتداء الى حل لها •

الفصل التاسع عشر

التكافل والتبعية والمساواة الزائدة ؟
فى اى اتجاه يسير العـــالم ؟

((العالم مستدير وكل)) كالقلب
فاذا شق نصفين فانه لابد أن يموت

أن هذه الاسطر التى كتبها جورج وولتر ، الشاعر التشيكى بعد الحـــرب العالمية الاولى تعكس مشـاعر كثيرمن الناس اليوم . وبعد الحرب العالمية الاولى نعكس مشاعر كثير من النـــاس اليوم . وبعـــد الحرب العالمية الثـــانية لخص ويندل ويلكى وهو مرشح سابق من الحزب الجمهورى للرئاسة فى الولايـــات المتحدة ما اعتبره دروسا من تلك الحرب وذلك فى كتاب عنوانه « عالم واحد » ، وأصدر وولتر ليبان مع كتاب آخرين كتـــابا بعنوان « عالم واحد اولا » ؛ وفى عـــام ١٩٤٧ وصف برنلرد باروخ ، وهـــو خبير اقتصـــادى أمريكى بـــارز ، الاختيار بين السيادة الوطنية والسيطرة التامة لوكالة عالميـــة واحدة فى ميدان الطاقة الذرية هو اختيار « بين المسرعين والموتى » .

وهناك اناس آخرون تصوروا أنهم يرون العكس . وهو ان الدول القومية والسلطة القومية ستظل واقعا هاما فى السياسة العالمية لاجيال كمـــا كانت لاجيـــال فى المـــاضى . وفى هذا الصـــدد يقول هانز مورجنتـــاو ، العـــالم الوقور أن القرن العشرين سيظل شبيها بالقرن التاسع عشر وأن فن الحـــــكم لكل من الكسندر هاملتون وكاميللو كونت كامور ، والامير أوتوفون بســـمارك ستظل دروسا واقعية للقراء حى نهاية القرن الحالى وربمـــا الى ما بعـــــد ذلك . وثمة مراقب آخر حسن الاطلاع تحـــدث عن وجـــود نقيض لذلـــك . فقد اعلن هنرى كيسنجر ، وزير الخارجية الامريكية امام الجمعيـــة العـــامة للامم المتحدة فى شهر سبتمبر من عـــام ١٩٧٦ أن « العـــالم قد تقلص وان دول العـــالم لم تزود قربا من بعضها البعض ، وأخذت موجة القومية تشتد فى نفس الوقت الذى لا يمكن فيه حل معظم المسائل الخطيرة التى تواجهها الا من طريق الاعتراف بتكافلنا . . » .

من هو الذى على حق ؟ هل دول العـــالم وبلدانها وشعوبهـــا تتحـــرك نحو ان تصير واحدة ، أم هى تاداد بعدا عن بعضها البعض ؟ ما هى الحقـــائق البارزة فى هذا القرن الذى نعيش فيه وخاصة فى العقود الاخيرة ؟ مـــا هى هذه الحقائق الآن والى اى جهة تشير ؟

تكون بلدان متكافلين اذا جرى تغيير فى بلد (أ) ، وليكــون هــذا التغيير ارتفاعا فى مستوى الاسعار ويعقبه تغيير محتمل فى البلد (ب) فى ارتفـــاع الاسعار . فاذا كان التغيير فى البلد (ب) لــه نفس الاثــر عــلى البــلد (أ) الذى للبلد (أ) على البلد (ب) فاننــا يمكن أن نصف تكافلهما بأنه متناسق .

أن التغييرات كثيرا ما تحــدث فــرقا فى المســائل التى يعمد النــاس الى تقييمها . وكما رأينــا فى الفصــل الرابع عشر أنه اذا جــرى تغيير فى البــلد (أ) يعتبر مفيــدا هناك واذا أعقبــه تغيير مفيــد فى البلد (ب) وانــه اذا كانت التغييرات السيئة بالنسبة للبلد (أ) قد أعقبتها تغييرات سيئة بالنسبة للبــلد (ب) والعكس بالعكس . عندئذ نستطيع التحدث عن تكافل ايجابى أو كما جــاء وصفه فى فصل سابق على انه تباين سلبى فى المنافع ، ونصف هــذا النوع بأنه تكافل سلبى . ان التكافل الايجابى القوى ، كما رأينا فى فصــل سابق يميــل الى تأييد التضامن . أما التكافل السلبى فانه يميــل الى تشــــجيع الصراع والتكافل الضعيف فانه ليس له اثر ذوبال فى أى من الاتجاهين .

هل التكافل بين بلدان العالم آخذ فى الميادة أو النقصان فى هــذا القرن ؟ اذا كان آخذ فى الازدياد فهل يتم ذلك فى اتجاه ايجابى أو اتجــاه سلبى ؟ ومــا الذى انتاب هذه العــلاقات المتنافسة وغير المتناسقة ؟

للرد على هــذه الاسئلة ، ينبغى تحليل الابعــاد المختلفة للتكافل ، ونظرا لان التكافل لــه اثر أقوى أو أضعف على مجرى الاحــداث فى الــدول المشتركة فيــه ، فاننــا قــد نفكر فى ابعــاده الرئيسية على أنهــا تشبه تلــك التى للسلطــة وللتكامل ، كمــا ورد فى الفصلين الثالث والخامس عشر .

المجــال والمــوارد :

ان مجــال وموارد التكافل ، على ما يبــدو ، قــد زادت . فبالنســبة **للمجــال** ، فانه ليس هنــاك منطقة على كوكبنــا غير مأهولة بالسكان الذين لا يشاركون فى بعض المعاملات وغالبــا مــا فى بعض الروابط البنائية مـــع أشخاص ومنظمات فى اقاليم أخرى .

ان **موارد** تكافل من هــذا القبيل تشمل النقل الجــوى والبحرى والبرى والتجارة والمــال والبريد من هــذا القبيل تشمل النقل الجوى والبحرى والبرى والتليفزيون والعمل والترويج والســفر وحركة تنقل الطلبــة والمـــدرسين

والعلماء وكذلك حركة الازيـاء فى الملابس والموسيقى وانماط الحيـاة . ان كل هـذه عمليات تتـدفق عبر الحـدود الوطنية وفى غالبية الحالات تـدعم روابط كيانية هـذه التيارات المتـدفقة مثـل الخطوط الجوية وخطوط الملاحة البحرية وخطوط السكة الحـديد والطرق والفنـادق والشاليهات وقنـوات الاتصـال والمنظمات وشركات التصـدير والاستيراد والبنوك وأسواق المـال والسلع والشركات المتعـددة الجنسيات والمنظمات الحكومية وغير الحكومية والـدولية . ان جميع هـذه الكيانات والعمليـات المتكافلة قـد نمت الى حـد كبير فى القرن الـذى نعيش فيـه ، ومن هنـا فان المرء خليق بأن يجـد نفسه مدفوعا للاستنتاج بأن تكافل العـالم قـد نما أيضـا .

ولكن اذا كانت موارد التكافل قـد زادت فقـد زاد كذلك سكان العالم والدخول والانشـطة ، وتعتمـد معظم هـذه على عمليـات **داخل** كل دولة قومية . وتعتبر السلع التى توردها بلـدان قليلة والتى يشتد عليها الطلب فى كل مكان ـ مثـل الزيت والقمح والمعادن المختلفة وخشب البنـاء والمنتجات الاستوائية والحاسبات الاليكترونية والطائرات النفاثة وغيرها من المنتجـات ذات التكنولوجيـا المخصصة العالية ـ كل هـذه السلع تعتبر أهـدافا للتجارة الخارجية وكذلك للصراعات الـدولية ، على أن انتشـار التكنولوجيا الحديثة قـد مكنت بلـدانا كثيرة لـكى تنتج محليـا بعض هـذه السلع أو بـدائل مقبولة لهـا . وفى الوقت نفسـه فان تعبيد طرق محليـة وبنـاء الموانىء والمـدارس والاسكان والمستشفيات والنظم الصحية قـد زادت كلها وبسرعة أكبر . وزادت مع ذلك الخـدمات العـامة والخاصة داخـل جميع البلـدان تقريبـا مثـل الحكومات والتعليم والصـحة والرعاية الشخصية والترويـج والتسلية ، ونتيجة لذلك هبطت **نسـبة** السـلع والخدمات التى تتعلق مباشرة بالمعاملات الدولية مقابل مجمل السلع الوطنية ، وذلك فى بلـدان كثيرة اذا قورنت بما كانت عليه فى عام ١٩١٣ أو عام ١٩٢٨ .

وقـد ينطبق شىء شبيه بذلك على العالم ككل . أن نسـبة التجـارة العالميـة للانتـاج الاجمالى الوطنى العالمى يقـدر بحوالى ١٩ فى المـائة فى عـام ١٩٦٩ . ولكن بحلول عـام ١٩٧٤ قفزت نسـبة التجارة العالمية الى الانتـاج الوطنى الاجمالى العالمى الى مسـتوى عـام ١٩١٣ وقـدره ١٣ فى المـائة ، وربما كان ذلك مرده من ناحيـة الى الزيـادة فى أسـعار البترول والقمح وسلع التجارة الـدولية . أمـا ما اذا كان ذلك يمثـل انحرافا قصير المـدى أو تغيرا طويل المـدى لهـذا الاتجـاه فهو أمر مازال يحتـاج الجواب عليـه الى وقت . وبالمثـل فقـد قـدر ان نسبة مدخرات العـالم التى يجرى استثمارها فى الخارج حوالى عـام ١٨٧١ كانت أكبر مما أصبحت عليه بعد مائة عـام .

ماذا يعنى هـذا فى مفهوم التكافل أو السلطة ؟ لقـد بين دانييل ليرنر ، عـالم الاجتماع الامريكى منـذ سنوات أن الفرنسيين الـذين يحصلون على اكثر من نصف دخولهم من معاملات دوليـة يحبـذون سياسة دولية ــ فى تلك الحالة تعنى التكافل الاوروبى ــ اكثر من أنشـطة محلية داخـل فرنسا ، اذا كان هـذا الاكتشاف يتخـذ دليـلا على علاقة عامة ، عندئذ يمكن أن يتيـح للاشخاص والموارد المستخدمين فى القطاع الدولى من اقتصاد دولة من الـدول قاعـدة رئيسية لتأييـد سياسى لسياسات موجهـة توجيها دوليـا ، بعكس السياسات الموجهـة توجيها محليا . واذا كانت الاشياء الاخرى متسـاوية فان زيادة نسـبية فى هـذا القطاع تميل الى تحبيـذ تكامل سياسى دولى ، فى حين ان هبوطا نسبيا خليق بان يجعل تحقيق تكامل من هـذا القبيل أكثر صعوبة . أن المشاعر تستغرق وقتـا للتكون والبقاء وان المشاعر المؤيدة للدولية لا يحتمل أن تبقى قوية بين النـاس الـذين تتضمن حياتهم اليومية أنشطـة دوليـة قليلـة .

وهنـاك أشياء ليست متكافئة بالضرورة . وحتى اذا كان القطـاع الدولى فى بلـد من البلدان ينكمش بالنسبة للقطـاع المحلى ، فان الشركات والمصالح الموجودة فيه قـد تكون أكثر تركيزا وافضـل ترابطـا وتنظيما للممارسة نفوذ سياسى . وبهـذه الطريقة ، يمكنهـا أن تعوض ــ ربمـا لجيل او جيلين ــ مـا تفقـده نتيجة لانكماش قاعـدة نفوذها الاقتصادية والشعبية وان تحتفظ بنفوذ كبير فى سياساتبلـدها الخارجية والمحلية . ولكن حتى هـذه الفرص محـدودة ، فاذا كانت اغلبية سكان بلـد من البلـدان واموالة يزداد استخدامها فى القطاع المحلى ، فان الاهتمام والاولويات الوطنية ستنحو ان عاجـلا أم آجـلا هـذا النحو . أن الزيادات الحقيقية فى أسعار الوقود والمواد الخـام يمكن أن تحقق توسعا نسبيا فى قطاعات التجارة الدولية فى البلـدان المتقدمة والبلدان الناميـة .

المـدى والمجـال :

بالنسـبة لاى بلـد من البلاد ــ ولتكن البلـد (أ) يمكن أن نصـف مدى اعتمادها على دولة اخرى (ب) بانه الفرق بين أكبر قيمة لمكاسبها وأسـوأ قيمـة لخسائرها ــ وربما تكون أعلى مستوى للمكسب أو الاعانة مقابل أسوأ خراب يمكن أن يصاب بـه البلـد (أ) نتيجة للانكماش أو الحصار أو الحرب بفضل معاملاتها مع (ب) . وهكـذا فان المعاملات الدولية بعد عـام ١٩٧٣ قـد عادت على السعودية والكويت (وبخاصة على حكامهما) بمبالغ هائلة من الاموال فى حين ان اعتماد بـلاد مثـل بوليفيا وزائير على أسواق ومصـادر تموينية خارجية قـد تركتهما فى حـالة فقر مـدقـع . وبالمثـل فان مـدى المكاسب والخسائر التى تولدها التغييرات التى تجرى فى (ب) فى (أ) تمثـل

مـــدى اعتماد (ب) على (أ) ان مجرى هـــذين المـــديين هـــو الذى يمثـــل **مـــدى التكافل** بين (أ) و (ب) .

وبالاضافة الى ذلك ، فان مـــدى جميع المكاسب والخسائر التى تستطيع (أ) أن تحصل عليها من معاملاتها مع جميع البلـــدان يمثـــل مـــدى اعتمادها على بقيـــة العالم وان مـــدى التغييرات يمكن أن تجريها الاحـــداث داخل (أ) فى بقيـــة العالم ، يمثـــل مـــدى اعتماد العالم على (أ) (الـــذى يمكن أن يكون كبيرا اذا كانت (أ) (بلـــدا كبيرا أو سيطرة ســـلعة نادرة بالغـــة الاهمية) وان مجرى هـــذين المـــديين يمثـــل التكافل بين العالم والبلد (أ) .

أن مـــدى التكافل الدولى قـــد زاد فى السنوات الاخيرة ، وأصبحت البلدان الآن تســـتطيع ان تهيىء منـــافع كبيرة لبلـــدان اخرى امـــا عن طريق عمـــل وطنى واحـــد من جـــانب بلـــد كبير واحـــد كما فعلت الولايات المتحدة فى المدة من عـــام ١٩٤٨ الى عـــام ١٩٥٢ فى معونتها لاوروبا لتعميرها اقتصـــاديا عن عن طريق مشروع مراشال أو عن طريق شحنات الحبـــوب الضخمة للهنـــد فى الستينات وأوائل السبعينات بمقتضى القانون العـــام رقم ٤٨٠ ، أو انهـــا تستطيع أن تهيىء منـــافع كبيرة عن طريق وكالات دولية مثـــل منظمة الصـــحة العالمية بواسطة مساهمتها فى القضاء على المـــلاريا فى كثـــير من البـــلدان . على أن الدول الآن تستطيع أيضـــا أن تسبب خرابا ذريعا لبعضها البعض . عن طريق الاسلحة ذات قوة التدمير الجماعى أو تلويث الهواء والبحـــار والانهار ولحسن الحظ أن المـــدى الكامل لهـــذه الآثار الدولية السلبية لم يتحول الى واقع ولكن الاحتمالات المظلمة موجودة وآخـــذه فى الازدياد .

ان **مجـــال** اعتماد بلـــد (أ) على آخر (ب) يتمثـــل فى **أنواع** الانشـــطة والمؤسسات فى (أ) التى يمكن أن تتـــأثر الى حـــد كبير بفعل التغييرات التى تجرى فى (ب) . وعليه فان مجموعة أنواع العمليات والكيانات الموجودة فى (ب) التى يحتمل أن تتغير تغيرا كبيرا وفقـــا للتغيرات فى (أ) تمثـــل مجال اعتماد (ب) على (أ) أن مجرى هـــذين المجالين يشكل مجال التكافل بين (أ) و (ب)

ومع نمو مجـــال الانشـــطة البشرية والاعمال الحكومية ، ازداد مجـــال التكافل الدولى . ان عـــالم عام ١٩٧٦ كان عالمـــا متكافلا بالنسبة لجميع السلع والخدمات والانشطة كما كان عـــالم عـــام ١٩١٣ ، واضيفت الى ذلك سلسلة كبيرة من الانشطة التكافلية الجـــديدة مثـــل الروابط المـــذياعية والتليفزيونية الدولية والتجارة الواسعة النطاق فى ســـلع جـــديدة مثـــل المضادات الحيوية والموز والمهدئات والفيتنامينات والطائرات الحربية واليورانيوم ، وكذلك التبادل الواسع النطاق فى الانواع الجديدة للمعلومات الخاصة بميادين جـــديدة للمعرفة

مثل الفيافاء النووية وعلوم الفضاء وبيولوجيا الجزيئات وعلم التبيؤ والتحكم فى النمو السكانى ، وكذلك اشكال الفنون البارزة الاخرى مثل الصور المتحركة (السينما) والفنون والموسيقى الشعبية وكثير غيرها . ان الانتشار السريع فى المعرفة العلمية وانماط الحياة المتغيرة عبر الحدود الوطنية على المدى الكبير يؤثر فى اتساع مجال التكامل الدولى .

المكاسب والتكاليف :

اذا كان التكامل كبيرا وايجابيا ويقدره المشاركون فيه فان من المحتمل أن يتحول الى تكامل . ان مكاسب كثيرة من التكامل معروفة جيدا ونشرت على نطاق واسع . والتكامل الاقتصادى فى سوق واحدة يتيح مكاسب من تخصيص أكبر فى تقسيم أوسع للعمل واستثمار افضل للفوائد المقارنة لكل اقليم او مجموعة سكانية . ويسمح التكامل السياسى بتعبئة أموال وأعمال أكثر لمشروعات اكبر . وتضمن التكامل الثقافى جماهير أكبر للفنانين واختيار أوسع للفنانين وأعمالهم للعامة . وفى كثير من حالات منسجمة من هذا القبيل ، يمكن أن يتوقع أن يكسب كل شخص والا يخسر أى شخص .

على أنه ليست جميع الحالات يتوافر فيها الانسجام ، حتى فى حالة التكامل بين سوقين ، فان المنتجين الاقل فعالية فى احداهما أو كلتيهما قد يضطر الى الخروج من ميدان العمل ويكون مصيرهما الافلاس ان المستخدمين فيهما والموردين وأصحاب الاراضى التى يؤجرونها والقرى والمدن والمحافظات التى يدفعون الضرائب اليها .. كل هؤلاء قد يخسرون بعض الدخول معهما ــ وربما الى الحد الذى يصابون عنده باضرار بالغة . وحتى لو كان مجموع هذه الخسائر من التكامل اقل من مجموع المكاسب الناجمة عنه ، فان هذه الخسائر تصيب عددا أكبر من الناس أو هؤلاء الذين هم فى وضع ضعيف لا يسمح لهم بتحملها . وهكذا فانه اذا كان الرابحون من التكامل افرادا أغنياء ومجموعات غنية نسبيا والخاسرون كثيرين وفقراء ، فان الاستثمار الهامشى فى مجمله للمبالغ التى فقدها كل خاسر قد تكون أكبر من استثمار المكاسب التى عادت على هؤلاء الذين حصلوا عليها . وحتى لو اننا قبلنا بمبدأ بعض الاقتصادين الذى تكون فيه الاستثمارات لمختلف الاشخاص غير قابلة للمقارنة وغير قابلة للتطبيق ــ حتى ان هؤلاء الاقتصاديين يرفضون القول ما اذا كانت منفعة اقتناء كلب مدلل من جانب شخص غنى اكبر من منفعة الدواء الذى يكون موضع حاجة ماسة لطفل مريض يعيش فى حى فقير وذلك بالنسبة لامه ــ انه مازال فى امكاننا ان نحصى عدد الاشخاص على كل جانب ، مع افتراض بدقة حدة شعورهم واحتمال قيامهم بالاعمال ، ونحن بصفتنا من دارسى السياسة يمكننا أن نسأل فى كل حالة داخل نظام سياسى بعينه ما اذا كانت المكاسب الهامشية للقلة القوية الغنية لها وزن

اقــل من الاحتياجات الملحـــة لكثير من الفقراء والضعفاء أو للكثيرين الــذين هم بين هؤلاء وهؤلاء .

ان الاجوبة على مثــل هــذه الاسئلة هى فى الغالب سائل حقـــائق وملاحظات أوليـــة . وقــد يمكن الناس ان يقــدموا أجوبة من هــذا القبيل لا فى شئون اقتصادية فحسب ، وانما فى السياسة والثقافة ايضـــا طلبات من تلــك الطلبات السياسية الى تكون أكثر نجاحا بعــد التكامل والتى يحتمل ان تكون الآن قـــادرة على المطالبة بموارد قــوى أكبر لــدعمها ، وطلبـــات من تلــك الطلبات التى تؤدى الى اضعاف فرص النجاح . وربما يكون ذلك رده الى أنها تصـــادف استجابة اقــل من جانب نظـــام متكامل اكبر ؟ امـــا بالنسبة للثقافة فـــأى الاشخاص والجماعات الــذين سيكسبون من التكامل بواســـطة فرص واختبارات موسعة وايهم هم الــذين سيخسرون حينما تكتسبهم منتجـــات ثقافة اجنبية ، وبواسطة اضـــعاف حاســـة الاعتماد الذاتى والنزاعة والاحترام الــذاتى عندهم ؟

وينبغى أن نستخلص من الردود الاوليـــة أو الاختيارية على جميع هــذه الاسئلة ثلاثة انواع من تقديرات منفعة التكلفة :

١ ــ لمجموع سكان جميع الوحــدات السياسية التى تــم أو ســـــيتم تكافلهـــا .

٢ ــ ولسكان كل وحــدة التى كانت أو تكون منفصلة وذات حكم ذاتى قبـــل التكامل .

٣ ــ ولجزء من السكان أو جماعات أو طبقات فى كل وحــدة من هـــــذه الوحـــــدات .

واذا كانت مصالح الشعب هى باعثهم الوحيــد والكافى للعمل ، واذا كانت هــذه المصالح تتحــدد ببساطة بقيمة مكاسبهم أو خسائرهم واكثر من ذلك فانه اذا كان الشعب قادرا على ملاحظة مصالحه الحقيقية بــدقة ، فان تقديرات منفعة التكلفة تنبئنـــا كثيرا عن الخصوم المحتملين لاى سياسة تكامل بعينها أو مشروع وعلينـــا أن نأخــذ بعين الاعتبار أنواعا كثيرا من المشاعر البشرية والمــذكرات والاضرار والتقاليد وبغض معظم النـــاس لاعبـــاء القرارات والفكر وشكهم فيما هـــو غير مألوف وحــكم العادات المريع لمـــلايين الناس وآثار التوافق والخوف وثورة الغضب ــ وصفوة القول ، جميع الظروف الكثيرة التى تؤثر على سلوك الناس لــكى يقدروا مـــا اذا كان مشروع تعينـــه للتكامل الاقتصادى سينجح او بفشل او ما اذا كان مجتمعا سياسيا متكاملا سيبقى كذلك أو مـــا هو الاتجاه الــذى سيوجهه نحو مـــا يجرى منـــه من تغيرات .

ثقـــل التكامل :

ان هـــذا شيء شـــبيه بنقل القوة . فهو تغير فى احتمال النتائج السياسية والاجتماعية والاقتصادية التى تنتج عن التكافل المتزايـــد نحـــو التكامل . وكلمـــا ازداد الفرق الذى يحدثه التكامل فى نتيجـــة الاحـــداث داخل منطقـــة متكاملة كلما ازداد **ثقله الداخلى** . وكذا فـــان وجود الولايات المتحـــدة ودستورهـــا وسياستها قـــد احدثت تغييرا فى علاقة الشمال والجنوب والســـود والبيض داخـــل البـــلاد . وهى توحى باحـــداث فرق كبير فى المستقبل . وبالمثـــل فان وجـــود مجتمع سياسى سويسرى متكامل قـــد أحـــدث تغييرا كبيرا فى العلاقات بين الجماعات ذات اللغـــات المختلفة فى ذلك البلـــد .

ولكن حقيقة أن وحـــدتين سياسيتين قـــد تكاملتـــا بعـــد أن كانتـــا منفصلتين قـــد تحـــدث ايضـــا فرقا عنـــد الشعوب والامم خارجهما . ويمكن أن نسمى هـــذا الفرق **بالثقل الخارجى للتكامل** . وهـــكذا فانه بحلول عـــام ١٦٠٨ حينما أصبحت كورنوول وويلز واسكتلندة الى حـــد كبير متكاملة مـــع بريطانيا العظمى . اضحت هـــذه المملكة المتحـــدة قوة رئيسية فى الشـــئون العالمية وغازية لكثير من أقاليم فيما وراء التحـــار على مـــدى القرون الثـــلاثة التـــالية .

وبعـــد أن حـــدث تغير فى علاقة متكافلة فان ثقلهـــا يمكن تقديره بالتغييرات التى اعقبت ذلك فى كل من البلـــدان المشتركة فيها - ولكن كيف نستطيع أن نقدر ثقـــل التكافل لبلـــد من البلـــدان قبل أن تتغير العلاقة ؟ اننا نستطيع ، كخطوة أولى ؛ أن نلاحظ النسبة الكميـــة البسيطة — الثقـــل الاحصائى — للانشطة التكافلية التى نحن بصددها فى اطار المجموعـــة كلها للانشطة المتعلقة بهـــا . مـــا هى النسبة التى تمثلها تجـــارة لبلـــد من البلـــدان بالمقارنة بمجمل أنشطته الاقتصادية . كمـــا يـــدل عليها الانتـــاج الوطنى الاجمالى ؟ كلمـــا كبرت تلك النسبة — كلما ازداد ثقـــل اعتماد بلد مـــن البـــلدان على التجارة الخارجية ، وكلما ازدادت نسبة تجارة ذلك البلـــد الخارجية الى مجمل التجارة الـــدولية للعالم — كلما ازداد اعتماد العالم على ذلك البلـــد .

وعلى العموم فانه كلما ازدادت نســـبة المعاملات بين أى جانبين (قـــد يكونان دولا أو مجموعات دول) الى مجمل انشطتها ، كلما ازداد ثقـــل تكافلهما الـــذى يمكن أن نتوقعه . وقـــد يمكن أن يكون هـــذا صحيحا حتى وان كان هـــذا الثقـــل يمكن أن يكون مختلفا بالنسبة لكـــل من هـــذين الشريكـــين — وغالبا مـــا يكون أخف وزنـــا للاكبر أو الاغنى واثقل للاصغر أو الاشد فقراء .

وقد يلاحظ ثقل هذا التكافل بوضوح حينما يتغير وخاصة يجرى خفض الروابط القائمة أو قطعها . تن وزن زيادة ثقل فى تكافل عن طريق اضافة علاقة تكافل جديدة قد يكون أصغر من وزن ، وبمعنى آخر آثار — عرقلة هذه العلاقة بعد انشائها ، أن الزيادة التدريجية فى واردات الولايات المتحدة من الزيت لا يبدو أن له أى أثار كبيرة . ولكن توقفها الجزئى والفجائى نتيجة للحظر الذى فرضه العرب على صادرات البترول فى اكتوبر عن عام ١٩٧٣ وما ترتب على ذلك من زيادة قدرها خمسة اضعاف فى سعر الزيت ، كان لهما آثار هامة على التوقعات السياسية والاقتصادية والسلوكية فى الولايات المتحدة .

ولكن جميع هذه الاعتبارات ليست الا مرحلة أولى فى تحليلنا . ولكى نذهب ابعد من ذلك ، علينا الا نسأل فقط عن حجم المعاملات التى تشكل التكافل بين طرفين دوليين . ولكن ينبغى لنا أن نسأل عن أهميتها النسبية لعمل ، وربما لبقاء كل طرف منهما . وفى حالة دولتين قوميتين يجب أن نسأل عن حساسية كل بلد منهما ازاء اى نقص أو اعاقة لسباق التعامل المتبادل بينهما . ما هو مدى الحاجة الى السلع والخدمات التى تم الحصول عليها من البلد الشريك ؟ وكم هى سهولة الحصول على البدائل لها أو ايجاد مصادر امدادات وبأى تكاليف ؟ والا ما هى تكاليف القيام بالعمل بدونها بالنسبة للتعطيل أو الخسارة التى تترتب على ذلك ؟ أن مجمل جميع هذه التكاليف وحجم التغيرات اللازمة لمواجهتها هى التى يمكن أن تقيس حساسية كل نظام سياسى وكل اقتصاد وكل مجتمع وثقافة ، لاى خفض أو تعطل للعلاقات الخارجية .

وليس ثمة شك فى أن هذه الحساسية تتباين حسب الكيان الاقتصادى والتكنولوجى والسياسى للدولة المعنية ، وكذلك حسب نمط المعاملات التى خفضت أو توقفت . ان البلدان التى تستخدم زيتا كثيرا مثل فرنسا وهولنده ، قد تكون أكثر حساسية لندرتها المفاجئة أو حدوث ارتفاع فى أسعارها من البلدان التى تستخدم قليلا منه مثل تشاد والنيجر ونيبال والبلدان التى تنتج مواد غذائية قليلة لا تكاد تسد حاجة سكانها تكون حساسة لتوقفها أو ارتفاع اسعار امداداتها الغذائية . أن مثل هذه الحساسيات لا ينبغى ان تكون متنافسة فى أوائل عام ١٩٧٤ اثناء الحظر المفروض على البترول العربى ، نشرت مجلة « شارلى هبدو » كاريكاتيرا ساخرا : « الهولنديون يردون الضربة ... لا زهور أخرى للعرب ! ! » ومثلما يستطيع العرب أن يعيشوا بسهولة اكثر بدون الزهور اكثر مما يفعل الهولنديون بدون الزيت ، فان الولايات المتحدة ودول أوروبا الغربية تستطيع أن تعيش بدون الموز كما تستطيع بلدان اميكا الوسطى وغرب افريقيا

بـــدون كثير من المنتجـــات الصناعية وقطع الغيـــار التى تستوردها من هـــذه البلـــدان المتقدمة صناعيا . ان مثـــل هـــذه الفوارق يمكن أن تكون مصدرا من مصـادر التبعية فى السياسة الدولية .

صـــلابة التكامل :

يستطيع مجتمع سياسى متكامل ان يتحمل مؤثرات قاسية فى حين أن مجتمعا آخر قـــد ينهار تحت وطأتها أو حتى تحت مؤثرات أقل حـــدة منها . ان صلابة التكامل ، مثـــل صلابة التكامل ، يمكن قياسها او تقديرها بحـــدة التوترات التى يحتمل أن تقاومها فى ضـــوء التوترات المـــاضية التى اجتازتها . وهـــكذا تـــم انفصـــال النمسا والمجر فى عـــام ١٩١٨ تحت وطـــأة الحرب العالميـــة الاولى وكذلك فعلت باكستان فى عـــام ١٩٧٢ تحت وطـــأة التعبئة الاجتماعية الواسعة النطاق والاضطراب السياسى والصعوبات الاقتصادية ، وبالمقابل فأنه لـــم تقم حركات هـــامة نحو الانفصال السياسى الاختيارى فى أى منطقة فى المـــانيا بعـــد الحربين الاولى والثانية مع أن تكاملها السياسى يعـــود بـــدؤه الى عـــام ١٨٧١ بالرغم من الآلام والمعاناة الكثيرة التى فرضتها هاتان الحربان على البـــلاد . ان تكامل ايطاليـــا الذى بـــدأ فى عـــام ١٨٦٠ ، اثبت فى عـــام ١٩٤٥ أنـــه صلب بالرغم من مؤثرات الحرب العالمية الثانية .

حينما يكون الاستقلال غير متكافىء ؟

الامبرياليـــة والتبعيـــة

ولكن التكافل لا يؤدى الى التكامل .

ان كلمة « تكافل » توحى بوجود عملية ذات طريقتين :

ان التكافل بين الدول أو غيرها من الاطراف الدولية ، يفكرنا فى أن هـــذه العلاقة متبادلة — أن ما يحدث للطرف (أ) يحدث فرقا للطـــرف (ب) ولكـــن ما يحـــدث لـــ (ب) تحدث فرقا لـــ (أ) . على انه فيما عدا ذلك فان كلمـــة « تكافل » توحى بأنها تعنى أن هذين الاثرين ينبغى أن يكونا متساويين ولا ينبغى لن تكون هذه هى الحالة بالضرورة .

حينما يكون بلد كبير وبلد صغير متكافلين ، فان تغيرات صـــغيرة نســـبيا فى بلد كبير يمكن ان تحدث تغيرات كبيرة فى البلد الصغير . أن الولايات المتحدة وكنـــدا مرتبطان ارتباطا وثيقا بطرق كثيرة ، ولكن عـــدد ســـكان الولايـــات المتحدة يبلغ عشرة اضـــعاف سكان كنـــدا ودخلها اكـــثر بخمسة عشر ضعفا . وقد كتب كندى يقول « حينما تعطس الولايات المتحدة تصاب كندا بالتهـــاب

رئوى » . ومــع ذلك فان كنــدا متقدمة صناعيا وثقافيا وسياسيا مثل الولايات المتحدة ، واستطاعت بطرق كثيرة أن تنجح بالاحتفــاظ باستقلالهــا الــذاتى والتوجيه الذاتى لحياتهــا السياسية وسياستها الخارجية ، ونظام تعليمهــا الخاص ووسائل الاعلام فيها .

ان التكافل بين بلدان اخــرى كثيرة مثــل الولايات المتحدة وجواتيمــالا وفرنسا وساحل العاج وبريطانيا وغانا والاتحاد السوفيتى ومنغوليا أو الهنــد ونيبال ما زال بعيدا عن عدم التناسق . وكلما ازداد الشعب فى البــدد الفقيرة والضعيفة ميــلا الى الحديث عن الامبريالية و « التبعيــة » . ماذا تعنى هاتان الكلمتــان فى عالم اليوم ؟

الامبرياليــة : السيطرة بواسطة القيود القديمة والحديثة

هناك وسائل كثيرة لجعــل مصير بلد أو شعب يعتمد على أعمال حــكام بلد آخر ، ويبدو على مر التــاريخ انه تمت تجربة جميــع هــذه الوسائــل ، واقــدم هــذه الوسائل هى الغزو العسكرى المباشر ووضــع المهــزوم تحت الحكم والسيطرة السياسية المباشرة ــ « الامبريوم » ، كما كان الرومان القدماء يسمونه ــ للمنتصرين أن هــذا **« الامبريوم »** بواسطة القــوة الساقــرة التى اشتقت منها فيما بعد الامبراطوريتان الفرنسية والبريطانية دالــة بذلك عــلى مجال الحكم السياسى والعسكرى المتفوق الذى يكون عــادة مقرونا بتحصــيل الضرائب والجزية بواسطة حكومة مركزية عليا أو حاكم .

أن الامبراطورية القديمة قد أصبحت فى دمة المــاضى ، ولكن فى القــرن السادس عشر حصلت دول أوروبية عديدة على اساطيل من سفن شراعية يمكن أن تقوم برحلات بين القــارات مع قوات مزودة بالقدرات والمدفعيــة ، حتى انها كسبت ميزة حاسمة فى القــوة العســكرية على ممالك وشــعوب غــير أوروبية من الازتكس فى المكسيك الى الانكاس فى بير والزوارق جنوب افريقيــا والهندوس فى الهند والمسلمين فى الجزائر ومصر . وقد تحــولت غالبيــة هــذه المناطق الى مستعمرات داخل اطار امبراطورية هــــذه الدولة الاوروبيــــة أو تلك . واصبحت الشعوب المستعمرة رعــايا خــاضعين لحــكم واستغلال « البلد الام » الجديد وغالبا ما كان ذلك بمساعدة عدد صغير مستعمرين مــن أصل أوروبى أو من صفوة مختارة من المواطنــين من الرجاوات والســلاطين او رؤساء القبائل .

وبحلول عام ١٩١٣ ، وفى عشية الحرب العالمية الاولى ، تم تقسيم آسيا وافريقيــا بين هــذه الامبراطوريات مع استثناء قــلة منهــا هى الصــين واليابان وتايلاند واثيوبيا وليبيريا . وبحلول ذلك الوقت أيضا كانت الامبراطوريات

الغربيـــة فيمـــا وراء البحـــار ، تعادل الامبراطوريات البرية لروسيا القيصرية فى آسيا الوسطى وسيبريا والنمســـا ــ المجـــر فى أوروبا الوسطى وأوروبـــا الجنوبية الشرقية ، والامبرا طورية العثمانية فى الشرق الادنى ، وبدأت اليابان فى بناء امبراطورية لهـــا بغزو فرموزا (تايوان) وكوريا .

لقد كان لجميع هذه الامبراطوريات خصائص متشابهة ، فقد كان لكل منها عاصمة وحكومة مركزية فى المنطقة الاصلية للبلاد مع موارد اقتصادية وصناعية أكثر تقـــدما ومستويات أعلى للدخول والصحة والتعليم ، وتحيط بهـــا أقاليم ومستعمرات حيث كان مديرو الاعمال التنفيذيون من البـــلاد الاصـــلى يتمتعون بامتيـــازات كثيرة منهـــا ما يقرب من حـــدود الاحتكار ، وحيث يكون النـــاس أشد فقـــرا وأقل تعليما ، وينـــدر وجود المتعلمين بينهـــم مـــع محتـــويات أعلى فى المرض والوفاة . واستدامة لهـــذه الاوضـــاع والدفاع عنهـــا لجأت الحكومات والبيروقراطيـــات والقوات المسلحة والبوليس لكل امبراطورية الاحتفاظ بحالة عـــدم المســـاواة لاجيال وقرون ، ولجأت أحيانا الى العمل على تسوىء هذه الاوضاع . امـــا فى البـــلاد الاصلية ، فان الامبراطوريات كان كثير من النـــاس ينظرون اليهـــا كمصـــدر للرخـــاء والقوة ، ولكن الشـــعوب المســـتعمرة ، كانت تنظر اليهـــا كمصدر للحكم الاجنبى والاستغلال والاحباط .

ولقـــد ازدهـــرت الامبراطوريات الاستعمارية طـــوال نصف قـــرن من الزمان ، أى من حـــوالى عام ١٩٧٥ الى عـــام ١٩٢٥ ، وكانت كل منهـــا تحت اشراف ادارى وعسكرى مبـــاشر من قبل دولة صناعيـــة متقدمة وقبلت كأمـــر « طبيعى » وصحيح من جـــانب أغلبيـــة الـــرأى العـــام فى « البـــلد الام » . وسمى هذا الكفاح من أجل الحصول على امبراطورية من هـــذا القبيل والمحافظة عليها وتوسيع رقعتها لحساب دولة ينتمى اليهـــا صـــاحب هـــذا الكفاح « بالامبريالية » .

اصحاب الدعـــوة المحافظون

لقد كان الكفاح من أجـــل اقامة امبراطورية غالبا ما يعتـــبر فضـــيلة . وكانـــه ببساطة نزعة وطنية على مدى واســـع ، وغالبـــا ما يكون هـــذا الكفاح هـــو الـــذى يوجـــه السياسات الحقيقية للحكومـــة . وكان نظريون محافظـــون قد أوجدوا مبررات لهـــا مثـــل سير تشـــارلز ديلك وسيرجـــون روبرت سيلى فى بريطانيا ، وكان يمارسه زعماء محافظون مثـــل سنيـــامين دزرائيلى واللورد بيكونسفيلـــد فى بريطانيـــا ومواطنوه مثـــل اللورد روزيرى واللورد كرزون وسيسل رودس ، وفى فرنســـا من قبـــل رجـــال مثـــل جـــول فيرى ، وفى الولايات المتحدة من جـــانب قادة مثـــل الـــرئيس وليم ما كينـــلى

والسناتور البرت بيفيريدج والاميرال الفرد ثاير ماهان ، وغيرهم كثيرون — دون أن يدركوا جميعا كيف أنهم يخربون عالمهم بهذه الممارسة ، ولكنهم على العكس كانوا يصرون على أن السياسات الامبريالية لا غنى عنها اذا أريد للرأسمالية — وهى النظام الاقتصادى لمؤسسات خاصة كبيرة — أن يعيش ويبقى معه وجود دولتهم نفسها .

النقاد الليبراليون

على أن النظريين الليبراليين كانوا يخالفونهم فى هذا الرأى ، لقد كانوا يعترفون بأن الرأسمالية نظام جيد . ولكنهم كانوا ينكرون أن الامبريالية والحروب من أجل اقتناء مستعمرات أمور ضرورية لبقائه ، لقد كان الاعتقاد بأن الحروب والغزوات ستؤتى ثمارها فى القرن العشرين هو **الوهم الكبير** . هذا هو ما جاء على لسان سيرنورمان انجيل ، الكاتب البريطانى فى كتاب تحت نفس العنوان ، وهو « الوهم الكبير » . وفى كتاب آخر عنوان « **الامبريالية** » للكاتب البريطانى ج . أ . هويسون ، قال المؤلف أن الامبريالية عادت بالفائدة على جماعات خاصة قليلة ذات مصالح ، وبخاصة البنوك الكبيرة ودون السمسرة فى مدينة لندن ، ولكنها لم تكن ضرورية ، بل أنها كانت فى الواقع ضارة بكل شخص آخر .

وفى عام ١٩١٨ كتب جوزيف أ . شومبيتر عالم الاقتصاد النمساوى (الذى هاجر فيما بعد الى أمريكا) . يقول أن الرأسمالية مسالمة واقترح نظرية اجتماعية للرأسمالية . قال انه اذا كانت بلد من البلدان قد أصبح فيها ، لاى سبب تاريخى ، صفوة شبه حربية ذات عادات وقيم عسكرية ، فان هذه الصفوة لابد وأن تتصرف حسب هذه القيم والعادات بأى حجة تتخذها ذريعة لتصرفاتها . ويكون أمن كل منطقة حدودية يحتاج عندئذ غزو منطقة بعدها وتلك المنطقة بدورها لا يمكن ضمان أمنها الا بغزوات أخرى . وبالرغم من هذا الكلام عن الامن الوطنى والدفاع ، فان الامبريالية كانت كما عبر عنها شومبيتر « توسع عشرائى » — اى التصرف العشوائى لانماط سلوكية من جانب صفوة لم تتعلم غير هذه الانماط . وكثيرا ما تكون هذه الصفوة الشبه الحربية تضم ملاكا وضباطا ارستقرطيين قد ورثت عن ماض ما قبل الرأسمالية ، ولكنها قد أصبحت مزودة بصناعة حديثة وبأسلحة ذات قوة تدميرية اقوى وقال شومبيتر ، فى مثل هذه الحالات « تكون الامبريالية هى الرجعية » ، وهو يعتقد أن هذه الحالة بالنسبة لالمانيا الامبريالية واليابان الامبريالية اثناء الحرب العالمية الاولى . على أن طبقة اجتماعية قوية شبه حربية من هذا القبيل أو مجموعة كبيرة ذات مصالح يمكن ايضا أن تظهر الى حيز الوجود ربما بدافع من الحاجة الى مجتمع غير

شبه حربى بالضرورة لمقـاومة هجوم عسكرى من الخارج . ومهما كان اصـل صفوة عسـكرية أو جماعـة ذات مصـالح من هـذا القبيل ، فانه حينمـا تنشـأ من ممارستها سلطة قـوية على المجتمـع كلـه ، فانهـا ستميل الى الضـغط من اجل زيـادة فى التسلح والقواعـد والمنـاطق والسياسات التوسعية ونقـا للعادات السياسية والثقافية التى تعلمتها .

ان شـكوى الرئيس ايزنهاور فى خطاب الوداع الذى القـاه فى عـام ١٩٦١ عن قـوة « العقـدة الصناعية ــ العسـكرية » فى الولايات المتحـدة تشبه الى حد كبير خط تفكير شومبيتر . ومع ذلك فان قـوة الامبريالية فى اى بلد صـناعى مرهونـة بمدى وعمق جـذوره الاجتماعية والتاريخية . ومـن هنا ، فان شومبيتر توقع أن تتخلى بريطانيا والولايات المتحدة عن امبراطوريتهما وسياساتهما الامبريالية وسهولة نسبية مع استمرارها كدولتين رأسماليتين . ان هـذه التنبؤات فيما يبدو ، لـم تطرأ أى احداث أو تجارب من شـنهـا أن تكذبهـا .

النظريات المـاركسية عن الامبرياليـة

منذ العقـد الاول من هـذا القرن الذى نعيش فيه فصـاعدا اصـبحت الامبريالية بؤرة اهتمام الكتـاب المـاركسيين . ففى المـانيا قـال رودولف هيلفردنج أن العمل الاوتوماتيكى للمنافسـة الراسمالية يتيـح عـددا اقـل من الشركات الكبيرة وأكـثر انهماكا بالعمليـات المـالية من الانتـاج ، وأشد ميـلا الى استخدام سلطة الدولة القومية لدعم وتوسيع مجالات الامبراطورية الاقتصاديـة وامتيـازها الاحتكارى . وكتب هيلفردنج فى عـام ١٩٠٩ يقول أن قـدوم عصر « رأس المـال التمويلى » هـذا ، والامتيـاز الاحتـكارى ، سيؤدى الى قيام ايديولوجية تناسب كياناتها البيروقراطية المتزايدة : وسيكون أيديولوجيـة شبه بيولوجيـة من العنصرية والنزعة الحربية . وتنبذ هيلفودنج الشاب بقيام شىء يشبه النازية ، وبعـد ذلك بثـلاثين عاما فى الحرب العالميـة الثانية ، قتل هيلفردنج على يـد النازيين الذين تنبـأ بمجيئهم . ولـكن هـذا الكاتب ترك فى نظرته للمستقبل احتمالا يتسم بالتفاؤل وهـو : ان « اتفـاقا عاما » قد يوحد اخيرا جميع مشروعات العمل فى وحـدة واحدة . ثـم يحـكم ويستغل الاقتصاد العـالمى فى ظل السلم . وثمة رؤيـة مماثلـة ــ وهى أن امبراطورية العـالم واحتكارات الاعمال قـد تتحد نهائيـا فى عصر **مـاوراء الامبريالية** ــ وصاحب هـذه الرؤيـة هـو كارل كاوتسـكى ، المـاركسى الديموقراطى .

وثمة تحليل ماركسى اكرث تطرفا قدمتـه روزا لوكسبرج فى عـام ١٩١٢ ،

فقد قالت أن جميع المؤسسات الرأسمالية فى جملتها يمكن أن تكون مربحة فقط اذا كانت تستطيع أن تبيع انتاجها من السلع والخدمات مقابل اموال أكثر مما دفعت كأجور وايجارات وغيرها من التكاليف المتعلقة بانتاجها ومن هنا فانها استنتجت أن الرأسمالية ينبغى أن تكون حتما بحاجة الى ايجاد قوة شرائية فى السوق أكثر مما تستطيع هى نفسها أن تخلقها وأن اقتصادا رأسماليا خالصا لابد وأن يركن الى الركود أو يحطم نفسه فى ظروف الانكماش المتكررة . وعندها أن المخرج الوحيد للرأسمالية هو التغلغل المستمر وغزو البلدان والشعوب غير الرأسمالية . أن قيمة الارض وغيرها من الممتلكات فى المناطق الرخيصة التى لم تتحول الى الرأسمالية فى الوطن وفى المناطق المستعمرة قبل الرأسمالية فيما وراء البحار هى التى يمكن أن تقدم الاسواق والارباح التى تحتاجها الرأسمالية لكى تعيش . وانتهت الى القول بأن الامبريالية وخروجها ضرورة للرأسمالية وانها تختفى باختفاء الرأسمالية ولكن ليس قبل ذلك .

ويبدو أن الحرب العالمية الاولى تؤيد هذه النظرة القائمة . انه لم يكتب لاى حكومات البقاء اللهم سوى الحكومات الرأسمالية عند نشوبها . انها هى التى بداتها واحرقت نارها وهى ، على ما يبدو ، مستعدة لشن حروب أخرى فى المستقبل ، وفى عام ١٩١٦ كتب لينين فى منفاه فى سويسرا يقول ان الرأسمالية لا يمكن أن تعيش بدون ادارة سياسية مباشرة واحتلال عسكرى لمناطق مستعمرة وان الحروب فى ظل الرأسمالية مؤكدة وان السلام الدائم يعد ضربا من المستحيل ، ولكنه سمى كتابه « **الامبريالية : آخر** مراحل الرأسمالية » . وفى رأى لينين ان الرأسمالية سيحولون مزيدا من الاستثمارات للمستعمرات وخاصة فى شكل صناعة ثقيلة ، وهكذا فانها تجعلها أقوى مما كانت — وتدفع لطبقة « ارستقراطية من العمال » أجورا أعلى فى هذه « البلدان الام » حتى تكسب تأييدها للسياسات الامبريالية . ولكن على المدى الطويل فان لينين يعتقد بأن البلدان الاستعمارية نفسها سيصيبها « الوهن » وتتحول الى ملاعب للجولف وغيرها ويتحول عمالها الى رؤساء خدم ومنظمى لعبات رياضية ، ولذلك فان الثورات الاستعمارية وحركات الانفصال عن الامبراطوريات القديمة أمر حتمى ، تاركة المراكز الامبريالية القديمة فريسة للانكماش الاقتصادى والبطالة الجماعية . وفى الوقت نفسه ستؤدى حالات الانكماش والحروب المستمرة الى انتشار الآلام والمآسى بين العمال فى البلدان الام . وبذلك يضطر هؤلاء العمال الى اللجوء للثورة ، وتكون النتيجة أن الرأسمالية والامبريالية ، على حد قوله ، ستهلكان معا فى سلسلة من الثورات العالمية .

ان الماركسيين المتطرفين متفقون ببعض النواحى ، مع المحافظين ،

فكلا الجانبين يعتقدان بأن الراسمالية تحتاج الى توسع امبريالى ومستعمرات ولذلك فانهما تحتاج أيضا الى حروب حتى يكتب لهما البقاء . ولكن فى حين أن دزراتيلى وردس وغيرهما كانوا يعتقدون بأن الرأسمالية نظام طيب قابل للحياة ، وانه نتيجة لذلك يستحق ثمن الحروب ، فان ماركسيين ثوريين مثل لوكسمبرج ولينين يعتقدون بأن الراسمالية شىء سىء » وهش نسبيا وان التكاليف الخفية للحرب الحديثة تعتبر بالنسبة لهم سببا آخر للكفاح من اجل وضع حد لهذا النظام الاقتصادى .

أما الكتاب الليبراليون فانهم يختلفون مع الجانبين . ذلك انه لا هوبسون ولا انجلز أو شومبيتر يعتبرون الراسمالية فى ذاتها شىء سىء وهم متفقون جميعا على أن الرأسمالية ليست بحاجة الى امبراطوريات ومستعمرات أو حروب ، لكن هيلفردنج وكاوتسكى ، الكاتبين الليبراليين لم يستبعدا احتمال مستقبل راسمالى مسالم .

من ذا الذى على حق ؟

واليوم وبعد مرور أكثر من نصف قرن على جميع هذه التنبؤات المتضاربة ، فاننا لم نحصل بعد على جواب حاسم . لقد جاءت الحرب العالمية الثانية فى أعقاب الحرب العالمية الاولى وان جميع الحكومات التى بدأتها — وهى حكومات المانيا النازية وايطاليا الفاشية واليابان العسكرية — أكدت أن هدف الحرب الكبير هو غزو امبراطوريات ومستعمرات أكبر . ولكن خصومها من الدول الغربية وخاصة بريطانيا والولايات المتحدة لم تسع أى منهما الى الاستيلاء على مستعمرات جديدة ، ولقد تخلت بريطانيا عن امبراطوريتها كما فعلت كل من فرنسا وبلجيكا وهولندة واسبانيا والبرتغال . ومنحت الولايات المتحدة الاستقلال للفلبيين ومنحت اختيارا قانونيا للاستقلال الى بورتوريكو ، والى جانب ذلك أصبحت غالبية « البلدان الام » السابقة ، بعد أن فقدت مستعمراتها فى المدة من ١٩٥٠ الى ١٩٧٦ أكثر رخاء — وسكانها افضل تغذية واسكانا وتعليما — من ذى قبل . ولم يتأيد حتى الآن اعتقاد المحافظين والماركسيين الراديكاليين بأن الراسمالية بحاجة الى حكم مباشر على المستعمرات وان « الانكماش » الذى حدث فى المدة من عام ١٩٧٢ الى عام ١٩٧٦ لم يكن عميقا جدا لكى يغير هذا الحكم .

وثمة نبؤة تتسم بالتطرف — وهى أن الامبراطوريات الاستعمارية لن تعيش طويلا — قد أثبتت انها افضل من التنبؤات الاخرى ، ففى العقود بين ١٩١٣ والحاضر ، أصبحت معظم النظم الامبريالية والاستعمارية غير محتملة . ان الدول الامبريالية والدول المبريالية المستقبلية تفاتلت على المستعمرات التى

تحتلها أو تلك التى تحاول أحتلالهـــا وانتهى هـــــذا التقاتل الى ان اصـــابها الضعف . ان السكان فى البلدان الاصلية — وأغلبها فى مبـــدأ الامـــر هـــؤلاء الـــذين هـــم دون مســـتوى الطبقة المتوسطـــة وأخيرا بنسب متزايدة لجميع الطبـــقات — وجدوا أن المستعمرات بالنسبة للغالبية العظمى منهم لـــم تعـــد عليهم سوى بنفع ضئيل . كما جلبت عليهم ، من طريق الحروب المـــآسى والآلام ، وأصحوا نتيجـــة لذلك اقـــل ميلا للقتـــال لاجلها أو السماح لتجنيـــد أبنـــائهم للقتال من أجلها .

لقـــد أصبحت مستعمرات بريطانيا الامريكية مستقلة فى عـــــام ١٧٧٦ باستثناء كنـــدا . وفى القرن التاسع عشر حلت جمهوريات مستقلـــة محـــــل الامبراطورية الاسبانية فى أمريكا اللاتينية . وفى المـــدة بين عامى ١٨٩٠ و ١٩٢٠ أصبحت كل من كنـــدا واستراليا وايرلندة ونيوزيلندة مستقلة عـــن بريطانيا ، وفى كل من أوروبا الوسطى والشرق الادنى قامت دول على انقاض امبراطوريات النمسا — المجر وتركيـــا . وأخيرا تحولت غالبية المنـــاطق المستعمرة الســـابقة بعـــد الحرب العالمية الثانية الى دول ذات سيادة . ان عصر الامبريالية ، على ما يبدو . قد انتهى .

ولكن هل انتهى ؟ وكيف يمكن أن يحكم المرء على ذلك ؟

بالرغم مـــن اصرار لينين عـــلى أن الرأسمالية بحاجـــة الى ممارســـة حكم مباشر عـــلى البـــلدان المستعمرة لكى تستطيع حماية الاستثمارات هناك من « البلـــد الام » . فانه اعترف أيضا بوجود « البلـــدان النصف المستعمرة » . مثـــل الصين وايران وجمهوريات أمريكا اللاتينية . أن مثـــل هـــذه البـــلدان مستقلة قانونا ولكنها فى الحقيقة — حسب اعتقاده — كانت خاضعة لحـــكم دولة أو أكـــثر من الدول الاستعماريـــة بواســـطة اعتمادها عـــلى التجارة الخارجية والبنوك والتـــأمين والملاحـــة الاجنبية والتكنولوجيـــا الخارجيـــة والمهمـــات العسكرية والخبراء والمستشارين . وفى بلدان كهـــذه « تتولى طبقـــة عليـــا ومتوسطة من الملاك والتجار ورجال الصناعـــة وكبـــــار البيروقراطيين مـــن سكانها ؛ حمايـــة مصـــالح رأس المـــال — اى رأس المـــال الذى لهم وللاجانب — للابقاء عـــلى بلدانهم آمنه فى اطار سلسلة عالمية النطاق للنظام الاقتصادى والاجتماعى الامبريالى . ولكن لينين كان يعتقد بأن الصراعـــات ستنشب مـــن حين لآخـــر بين رأسماليين البلد الشـــبه المستعمر ؛ وهـــؤلاء الذين ينتمون الى الدولة الاصـــلية . أى الاستعمارية . وفى هـــذه الحالات ستنضم الحركة القوميـــة فى البـــلدان المستعمرة الى ثـــورات الفلاحين والعمـــال وهـــكذا تسهم فى انهيـــار النظام الامبريالى الذى كان لينين يتوقـــع حـــدوثه أو يرغب فى وقوعه .

ان النظـريات الحديثـة عن « التبعية » قـد استمرت من الخمسينات فصـاعدا تحمل بعض موضوعـات وكلمات الفكر اللينيني ولكن مع تعديلات هـامة .

التبعية : امبرياليـة بوسائل اخرى

تتناول هـذه النظريات من ناحية موضوعا قديما لقـلة مـن النظريين الاقتصاديين الذين ظهروا فى القرن التاسع عشر ، مثـل فردريك ، الالمـانى ، وهنرى كارى الامريكى . وهذه النظريات تقول ان التجارة الحرة قد تكون جيدة للبـلدان المتقـدمة صـناعيا ولكنها سيئة للبـلدان المتخلفة نسبيا . ما دامت الاخيرة بحاجة الى حماية « صناعاتهـا الناشئة » ، كما وصفها ليست ، مـن المنافسين الاجانب الاقوى . ان الافتقار الى مثـل هـذه الحمايـة يجعـل تخلف البلـدان الاقـل صناعية اسوأ ويحكم عليهـا بتخلف طويـل المـدى وفقر . ولكن ليست وكارى نقدا حجتهما فى النظريـة الاقتصـادية فى معظـم الكتب الدراسية وذلك فى زمنهما . ولقد سادت اذ ذاك النظرية « الكلاسيكية » التى تكون التجارة الحرة طبقا لهـا مفيدة لكل انسان لانهـا ستقود كل دولة منهـا الى التخصص فى تلك الانشطة التى يكون لها فيهـا ميزة مقـارنة ، مثل الانبذة للبرتغال والمنسوجات والآلات لانجلترا . ولكن الصناعات التى تخصصت انجلترا فيها فى ظل حرية التجارة كانت فى الواقع شاملة فى استخدام راس المـال الصناعى والمهارة وجعلها فى الوقت المناسب متاحـة بوفرة لفروع الصـناعة الاخرى ، وبذلك دعمت النمو الاقتصـادى فى جميع انحاء البـلاد .

ولكن تخصص البرتغـال ، وهـو انتـاج النبيـذ ، لـم يفعـل شيئا من ذلك القبيـل . فقـد بقيت معظم الصناعات البرتغالية متخلفة مع استثناءات قليـلة مثـل مصايد الاسماك وحفظ السردين ، وأصبحت البرتغـال ، مـع مرور الزمن ، من البـلدان الفقيرة فى أوروبـا الغربيـة . ويبـدو أن التجارة الحرة بين انجلترا وايرلنـدة كان لها آثار مماثلة : فقـد تخصصت بريطانيـا والبـلدان الستة فيما يعرف الآن بايرلندا الشمالية ، فى الصناعة فى حين تركت ايرلندا الجنوبية ـ ايرلندة اليوم ـ للتخصص فى الفقر .

عـلى ان معظم البـلدان الرئيسية فى القـارة الاوروبيـة والـولايات المتحـدة رفضت فى الممارسـة الاقتصادية نصـيحة نظرية التجـارة الحرة الكلاسيكية . فقـد استخدمت كل منهـا تعريفات وغيرها من الاجراءات لحماية صناعاتهـا ضد منافسة البـلدان الاكثر تقدما . وتطورت اقتصادياتها الصناعية تطورا أقوى من اقتصـاديات البـلدان التى استمرت فى التمسـك بالتجارة الحرة . أن بعض البـلدان اليوم تعلن رسميا مبـادىء لحـرية التجارة تماما

كما تفعل الولايات المتحدة وبريطانيا وهولندة وقليل غيرها ، ولكن جميع البلدان تقريبا تستخدم بالفعل اساليب كثيرة للتدخل والحماية ، المباشرة وغير المباشرة ، حتى تعدل انسياب التجارة الدولية فى مصلحة المجموعات الصناعية القوية النفوذ وغيرها . ولكن بعض الحكومات تحاول اكثر من غيرها . ومن تلك التى تحاول جهد طاقتها هى البلدان الاكبر والاغنى والاقوى وهى التى لها فرصة أكبر فى النجاح ، ولذلك فان الفجوة بين البلدان المتقدمة ومعظم البلدان المتخلفة ، على ما يبدو ، آخذة فى الاتساع .

لم هذا ؟ لقد التمس بعض الاقتصاديين الامريكيين اللاتينيين والعرب ردا على ذلك فى نظريتهم . وهى **التبعية** . وتقول هذه النظرية التى طورها نظريون أمثال اندريه جوندر فرانك وازفالدو صنكل وأنور عبد المالك وسمير امين ونخصها جوهان جالونونج . « ان فقر البلدان المتخلفد هو نتيجة للنظام الاقتصادى الدولى الراهن الذى عمد بعمليته الاتوماتيكية الى زيادة تخلف » الدول الاكثر فقرا فى العالم والابقاء عليها فقيرة وكأنها ما زالت مستعمرات . ويقول هؤلاء النظريون أن هذا النظام يساوى بحكم كيانه نظام الامبراطوريات الاستعمارية القديم . ويقولون أن هذا النظام بنتائجه ، هو الامبريالية وأن كان يعمل بواسطة وسائل أخرى .

المركز والمحيط

تقول النظرية ان عددا صغيرا من البلدان المتقدمة صناعيا تشكل **المركز** الاجتماعى والثقافى للعالم . وكل واحدة من هذه البلاد غنية وتتحكم فى تكنولوجيا متنوعة وتنتج انواعا كثيرة التنوع من السلع والخدمات وتتجر مع كثير من البلدان المختلفة فى جميع أنحاء العالم . وحيث أن مثل هذا البلد « المركز » لا يعتمد على بيع أى من السلع أو يوفرها ، ولا على التجارة مع أى بلد من البلدان ، فانه لا يمكن ارغامه بسهولة على أن يتقبل شروطا تجارية غير مناسبة ، ولكنه يخرج بموقف أفضل من غالبية المساومات الدولية . والى جانب ذلك فان كل بلد « مركز » باتجاره مع البلدان الاقل تقدما ، سيطور صناعاته ذات راس المال الضخم والمهارات العالية وتتوفر لديه رؤوس أموال وموهبة ادارية وتكنولوجيا متقدمة ومتنوعة وقوة عاملة على درجة عالية من المهارة ومجموعة كبيرة من المهندسين والعلماء والفنيين — وصفوة القول ، كل الظروف التى تكفل نموا صناعيا واقتصاديا .

ان البلدان الكثيرة الاقل تصنيعا فى العالم تقف ، حسب النظرية نفسها ، فى مركز مقابل ، فهى بالفعل تقع فى **محيط** النظام السياسى

والاقتصادى الدولى . ولما كانت فقيرة فى رأس المال والتكنولوجيا والعمال الصناعيين المهرة . والفنيين والعلماء والمديرين الاكفاء ، فانها تقتصر فقط على تصدير نوع أو أنواع قليلة من المنتجات الزراعية أو المعدنية ، وتتاجر فى الغالب مع بلد « شريك » واحد تعتمد عليه فى المبيعات والقروض والملاحة والشئون المصرفية والتأمين والمنتجات الصناعية والمهمات وقطع الغيار مع المعلومات العلمية والتكنولوجية والمعرفة والاشخاص ذوى المستوى الفنى والادارى الاعلى . ونظرا لانها ليست لديها سوى سلعة أو أنواع قليلة من السلع للبيع ، ومع وجود بلد رئيسى واحد تبيع لها منتجاتها والحصول على قروض منها ، فانها ستحصل على اسوأ المساومات أو الشروط وانه فى السوق « الحرة » تكون شروط التجارة لن تكون مناسبة لها أى انها ستقدم الكثير من سلعها البسيطة مقابل سلع قليلة نسبيا من السلع التقنية المعقدة وذلك من البلد الاكثر غنى . وبالاضافة الى ذلك ، فان أنشطتها الاقتصادية البسيطة ستنتج رأس مال صغيرا ومهارات وموارد قليلة لتطوير الصناعات الاخرى . ونتيجة لذلك ستظل البلدان « التابعة » الواقعة على محيط دائرة « المركز » فقيرة فى حين أن بلدان « المركز » ستزداد غنى .

المراكز تقابل التوابع

ان مقارنة مماثلة ، حسب هذه النظرية ، يمكن أن توجد فى الكيان الداخلى لكل من هذين النوعين من البلدان . فهناك داخل كل بلد منطقة « مركز » هى عادة العاصمة والمناطق التى توجد فيها معظم الصناعات المتقدمة ثم المحيط — التوابع — الذى يتألف فى الغالب من المناطق الريفية حيث توجد الانشطة الاقل تقنية والناس الاكثر فقرا والاقل مهارة . ولكن حيث أن البلدان « المركزية » بلدان غنية وتزداد غنى ، على حد أصحاب نظرية التبعية ، فان مناطق البلدان « المركزية » يمكن أن تقدم تنازلات الى المناطق والسكان المحيطين بها واقتسام جزء قليل من أموالها معهم . وبهذا تشترى موافقتهم السياسية أو تأييدهم .

وبناء على هذا الرأى فان الظروف المقابلة هى التى توجد فى كل بلد من البلدان التابعة . وهنا يرفض سكان منطقة « المركز » الوطنية ان يشاركوا المناطق التابعة أى جزء من ثروتها الضئيلة ولكنهم يعمدون الى تحويل انفسهم الى جيوب صغيرة تحاول أن تنحو نحو الغرب وتنتج نفس نمط الحياة الغربية والارتقاء الى مستوى المعيشة فى الغرب مع مستوى استهلاك المواد واقتناء السيارات واجهزة التكييف والثلاجات فى حين ان سكان المناطق التابعة يسكنون فى أكراخ من القش والطمى . وتكون النتيجة ،

حسب هـــذه النظرية ، انقسام اجتماعى اعمق فى البلـــدان التابعة ، المتخلفة منـــه فى البلـــدان المركزيه المتقدمة . وهـــذا يثير فى البلـــدان الاولى صراعات اجتماعية عنيفة ومريره وأعمـــال شغب وقيـــام رجـــال عصابات وارهاب من اليمين واليســـار والحروب الاهليـــة والدكتاتوريات العسكرية المتعاقبة وثورات ان مثـل هـــذه الثورات نادرة كمـــا أن نجاحها نادر أيضـــا لان معظم النـــاس كمـــا تقول هـــذه النظرية ، الـــذين يعيشـون فى القطاعات الحضرية والصناعية فى كل بلـــد من البلـــدان التابعة يكافأون على مسايرتهم للوضع القـــائم فى وطنهم وللنظام الدولى للتبـــادل غير المتكافىء وشركاته المتعـــددة الجنسيات وامتيازاته السياسية والثقافية والاقتصادية ضـــد الاغلبية العظمى من شعوبهم أنفســـهم الـــذين يبقى معظمهم عاطلين على العمل ومبعثرين فى المنـــاطق الريفية والاحياء الفقيرة فى المـــدن الكبيرة فى البلـــدان التابعة .

ان الاموال والمواهب تســـتنزف حسب هـــذه النظرية استنزافا وذلـــك بالهروب من المنـــاطق التابعة ومن البلـــدان التابعة ككل . ومن هنـــا فان نظام الاستغلال والفوارق الدولى فى العالم يظل باقيـــا ومستديما ذاتيا دون أن تكون هنـــاك عملية موضوعية للتنمية الاقتصادية أو التاريخية تربية المنـــال لمساعدة هـــؤلاء الـــذين يمكنهم ان يغيروا هـــذا الوضع فى الكيـــان الاساسى لهـــذا النظـــام . ولا يمكن لاى شىء يستطيع اثـــارة نضـــال ثورى لوضع حـــد لهذا النظـــام « الامبريالى » وارغـــام الطبقات المتوسطة المحلية على الاختبـــار بين مواصلة تأييـــد حلفائهم الامبرياليين الاجانب أو التحول ضـــدهم والوقوف الى جـــانب مواطنيهم الفقراء ، سوى تحول فى الضمير والادارة بين جماهير السكان الفقراء فى البلـــدان التابعة .

ان التناقض لنظرية لينين قائم ولو أن كلتـــا المجموعتين من النظريـــين يستخدمون اسمه . ان التصنيع والنمو الاقتصادى ، طبقـــا للينين وأتبـــاعه ، عمليتان ضخمتان تمثلان قوى للتحرير . فهما يعملان على « زيادة اعـــداد العمال وانضباطهم وقدراتهم ووعيهم الاجتماعى . ويعتقد انـــه عن طريق الاتصـــالات المتزايدة مع العمال يمكن أن ينطبق ذلك أيضـــا على طبقة الفلاحين الاكثر فقرا الـــذين يمكن ان يصبحوا حلفاء لهم . والى جـــانب ذلك . فان الامبريالية ، كما رآهـــا ، ستأتى بالمـــال والصناعة ، بمـــا فى ذلك الصناعة الثقيلة الى البلدان المستعمرة والنصف المستعمرة . وانهـــا لابـــد ان تسعى للقيـــام بغزو عسكرى مبـــاشر ولبسط سيطرتها ونفوذها . ويرى ايضا ان هـــذا بـــدوره سيدفعها الى الصراع مع الطبقات المتوسطة من أبنـــاء البلـــدان النامية الـــذين يمكن أن يصبحوا خلفاء لهم . وبالاضافة الى ذلك يعتقد بأن الامبريالية ، كمـــا يراها ، ستأتى برؤوس الاموال والصناعة الى البلـــدان المستعمرة ونصف المستعمرة ، بمـــا فى ذلك الصناعة الثقيلة ، ويرى أنـــه يجب عليهـــا أن تســـعى للغزو

العسكرى المباشر والسيطرة . ويعتقد بأن هذا بدوره سيدفعها الى صراعات متجددة مع الطبقات الوسطى من سكان البلدان النامية . وسيتحد العمال فى النهاية مع الفلاحين الفقراء وتنضم اليهم من وقت لآخر هذه الطبقات المتوسطة لكى يشكلوا ائتلافا عريضا لمقاومة النظام المبريالى ثم تدميره .

ان « اليسار الجديد » الذى يستخدم كثيرا من هذه الاقوال ، يرى فرصة مختلفة تمام الاختلاف . فمعظم رؤوس الاموال سيبقى فى البلدان « المركز » وستبقى البلدان المتخلفة فقيرة ومتخلفة وتابعة من النواحى الاقتصادية والثقافية والسياسية ، وسيشعر عمالها بامتياز نسبى ويصبحون محافظين ، ولن يتطلع الى التغير سوى الجماعات الريفية والفقيرة والعاطلة عن العمل ولكنها قد تكون عاجزة عن تحقيق التغيير المنشود .

النظريات المتضاربة والبحث عن دليل

ان كلا هذين المتطورين يتفقان مع بعض عناصر الواقع ولكن لا يتفق اى منهما مع العناصر كلها . فى بعض البلدان غير الصناعية سابقا ــ اليابان وروسيا وفنلندة والسويد والنرويج والدنمرك وايسلندة واستراليا وبعض البلدان فى أوروبا الشرقية والبلقان ومناطق من الهند والصين والبرازيل ــ نمت الصناعة أثناء هذا القرن الذى يعيش فيه . ولقد ادت الثورات فى كل من روسيا والصين ويوغوسلافيا وكوبا وفيتنام والحروب الاهلية الى قيام حكومات شيوعية ، ولكن التصنيع الكامل فى كل من اليابان واسكندناوة قد أدى الى قيام بنكومات دستورية . وفى كثير من البلدان فى أمريكا اللاتينية وافريقيا وآسيا ظهرت حكومات عسكرية محلية قمعية راحت تدافع عن الانماط المحلية للتفاوت الاقتصادى المفرط والامتياز الاجتماعى مع بقائها خاضعة للدائنين الاجانب والشركات الاجنبية ــ كما تنبأ نوعا ما أصحاب نظرية التبعية . الى أى حد يمكن اثبات نظرية التبعية بالبيانات والمعلومات الملموسة ؟

ان اربعة بلدان متقدمة صناعيا ــ الولايات المتحدة وجمهورية المانيا الاتحادية وبريطانيا العظمى والاتحاد السوفيتى ــ ودولة أخرى تعتبر متوسطة المستوى من حيث التنمية وهى الارجنتين .. وهى كلها ذات مستوى أعلى فى الانتاج الوطنى الاجمالى للفرد واستهلاك الطاقة للفرد من سبع دول اقل تقدما ــ غانا والبرازيل واكوادور والصين والهند واندونيسيا وتانزانيا . والفرق نفسه وهو ٢ : ١ أو أكثر لصالح البلدان المتقدمة . وجد فى بعض معدل مستويات النمو الاقتصادى والمهن غير الزراعية والتعليم والمساهمات العلمية وتوزيع الصحف وعدد المستمعين للاذاعات ومعدل التغذية

وللبلـــدان المتقدمة فى صادراتها درجـــات منخفضة جـــدا من التركيز على ســـلع معينة او بلـــدان شريكة ى حين ان البلـــدان الاقـــل تقدما غالبا مـــا تبـــدى درجـــات أعلى من التركيز فى الناحيتين ــ كمـــا تتنبـــأ نظرية التبعية نوعـــا مـــا . واخيرا فان معـــدلات الوفيات بين الاطفال كمؤشر ــ للرخـــاء الشعبى أو البؤس ــ تبلـــغ فى البلـــدان الغنية الاربعـــة ثلث أو أقـــل من تلـــك التى فى ســـتة بلـــدان أفقر . أن كل هـــذه المعلومات تميل الى تأييـــد التأكيـــد بأن التفاوت المفرط ، أو الظلم بمعنى آخر ، ما زال يميز النظـــــام الـــدولى حتى بعـــد أن انتهى عصر الامبراطوريات الرسمية .

ولكن بعض المعلومات أقـــل حسما مما يمكن أن تؤكـــده نظرية التبعية . أن الارجنتين ، وان كانت تعتبر عـــادة من بلـــدان « العـــالم » لا تتناسب مع هـــذه المعلومات الاحصائية ، فهى على العموم غنيـــة جـــدا واستهلاكها من الطاقة عـــال جـــدا ونسبة التعليم فيهـــا عالية جـــدا وتكثر فيهـــا الصحف والاذاعات وهى جيدة التغذية وقليلة الاعتماد على التجارة الخارجية عمومـــا . او على أى بلـــد شريك آخر ــ ومع ذلك فان معـــدل الوفيات عنـــد الاطفال مريع جـــــدا .

وهنـــاك اشياء أخرى لا تتفق مع النظرية ، فالصين والهنـــد بلـــدان كبيران جـــدا ولديهـــا قطاعات صغيرة جـــدا من التجارة الخارجية اذا قورنت بالانتـــاج الوطنى الاجمالى « بحيث يصعب رؤية كيف أن هـــذه القطاعات يمكن أن تجعلهما تعتمدان اعتمادا فعليا على أى نظام امبريالى عالمى » . وبالاضافة الى ذلك فان مؤسسات الصين السياسية والاجتماعية ظلت زهـــاء ثلاثين عاما مختلفة اختلافا كبيرا عن تلك التى فى البلـــدان النامية الاخرى ، ومـــع ذلك فان مستويات شعبها بالنســـبة للتغـــذية فى البروتينات والسعرات الحرارية ولـــدخل الفرد والاستماع الى الاذاعات وتحصيل العـــلم ليست أفضل من تلك التى فى البلـــدان الاقل تقـــدما .

والواضـــح ان الكلمـــة الاخيرة فى هـــذا البحث لم تـــذكر بعـــد . ان المؤسسات الادارية والعسكرية الجـــديدة فى البـــلاد الاقل تقـــدما والموظفين هـــم من المواطنين لا من الاجانب . الايـــديولوجية الســـائدة الآن هى القومية لا الامبريالية ، وهنـــاك الآن طبقـــة متوسطة وطنية أكبر مع زيادة ملحوظة فى الصناعات المحلية . وهنـــاك ايضـــا عمال أكثر فى الصناعة والنقل ونقابات عمالية اكثر . وبالاضـــافة الى ذلك ، وسعت المـــدارس والجامعات الى حـــد كبير واصبحت الجماهير الطلابية مصـــدرا للقلاقل السياسية وكذلك المـــــدن الموسعة . وبالرغم من جهود الدكتاتوريين المحليين ومؤيديهم الاجانب ، فان الحالة السياسية والاجتماعية فى كثير من هـــذه البلـــدان تبـــدو اكثر تأرجحا

وأقــل استقرارا مما تفترض نظريات التبعية . وفوق ذلك كله ، هــو أن قدرات السكان المحليين قــد تغيرت ومازالت تتغير ، بمــا فى ذلك قدراتهم النامية على التحرر الكامل .

أن تحررا آخر لهــذه البلدان النامية قــد ينطوى على تغيرات سياسية كبيرة فى داخلها . وقــد ينتج عن هــذه التغييرات أسعار أعلى لصادراتها ومطالب أقسى من البلــدان المتقدمة وقــد تنجح بعض البــلدان الناميــة الى خفض تجارتها وروابطها المــالية مع البلــدان (المركز) ، وتعمــد بــدلا من ذلك الى زيــادة تعاونهــا وتبادلها مع البلــدان الناميــة « العــالم الثالث » أن المستوى الراهن للتكافل العالمى يمكن استعادته ثــم زيادته فيما بعــد على أســاس قــدر أكبر من المساواة وزيادة المعونة المتبادلة .

الفصل العشرون

بعض الآمال للمستقبل

قال بيرسى و • بريدجمان ، الفيزيائى والفيلسوف الحاصل على جائزة نوبل . ذات مرة ان « المستقبل برنامج » • ماذا يعنى بذلك ؟

ان كل تنبؤ علمى يقوم على اساس استقراء بعض احداث او ملاحظات سابقة . ونحن نستخلص تنبؤاتنا عن المستقبل بناء على سلسلة من أحداث وتجارب من الماضى • على ان هناك سلاسل كثيرة من هذا القبيل ، وقد تسير فى خطين متوازيين او تتباعدان وقد تتقاطعان لتحويل ما كان كبيرا الى شىء صـــغير نسبيا ما كان صغيرا فى الماضى الى شىء كبير فى المستقبل • اننا لا نريد أن نضع سلســـلة زمنية واحدة فى عزلة عن غيرها وانما الذى دصنعه هو **تكوين** العديد من أهم سلاسل المعلومات والبيانات والاحداث فى انماطها المختلفة من التفاعلات والنصب .

وكما يحاول أحد الاستراتيجيين أن يتنبأ بالمواقف المستقبلية لقـــدرات وامكانيات جيش على ضوء انتشار قواته ، فاننا نستطيع أن نحاول تقدير بعض الانماط المتوقعة لمستقبل سياسات العالم واحتياجاته وموارده وآماله وجهوده . انه فى اطار هذا تضاف اتجاهات العالم اليوم فى تكوينها المشترك الى برنامـــج يمكن ان يوحى الينا بشىء عن الشـــكل المحتمل للاشياء المتوقع حـــدوثها فى المستقبل •

اننا حتى فى هذه الحالة لا نستطيع التنبؤ عن المستقبل بصفة خاصـــة ، فهو يشمل احتمالات كثيرة ، منفردة أو مجتمعة ، ولكن مع اننا لا نستطيع التنبؤ بدقة او بثقة ، الا اننا نستطيع ان نضع بعض الخطط ونجرى استعدادات ونتيح موارد لمواجهة بعض الأخطار والفرص المتوقعة لفترة محددة من الوقت •

اربعة آفاق زمنية :

تتطلب معظم التغيرات الكبيرة فى السلوك الانسانى زمنا وجهـــدا • أن منظمات كبيرة وانظمة اجتماعية واقتصادية وسياسية تتصرف بشىء يشبه قـــوة الدفع : حينما تستقبل رسائل لتغيير خط سيرها فانها تحتاج الى وقت لقبولهـــا ووقت اكثر للاستجابة لها • ولذلك فان هناك فسحة من الوقت ، أو قوة دفع يمكن التنبؤ بسلوكها ولكن دون التحكم بها ، اننا نستطيع فقط ان نقول انها ســـتظل طوال تلك الفترة ان تسير على النحو الذى كانت تسير عليه فى الماضى • وفى اثناء هذه الفترة الزمنية ، لا يمكن توجيه النظام لسلوك اى سبيل جديد مع انه قد تكون

جهود توجيهية بذلت يمكن أن تكون لها آثار ملموسة في رحلة لاحقة • ولو اخـــذنا عام ١٩٧٧ كنقطة انطلاق فاننا نرى أن هذه الفترة قد سادتها قوة دفع التى لا يمكن توجيهها وانها قد تمتد الى فترة ١٩٨٠ ـــ ١٩٨٥ • وقد تصبح هذه أقرب أفق زمنى لتنبؤاتنا وهنا نستطيع أن نتنبأ ولكن لا نستطيع أن نتحكم ، وهذه هى المرحـــلة التى تقع فيها المآسى •

ولكن بعد هذه الفترة تبدأ مرحلة جديدة بعيدة بعدا كافيا تستطيع الحكومات أن تبذل خلاله جهودا واسعة النطاق لتغيير سير الأحداث وأن هـــذه الجهـــود ستستغرق وقتا طويلا لاحداث هذا التغيير الذى يكون قريبا قربا كافيا يمـــكن التنبؤ به • أن هذا هو الجزء من المستقبل الذى يمكن ، من حيث المبدأ ، الى حـــد كبير التنبؤ والتحكم به • انه ذلك الجزء من المستقبل الذى تكون لدينا فرصـــة أفضل لوضع سياسات طويلة المدى • ولأغراض هذا الفصل من الكتاب ، يـــكون الجزء من المستقبل هو الجزء الذى يمتد حتى عام ٢٠١٠ بعد الميلاد • هذا اذا لم تقع حرب كبرى هو الجزء من المستقبل أو الفترة التى لا تشهد فيه ، أولا أكثر حيـــاة هذا الجيل نشاطا وهوجيل الطلبة الجامعيين ، وثانيا أن وحدة التطورات المتناسقة المحتملة هى التى ستقع فى الفترة حتى عام ٢٠٥٠ ـــ هى الحياة النشطة لأطفـــال الطلبة الجامعيين اليوم •

وثمة مسائل قليلة ، بما فيها بعض المسائل الهامة ، يمكن التكهن بهـــا لمدة أطول قد تمتد حتى عام ٢١٠٠ بعد الميلاد • أو حتى تقاعد احفاد الجيل الحاضر من الطلبة الجامعيين • وطبقا لذلك نستطيع بواسطة سياسات عامة مناســـبة ، ان نمارس على الاقل قدرا معلوما من التحكم فى هذه النواحى من مستقبلنا ، ولـــكن جميع قدراتنا على التنبؤ بعد عام ٢١٠٠ تضمحل وتصبح نتائج قراراتنا السياسية اليوم يكتنفها الالتباس ، وهكذا فاننا لا نستطيع أن نتخذ واقعيا اية خطـــوات سياسية اليوم كفيلة بأن تبين لنا أية درجة كبيرة من التوجيه والارشاد ازاء مجرى الأحداث فى القرن الثانى والعشرين • ما الذى يحتمل أن يحدث بعد قرن وربع قرن من الآن هو أمر لا نستطيع الآن التنبؤ به او التحكم فيه •

ان آفاق زمننا هى السنوات حول اعوام ١٩٨٥ و ٢٠١٠ و ٢٠٥٠ و ٢١٠٠ على التوالى • أن الاتجاهات الأولى للتطور الذى نتطلع اليه هى اعداد الناس على كوكبنا وكميات الغذاء والطاقة والأموال التى سيحتاجونها لمعيشتهم •

الناس والغذاء والطاقة والمال

بحلول عام ١٩٧٦ ارتفع عدد سكان العالم الى اربعة مليارات ، أى بزيادة معدلها ٢ فى المائة كل سنة ، واذا استمر معدل هذه الزيادة على ما هو عليه ، فان

عدد سكان العالم سيتضاعف بعد حوالى ٢٥ عاما . أى اننا سنصبح حوالى ثمانية مليارات فى عام ٢٠١٠ أو بعده بقليل ٠

ان معدلات الولادة ومعدلات الوفاة بين هذين العاملين تحدد النمو السكانى ، ومع أن هذه المعدلات قد هبطت فى أوروبا والولايات المتحدة ، الا انها ما زالت عالية فى بلدان كثيرة فى أفريقيا وامريكا اللاتينية وآسيا ٠ والى جانب ذلك يحتمل أن تهبط معدلات الوفاة فى معظم هذه البلدان بفضل وسائل التقنية الطبية والصحية الحديثة التى يجرى اتباعها ، ولكن الانماط الأسرية وعادات التناسل عند مئات الملايين من القرويين فى العالم الثالث والطبقات الفقيرة فى المدن لا يحتمل ان تتغير ٠ ولهذه الاشياء يبدو واقعيا أن نتوقع استمرار معدل الزيادة وقدره ٢ فى المائة فى عدد السكان حتى عام ٢٠١٠ واننا يجب ان نبنى حساباتنا على أساس بلوغ عدد سكان العالم ثمانية مليارات بحلول ذلك العام تقريبا ٠

ولكن فى الفترة اللاحقة لذلك . ٢٠١٠ ــ ٢٠٥٠ . ينتظر حدوث انخفاض فى معدلات الولادة وهبوط معدل النمو السكانى الى حوالى واحد فى المائة وذلك لمدة اربعين عاما ، وبذلك يصبح عدد سكان العالم فى عام ٢٠٥٠ حوالى ١٢ مليار نسمة ٠

وبعد ذلك العام ، سيحدث هبوط آخر فى معدل الولادة وستبلغ معدلات النمو السكانى حوالى ٥ر فى المائة خلال المدة ٢٠٥١ ــ ٢١٠٠ ، ويصبح عدد سكان العالم حوالى ٤ر١٥ مليار نسمة أو اقل من ١٦ مليار حول هذا العام ٠ وبعد عام ٢١٠٠ سيصل معدل النمو السكانى الى الصفر او حوالى الصفر ــ إذا استطعنا ان نجرى تقديرا معقولا للاتجاهات بعد عام ٢١٠٠ ٠

ان اسباب المعدلات التى افترضت فى الفقرات السابقة لا يمكن ان تبحث باسهاب هنا ، فهى تتضمن نقطا مثل : بحلول عام ٢٠١٠ ان معظم الجنس البشرى بما فى ذلك معظم نساء العالم ، سيكونون من سكان المدن المتعلمين الذين لم يعودوا يمتهنون الزراعة ، وسيزداد متوسط أعمار الأطفال ، ففى كثير من البلاد اصبحت التدابير الخاصة بمكافحة المرض والعجز فى اطار العائلة ، ومع ازدياد الدوافع للتخطيط الاسرى وتحديد النسل ، سيزداد تنوع الوسائل لخدمة هذه الأغراض ٠ وقد تكون هناك اتجاهات محلية مضادة مؤقتة ، ولكن هذه المعركة الفاصلة التدريبية ضد النمو السكانى هى ؛ على ما يبدو الاتجاه الذى سيسير فى التطور العالمى ٠

اربعة مليارات نسمة اليوم وثمانية مليارات فى عام ٢٠١٠ واثنا عشر مليارا فى عام ٢٠٥٠ وحوالى ١٦ مليارا فى عام ٢١٠٠ ــ من اين يجىء الغذاء لجميع هؤلاء الناس ؟

منذ منتصف الخمسينات حتى منتصف السبعينات احتفظ معدل الانتـــــاج الغذائى المحلى تقريبا مع معدل النمو السكانى · واليوم ليس سكان العالم عموما أفضل أو أسوأ تغذية مما كانوا عليه فى الخمسينات ، وليس توزيع الغذاء أو المجاعة فى العالم غير متكافىء وظالم بصفة أفضل مما كان منذ عشرين عاما · ولكن أيـــن يمكن ايجاد ضعف كمية الغذاء لضعف الناس ؟

ان غالبية الأراضى الصالحة للزراعة هى أرض مزروعة · وجدير بالذكر ان الحبوب الرئيسية لا يمكن ان تأتى الا من زراعة مكثفة : اى ضمان محاصيل اكبر من أراض أضافية قليلة · وهذا يعنى « ثورة خضراء » عن طريق استخدام انواع وغيرة من المحاصيل مثل الذرة والقمح والارز التى استنبطت فى العقود الأخيرة · على أن هذه « الأنواع العظيمة » من النباتات الغذائية تحتاج بدورها الى مياه واسمدة أكثر للفدان · ان الرى الواسع النطاق بدوره يحتاج الى طاقة اكثر لبناء الســدود واقامة الخزانات وشق القنوات والحفر ثم حفرها من وقت لآخر ، وهــــذا يعنى الاحتياج الى طاقة أكثر لضخ المياه حيث تكون هناك حاجة اليها . وكذلك طــاقة اكثر لمصانع الأسمدة الكيماوية وأخيرا الطاقة لنقل وتوزيع الحبوب واقامة تسهيلات كافية لتخزينها · ومن المحتمل أن تصبح الحاجة الى مورد اكبر للطاقة من أجــل الزراعة شرطا لبقاء الملايين من الناس ·

ولكن ينتج الناس الطاقة ، ينبغى أن يستخدموا الاموال وسيحتاجون الى المزيد منها فى العقود الثلاثة القادمة لأن معظم المصادر السهلة للحصول عليهـــا . وهى الفحم والزيت والغاز الطبيعى قد وجدت واستغلت · واصبح الجـــانب الأكبر من الوقود المعدنى يأتى من طبقات اعمق فى الأرض أو من قاع البحر ، وهذا أمر يحتاج الى آلات احدث وابراجا للحفر وانابيب لانتاجهـــا وخطوط للانابيب ومعامل للغاز ومصانع أخرى ومحطات نووية لتوليد القوى · وما زال هناك بعض الطاقة التى يمكن الحصول عليها من لقوى المائية ، ولكن هذه تحتاج الى خزانات وتوربينات جديدة ، وهنا تكون التكاليف الاجمالية للميجاوات (وان كانت ليست تكاليف الوقود) أعلى فى محطات القوى النووية · ولا شك فى ان محطات القـــوى النووية بدروعها تحتاج الى اموال اكثر للوحدة الواحدة وأن التخلص الامن من منتجاتها الانشطارية يتطلب اموالا اضافية · ان المحطات النــــووية فى الوقت الحاضر وربما على مدى الخمس والثلاثين السنة القادمة وهى تستخدم أعـــلى معنويات طاقة من العمليات الانشطارية النووية ، قد تحتاج الى اموال اضافيـــة ، اذا اريد لها ان تصبح عملية فى تلك الفترة · واخيرا ، تأتى الطاقة الشمسية ، وهى واسعة ومنتشرة فوق مناطق شاسعة ، وتحتاج الى اموال اكثر لتوفيـــر المزايا والبطاريات وغيرها من الأجهزة لجمعها وتخزينها وتحويلها · وليس هناك اليـــوم امل حقيقى فى الحصول على طاقة اكثر بحلول عام ٢٠١٠ اللهم سوى تكاليف اعلى لوحدة القوى ·

ان تضاعف عدد السكان والحاجة الى ضعف كمية الغذاء والطاقة وازدياد الحاجة الى أموال اكثر لكل وحدة من وحدات الطاقة ـــ كل ذلك يضاف الى حاجة العالم الى أربعة اضعاف الأموال التى تستخدم اليوم ۰ وليست هذه هى القصة بأكملها ۰

التعبئة الاجتماعية لرجال ونساء العالم

ان الناس لا يزدادون عددا فحسب ، وانما يتغيرون فى خصائص وميـــزات هامة ۰ وهناك اشكال كثيرة من **التعبئة الاجتماعية** تجعل الناس على اســـتعداد لقبول انماط جديدة من السلوك ۰ ان معظم الناس اليوم أصبحوا معرضين لآثـــار الطائرات والسيارات والانوار الكهربائية وكثير غيرها من مواد التكنولوجيـــا الحديثة ، الأمر الذى يزيد من احساسهم بقوة وامكانات التغيير ، لقد تعلموا كيف يستخدمون الأموال ويتعاملون مع الغرباء ، واصبحوا جزءا من جمهور المستغلين لوسائل الأعلام الجماعية الحديثة مثل الراديو والسينما والتليفزيون والملصقات والصحف والكتب التى تبين لهم كيف يعيش غيرهم من الناس ويتصرفون وما هو الشىء الذى يفتقدونه انفسهم ۰ ان كل عقد من العقود يشهد تعرض حوالى ٢٠ فى المائة من الناس لهذه التأثيرات ۰ وبحلول عام ٢٠١٠ ســـيكون اكثر من ٩٠ فى المائة من البشر قد تأثر خيالهم بهذه العمليات ۰

ان التعبئـــة السريعـــة لخيالات الشعوب يصحبها أو تعقبهـــا تعبئـــة اساســـية أبطـــأ لخبراتهم وقدراتهم : لقـــد أصبـــح غالبيـــة البالغين فى العالم (هؤلاء الذين هـــم فوق الخامســـة عشر من العمر) متعلمين بحلـــول عـــام ١٩٥٥ ـــ وذلك لأول مـــرة منذ اختـــراع الكتابة ۰ وجديـــر بالذكـــر ان نسبة الذين يضافـــون الى قطـــاع المتعلمين كل عشرة أعـــوام تبلغ ٧ فى المائـــة ۰ وهكذا فانه بحلـــول عـــام ١٩٧٦ أصبح عـــدد المتعلمين حوالى ثلثى الســـكان ، وبحلول عـــام ٢٠١٠ سنصبح نســـبة المتعلمين فـــوق الخامســـة عشر من العمر حوالى ٨٥ أو ٩٠ فى المـــائة .

فى عـــام ١٩٧٦ لـــم يعـــد حوالى نصف ســـكان العالم يعملون فى الزراعة ۰ وهذا ايضـــا يحـــدث لأول مـــرة منذ عـــدة آلاف من السنين ۰ ان ٧ فى المائـــة من القـــوى العاملة العالميـــة تنتقـــل كل عشرة أعـــوام من المهن الزراعيـــة الى مهن غير زراعيـــة أو الى البطالـــة ۰ وبنهايـــة هذا القـــرن ستبلغ نســـبة البالغين ســـن العمل فى العالم الذين لا يعملون فى الزراعـــة اكثر من ٧٠ فى المائة ۰ اى آنهـــا تزيـــد عن الفلاحين الباقين فى العالم بنسبة ثلاثة الى واحـــد ۰

وبالمثـــل ايضـــا كان حوالى نصف الناس فى عـــام ١٩٧٦ فى العالم يعيشون فى المـــدن والبلدان ۰ وكان كثير من هؤلاء يعيشـــون فى مـــدن صغيرة التى لا يزيد

عدد سكان الواحدة منها عن ٢٠٫٠٠٠ نسمة ومع ذلك فان الغالبية العظمى من سكان المدن الصغيرة كانت الولى منذ أن شيدت البلدان الاولى منذ حوالى ٣٠٠٠٠ سنة قبل الميلاد • ويبلغ معدل الذين ينزحون الى البلدان فى كل عقد حوالى خمسة فى المائة • وبحلول عام ٢٠١٠ سيكون حوالى ثلثى البشر من سكان المدن فى العالم •

يقدر عدد العاملين من القوى العاملة فى العالم (من ١٥ سنة الى ٦٤ سنة) الذين يعملون فى الصناعة والنقل بحوالى الخمس ينضم اليهم ٤ فى المائة من فئة السن تلك كل عقد • بوحلول عام ٢٠١٠ سيصبح ثلث القوى العاملة العالمية تعمل فى الصناعة والنقل ؛ وبحلول عام ٢٠٥٠ سيشكلون أغلبية القوى العاملة فى العالم •

ان نصيب الموظفين بالأجر والمرتب ، بما فى ذلك العمال المكتبيون والخدمات ، اعلى من ذلك بكثير • لقد كان هؤلاء يمثلون حوالى ثلث قوى العالم فى عام ١٩٧٦ . ومن المحتمل أن يمثلوا الأغلبية بحلول عام ٢٠١٠ وسيمثل أصحاب العمل والفلاحون وغيرهم من أصحاب الأعمال فى المدن والريف الأغلبية على هذا الكوكب •

ان انماط الوف السنين فى جميع هذه النواحى وكثير غيرها آخذة فى الانهيار فى حياتنا • ويبدو ان بعض هذه التغييرات بطيئة اذا قيست بسنة أو سنتين ، ولكنها تبدو سريعة جدا اذا قيست بالعقود والاجيال . أن الانسانية يجرى تحولها بأسرع من ذى قبل فى كياناتها الاجتماعية والاقتصادية وأصبحت أكثر اطلاعا بفضل وسائل اتصالاتها الجماعية • أن التحول يشمل خبرات ملايين عديدة من الناس واحتياجاتهم المتزايدة للخدمات العامة والأمن الاقتصادى والرعاية الاجتماعية وهى تشمل كذلك الاحتياجات الداخلية للهوية الشخصية والانتماء الى مكان والى جماعةمن الناس ومن أجل توجيه واضح وبسيط فى عالم معقد لغاية وسريع التحول • وعندما لا تجرى مواجهة هذه الاحتياجات تلقائيا بالتقليد الاجتماعى ، فانها تتحول الى احتياجات سياسية — احتياجات غالبا ما تطغيها فى الغالب ، القومية والانحيازات الطبقية أو بواسطة تبسيط الايديولوجيات السياسية أو القادة • ان حصيلة كثير من هذه التغيرات هى اندفاع الناس نحو السياسة • وقد يطالب الناس احيانا بحق التصويت املا فى استخدامه ، وقد يرفضون ذلك احيانا اخرى ، بعد ان ييأسوآ من فائدته فى النظام السياسى الذى وجدوا انه غير متجاوب والذى شعروا بأنهم اصبحوا غرباء عنه ، ولكن بعد ان يكونوا قد عبثوا به اجتماعيا وخلفوا وراءهم العادات والعلاقات القديمة ، فانه اصبح لديهم الآن مطالب جديدة والتزامات جديدة وانشطة جديدة •

اننا نشــاهد الآن على مستوى العالم انهيــار « مذهــب الجبريــة » والخضــوع للحرمان والعــز والاضطهــاد • ان الجمود الجماعى القديم الــذى قامت عليه الامبراطوريات القديمة قــد ولى الى غير رجعــة • اننا نعيش اليــوم فى عصر من التســامح المنهــار ازاء الاحبــاط والحــكم الأجنبى والحـــكم من مكان بعيد ، أن هذا العصر هــو عصر التكاليف المتزايــدة للتدخــل الخارجى والفعاليــة المنهــارة •

تقليــل الفوارق : بواســطة النمو أو بواسطة الصراع :

ان العالم ككل مازال فقيرا وغير متكافىء ولكنــه الى حد ما مازال صعب المراس ، وانــه فى طريقــه ليصبح هكذا • أن كثيرا من العاملين فى البلدان الغنية والناس الفقــراء يتوقعــون يوما مــا أن يصبحوا هم وأطفالهم أحســن حظــا ، وهــذه الامــال لا يمكن تحقيقها الا بطريقين : امــا باعــادة توزيــع جزء من الدخل القومى ، يأخــذه من الطبقــات المتوســطة والعليــا واعطائــه للمواطنين الفقــراء ، او بالنمو الاقتصــادى • على أن اعــادة التوزيــع وحــده أمــر ليس عمليــا • ان هــؤلاء الذين هم الأفضـــل حــالا سيقاومون ما اســتطاعــوا الى ذلك ســبيلا ، حتى باســتخدام القــوة ، أى محاولة لانتزاع جــزء عــام مما فى حوزتهم ، وتــكون النتيجــة عنفــا وحربــا اهليــة ، وسيكون ثمنهـــا ان يصبح الجميــع فقــراء بما فيهم هؤلاء الذين يفتــرض أن يكــونوا قـــد افــادوا من ذلك فى البدايــة • انــه لا يمكن اجــراء تحســينات هامة فى وضع الفقــراء واحوالهم بدون اخضــاع الطبقــات المتوســطة والعليــا الى تضحيات يرفضــون تقديمهــا •

وهذا المبــدأ نفســه ينطبق على المستوى الدولى • ان تحســين احــوال معظم الناس فى بلدان العالم الفقيــرة يتطلب أمــا تحويــل جــزء كبير مــن المــال والدخل من جيرانهم الأغنيــاء — وهو أمــر سيحاربه الآخرون بــدلا مــن قبوله — أو أن يكــون هناك نمــو اقتصــادى مستمر ، حتى يتسنى الســماح لكل شخص لكســب بدون ان يخسر اى اخــذ آخــر • وطالمــا بقيت احتياجات الناس المدنيــة كبيرة وملحــة ، فان النمــو الاقتصــادى سيبقى شرطــا مسبقا للســلام بين الأمم وفى داخلهــا •

ما هو قــدر النمــو الاقتصــادى الذى يمكن ان يكــون ضروريــا للاحتفاظ بالســلام الدولى والمحلى الى ان يحــل عــام ٢٠١٠ ؟ • فى المــدة بين عامى ١٨٧٠ و ١٩٧٠ زاد معــدل دخــل الفرد فى كثير من البلدان بنسبة ٣ فى المائــة ســنويا وكان يتضاعف كل ٢٣ عاما بالرغــم من الدمــار الذى احدثتــه الحروب والثورات فى تلك الفتــرة • انــه حتى هذا المعــدل من النمو لــم يكن كافيــا

فى حد ذاتـه لضمان العلم ، ومع ذلك فاننا نتطلع الآن الى أصغر معدل للنمو الذى يمكن ان يتيح فرصة للسلم اذا كان مقرونا باجراءات أخرى لحفظ السلم · ولعل اصغر معدل سنوى لنمو المقبول سياسيا بالنسبة للفرد للبلدان الصناعية والمتقدمة ــ ولنذكر عنا انها تشكل الآن ٢٠ فى المائة من سكان العالم وتتمتع بـ ٨٠ فى المائة من الدخل العالمى ــ وهو ٥ر١ فى المائة مضاعفا دخل الفرد فى ٥٠ عاما · ان عذا سيسمح بزيادة نصيب دخل الفرد فى البلدان الأقل تقدما بمعدل أسرع ، بحيث يصل الى ٤ فى المائة سنويا ، الأمر الذى سيجعله يتضاعف كل ٥ر١٧ عام · ونظرا لأن البلدان الأقل تقدما تبلغ نسبة عدد سكانها حوالى ٨٠ فى المائة من سكان العالم ولكن نصيبها من الدخل العالمى الاجمالى لا يزيد عن ٢٠ فى المائة فقط ، وحتى عذا المعدل السريع للنمو سيضيف الى الدخل الاجمالى العالمى ٨ر فى المائة فقط سنويا · فى حين ان معدل النمو البطىء وقدره ٥ر١ فى المائة ، الذى ينطبق على نصيب البلدان المتقدمة وقدره ٨٠ فى المائة سيضيف ٢ر١ فى المائة فقط سنويا · وبذلك يصبح معدل النمو السنوى الاجمالى للفرد ٢ فى المائة ــ وهذا قريب من معدل الفترة بين عامى ١٩٥٠ و ١٩٧٥ ·

اننا لا نستطيع ان نتحدث باسهاب هنا ، ولكن حتى عذه الأرقام التقريبية والبيانية تشير الى انه ، بنمو مستمر معتدل لدخل الفرد فى البلدان المتقدمة ونمو معتدل السرعة فى المعدل المقابل بالبلدان الأقل تقدما فانه يمكن دعم معدل لنمو اقتصادى سهل للعالم · واذا أمكن الاحتفاظ بالنسبب الراهنة للنمو ، فان معدل دخل الفرد فى البلاد الأقل تقدما والبلاد المتقدمة قد يتساويان فى أقل من ٥٥ سنة ، أو بحلول عام ٢٠٣٠ أو عام ٢٠٣٥ مع حصول الفرد فى البلاد المتقدمة على ضعف الدخل الذى يحصل عليه اليوم · وثمانية اضعاف لدخل الفرد فى البلاد الأقل تقدما · ويزداد دخل الفرد فى العالم ثلاثة اضعاف عما هو اليوم ·

ويصبح دخل الفرد فى العالم خلال الفترة الأقصر (١٩٧٦ ــ ٢٠١١) ضعف دخله فى منتصف السبعينات مع ازدياد دخل الفرد فى البلاد الأقل تقدما أربعة اضعاف والرقم المقابل للبلاد المتقدمة لعام ١٩٧٧ قد زاد بنسبة حوالى ٧٠ فى المائة ، وستضيق الفجوة بنسبة ١٦ : ١ بين دخل الفرد فى البلاد المتقدمة ودخل الفرد فى البلاد الأقل تقدما الى اقل من ٧ : ١ وهذا تحول من شأنه المساعدة على الاحتفاظ بالثقة والسلام بين الأمم ·

ولكننا نرى الآن أن احتياجاتنا قد زادت ، فبالاضافة الى ازدياد عدد سكان العالم بمقدار الضعف بحلول عام ٢٠١١ مع ازدياد

احتياجاته من الغذاء والطاقة والمال ، وهو ما نناولنا بحثه فى فصل سابق ، ولذلك ينبغى لنا ان نضيف أثار مضاعفة معدل دخل الفرد ٠
ان هذه الاعتبارات مجتمعة تشير الى أن احتياجات العالم المالية بحلول عام ٢٠١١ قد تزيد ستة او ثمانية أضعاف عن مستوى احتياجاته فى منتصف السبعينات ٠ فاذا كانت هذه فى الحقيقة هى اتجاه ضخامة التطورات العالمية فى الخمس والثلاثين عاما القادمة ، فان سياسة هذا المستقبل القريب نسبيا قد تكون الى حد كبير سياسة تشكل راس المال والترشيد العام والخاص لاستثمار المال ٠

ضغوط اخرى نحو الصراع

ان التعبئة العامة كما رأينا ، تجعل الناس أقل تحملا للقدر والاحباطات والفوارق واكثر استعدادا لاثارة المطالب السياسية واتخاذ التدابير للالحاح فيها ، وفى الوقت نفسه ، يزداد عدد الناس الذين يتعلمون تشكيل المنظمات والتصرف بأسلوب منظم لدعم مصالحهم ٠

لقد كان المزارعون والعمال ورجال الأعمال فى الولايات المتحدة منذ قرن غير منظمين ٠ وكان معظمهم منهمكا فى شىء قريب مما يصفه علماء الاقتصاد « بالمنافسة التامة » ٠ ٠ كانوا يتنافسون فى السوق كأفراد ويقبلون أسعار المنتجات الزراعية والأجور ٠ وكانت مطالب السوق لابد من التكيف بموجبها لانها لم تكن قابلة للتغير حسب اعمالهم ٠ وبحلول السبعينات ، تغير معظم هذا ٠ واصبح المزارعون والعمال ومديرو الأعمال منظمين وكانوا يحاولون ، بطريق مباشر او بمساعدة الحكومة ، تحديد الأسعار والشروط التى ينبغى أن تباع بها سلعهم او خدماتهم ٠ وكانت كل مجموعة منظمة تحاول ان تتصرف وكأنها وحدة احتكارية واحدة وحدة محتكرة للنوع ٠ أى مجموعة بين عدد قليل من المتنافسين قادرة على اكتساب ميزة شبه احتكارية فى السوق ٠ وصفوة القول أن كل مجموعة كانت تحاول عرض سلع اقل فى السوق وفرض اسعار أعلى ٠

وهذا العمل يسير على ما يرام ما دامت هناك بعض المجموعات المنظمة ومجموعات غير منظمة ، ان المجموعات المنظمة ستحصل على اسعار او اجور اعلى مقابل سلع وخدمات أقل وان المجموعات غير المنظمة ستدفع أكثر وتحصل على اقل ٠

ولكن ما الذى يحدث حينما يكون كل شخص منظم ؟ فى هذه الحالة سيحاول كل شخص أن يفرض أسعارا أعلى ويعرض سلعا اقل . ونتيجة

لفرض اسعار أعلى وسلع أقل ، يفقد المال بعض قوته الشرائية ويصبح الناس يشكون من التضخم • ومع قيام كل شخص بمحاولة تحديد انتاج السلع والخدمات فى السوق ، ستكون هناك وظائف أقل وتناقص فرص الاستثمار الجيد لمدخرات الناس ، ويصبح الناس يتكلمون عن الانكماش أو الركود •

وفى هذه الحالة ، تشعر كل مجموعة برغبة فى أن تصف منظمات المجموعات الأخرى أو تنهار حتى يمكن استمرار الممارسات الاحتكارية الاحتكارية لمجموعة واحدة • وقد تحاول كل مجموعة ذات مصلحة زيادة نفوذها السياسى بين الناخبين داخل الحكومة ، وفى كثير من البلدان يجرى ذلك بمساعدة القوات المسلحة والبوليس • وليس ثمة شك فى أن نفوذ بعض المجماعات وقدرتها على المساومة فى أسلوب منظم قد يضعيف أو ينهار ، كما حدث لنقابات العمال فى أزمنة مختلفة فى كثير من البلدان ، وعندئذ يمكن ان توقع مجموعات أخرى ان تزداد رخاء على حسابها •

وقد يحدث شيء مماثل لذلك فى السوق العالمية • لقد كانت معظم المجموعات ومعظم البلدان فى الستينات من القرن الماضى غير منظمة فى بيعها وشرائها • وكانت المنافسة « السليمة » تعتبر أمرا عاديا • وكان جرى تبادل منتجات الصناعة والاعمال الامريكية والأوروبية غير المنظمة بمنتجات مزارعين وبلدان غير منظمة أيضا فيما وراء البحار • وبحلول العشرينات والثلاثينات من هذا القرن تعلم الناس فى معظم البلدان الصناعية كيف ينظمون انفسهم • ولقد أدى تحديد ساعات العمل اليومى بثمانى ساعات والحد الادنى القانونى للاجور والمساومات النقابية والضرائب الحكومية للرعاية الاجتماعية والانفاق العسكرى •• أدى كل ذلك الى زيادة السلع الصناعية فى حين بقيت اسعار الزيت والبن والموز وغيرها من منتجات العمال والفلاحين غير المنظمين فيما وراء البحار رخيصة •

وبحلول السبعينات من هذا القرن أخذت البلدان فيما وراء البحار تتعلم التنظيم وحذت حذوها أيضا المجموعات ذات المصالح فيها • وفى المدة بين عامى ١٩٧٠ و ١٩٧٦ ، تضاعفت اسعار القمح الامريكى وارتفعت اسعار السيارات أقل من ذلك نوعا ما ولكن اسعار الزيت زادت خمسة أضعاف • وهنا ايضا نجد اغراء لاستخدام النفوذ السياسى بل والقوة العسكرية لارغام « الآخرين » على التخلى عن بعض أو جميع قوة المساومة المنظمة عندهم • وقد لمحت الدول الكبرى التى تستورد البترول باحتمال اختيارها استخدام القوة العسكرية للمحافظة على عدم ارتفاع سعر الزيت • وقد اشترت بعض البلدان المصدرة للزيت أسلحة وبنت قواتها المسلحة ، الأمر الذى جعل استخدام القوة ضدها اقل جاذبية •

وكانت نتيجة ذلك ان ظهر ميل نحو اضفاء النزعة العسكرية على السياسات العالمية • ففى كثير من البلدان الواقعة فى جنوب آسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية ، قامت حكومات عسكرية وحصلت حكومات كثيرة غير غربية على أسلحة عادية كثيرة مثل الدبابات والمدافع والصواريخ القصيرة المدى والطائرات الحربية وأصبحت المدافع الرشاشة والقنابل اليدوية ومدافع الهاون وقاذفات اللهب بيد قوات العصابات ورجال البوليس فى كثير من البلدان • ان الفترة من عام ١٥٠٠ الى عام ١٩٥٠ حينما كان للبلدان الغربية — وفى الحقيقة اى بلد صناعى متقدم — وأى تفوق عسكرى حاسم على أى بلد أقل تقدما ••• قد أصبحت هذه الفترة فى ذمة الماضى • ففى الصين وكوريا والجزائر وفيتنام اثبتت المعارك الحربية الطويلة ان شعوب العالم اليوم تتقاتل فى ظروف متكافئة تقريبا • دون أن تكون هناك انتصارات رخيصة قريبة لأى طرف من الاطراف •

ولكن اليست الأسلحة النووية قادرة على استعادة تفوق الدول الكبرى القليلة ؟ ان الأمل ضعيف فى ذلك • اننا حتى هذا اليوم نجد الأسلحة النووية لدولة كبرى توازنها أسلحة نووية لدولة كبرى أخرى ، دون أن تكون هناك ميزات ظاهرة لدولة على أخرى ، وان الاتجاه نحو نشر التكنولوجيا النووية والأسلحة النووية ، وان كان مقيدا لفترة ما بفضل اتفاقيات دولية ، الا انه سيؤدى بالتالى الى تخفيف الميزات العسكرية التى مازالت تتمتع بها بعض الدول النووية ، وتصبح جميع الدول مكشوفة •

الانتشار النووى : مدى سرعته والى أى حد ؟

فى عام ١٩٤٥ كانت الولايات المتحدة الدولة الوحيدة التى تملك اسلحة نووية وفى أواخر عام ١٩٧٦ اعترفت سبعة دول بانها تملك اسلحة من هذا القبيل وهى — الولايات المتحدة وبريطانيا والاتحاد السوفيتى وفرنسا والصين والهند — ويسود الاعتقاد بأن اسرائيل وربما أحدى الدول العربية تمتلك بعض الرؤوس النووية • اذا كان الأمر كذلك ، فان عدد الدول التى تمتلك اسلحة نووية يتضاعف كل ١١ سنة ، أو انه تضاعف ثلاث مرات فى أقل من ٢٣ عاما • واذا استمر هذا المعدل ، فان عدد الدول التى تمتلك اسلحة نووية سيصل الى ١٥ أو ١٦ دولة حوالى عام ١٩٨٧ وحوالى ٣٠ دولة فى ٢٠١٠ واكثر من ١٠٠ دولة بحلول عام ٢٠٥٠ •

ان كثيرا من « الدول المرشحة » لامتلاك الأسلحة النووية معروفة جيدا — أى الدول التى تستطيع أن تمتلك اسلحة نووية اليوم اذا قررت حكوماتها ذلك ، ومن بين هذه الدول المانيا الغربية واليابان وكندا

واستراليا وايطاليا والسويد والبرازيـــل وباكستان وجنوب افريقيـــا وربمـــا تايـــوان ومصر وايـــران • وبحلول عـــام ٢٠١٠ • ان لـــم يكن قبـــل ذلك ، ســـتحذو دول أخـــرى مثـــل اندونيسيا والارجنتين والجزائـــر والعراق وغيرها حـــذوها • وهنـــاك دولتـــان لـــديهما اكبر عـــدد من الافواه لاطعامها وهمـــا الصين التى يبلـــغ عـــدد ســـكانها ٩٠٠ مليـــون نســـمة والهنـــد التى يبلـــغ عـــدد ســـكانها ٦٠٠ مليـــون نســـمة ــ وهما تملكـــان اســـلحة نوويـــة • ومن المتوقـــع ان تتسلـــح معظـــم بلدان العالم المهـــددة بالجـــوع بهذه الأسلحة وذلك فى حيـــاة طلبـــة اليـــوم ما لم تختزل هذه الحياة •

محادثـــة خياليـــة

دعنـــا نتصـــور محادثـــة خياليـــة تجـــرى فى عـــام ١٩٨٧ فى البيـــت الأبيض فى مناسبة زيـــارة رئيس وزراء ألهند ولنســـميه موهنداس ك • غانـــدى الثانى ، مع الرئيس المريكى فرنكلين موندال فورد •

يقول الضيف الهندى « سيدى الرئيس • • انك تعلم ان حكومتى قـــد بذلت كل ما فى وسعها لدعـــم الســـلام والصداقـــة بين البلدين • ولكن عـــدم هطول الامطـــار الموســـمية هذا العـــام يهـــدد بجعل عـــام ١٩٨٧ أســـوأ عـــام مجاعـــة فى تاريخنـــا ، لأن عـــدد ســـكان بلدنـــا قـــد زاد عن ٨٠٠ مليـــون نســـمة • وأننا يا ســـيدى الرئيس ســـنحتاج الى اغاثـــة غذائيـــة على مـــدى أوســـع من ذى قبـــل » •

ويجيب الرئيس بقوله : « ان احتياطى الحبـــوب عندنـــا محـــدود وأنـــا لســـت واثقـــا من الطريقـــة التى ســـيستجيب بها الكونجرس الى طلب ضخـــم من هذا القبيـــل •

ويقول رئيس الوزراء : « سيدى الرئيس ، أننـــــا اذا لم نحصـــل على معونـــة كافيـــة ، فان شـــعبنا ســـيموت جوعـــا وستسقط حكومتى وتختفى معهـــا سياستنا المعتدلـــة • وكما تعرفـــون أن أكثـــر الناس الذين سيخلفوننا فى الحكم هـــم زعمـــاء الحركـــة الثوريـــة المحافظـــة الذين يعبـــد انصارهـــا « كالى » وهى آلهـــة المـــوت الهندوســـية ويتطلعـــون الى الرقصة الناريـــة للآلهـــة شـــيقا التى ستدمر العالم توطئـــة للبعث • وهؤلاء لهم انصـــار بيـــن افـــراد قواتنـــا الصاروخيـــة والغواصـــات النوويـــة ولـــن يستطيع أحـــد فى الهنـــد أن يوقفهم اذا ســـقطت حكومتى • هـــل تســـتطيع يا ســـيدى لارئيس ان تجـــازف بســـقوط حكومتى ؟

اذا كان احــد منــا الشريك الامريكى فى محادثـــة من هذا القبيـــل بعـــد ١١ عاما من الآن ، فما هو ردنـــا على ذلك ــ ومـــا هى النتائـــج التى تترتب على هـــذا الـــرد ؟

ما هـــو ثمن الطيش ؟

اننـــا اكتفينا حتى الآن بتصـــور محادثة عقـــلانية بين دول عقلانيـــة ، ولكن منذ الثلاثينات ، كانت هناك ثلاث حكومات أو اكثـــر فى العالم من الحكومات غير العقلانيـــة • فى الثلاثينات وأوائـــل الأربعينـــات كانت هنـــاك حكومـــات من هذا القبيـــل فى المانيـــا ، هتلـــر وايطاليـــا ، موسولينى والحكومة العسكرية فى اليابان ، وقـــد جـــرت هـــذه الحكومـــات شـــعوبها الى الحرب ودمـــــرت نفســـها بذلك •

أن الحكومات الطائشـــة التى ظهرت فى أواخـــر السبعينات قـــد حكمت دولا أصغر ، ولكن حكومات العقيد القذافى فى ليبيـــا والجنـــرال عيدى أمين فى أوغنـــدة وايـــان ســـميث ، رئيس الوزراء فى روديســـيا اســـتطاعت ، على ما يبدو ان تدفـــع ببلادهـــا الى حافـــة الدمـــار الذاتى ، ولا يســـتطيع أحـــد ان يســـتبعد احتمـــال ان تتولى الســـلطة فى بلاد أخرى وســـنوات أخرى حكومات يائســـة • واذا اســـتمر بقـــاء حكومات غير عقلانيـــة وطائشـــة فى العالم مـــع ازديـــاد عـــدد البلاد التى تمتلك اســـلحة نوويـــة ومن المحتمل أن تحصل حكومة غير عقلانيـــة وطائشـــة على أســـلحة نوويـــة ، فان المرض النفسى والقـــوى يجتمعـــان معـــا ليدمرا الجنس البشرى •

تصـــادم النظـــم الاجتماعيـــة

أن زهـــاء ١٣٠ دولة فى العالـــم تمارس معظـــم انشـــطتها الاقتصـــادية والاجتماعيـــة فى ظـــل مؤسســـات من المشروعـــات والممتلكـــات الخاصـــة والمهمـــات والموارد الانتاجيـــة • ويجرى تعليـــم الاطفـــال فى هذه البلدان ان ينظـــروا الى هذه المؤسســـات على انهـــا مؤسســـات حـــرة ومعقولـــة وينظروا الى الملكيـــة الجماعيـــة والتخطيط الدولى الشمولى على انـــه غير كفء وغيـــر معقـــول وقهرى ولكن فى البلدان الشـــيوعية الســـت عشر التى تحكمهـــا نظـــم شـــيوعية وتضـــم حوالى ثلث الجنس البشرى ، يجرى تعليـــم الاطفـــال النقيض ، فهم يتعلمون ان الشمولية والشـــيوعية تدعـــو الى الحريـــة والخيـــر وأن الراسمالية تدعـــو الى الشر والقمـــع وتســـير نحو الانهيـــار • وتبـــدو الأفكـــار والممارســـات الغربيـــة لكثير منهم بانهـــا افكـــار مجنونـــة تمامـــا كمـــا تبدو افكارهم وممارســـاتهم مجنونـــة لكثير منـــا ، انـــه ليس ثمـــة

اتصـــال حقيقى ذو بـــال بين « الشرق » و « الغـــرب » ، أمـــا ما بقى من اتصال فانه مازال متأرجحـــا · ولذلك فان اى صـــدام خطير فى ظـــل هذه الظـــروف وأى ثـــورة او حـــرب اهليـــة فى بلـــد من بلدان « العالم الثالث » يمكن ان تتصاعد الى حرب ايديولوجيـــة وتنتشر كما تنتشر النـــار فى الغابات ، ولكن نتائجهـــا تـــكون اشـــد تدميرا .

وفى الوقت نفســـه يكون كل معســـكر أيديولوجي منقســـما على نفسه · فالمعكســـر الشرقى تكـــون المنافســـة فيه بين العقيدتين الشيوعيتين المتنافستين للاتحـــاد السوفيتى والصين وفى العالم غير الشيوعى ، تـــكون المنافســـة بين البلدان المتقدمـــة للاحتفاظ بميزاتها الاقتصادية الكبيرة والاحجـــام عن مساعدة جيرانها من البلـــدان المغلوبـــة على أمرهـــا .

ان هنـــاك اليـــوم أكثـــر مما يكفى من الديناميت الاجتماعى والسيكولوجى فى العالم الذى يقـــارن بالمخزون الهائـــل من الـــ « تى أن تى » واليورانيـــــوم والبلوتونيـــوم ·

أننا وان كنـــا لا نســـتطيع التنبؤ بصفـــة قاطعـــة ولكننا نســـــتطيع القيـــام بمجازفـــات ، ونســـتطيع توفير كميـــات من المواد الغذائيـــة فى انحاء كثيرة فى العالم لمكافحـــة الكوارث الطبيعيـــة ونقص المحاصيل والمجاعات ·

اننا نستطيع ان تستكشف ونطـــور ونحـــاول ونطبق اساليب قديمـــة وحديثة على نطـــاق واســـع لزيـــادة « تكوين رأس المـــال » فى جميع البلاد ، فى القطاعين العـــام والخاص ونستطيع أن نضيف هنا ايضـــا تكوين رأس المـــال غير المرئى فى شـــكل « بحث وتطوير » علمى وتكنولوجى وتكوين مهارات انتاجية وعـــادات عمل عن طريق التعليم ·

والى جانب ذلك نستطيع زيـــادة جهودنـــا لتطوير فـــروع بعينهـــا من التكنولوجيـــا التى يحتمل ان تكون هامة فى العقـــود القادمة ·

وتشـــمل هذه التطـــورات التى تـــكون هناك حاجـــة ملحة اليها ·

١ ـــ استغلال الطاقة الشمسية والموارد البديلة للوقود الحفرى ·

٢ ـــ نقـــل كميات كبيرة من الطاقـــة الكهربائية عبر مسافات طويلة حتى يتسنى اقامـــة محاطت نوويـــة وعاديـــة لتوليـــد الطاقـــة على مســـافات بعيدة عن المناطـــق الاستيطانية مثل الأقاليم القطبية ·

٣ ـ انتاج السلع والمهمات ذات نسب اعلامية اعلى « اى ذات دقة اكثر لوحدة المادة والوزن والطاقة مثل الترنزيستورات والدوائر المطبوعة والبطاقات الدقيقة والأجهزة الدقيقة المماثلة ذات الكفاءة الأعلى والتكاليف الأقل » ٠

٤ ـ اعادة تصنيع المعادن المستعملة وغيرها من المعادن النادرة بدون الاسراف فى استخدام الطاقة ٠

٥ ـ « خفض التلوث » الى حد كبير المقرون بالانتاج الصناعى واستخدام الطاقة ٠

٦ ـ البيوتكنولوجيات الخاصة بترميم الأرض بعد انشطارها نتيجة للمناجم او تآكل التربة ٠

ان التكنولوجيات الجديدة ليست هى كل المطلوب ، فبالاضافة اليها نحتاج الى تغيرات فى ثقافتنا وقيمنا وخاصة فى بلاد العالم المتقدمة والطبقات الماهرة والمهنية المفضلة فيها ٠ وجدير بالذكر اننا مازلنا نقيس الزيادات فى مستويات المعيشة الشعبية على الأسس الكمية المحسوسة للمادة والطاقة : سيارات أكثر وأكبر وآلات أكثر فى بيوتنا وطرق أكثر وأكبر ٠ ان هذا لا يمكن أن يستمر الى مالا نهاية ، وخاصة اذا كان لابد لنا ان نسير قدما نحو مساواة دولية أعظم ونصيب اكثر من الأشياء الطيبة فى العالم لكل انسان ٠ ولكن كيف يمكن أن نمضى قدما اذا لم يكن هناك امل كبير فى تحسين اكثر ؟ اننا ربما قد يكون لزاما علينا أن نعلم ان التحسين لا يحتاج الى التكبير دائما ٠ وقد تضطر الى ان نقيس مكاسبنا المستقبلية على أسس الخدمات والنوع الأفضل لا على اساس الأشياء ذات الأحجام الأكبر ٠ ولعلنا نشعر بحاجة الى ان نتعلم اننا بحاجة اكثر الى سماوات مشتركة وطرق سيارات أقل ومواقع معسكرات ٠ وطرق للدراجات اكثر وغرف للموسيقى وما الى ذلك ٠

وقد نتعلم بفضل حاسة الانتماء الجماعية عندنا ان نسعى الى تحقيق المزيد من التضامن الانسانى والحكمة اوالاقتصاد فى العمل من أجل القوة القومية والهيبة وزيادة العمل من اجل المجتمع الاسرى والصداقة الجماعية ٠

وقد تحتاج ان نتعلم فى عالم السياسة ان نتخطى فتنة المحافظة التى أسرت الناس الوفا من السنين وحجزتهم فى ذلك الممر القاتل الذى وصفه كتاب التراجيديا واليونانيون القدماء بالكوروس ، أننا بدلا من ذلك قد نتعلم اننا لا يمكن تحقيق نزعة حقيقية للمحافظة الا بواسطة

النمـــو والتغير والتكيف والتحـــول الذاتى الجزئى وبهذه وحدهـــا يســـــتطيع الأفـــراد والجماعات والشـــعوب ان تحافظ على هويتهم وتصبح المحافظـــة بذلك أمـــرا ممكنـــــا ٠

هـــل ســـيتعلم عـــدد كـــاف منـــا جميـــع هذه الأشـــياء وفى الوقـــت المناســـب ؟ ليس هنـــاك سبيل للتعلم بصفـــة قاطعـــة ولكن علينـــا ان نحاول ٠ ويبـــدو محتملا ان الانســـانية ستسرع الخطأ فى تطويرهـــا ولعـــل الثلاثة الأربـــاع الأولى من هذا القـــرن ستبدو هادئـــة اذا قورنـــت بالعقود القادمة ٠

ومع ذلك فاننا نعـــرف على الأقـــل شـــيئا من الواجبات المقبلة والمشـــاكل التى تواجهها ، لقـــد واجهت الانســـانية تحديـــات من قبـــل ، وقيـــل ان معرفة ما هى المشـــكلة يعنى الوصـــول الى منتصف الطريـــق نحـــو حلهـــا ٠ اننـــا نتعلم كيف نتبين مشـــاكل بقائنـــا المشتركـــة على هذا الكوكب ، واذا تناولناها بجديـــة الآن ، فان هنـــاك ما يدعونـــا الى ان نأمـــل فى اننـــا سنجد الحلول لهـــا والتصرف فى الوقت المناسب ٠

نبـــذة عن المؤلـــف

الـــدكتور كارل و . دويتش استـــاذ عـــلم الســـلم الدولى بجـــامعة هارفارد ، ورئيس رابطـــة عـــلم السياسة الـــدولية والرئيس السابق لجمعية العلوم السياســـية الامريكيـــة . وقـــد الف عـــددا من الكتـــب بمـــا فيهـــا ((القوميـــــة)) و ((المواصـــلات الاجتماعيـــة)) و ((اعصـــــاب الحكومـــة)) و ((القوميـــة وبدائلهـــا)) .

تحليـــل العلاقـــات الدوليـــة

يشرح هذا الكتاب العوامل الكثيرة التى تســاهم فى المحاولات المســتمرة التى تبذلهــا دولة من الدول « لتكييف العالــم وتكييف نفسها حسب أوضاعه » . وهــو يركـــز بصفة خاصـــة على التعديــلات الهامة التى كــان على دول العالم ان تقــوم بهــا فى العقــود الثلاثة الماضية وهى ـ القــوة النووية والمــوارد المحــددة ويقظــة الشــعوب والأجناس التى كانت غارقــة فى سباتها : ويتتبع الكتــاب التحــول من توازن القــوى القديــم الى السياسات الجديدة للجماعية الدوليــة ، ويبين الكاتب كيف ان عناصر سيكولوجيــة واجتماعيــة وعرفيـــة مقرونـــة بافكــار اقــدم عهــدا نابعــة من العلم والتاريــخ والاقتصـــاد . ويتنــاول الكاتب كذلك الاهتمامات البارزة فى العلاقــات الدوليــة ــ القــوة داخــل الدولة ، قــوة الدولة ، وتكوين السياســة الخارجيــة واســـباب الحــروب ووســائل منــع نشــوب الحروب ومجــال الشئون السياســـية وبخاصـــة فى عـــالم اليــوم .

محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٥
تمهيد	٧
الجزء الاول	١٣
الفصل الاول	
اثنا عشر سؤالا جوهريا	١٥
الفصل الثانى	
أدوات التفكير وبعض المفاهيم الاساسية	٢١
الفصل الثالث	
القوة والدولة القومية	٣١
الفصل الرابع	
حدود القوة : الرمز والواقع	٥٥
الجزء الثانى :	
الممثلون فى السياسة الدولية	٦٤
الفصل الخامس	
المجموعات والمصالح	٦٥
الفصل السادس	
قوة جماعات الصفوة	٨٠
الفصل السابع	
مجموعات تمثل مصالح تخدم جميع الاغراض	٨٨
الجزء الثالث	
عمليات الرقابة والصراع	٩٥
الفصل الثامن	
كيف تتحكم دولة فى نفسها ؟	٩٦
الفصل التاسع	
كيف تصنع السياسة الخارجية	١٠١

الصفحة:

الفصـــل العـــاشر
قطـــاع السياسة الخارجية ١٢٧

الفصل الحادى عشر
كيف تنشأ الصراعات بين الدول ١٤٥

الفصل الثانى عشر
الدبلوماسية والمحالفات الائتلافية ١٨٣

الفصل الثالث عشر
اخفاقات القيود واشكال الحرب ١٩٤

الفصل الرابع عشر
بعض البـــدائل عن التصعيد والحرب ٢٠٥

الفصل الخامس عشر
التكامل الدولى وفوق القومى ٢١٣

الفصل السادس عشر
الهيئات العالمية من أجل الاغراض العامة ٢٢٦

الفصل السابع عشر
المنظمات الاقليمية كطريق نحو التكامل ٢٤١

الفصل الثامن عشر
الاندماج تحقيقه والمحافظة عليه ٢٥٣

الفصل التاسع عشر
التكامـــل والتبعيـــة والمســـاواة : فى أى اتجـــاه يســـير العــــالم ؟ ٢٦٩

الفصـــل العشرون
بعض الآمـــال للمستقبل ٢٩٣
تحليل العلاقات الـــدولية ٣١٠
محتويات الكتــــاب ٣١١

رقم الايداع ٨٢/٣٢٩٧

ملتزمة الطبع والنشر
مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد فريد - القاهرة

الثمن ٢٧٥ قرشا